# الجهاد المقدس

## ضد الصليبيين حتى سقوط الرها

## ١٠٩٧م – ١١٤٤م

دكتور محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

١٩٩٠

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير – إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

# تقديم الكتاب

ليس من شك فى أن الغزو الصليبى لمنطقة الشرق الادنى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كان تجربة قاسية فى حياة المسلمين فى هذه البلاد ومحنة كبيرة هزت كيانهم ، فلما أسفر هذا الغزو عن مولد الامارات اللاتينية بالشرق وربط الاراضى المقدسة بالغرب الاوربى وإخضاعها للسيطرة الصليبية جاء ذلك صدمة كبيرة للقوى الاسلامية بالمنطقة وتحد لمشاعر المسلمين فى مختلف بقاع العالم الاسلامى .

ومهما يقال فى ملائمة الظروف وسنوح الفرصة للصليبيين لانجازهذا المشروع الكبير على حساب القوى الاسلامية المفككة المتنازعة ، فالذى لاشك فيه أن المسلمين حينئذ لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بفهم هذه التجربة أو هضمها أو حتى وضعها فى درجتها من الاهمية ولم يتنبهوا إلى ما يكفل لهم السلامة مع عدو كهذا وضح من البداية إنه ينفذ مخططا كبيرا للاستقرار الدائم فىالشرق ملتمسا أسباب البقاء فى هذا الوطن الجديد وهذه الظروف المواتية .

والواقع أن الصليبيين أفادوا كثيراً من الحالة المزرية التى تردت فيها القوى الاسلامية فى المنطقة إذ ذاك ، وما استتبع الزحف الصليبى من الهلع والذهول لدى كثير من تلك القوى ، فقاموا بارساء قواعد الامارات اللاتينية بشىء كبير من الجسارة والعناد تضاءلت أمامه جهود بعض الوحدات الاسلامية فى المقاومة والتصدى لهذه الحركة مبكراً ، فجاءت مقاومتها قليلة الاثر باهتة المفعول لم تحل دون وصول الصليبيين إلى غاياتهم .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أفاق المسلمون من هول الصدمة الاولى والاغفاءة التى أدت إلى فقد أجزاء من أراضيهم وإقامة بقع صليبية بين ظهرانيهم فكان رد الفعل عنـــدهم فى شكل مقاومة عاتية لهذا الاستقرار وجهادا ضد هذا العدو المغتصب ، تفاوتت قوتها ومداهـا من آن لآن ، ولكنها مع ذلك ظلت حاضرة لم تخمد نهائيـا حتى آتت كلها فى النهاية بطرد الصليبيين وتطهير الاراضى الاسلامية منهم نهائيا .

ولم يكن التحدى الذى وجه للمسلمين فى عقر دارهم ، أو مغالاة الصليبيين فى فى التنكيل بالمسلمين فى مذابح بشرية رهيبة وإبادة شبه جماعية فى الجهات التى نزلوا بها هى الاسباب الوحيدة التى تكمن وراء صحوة القوى الإسلامية وتعبئتها للحرب واعلانها الجهاد ضد هذا العدو ، وإنما جاء ذلك فى أغلبه استجابة لحالة التنبه والافاقة التى عاشها المسلمون عقب الاغفاء التى تمكن خلالها الصليبيون من إذلال كافة القوى الاسلامية واصابتها فى هيبتها وكرامتها.

وموضوع الجهاد الدينى ضد الصليبيين حتى سقوط الرها سنة ١١٤٤م يتناول هذه الصحوة الاسلامية التى شهدها النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى ( السادس الهجرى ) والتى تضمنت جهود المسلمين فى مقاومة الخطر الجاثم على صدورهم ، منذ زحفه على بلاد الشرق سنة ١٠٩٧ وفى السنوات التى أعقبت استقراره فى هذه البلاد، ثم بعد ذلك على عهد السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى ثم أخيراً جهود زنكى ضد الصليبيين واسقاطه الرها سنة ١١٤٤م تلك هى الخطوط العريضة لهذا الموضوع سبقها تمهيد تناول حالة الشرق الإسلامى قبل الغزو الصليبى دعت اليه حاجة اظهار مدى التفكك والاضمحلال الذى أصاب القوى الاسلامية فى الشرق ومدى استعداد هذه القوى لتحمل أعباء الجهاد والحرب المقدسة ضد الصليبيين .

والواقع أن دراسة مثل هذا الموضوع ، وتناول هذه الحقبة بالذات كان يحتاج إلى شيء من الاقدام وعدم التهيب ، لما يتوقعه الباحث من صعوبات وماتحتاجه مثل هذه الدراسة من صبر وجهد، والتزام بمراعاة وجهة النظر المعارضة وحساب أهميتها في مثل هذه الدراسة التي تتناول جانبا اسلاميا وجانبا صليبيا لامعنى فيه للتفرس في ملامح جانب دون الآخر أو النظر فيما كتبه مؤرخو هؤلاء وغض الطرف عما كتبه مؤرخو أولئك ، وذلك لاشك يضع الباحث أمام مهمة عسيرة وشاقة هذا فضلا عن تداخل الأحداث في هذه الحقبة وتلاحقها وتشابكها في شيء من التعقيد لا ييسره سوى وفرة في المثابرة وكثرة في التأني ودقة في المتابعة والتنظيم .

ورغم إيماني بذلك كله فقد أقدمت غير متهيب على هذه الدراسة آملا أن أوفق في إظهار جوانب هذه الحقبة من الكفاح الاسلامي ، وأبرز معالم قضية الحرب المقدسة ضد الصليبيين التي شغلت المسلمين في ذلك الوقت وجذبت أبصارهم وأجلى ما غمض منها بما يدفع عن المسلمين شيئا من تهمة الاهمال الخطير تجاه الاستقرار الصليبي في النصف الأول من القرن المذكور، آخذا بأطراف الروايات الأصلية عربية أم صليبية ، دون تغليب العاطفة الدينية أو التردي في هاوية الميل أو الهوى ، أو التماس في مثل هذه القضية وسيلة لابراز نزعة ترمى إلى تمجيد أعمال المسلمين أو تناولها بشكل يضفي عليها شيئاً من المبالغة أو التهويل يخرج بها عن حقيقتها وواقعها .

لهذا كله حاولت جاهداً الالتزام بالحيدة والأمانة ، وعدم التركيز على جبهة دون الثانية أو عرض الموضوع من وجهة نظر فريق دون آخر ، ولا أدرى هل وفقت في هذا أم فاتني شيء منه، ولكني على كل حال عملت جاهدا على أن تخرج

هذه الدراسة فى إطار العلاقة بين الجانبين الاسلامى والصليبى ، بكل ما فيها من من تحفز وترقب وقوة وضعف بحيث إذا عولجت الجبهة الصليبية يكون ذلك خدمة للهدف من تناول الجبهة الاسلامية ، وإذا عولجت الجبهة الاسلامية فانما بقدر ما استجابت لما حدث فى الجبهة الصليبية .

إذن هى محاولة أمينة لعرض تجربة من أهم التجارب التى مرت بالمسلمين فى تاريخهم الطويل بورك منها ما خلص لوجه الجهاد الحق ، وما صفت فيه النية وابتغى به الصالح العام الاسلامى ، وما كان أقل ما يبتغى ذلك ، ونوه فيها بما لم يخلص لوجه الجهاد ، وما لم يبتغى به الصالح العام ، وما كان أكثر ما يسعى البعض إلى ذلك . إذن فهى دراسة واعية لقضية كانت إذ ذاك بين مد وجزر ، ارتقت فى بعض أدوارها وسمت إلى مراتب عالية فى وسائلها وأهدافها ، ثم هبطت فى أدوار أخرى إلى رتب أقل مما يتوقع لها ويرجى منها . تلك هى حركة الجهاد الدينى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى .

وعلى الرغم مما بذل فى سبيل ذلك من جهد لاخراج الموضوع فى هذا الاطار إلا أنى مع ذلك لا أستطيع الزعم بأنه جاء عملا كاملا متكاملا يتناول كل الجوانب ويبلورها تماما ، وإنما أقرب إلى القول أنه مجرد محاولة مبتدئة ليست إلا لبنة صغيرة من لبنات البحث العلمى فى هذا المجال أرجو أن أتمكن من متابعتها فى دراسة أبعد وأعمق وأوسع مجالا ، وأرجو ألا أكون قد أهملت فى هذا الموضوع ـ عن قصد ـ شيئا كان بوسعى تناوله أو أن يكون هذا البحث قد افتقد ما حاولت ابرازه من الاجتهاد والقياس والتحليل والاستنتاج ، حسبى أنى لم أدخر وسعا فى هذه الناحية ، مع محاولة الالتزام بالدقة والأمانة ما وسعنى الجهد ، والحكم بقدرات الباحث المحايد بقدر ما استفدت من المصادر الأصلية عربية أم صليبية ، وما أمكننى

الاطلاع عليه من المخطوطات ، مع الاسترشاد بما كتبه المؤرخون المحدثون بالعربية والاجنبية .

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذى الاجل الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة - ورائد الكتابة فى الحروب الصليبية فى شرقنا العربى بأسره وأول مؤرخ عربى محدث يكتب موسوعة كبيرة عن الحركة الصليبية كصفحة مشرقة من صفحات الجهاد العربى كرمته من أجلها الدولة بإحدى جوائزها الكبرى ، فقد كان موضوع هذا الكتاب فى أصله رسالة تقدمت بها لكلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير تحت إشراف سيادته، حظيت طوال إعدادها برعايته وحسن توجيهه وإرشاده وسعة صدره ، وأجازتها لجنة برئاسة سيادته وعضوية أستـــاذنا الكبير المرحوم الدكتور محمد مصطفى زياده وأستاذى الجليل أطال الله فى عمره - الاستاذ الدكتور عمر كمال توفيق بتقدير ممتاز، وها هى اليوم أقدمها بين يدى القارىء بعد أن تناولتها بالتعديل والتنقيح راجياً أن أكون قد وفقت فى معالجة هذه التجربة الحافلة فى تاريخ العرب والمسلمين فى منطقة الشرق الادنى ، وفى كفاح الامة العربية حيال موجة من موجات الغزو الاجنبى للمنطقة . كما أرجو أن أكون قد نجحت فى رسم معالم هذه الحقبـــة وإبراز خطوط هذا الجهاد المقدس أمام شباب هذا الجيل الذى يخوض تجربة مماثلة إلى حد بعيد لصد غزو صهيونى آثم يحاول أن يكرر مأساة من الماضى البعيد مستفيداً من أوضاع مماثلة لما حدث فيها ، ويكسر إرادة من اغتصب أرضهم وحقوقهم واعتدى على حرياتهم وكرامتهم . وكما سيرى القــارىء فى صفحات هذا الكتاب تداعى البنيان الصليبى وتآكله ثم بداية انهياره على يد

عماد الدين زنكى ، سيوفق بإذن الله ـ رجالنا فى اقتلاع الكيان الصهيونى الآثم ووضع حد لهذه الموجة الجديدة الآثمة .

والله نسأل أن يكون ذلك قريباً حتى تشفى الصدور وتندمل الجراح ، ويعود السلام إلى ربوع هذا الوطن العزيز .

والله ولى التوفيق ...

محمود محمد الشيخ

الاسكندرية فى ٢٥ / ٧ / ١٩٧١

# الفصل الأول

## أوضاع العالم الاسلامى فى المشرق قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ إلى الشـام

ا ـ تفكك القوى الاسلامية فى المشرق .

ب ـ الخلاف المذهبى بين السلاجقة والخلافة العباسية من جهة والخلافـة الفاطمية من جهة اخرى .

ج ـ تفتت بلاد الشام الى وحدات سياسية صغيرة واثر ذلك .

د ـ عدم ادراك القوى الاسلامية لحقيقة الخطر الصليبى فى اول امره .

# أوضاع العالم الإسلامى فى المشرق عند وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ إلى الشام

## أ ـ تفكك القوى الإسلامية فى المشرق

استطاع الصليبيون قرب نهاية القرن الحادى عشر الميلادى أن يتوغلوا فى قلب العالم الإسلامى ويقتطعوا جزءا ثمينا من أراضيه ويقيموا لأنفسهم لأول مرة الأمارات اللاتينية التى فرضت بواقع وجودها وضعا شائكا وغريبا بالنسبة للكيان الإسلامى فى هذه المنطقة .

ولا شك أن نجاح الصليبيين فى ذلك لم يكن يرجع كلية إلى قوتهم بقدر ماكان يرجع إلى ضعف المسلمين إذ ذاك وتفكك قواهم ، بل أن الدولة السلجوقية التى غدت إبتداء من النصف الثانى للقرن الحادى عشر الميلادى أكبر قوة إسلامية فى المشرق ، وقدر لها أن تقف فى وجه الخطر البيزنطى فى المنطقة ، وتفرض حمايتها على الخلافة العباسية فى بغداد ، وتدفع بدماء فتية فى جسد العالم الإسلامى ، وتبعث فيه روحا جديدة ، هذه الدولة غدت فى العقد الأخير من هـــذا القرن فى حالة فوضى سياسية وانقسام ونزاع أسرى أضعفها كثيراً وأفقدها قدراً كبيراً من هيبتها وأوجد بالتالى نوعا من الاضطراب سهل للصليبيين غزوهم الشام والأراضى المقدسة .

ولم تكن بقية القوى الاسلامية فى المشرق بمنجى من عوامـــل التفكك والضعف والإنقسام الذى أصاب السلاجقة ، إذ لم تكن الخلافة العباسية فى

بغداد ، أو الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، أو البيوت العربية والتركمانية التى قامت فى جهات متفرقة فى شمال العراق وبلاد الشام ، فى حالة تمكنها من الوقوف فى وجه الاخطار التى أحدقت بها جميعا . نظراً لضعفها وما نشب بين حكامها وأمرائها من روح العداء والفرقة ، فى وقت كانت فيه أشد احتياجا إلى التماسك والتكاتف أمام تلك الاخطار . لذا كان سقوط الاراضى المقدسة فى أيدى الصليبيين وإقامة الامارات اللاتينية فى ذلك الوقت نتيجة حتمية لما أصاب القوى الإسلامية من فوضى وإضطراب فى الامور السياسية والدينية . وكان مدعاة لقيام حركة الجهاد الدينى فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى لمقاومة الاستقرار والتوسع الصليبى فى المنطقة .

وحتى تتضح الصورة وتكتمل جوانبها يحسن عرض حالة المشرق الإسلامى قبل وصول الصليبيين لنرى مدى استعداد القوى الاسلامية للقيام بدورها أمام الغزو الصليبى وتحمل أعباء الجهاد المقدس ضد هؤلاء الغزاة عند وصولهم الى الشام وفى السنوات التى تلت استقرارهم فيها .

١ - السلاجقة :

كان لظهور دولة السلاجقة كقوة كبيرة فى المشرق الإسلامى آثار هامة بالنسبة للمسلمين فى منطقة الشرق الادنى ، كما كان لتفكك هذه الدولة وضعفها نتائج كانت أبلغ أثراً فى تاريخ المنطقة عامة ، ومن غير شك إرتبطت حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين بحالة السلاجقة ومدى استعدادهم لتحمل أعبائها ، الامر الذى يجعلنا مضطرين لدراسة الظروف التى صاحبت قيام دولتهم ، وكذلك العوامل التى أدت إلى تفككها ، فى الوقت الذى أخذت فيه جموع الصليبيين تزحف إلى الشرق :

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق بن تقاق نزحوا أول الأمر من منطقة القرغيز فى تركستان إلى بلاد ماوراء النهر، حيث عاشوا فترة واختلطوا بالمسلمين واعتنقوا الإسلام وتعصبوا له كثيرا [١] . وبعد وفاة سلجوق ، رحل السلاجقة إلى اقليم بخارى ، على مشارف مملكة السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ( ٩٩٨ - ١٠٣٠ م ) وكان هذا قد استطاع أن يضع نهاية لحكم الدولة السامانية فى ايران ، ويدعم حكمه ،بعد أن اعترف به الخليفة العباسى فى بغداد ، ومن ثم أخذ يعمل على توسع ملكه فى شرق ايران وفى الهند ، واضطر السلاجقة إلى أن يدينوا بنوع من التبعية لهذا السلطان فى أول الامر ، إلا أن ازدياد قوتهم ، وازدياد نفوذ زعيمهم اسرائيل - الابن الأكبر لسلجوق - أقلق السلطان الغزنوى كثيراً ، فما لبث أن قبض عليه وأودعه السجن بقلعة كالنجر بالهند حيث مات بعد سبع سنين فى سجنه [٢] . واستطاع ابنه قتلمش الفرار ولحق بقومه فى اقليم بخارى وأخذ فى استثارة هممهم للثأر من هذا السلطان ودولته .

ويبدو أن السلطان محمود الغزنوى اعتقد بعد القبض على زعيم السلاجقة وخلودهم الى السكينة شيء ما ، أنهم أصبحوا أقل خطرا على دولته ، بدليل أنه سمح لهم بعبور نهر سيحون والاستقرار فى خراسان ، قرب اقاليم نساحيث عاشوا بقية حياة هذا السلطان فى شبه سلام [٣] . مع أن قوتهم كانت آخذة

1. Cam. Med. Hist. vol. 4. 303
2. Browne : Account of a rare, if not unique, manuscript history of the seljuqs., in Journal of the Royal Asiatic Society, July 1902. p. 586-7.
3. Browne: op. cit. p. 588

فى الازدياد يوما بعد يوم ، وكان ميخائيل الابن الثانى لسلجوق قد ولد له أثناء ذلك : جغرى بك ، وطغرلبك .

وبعد وفاة السلطان محمود الغزنوى ، وتولى ابنه مسعود ، استفحل خطر السلاجقة بالنسبة لممتلكات الغزنويين فيما وراء النهر ، فى الوقت الذى شغل فيه هؤلاء بفتوحاتهم فى الهند ، فقد أحرز السلاجقة انتصاراتهم على جيوش السلطان الغزنوى وعلى ولاته بخراسان واستولوا على طوس ، ثم دخلوا نيسابور عاصمة خراسان فى يونيو سنة ١٠٣٨ ( رمضان سنة ٤٢٩ هـ ) بقيادة زعيمهم طغرل بك الذى مالبث أن أعلن نفسه ملكا على السلاجقة . ولما تصدى لهم السلطان مسعود نفسه أنزلوا به الهزيمة فى مايو سنة ١٠٤٠ م (شعبان ٤٣١ هـ)[١] وهكذا أرسى السلاجقة دعائم دولتهم وغدا لزاما على الغزنويين التوسع نحو الشرق بعد أن فقدوا الشطر الغربى من دولتهم فى ايران .

اتسعت دولة السلاجقة ، فما لبثوا أن سيطروا على معظم بلاد ايران وشمال العراق وأرمينا وآسيا الصغرى ، بعد أن أعلنوا أنهم فى طاعة الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وذلك فى رسائلهم اليه التى ضمنوها الأسباب التى حدت بهم الى مناهضة السلطان الغزنوى وقضائهم على نفوذه كما ضمنوها ولائهم التام للخلافة العباسية ، وطلبهم اعتراف الخليفة بهم وبما غدوا فيه من القوة[٢]

ولم يلبث طغرل بك نفسه أن استولى على الرى (١٠٤٢-١٠٤٣) ، وعلى أصبهان ( ١٠٥٥ م ) وجعل منها عاصمة لدولته وأخيراً دخل بغداد عام ١٠٥٥ م

---

(١) البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ٦ - ٧ ( تحقيق هوتسما )

(٢) Browne : op. cit. p. 591

( ٤٤٧ هـ ) ، حيث أمر الخليفة العباسي بإقامة الخطبة له على المنابر ، وقبض طغرل بك على الملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه ( ١٠٤٨ - ١٠٥٥ م ) وأرسله إلى السجن بقرب الرى[1]. وهكذا وضع طغرل بك الخلافة العباسية تحت حماية السلاجقة ، وفى ذلك نصر المذهب السنى .

وبينما عمل طغرل بك على تدعيم دولته ، كان أفراد البيت السلجوقى قد أخذوا يمدون نفوذهم فى كافة الاتجاهات على حساب المسلمين والبيزنطيين ولما أثار ابراهيم بن ينال - أخو طغرل - فتنة فى وجه أخيه بخروجه عليه ومفاوقته إياه طلبا للسلطة ، إضطر طغرل بك إلى القضاء عليه ، وقتله ووضع حداً لمغامرته ، وبعد ذلك دخل بغداد حيث قضى على الفتنة التى أثارها البساسيرى بمحاولته القضاء نهائيا على الخلافة العباسية والمذهب السنى[2] - كما سيلى - وهكذا قدر لطغرل بك أن يمهد الطريق لمن خلفوه من أسرته ليقوموا بوضع الدولة على طريق القوة والمجد .

وتستند شهرة ألب أرسلان ابن أخى طغرل بك وخليفته (١٠٦٣-١٠٧٢ م) على ما أبداه من نشاط ضد الدولة البيزنطية ، وانتصاره على قواتها الكبيرة فى مانزكرت ١٠٧١ م ، وإلى ما قام به من جهود فى مد حدود الدولة وإخضاع الخارجين عليها بمعاونة وزيره الكبير ذائع الصيت نظام الملك ، وبفضل هذا الوزير تمهد الطريق لملكشاه بن ألب أرسلان (١٠٧٢-١٠٩٢ م) كأعظم سلاطين السلاجقة على الاطلاق . وإلى ملكشاه يرجع الفضل فيما تبوأته الدولة السلجوقية من مكانة ، كأكبر قوة إسلامية فى المشرق فى ذلك الوقت ، حتى أنه لو قدر

---

(١) البندارى: تواريخ آل سلجوق ص ١٠

(٢) Camb. Med. Hist. vol. 4 p.p. 304-5

لهذا السلطان أن يشهد الحروب الصليبية لاصبح من الصعب التمكن بمصير الصليبيين وأطماعهم فى الشام والأراضى المقدسة .

**السلاجقة والشام:**

كان المجال المكانى لإمتداد نفوذ السلاجقة - بعد أن سيطروا على بغداد وشمال العراق ومعظم آسيا الصغرى وأرمنيا بفضل مادفعوه من جموع التركمان المتحمسين ، وبفضل دأب أفراد البيت السلجوقى على إقامة ممالك خاصة بهم وولايات تابعة لهم ، كان هذا المجال المكانى يتمثل فى بلاد الشام وهى التى تعنينا على وجه الخصوص كمسرح للأحداث الهامة التى شهدها العصر .

فى الوقت الذى شهد الشرق ظهور قوة الأتراك السلاجقة ، كانت بلاد الشام تتنازعها قوى مختلفة هيمنت على مقدراتها ، كان أبرزها الخلافة الفاطمية وبقايا نفوذ البيزنطيين بعض الإمارات والقبائل العربية فى بعض جهاتها لذا وجه السلاجقة اهتمامهم منذ البداية إلى تقويض دعائم السيادة الفاطمية فى بلاد الشام من جهة والحد من نشاط الدولة البيزنطية فى شمال الشام ، وغيرهما من القوى من جهة أخرى ، وقد وفقوا فى ذلك إلى حد بعيد

ففى عام ١٠٧١ م ( ٤٦٣ هـ ) نزل السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب وأخضع أميرها محمود ابن صالح المرداسى ، وربطه بالتبعية له(١) . ثم تحول إلى البيزنطيين فانتصر على قواتهم فى مانزكرت إنتصارا باهرا فى نفس العام ، وجعل

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٩ . ويلاحظ أن ألب أرسلان لم يقض على الاسرة المرداسية حينئذ نهائيا ، بل ظل محمود المرداسى بها كتابع للسلطان : Grousset Hist. de l'Armenie p. 627.

هذه الدولة فى حاجة إلى وقت غير قصير قبل أن تفيق من هول الضربة القاسية [١] .

أما فى جنوب الشام فقد وفق مقدم الأتراك الغز ويدعى أتسز بن أوق ( الاقسيس ) - فى نفس العام - فى الاستيلاء على بيت المقدس والرملة من يد القوات الفاطمية ، ثم انتزع منهم دمشق أيضا عام ١٠٧٥ م ( ٤٦٨ هـ ) ، [٢] وبدا أن النفوذ السلجوقى قد بدأ يعرف طريقه إلى هذه البلاد لأول مرة .

وقد شجع النجاح الذى أحرزه أتسز فى أملاك الفاطميين فى دمشق وفلسطين على محاولة غزو مصر نفسها ، فخرج فى العام التالى ( ١٠٧٦ م ) - قاصدا مصر ، عازما على فتحها ، إلا أنه لقى هزيمة منكرة على يد أمير الجيوش بدر الجمالى ، فعاد منهزما إلى الرملة ، ومنها إلى دمشق فى حالة سيئة [٣] .

وليس هناك شك فى أن ألب أرسلان فكر أيضا فى غزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بها إلا أن إهتمامه بحرب البيزنطيين ، وإخضاع الخارجين عليه صرفه عن ذلك ، والدليل على تفكيره فى هذا الموضوع ترحيبه باقتراح ناصر الدولة الحسين بن حمدان الذى قاد حركة ضد الخليفة المستنصر الفاطمى ترمى إلى الدعوة للخلافة العباسية فى ظل رعاية السلاجقة سنة ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) على أن يؤول اليه حكم مصر ، ولكن إنشغال ألب أرسلان أوقف المشروع ، ثم فشلت حركة ناصر الدولة الحسين كلية وانتهت مغامرته [٤] .

ولما تولى عرش الدولة السلجوقية السلطان ملكشاه عام ١٠٧٢ م ، حاول تحقيق الفكرة ذاتها ، فسير أخاه تاج الدولة تتش - مؤسس البيت السلجوقى

---

(١) Camb. Med. Hist vol. 4. p. 397

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٢٢

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١١ - ١١٢

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ (نشر هنرى ماسيه)

بالشام - عام ١٠٧٧م وأقطعه كل ما يفتحه من البلاد ، وأمر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل بمعاونته على إفتتاح الشام، ولاشك أن فكرة القضاء على السيادة الفاطمية ، بل وغزو مصر نفسها ، كانت تراود ملكشاه ، وربما لو امتد به الأجل لعمل على تحقيقها ، إذ أنه توفى فى ريعان شبابه ، والدولة أكثر ماتكون عظمة ، وأكثر ما تكون قوة ، ويذكر ابن القلانسى أن ملكشاه حين توجه من اصفهان إلى بغداد لآخر مرة فى حياته عام ١٠٩٢ م ( ٤٨٥ هـ ) قبل وفاته مباشرة ، كان فى عزمه قصد مصر وتملكها [١] ، فحال الموت بينه وبين ذلك .

بدأ تاج الدولة تتش بالعمل فى الشام ، فتقدم ناحية حلب ، وحاصرها بمساعدة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، مدة ثلاثة أشهر عام ١٠٧٨ م ( ٤٧١ هـ ) إلا أنه اضطر إلى رفع الحصار عنها لانصراف مسلم عن معونته [٢] من ناحية ، وبسبب تطور الأحداث فى دمشق من ناحية أخرى . إذ أن اتسز كان يعانى نتائج حملته الفاشلة على مصر ، فقد تشجع أمير الجيوش بدر الجمالى ، وأرسل حملة لانتزاع دمشق من يده ، وشرع الفاطميون فعلا فى محاصرته بها ، مما دفعه إلى الاستنجاد بتتش ووعده بتسليم البلد اليه ، فسار تتش إلى دمشق وتسلمها ، وقام بقتل اتسز ، ربما خوفا من أن تحدثه نفسه بمنازعته . وصار تتش بذلك يملك أواسط بلاد الشام [٣] ، كما آل اليه حكم بيت المقدس والرملة

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٥٧ (نشر الدهان) .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٥ .

بحكم تبعيتها السابقة لاتسز ، فأناب عنه ببيت المقدس الامير أرتق التركمانى .

على أن شرف الدولة مسلم بن قريش - وهو من الأسرة العقيلية العربية التى حكمت الموصل زمنا - أخذ يعمل على بسط نفوذه على الشام والحد من نفوذ السلاجقة بتلك الجهات ، كما طمع فى ضم حلب إلى ملكه ليكون جبهة قوية تضم الموصل وحلب ، لذا أخذ فى مدأهل حلب بالمعونة لتصمد أمام ضربات تتش ، الذى عاود حصارها ، ومابرح يحاول بسط هيمنته على بلاد الشام كلها ، وعندما فشل تتش فى الاستيلاء على حلب ، تقدم شرف الدولة مسلم وتسلم حلب عام ١٠٧٩ م من نقيب الأحداث بها [١] ، الشريف حسن بن هبة الله المعروف بالحتيتى العباسى ، والذى برز خلال تلك المصادمات . وبذلك انتهى حكم آل مرداس فى حلب وأصبح مسلم أمير الموصل وحلب ، وأقوى رجل فى شمال الشام والجزيرة .

ولعل ذلك مما شجعه على محاولة انتزاع دمشق من يد تتش ، مستعينا فى ذلك بتحالفه مع الفاطميين [٢] ، وكان تتش قد شرع فى غزو الساحل الشامى وحاول الإغارة على أنطاكية ، فانتهز مسلم هذه الفرصة وجمع جيوشه من العرب والأكراد وسار إلى دمشق فى نهاية عام ١١٨٢ م ( ٤٧٥ هـ ) ، فلما علم تتش بذلك عاد مسرعا إلى دمشق ليمنع مسلم عنها .

صمدت دمشق فى وجه مسلم ، وقاتل أهلها قتالا شديدا حتى كاد مسلم ينهزم ، لولا ثباته والتفاف بعض جنده من العرب حوله ، وفى نفس الوقت لم تصل

---

(١) الأحداث هم رجال الشرطة ، أو هم رجال الحرس الاقليمى فى العصور الوسطى ... دكتور محمد حلمى أحمد : هامش ص ٨٥ من كتاب الروضتين لابى شامه ج ١ ق ١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٢

معونة الفاطميين المرتقبة ، فاضطر مسلم فى النهاية إلى رفع الحصار عنها ، تحت وطأة هذه الظروف ، ولما أتاه من أخبار عن اضطراب الأحوال فى حران التابعة لملكه [1] .

وقد ظل الأمل يراود شرف الدولة مسلم فى القضاء على النفوذ السلجوقى ببلاد الشام بعد عودته ، بالرغم من تظاهره بطاعة السلطان ملكشاه ، إذ لم يكد يفرغ من حملته على دمشق ومناهضة سلاجقة الشام حتى دخل فى صراع مع سليمان بن قتلمش ، وهو زعيم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، والذى زج بنفسه فى الصراع فى شمال الشام حينئذ . ذلك أن سليمان هذا ـ وهو صاحب الجهود العظيمة فى إقامة الحكم السلجوقى فى آسيا الصغرى ـ كان قد سار إلى الشام عام ١٠٨٥ م ( ٤٧٧ هـ ) ، وباغت أنطاكية منتهزا فرصة الاضطرابات التى حدثت بهذه المدينة فى ذلك العام واستولى عليها من يد صاحبها الأرمنى فيلاريتوس [2] .

وكان فيلاريتوس قد قام بحكم أنطاكية كتابع لشرف الدولة مسلم بن قريش وقبل أن يدفع له مبلغا من المال رمزا لتلك التبعية ، فلما ملك سليمان المدينة أرسل اليه مسلم يطلب ماكان يؤديه فيلاريتوس من المال ، ويحذره معصية السلطان ملكشاه فكان رد سليمان أنه فى طاعة السلطان والخطبة له والسكة باسمه وأما ماكان يحمله صاحب أنطاكية فانه كان كافرا وكان يحمل جزية رأسه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٨١ ( عمر الدهان ) .

(٢) كانت أنطاكية تابعة للبيزنطيين ، حتى قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ فسارع أهلها من الارمن إلى تسليمها إلى فيلاريتوس :

Grousset : L'empire du Levant p. 179 — 180.

Runciman : A History of the Crusades, I p. 75.

وأصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئا »[١] . فأصبح الصدام بين الطرفين واقعا لامحالة فالتقيا قرب أنطاكية فدارت الدائرة على شرف الدولة مسلم وقتل في المعركة في يونيو سنة ١٠٨٥ م وسار سليمان إلى حلب للاستيلاء عليها فحاصرها ثم مالبث أن انصرف عنها .

وبعد مقتل شرف الدولة مسلم غدا الجو ممهدا للسلاجقة لتوطيد حكمهم في شمال الشام ، ومن ثم دخلت حلب من جديد في دائرة الصراع بين السلاجقة أنفسهم . سلاجقة الروم ، وسلاجقة الشام ، وبرز الحتيتي في هذا الدور من جديد وسير أمورها ريثما يتم الوضع وتتكشف الامور . ولما بعث اليه سليمان بن قتلمش يطلب تسليم المدينة ، استمهله الحتيتي حتى يكاتب السلطان ملكشاه وأرسل في نفس الوقت إلى تاج الدولة تتش بدمشق يستدعيه ، ويعده بتسليم البلد اليه فسار تتش شمالا إلى حلب وسار سليمان مجدا اليه ، والتقى الجيشان بموضع يعرف بعين سلم ١٠٨٧ م ( ٤٧٩ هـ ) ، ودبر ارتق عسكر تاج الدولة أحسن تدبير ،[٢] فانهزم سليمان بن قتلمش في المعركة وقتل ، وملك تاج الدولة عسكره وسواده .

وهكذا خلا شمال الشام من قوتين كبيرتين كان من الممكن أن يلعب كل منهما دورا بارزا أبان الحروب الصليبية التى بدت نذرها بعد ذلك بسنوات قليلة ، وأعنى بهما شرف الدولة مسلم وسليمان بن قتلمش . فقد ولى الموصل بعد مسلم أخوه ابراهيم بن قريش ، ولم يستطع أن يؤدى دور مسلم في أحداث تلك

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٧

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦ – ٩٧ ، وعين سيلم عند ياقوت موضع قريب من حلب معجم ج ٣ ص ٧٦٣ .

المنطقة بل أنه سرعان ما انهار وخاصة أمام غزو تتش - كما سيلي - أثناء حرب الوراثة على السلطنة السلجوقية بعد موت ملكشاه. كما لم يستطيع قلج أرسلان ابن سليمان وهو صبي أن يملأ مكان والده أيضا في سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى مما أضعف جبهة الأتراك هناك [١] وسهل بالتالي للصليبيين عبورهم إلى بلاد الشام والأراضي المقدسة.

وقد ظلت حلب مركز الصراع بعد مقتل سليمان بن قتلمش، لأن تتش لم يهدأ أن تذهب جهوده عبثا بعد أن فرغ من سليمان، فبادر بمحاولة الاستيلاء عليها إلا أن الحتيتي اعتذر عن ذلك، واحتج بأن كتب ملكشاه وصلته بتجهيز العساكر إليه. [٢] مما دفع تتش إلى التواطىء مع أحد حراس الأبراج بها فسهل له دخول المدينة، ولكنه مع ذلك لم يستطيع الاستيلاء على القلعة الكبيرة التي اعتصم بها سالم بن مالك بن بدران العقيلي، رغم محاصرته سبعة عشر يوما، وفي ذلك الوقت كان ملكشاه يقترب من المدينة، فلما علم تتش بذلك رحل عنها عائدا إلى دمشق. ولم تهدأ الأحوال بشمال الشام إلا بوصول السلطان ملكشاه وإقراره الأوضاع بها وحيلولته دون استفحال أطماع أخيه تاج الدولة تتش في إقامة دولة سلجوقية قوية في تلك البلاد.

وكان وصول ملكشاه إلى بلاد الشام عام ١٠٨٧ م بداية مرحلة جديدة في هذه البلاد لأنها عرفت نوعا جديدا من الاقطاع السلجوقي الذي استحدثه ملكشاه وكان له نصيب في تفتت الامبراطورية الكبيرة، فقد دانت له الامارات المستحدثة، طالما كان على قيد الحياة - بحكم قوته وهيبته - ولكنها

---

(١) Runciman: A History of the Crusades .I. P. 78.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩

مالبثت أن طرحت طاعة السلطنة حينما أحست ضعفها وإنقسامها بعد اختفائه من مسرح الأحداث .

فعندما خرج ملكشاه من الموصل استولى فى طريقه على حران واقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم العقيل ، كما ملك الرها وكانت بيد فيلاريتوس أيضا [١] . وأعطاها للامير بوزان ، واستولى على قلعة جعبر ، ثم عبر الفرات إلى حلب وأقطعها الحاجب قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى [٢] ثم أخذ أنطاكية من وزير سليمان بن قتلمش ومنحها لياغى سيان أحد قواده الاتراك وهكذا أقام ملكشاه مجموعة من الامارات السلجوقية التى ارتبطت بالتبعية له والتى ظلت على ولائها للسلطنة حتى وفاته فى عام ٤٨٥ ﻫ (١٠٩٢م) .

ولما كان ملكشاه بحلب أرسل اليه الأمير نصر بن على بن المقلد بن منقذ الكنانى صاحب شيزر ، ودخل فى طاعته ، وسلم اليه اللاذقية وفاميه وكفر طاب [٣]

وهكذا حرم ملكشاه أخاه تاج الدولة تتش من الإستيلاء على الشام وبسط نفوذه عليه بعد أن أصبح قاب قوسين من ذلك ، واضطره الى القنوع مؤقتا بدمشق وبيت المقدس . غير أن تتش لم يستسلم كلية لهذه التعديلات إذ

---

(١) Grousset: L'empire du Levant. P. 180.

وابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٠ — ١٤١ (احداث سنة ٤٧٩ ﻫ)

وابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١

ويذكر ابو شامة (الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٠) ان صاحبها كان قد باعها للروم بمبلغ عشرين ألف دينار .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠١

ابوشامه : الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦١

ذهب اليه ببغداد عام ١٠٩١ م ، ( ٤٨٤ ﻫ ) وطلب السماح له بالتوسع على حساب الفاطميين ، وغزو مصر وامتلاكها من أيديهم ، فأذن له ملكشاه بذلك وأمر قسيم الدولة آقسنقر وبوزان أن يسيرا فى خدمته وأن « يطيعاه على هذا الغرض » . [١]

وكانت ثمرة هذا التعاون أن استولى تتش بمساعدة آقسنقر وبوزان على مدينة حمص عام ١٠٩٢ م ، وكان صاحبها ابن ملاعب قد أساء السيرة فيها فانتزعها تتش منه ، ثم سار إلى عرقة فملكها عنوة ، كما استولى على أفامية وحاصر طرابلس ولكنه مالبث أن انصرف عنها .

وطبقا لهذه التغييرات التى شهدتها المنطقة نجد أن السيادة السلجوقية امتدت حتى لتكاد تشمل بلاد الشام بأكمله ، واستتبع ذلك انحسار نفوذ بقايا الأسر العربية كثيرا وارتبطت بنوع من التبعية للسلطان ، كما تقلصت السيادة الفاطمية أيضا ، وفشل مشروع سلاجقة الروم فى التدخل فى شمال الشام وربطه بسلطتهم بآسيا الصغرى . وباستثناء بعض المدن الساحلية التى بقيت فى أيدى الفاطميين . وبعض البيوت العربية والتركمانية ، نجد السيادة السلجوقية قد عمت المنطقة سواء أكانت تابعة للسلطان نفسه ، أم تابعة لأخيه تتش ، إذ أصبحت حلب وأنطاكية والرها وحران وما أضيف اليها من أقطاع سروج والرحبه والرقة والخابور كلها بأيدى أتباع السلطان ملكشاه الأوفياء ، كما مد تتش نفوذه فضلا عما بيده من حكم دمشق وبيت المقدس والرملة إلى حمص وعرقه وأفاميه وبعض حصون الساحل الشامى [٢] . وبقيت شيزر بيد بنى منقذ

---

(١) عماد الدين الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٠ — ٦٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٠ ( سنة ٤٧٤ )

وإن أسفرت هذه التغيرات عن شبه استقرار ببلاد الشام ، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة لآسيا الصغرى ، فقد اضطربت الأمور بسلطنة سلاجقة الروم بها بعد مقتل سليمان بن قتلمش ، واصطحاب السلطان ملكشاه لابنه الصبي قلج أرسلان في طريق عودته إلى فارس ، قبل أن يتمكن قلج أرسلان من العودة إلى ملكه بآسيا الصغرى .

أما فيما يختص بسلطنة السلاجقة بأصبهان ، فقد بلغت على عهد ملكشاه أوج قوتها ومجدها ، وغدت أكبر قوة إسلامية في المشرق ، ويكفي لتأكيد هذا أن أملاكها امتدت إلى حدود الصين شرقا ، والبحر المتوسط غربا ومن أقصى الشمال إلى بلاد اليمن جنوبا .

**تفكك دولة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه :**

اقترن عهد ملكشاه بشخصية الوزير الذائع الصيت : نظام الملك ، الذى يرجع اليه الفضل في استقامة الأمور لملكشاه في بداية حكمه . وحفظ الدولة له وجمع كلمتها عليه [1] فضلا عما اشتهر عنه من المهارة في الشئون السياسية والادارية . ولكن خلافا وقع بينه وبين ملكشاه استند في طبيعته إلى سببين هامين أولها . ازدياد نفوذ نظام الملك في الدولة ، ووضعه أولاده في أكبر وظائفها مما أحنق السلطان كثيرا ، وغير قلبه على وزيره ، وثانيهما : عداء تركان خاتون زوجة ملكشاه والأثيرة لديه لنظام الملك ، بسبب معارضة هذا لرغبتها في جعل ابنها الصغير محمود خليفة لملكشاه واصرار نظام الملك على أحقية بركياروق الابن الأكبر في هذا الامر مما حدا بها إلى اقناع السلطان باحلال تاج الملك

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج ٩ ص ٦٧

( أبو الغنايم ) محل نظام الملك كوزير له ، فقام هذا بتحريض السلطان على اغتيال نظام الملك ، [١] فلم يمض وقت طويل حتى قتل نظام الملك على يد رجل ديلمى دخل عليه فى صورة مستعطف فوثب عليه فقتله فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢ م ) ولذا لم يتردد كثير من المـــؤرخين فى إتهام ملكشاه صراحة بالممالأة فى قتل وزيره نظام الملك واستشهدوا على ذلك بأن القاتل « هرب من ساعته فطلب فلم يوجد ولا ظهر له خبر » [٢] ، مما يوحى بدقة التدبير فى ذلك ، وبثورة الجند ومنهم المماليك النظامية بعد هذه الحادثة مباشرة « فركب السلطان وسكن شوشة العسكر [٣] » .

وكيفما كان الامر فقد خسرت دولة السلاجقه هذه الشخصية العظيمة التى ربما قدر لها حفظ وحدة الدولة بعد موت ملكشاه ، كما حدث بعد مقتل ألب أرسلان عام ١٠٧٢ م . إذ أن ملكشاه لم يعمر طويلا بعد مقتل نظام الملك حيث توفى بعده بخمسة وثلاثين يوما فى بغداد عام ١٠٩٢ م ( شوال ٤٨٥ هـ ) ، وعانت الدولة فجأة فراغا كبيرا بخلوها من الاثنين ، وعدم وجود راشد فى أبناء ملكشاه له ما اشتهر عن أبيه من مهارة سياسية وحربية .

بوفاة ملكشاه انتهى عصر الامبراطورية السلجوقية ، وبدأ العهد الأوسط فى عمر هذه الدولة ، كما جاءت وفاة ملكشاه نذيرا بتفكك الامبراطورية

---

(١) ابن الجوزى : ج ٩ المنتظم ص ٦٧

Browne : Account of a rare, manuscript. p. 599.

Camb. Med Hist. Vol. 4. p. 308.

(٢) أبن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١

(٣) البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ٨١ ، أبن الوردى : تتمه المختصر فى اخبار البشر ج ٢ ص ٥

الكبيرة وضعفها ، اذ عجز أبناؤه عن حفظ وحدة أراضيها ، وخاصة بعد أن نشب الخلاف بينهم ، واحتدمت الحروب .

ذلك أن ملكشاه ترك عند وفاته أربعة أبناء هم : بركياروق، وهو أكبرهم وكان حينئذ فى الخامسة عشر من عمره ، ومحمد وسنجر ومحمود والاخير من زوجته تركان خاتون ، وكان طفلا يبلغ من العمر نحو خمس سنين . ولما توفى ملكشاه ببغداد كانت معه تركان خاتون ، فكتمت خبر وفاته ، وحصلت على موافقة الأمراء بالنسبة لتولية ابنها الصغير عرش الدولة . وذلك ببذلها لهم الاموال وأرسلت الأمير قوام الدولة كربوغا ، وهو الذى صار أميراً للموصل فيما بعد ، فاستولى على قلعة أصفهان ، كما أرسلت من يقبض على بركياروق خوفا من أن ينازع ابنها السلطنة [1] . ثم سارت إلى اصفهان للقيام بدورها كاملا.

غير إن الخاتون أقدمت على خطوة بالغة الأثر ، بتقديمها تاج الملك ( أبو الغنايم ) وزير ملكشاه ، وعدو نظام الملك ، والمتهم بالمالأة فى قتله فلما تحقق المماليك النظامية من وفاة السلطان وتقديم تاج الملك ، ثاروا بالعاصمة واخرجوا بركياروق من سجنه ، وخطبوا له بالسلطنة ، وعندما اقتربت الخاتون وابنها من أصفهان خرج منها بركياروق فيمن معه من المماليك النظامية وساروا نحو الرى .

---

(١) Browne: Account of a rare. Manuscript p. 501.

ويعلل كل من الحسينى ( اخبار الدولة السلجوقية ص ٧٦ ) ، والبندارى ( تواريخ آل سلجوق ص ٨٢ ) انقياد الامراء لها بقوة نفوذها أيام ملكشاه ولان الوزراء كانوا من صنائعها ولا نها كانت من اولاد السلاطين بينما كانت أم بركياروق سلجوقيه .

سيرت الخاتون جيشها لمحاربة بركياروق فلقيه قرب بروجرد ، حيث انحاز فريق من أمراء خاتون إلى بركياروق ، مما عجل بانهزام جيش خاتون وتقدم بركياروق لمحاصرة أصفهان ، وعلى أثر ذلك اضطرت خاتون لعقد الصلح معه على أن تحتفظ هى وولدها بأصفهان وفارس ، وتعترف به سلطانا ، وتنزل له عن حكم الاقاليم الاخرى ، وفى نفس الوقت أثارت فى وجهه المشاكل الخفية .[1]

ولكن الأجل لم يمتد بها إذ توفيت فى العام التالى ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) وكانت الاخطار قد أحدقت ببركياروق ، بعد خروج عمه تتش عليه ، ومطالبته بالسلطنة ، فدخل بركياروق أصفهان فى حالة سيئة ، وكان أخوه محمود مريضا بالجدرى ، وتوفى بعد ذلك بقليل ، فأقامه أصحاب محمود فى السلطنة .

وفى الوقت الذى دبت فيه الفتن بين أبناء ملكشاه أنفسهم ، كان الخطر الذى يتربص بهم يأتى من ناحية تاج الدولة تتش صاحب الاطماع الواسعة فى السلطنة . ذلك أن تتش كان قد خرج من دمشق قاصدا بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، قبل وفاته ، وفى الطريق علم بوفاته فعاد مسرعا إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة . »[2]

جمع تتش جيوشه . وما لبث أن سار نحو الشمال . فلما اقترب من

---

(١) افلحت فى اثارة اسماعيل بن ياقوتى ، والى اذربيجان ، فخرج هذا عن طاعة بركياروق ولكنه هزم فى النهاية وقتل . الراوندى : راحة الصدور ص ١٤١ — ١٤٢ (نشر اقبال) .

Ency. of Islam, Art. ( Barkiyaruk ) .

(٢) ابن الاثير / الكامل ج ٨ ص ١٦٦ — ١٦٧

حلب ، رأى قسيم الدولة آقسنقر صاحبها ، آختلاف أبناء ملكشاه وصغرهم وأنه لاقبل له بتتش فآثر الدخول فى طاعته ، وأرسل إلى ياغى سيان أمير أنطاكية وبوزان صاحب الرها يشير عليهما بطاعة تتش إلى أن يروا مايكون من أولاد ملكشاه . سار تتش بحلفائه (١) ناحية الرحبة ، وقاتلها حتى استولى عليها ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم رحل إلى نصيبين فملكها أيضاً عنوة ، وقتل من أهلها عدداً كبيراً ونهب أموالهم ، وفعل فيها الأفعال القبيحة ، ثم سار إلى الموصل وبها ابراهيم بن قريش العقيلى الذى امتنع من الدخول فى طاعته ، فقاتله تتش وانتصر عليه فى موقعة « المضيع » من أعمال الموصل عام ١٠٩٣ م حيث قتل ابراهيم بن قريش وانتهت الأسرة العقيلية فى الموصل ثم سار إلى ديار بكر فملك ميافارقين وآمد من آخر حاكم مروانى بها (٢) وبعث بولاته إلى سنجار والموصل وأخذ يمارس سلطته كأقوى رجل فى دولة السلاجقه ، ثم دخل فارس عن طريق أذربيجان ليضع نهاية لحكم ابن أخيه بركياروق وينفرد هو بحكم الامبراطورية .

وعندما التقى تتش بجيش بركياروق فارق كل من قسيم الدولة آقسنقر وبوزان تاج الدولة تتش وانحازا إلى جانب بركياروق ، مما فت فى عضده ، واضطره إلى الانسحاب سريعا إلى دمشق . أما بروكياروق فقد ازداد ثبات أمره ودخل بغداد فى المحرم ٤٨٧ هـ ( نهاية عام ١٠٩٣ م ) وخطب له بالسلطنة فيها (٣)

---

(١) اقسنقر وياغى سيان اذ أن بوزان وصل اليهم عند نزولهم على نصيبين ابن القلانسى : ذيل تاج دمشق ص ١٢٢

(٢) الفارق : تاريخ الفارق ص ٢٣٦ ( تحقيق بدوى عبد اللطيف)

(٣) الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٧٠ ( سنة ٤٨٧ هـ )

ولما عاد تاج الدولة تتش من أذربيجان ، صرف همته أولا للانتقام من آقسنقر وبوزان اللذان خذلاه من قبل ، واستعد آقسنقر وبوزان أيضا لمدافعته وأمدهما السلطان بركياروق بالامير كربوغا ، كما وصل اليهم الامير يوسف صاحب الرحبه . ولما التقت هذه الجيوش بجيش تتش عند تل سلطان قريبا من حلب ، انحازت بعض قوات آقسنقر إلى جانب تتش ، فضعفت قوته ، وتأثرت معنويته ، مما أدى إلى هزيمته بالرغم من ثباته وقتاله بشجاعة حتى أخذ أسيرا إلى تتش فلم يتوان فى ضرب رقبته ، ويعلل المؤرخ ابن القلانسى أسباب هزيمة آقسنقر بأن جيش بوزان وجيوش كربوغا تأخرا فى قطع بعض سواقى نهر صغير فى طريقهم - فبقيا على حالهما فى الوقت الذى تلاقت فيه القوات الرئيسية بجيش تتش ، كما أن آقسنقر لم يثق فى جموع العرب فى جيشه فنقلهم ، وقت المصاف من الميمنة إلى الميسرة ثم جعلهم فى القلب فلم يغنوا شيئا »[1] وأدى ذلك إلى سقوط شمال الشام كله فى يد تتش ، فصار بذلك سيد الموقف فى بلاد الشام كلها .

دخل تتش بعد ذلك حلب وقبض على بوزان وكربوغا وكانا قد تحصنا بها فضرب رقبة الاول وحمل الثانى سجينا إلى حمص ، ورحل تتش إلى ناحية الفرات فاستولى على حران والرها ، ثم تحول إلى ديار بكر فملكها أيضا كما ملك خلاط ، ووصل إلى أذربيجان ثم إلى همذان ومن هنا كتب إلى ابنه رضوان للحاق به بمن بقى من الجند [2] ، فسار رضوان قاصدا العراق .

---

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩

بدأ تتش بدعوة الأمراء فى أصفهان إلى طاعته وبذل لهم البذول الكثيرة[١]، ولكن الأمراء أعرضوا عن دعوته ، وظلوا بجانب بركياروق نظرا لخوفهم من تتش وبطشه ، وميلهم لبركياروق للين عريكته وصغر سنه . ولمـــا التقى الجيشان بالرى فى فبراير سنة ١٠٩٥ م ( ١٧ صفر ٤٨٨ هـ ) حدثت موقعة من أكبر المواقع الفاصلة فى التاريخ ، هزم فيها تتش، رغم قتاله بشجاعة نادرة وقتل فى ساحة الحرب[٢] وبذلك تخلص بركياروق من أكبر منافس له فى السلطنة وأقوى أفراد البيت السلجوقى وأكثرهم طموحا

وواضح من هذه الأحداث أن دولة السلاجقة ،غدت تعانى عوامل الانقسام والتفكك والحروب الطاحنة التى أنهكت قـــواها ، وأضعفتها كثيرا ، بجانب إفتقارها إلى سلطان رشيد يجمع الكلمة ويوحد الشمل .

بل أن الشطر الآخر من الامبراطورية فى المشرق لم يسلم أيضا من الفوضى والاضطراب،إذ ان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان وهو عم آخر لبركياروق، وكان يحكم مرو وبلخ وترمذ ونيسابور وعامة خراسان ، وكان جبارا أيضا قد تجهز لمحاربة بركياروق . ولما سير اليه بركياروق عمه الآخر بورى برس بن ألب أرسلان ، هزمه أرسلان أرغون عام ١٠٩٥ ( ٤٨٨ هـ ) ، وأسر بشنقه ، فاضطر بركياروق لتجهيز جيش آخر فى عام ١٠٩٧ م تحت قيادة أخيه سنجر ، وسيره إلى خراسان ، وسار هو فى أثره ، وفى الطريق علم أن أرسلان أرغون

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ج ٨ ص ١٧٥ (٤٨٧ هـ)، Brown : op .cit p. 602.

(٢) البندارى ـ تواريخ آل سلجوق ص٨٥.

قد قتل على يد غـلام له ، فهدأت الفتنة قليلا فى المشرق ، وأقام بركياروق أخاه سنجر واليا على خراسان [١]

وهكذا اختفى أبناء ألب أرسلان الأشداء ملكشاه ، وتتش ، وأرسلان ، أرغون ، وبورى برس ولم يبق على مسرح الأحداث سوى أبنـــاء ملكشاه : بركيارق ومحمـد وسنجر ، وبعض أمراء البيت السلجوقى الذين لم يكن لأى منهم مايؤهله لتسيير دفة الأمور فى الدولة فى هذه الظروف بنجاح .

وجدير بالذكر أنه بينما المشرق يمـــوج بهذه الأحداث الكبيرة ، ويرزح تحت وطأة الانقسام والحروب، وتتنازعه الأهواء المتضاربة والمطامع الشخصية نرى فى الغرب الاوربى الدعوة للحملة الصليبية الأولى قائمـة على أشدها ، فإلى أى حـد تنبه المسلمون للأخطار المحدقة بهم ، وإلى أى حد تنهوا إلى أن النزاع الداخلى كان أشد خطرا على دولهم من الخطر الخارجى [٢] الواقع أن التفكك الذى ساد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت باعد بين المسلمين وبين الالتفات للأخطار التى تجمعت فى أفقهم البعيد ، وكان لها أكبر الأثر فيما حل بهم من آلام فى السنوات القليلة التالية .

فلم يكد بركيارق يهدأ قليلا بعد مقتل عمه تاج الدولة تتش ، وفتنة عمه الآخر أرسلان أرغون ، حتى غرق مرة أخرى فى النزاع بينه وبين أخيه محمد الذى طمع فى السلطنة هو الآخر ، ورفع راية العصيان ابتداء من عام ١٠٩٩ م ( ٤٩٢ هـ ) أى فى نفس الوقت تقريبا الذى وصل فيه الصليبيون إلى الأراضى

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل جـ ٨ ص ١٨٢ ( سنة ٤٩٠ هـ )

(٢) Runciman : A Hist. of the Crusades, I. p. 78, II p. 107 - 8 .

المقدسة ، واستشرت الحروب واحتدمت بينهما إلى عام ١١٠٤ م . (٤٩٧ هـ) ، وحدثت بينهما خمس مواقع على امتداد هذه الفترة كانت خلالها الدولة كثيرا من الاضطراب ، لم تهدأ إلا بعقـد الصلح بينهما عام ١١٠٤ م .[1] ثم بموت بركياروق فى العام التالى ١١٠٥ م وانفراد محمد بالسلطنة السلجوقية منذ ذلك العام ، لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة السلجوقية ، وقصة الجهاد المقدس ضد الصليبيين كما سيتضح فيما بعد .

**تفكك الشام بعد مقتل تتش :**

كان لتنازع أفراد البيت السلجوقى على السلطنة ، ومقتل تاج الدولة تتش ، أثر كبير فيما منيت به بلاد الشام من الفوضى والاضطراب فى السنوات القليلة السابقة لوصول الصليبيين . إذ كان لتتش ولدان هما : فخر الملوك رضوان ، وشمس الملوك دقاق . وكان تتش بعد ابنه رضوان ليخلفه وبعث اليه قبل مقتله بالرى يأمره بالمسير إلى العراق ليلحق به ، فسار رضوان بمن بقى من الجند ، غير أنه عندما وصل إلى عانة بلغه نبأ مقتل والده فعاد إلى حلب مسرعا ، فسلم اليه وزير والده ويدعى أبو القاسم بن بديع المدينة والقلعة ، فأخذ يستعد للدفاع عنها[2] ، وفى نفس الوقت وصل اليه جناح الدولة ، وأخذ يسير أمور الولاية ، وكان أتابكا لرضوان فى حياة أبيه .

أما دقاق فقد حضر الوقعة الأخيرة التى قتل فيها والده ، ثم سار بعد ذلك

---

(١) Camb. Med Hist. vol 4. p. 310.
ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٠ (سنة ٤٩٧ هـ)

(٢) ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ .

إلى أخيه رضوان بحلب فأقام بها مدة ، ولكنه تلقى رسالة من ساوتكين الخادم ، والى قلعة دمشق من قبل تتش ، يدعوه اليها ليملكه إياها ، فأسرع دقاق برغم محاولة رضوان إعاقته عن ذلك ، ووصل سالما فسلمه ساوتكين المدينة والقلعة ، وبعد ذلك وصل طغتكين ، وكان أحد خواص تتش فغدا أتابكا الدقاق ، ووكل اليه هذا تصريف أمور الولاية . أما رضوان فقد ضايقه كثيرا قيام حكم أخيه فى دمشق ، ثم مالبث أن قتل أخويه الآخرين أبا طالب وبهرام .[١]

وقد غرق الشام فى الفوضى والاضطراب فى السنين القليلة التالية قبل وصول الحملة الصليبية الأولى ، ذلك أن صراعا كبيرا حدث بين الأخوين رضوان ودقاق ، لعب فيه الأمراء الأتراك دورا كبيرا ، ووسعوا شقة الخلاف بينهما ، مما زاد من ضعف المسلمين حينئذ فضلا عما أحدثه الانقسام من نتائج سيئة فى هذه الجبهة التى بدت قوية فى أواخر عهد تاج الدولة تتش

فياغى سيان ـ أمير أنطاكية ـ والذى قربه تاج الدولة تتش قبل مقتله وخصه برعايته دون اقسنقر وبوزان . أساءه كثيرا وصول جناح الدولة الحسين وتدبيره شئون الملك رضوان بحلب ، وانفراده بالأمر دونه ، لذا أخذ يعمل على الإيقاع به والخلاص منه . ويذكر المؤرخ ابن العديم [٢] أن ياغى سيان أراد التخلص من جناح الدولة بطريق التآمر ، فانتهز فرصة خروج رضوان من حلب ومعه جناح الدولة قاصدين مدينة الرها للاستيلاء عليها من يد نواب تتش بها عام ١٠٩٥ ( ٤٨٨ هـ ) ومعهما رهائن أهلها . فوصل ياغى سيان ومعه يوسف بن أبق وبعض الجند من أنطاكية بحجة معاونة رضوان فيما قصد اليه ،

---

(١) ابن العديم - زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

ولما نزل الجميع على مدينة الرها أراد ياغى سيان ويوسف بن أبق أن يقبضا على جناح الدولة ، وينفردا بتدبير رضوان ، ولكنه استطاع الفرار وقطع الفرات عائدا الى حلب ، فارتاع رضوان لذلك ، وهرب منه الأسرى وعاد إلى حلب وقد استوحش من ياغى سيان وحليفه [1] .

وواضح أن ياغى سيان كره من البداية ازدياد نفوذ جناح الدولة فى حلب إذ تحدثنا النصوص أنه بادر بعد خروج دقاق إلى دمشق ، وأشار عليه بالانفراد بحكم دمشق عن أخيه رضوان [2]. وكذلك لرغبته فى توسيع الهوة بين الأخوين واستفحال الخلاف بينهما تمكينا لنفسه ومصالحه

دخلت العلاقة بين رضوان وياغى سيان دورا جديدا ، بلغت فيه حد القطيعة ، ثم تطورت إلى الحرب السافرة بينهما ، حين خرج رضوان فى العام التالى ( ١٠٩٦ م ) ومعه جناح الدولة وفتح تل باشر وشيح الدير ، وهما من أملاك ياغى سيان ، وبيد رجاله ، كما أغار على أعمال أنطاكية [3] ولاشك أن هذه الأعمال العدائية إنطوت على تحد لياغى سيان الأمر الذى دفعه - دون تردد - إلى الانضمام إلى جانب دقاق فى النزاع الذى حدث بين الأخوين بعد ذلك ، ولعب فيه ياغى سيان دورا كبيرا .

وما حدث بعد ذلك بين رضوان ودقاق يجسم مأساة بلاد الشام ، ويفسر ضعفها وتفككها أمام الغزو الصليبى بعد ذلك بقليل ، ويعطى تأكيدا على عظم نفوذ الأمراء وتغليبهم المصالح الذاتية على

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٧٦ ( سنة ٤٨٨ ه )

(٣) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٥

الصالح العام ، وتغذيتهم الانقسامات والمنازعات بين أفراد البيت الواحد . ذلك أن رضوان صرف جهوده بعد ذلك فى محاولة انتزاع دمشق من يد أخيه دقاق وخاصة أنه كان « محبا لها ومؤثرا للعود اليها » [1] ، واستعان فى ذلك بالأمير سكمان بن أرتق بعد أن منحه أقطاع معرة النعمان وأعمالها [2] ، فى الوقت الذى استعان فيه دقاق بالأمير نجم الدين إيلغازى بن أرتق ، وياغى سيان بعدما علم بنية أخيه .

سار رضوان وبصحبته سكمان وجناح الدولة إلى دمشق فى نهاية عام ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) وعسكر بظاهر المدينة ، ثم أخذ يهاجمها ، ولكنه وجد ثباتا من أهلها ، ومقاومة شديدة ، فضلا عن حصانتها ومناعة إستحكاماتها فاضطر إلى الرحيل عنها هو وأعوانه « ولم يتم لهم أمر ولا تسهل لهم غرض » فقصدوا بيت المقدس إلا أن ملاحقة دقاق وطغتكين وياغى سيان لهم أجبرتهم على العودة إلى حلب خائبين .

شجعت هذه الأحداث الملك دقاق ، بالاضافة إلى تحريض ياغى سيان الدائم له ، على القيام بحملة إنتقامية ضد أخيه رضوان بحلب ، فاصطحب طغتكين ، ووصل ياغى سيان من أنطاكية . وقصدوا حلب فاستنجد رضوان بسكمان بن أرتق ، وكان حينئذ بسروج ، فقدم على عجل بجموع من التركمان [3] . وعسكر

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١ – ١٣٢

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٤

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٤ (سنة ٤٩٠ هـ)

الجيشان بقرب قنسرين . ولما التقيا فى أوائل عام ١٠٩٧ م انهزم جيش دقاق وياغى سيان ، وتم الصلح بين الآخرين على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأنطاكية [١] .

وهكذا اضطربت أحوال الشام ، ولعب ياغى سيان دوره العدائى ضد رضوان ، ولم يهدأ إلا بعد أن ترك جناح الدولة حلب ، وانزوى بحمص بعد أن أحس بتغير رضوان عليه وآثر أن يقيم لنفسه حكما استقلاليا بها بعيدا عن نفوذ السلاجقة . وعند ذلك تحسنت العلاقة قليلا بين رضوان وياغى سيان وتزوج رضوان من إبنة ياغى سيان ، ولكن هذا كله لم ينجح فى إخفاء الريبة وعدم الثقة بين الاثنين ، ولم يمح كلية عوامل الكره والبغضاء بينهما وأكبر دليل على ذلك ، عدم نهوض رضوان لإنجاد ياغى سيان بأنطاكية حينما داهمه الصليبيون فى العام التالى وتركه يلقى مصيره المحتوم على أيديهم .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن الصلح الذى وقع بين رضوان وأخيه دقاق عام ١٠٩٧ م نهاية الفتنة التى استشرت بينهما ولم يضع خاتمة لروح العداء التى ميزت علاقاتهما فى هذه المرحلة ، فقد ظلت فكرة غزو دمشق وانتزاعها من دقاق تسيطر على رضوان سيطرة كاملة ، وأحس أنه فى حاجة إلى قوة أكبر من القوى التى استعان بها من قبل لتحقيق هذا المشروع ، فطمع فى معاضدة الفاطميين ، وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت إلى موافقة رضوان على إقامة الخطبة بحلب للخليفة الفاطمى المستعلى بالله والأفضل بعده ، نظير مده بالمعونة التى تمكنه من فتح دمشق وانتزاعها من أخيه فقطع رضوان خطبة الخليفة العباسى ، وأقامها للمستعلى ثم للأفضل ولنفسه بعدهما ، ودام الأمر كذلك نحو

---

(١) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦

شهر حتى قدم اليه الأمير سكمان بن أرتق وياغى سيان فأنكرا عليه هذا الأمر، وفى نفس الوقت لم تصل معونة الفاطميين، فبادر رضوان بقطع خطبة الخليفة العلوى وأعادها للخليفة العباسى [1].

هذا ومما يسترعى الانتباه أن السلطان بركياروق، لم يحاول انتهاز فرصة هذا الخلاف والتفكك الذى منى به الشام ليضمه إلى ملكه ويعيد توحيد دولة السلاجقة الكبرى، فقد ألهته أحداث المشرق عن ذلك دون شك، وحالت بينه وبين الالتفات إلى هذه الجبهة، وربما آثر الا يضيف أعباء جديدة إلى دولته، فاكتفى بحكم فارس وبغداد، ولم يطلب من رضوان سوى فك أسر الأمير كربوغا المسجون بحمص منذ عهد تتش. وبقى الشام على حاله تتنازعه الأهواء وتمزق وحدته المطامع.

ويجمل القول فيما يختص بالسلاجقة أن السنوات التى أعقبت وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ)، وحتى قدوم الصليبيين إلى الشام، شهدت أحداثا كبيرة. أدت إلى تفكك الامبراطورية التى تركها ملكشاه قوية متماسكة، فانقسمت إلى خمس أقسام فى هذه الفترة الوجيزة، سلاجقة فارس، والعراق ولهم سلطنة أصفهان وعليها بركياروق بما حمله من أعباء لتأكيد سلطته، ومملكة خراسان وعليها أبو الحرث سنجر الذى مكن لنفسه فى تلك البلاد مدة تزيد عن نصف قرن [2] حتى عد عهده - العهد الأوسط - فى عمر الدولة السلجوقية والذى انتهى بوفاته عام ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) [3] ومملكة حلب وعليها فخر الملوك

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٣، ابن ميسر: المجموعة III p. 462.

(٢) Browne : Account of a rare, manuscript p. 850

(٣) مقدمة كتاب راحة الصدور للراوندى، نشر اقبال ص ٧ - ويقسم عصر الدولة =

رضوان بن تتش ، ومملكة دمشق وعليها شمس الملوك دقاق بن تتش ، ثم سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى ، وللأسف جاء هذا التفكك فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة فيه إلى التماسك والتكاتف للوقوف فى وجه التحديات التى وجهت اليهم فى عقر دارهم .

٢ ـ الخلافة الاسلامية فى المشرق

لم يقتصر الأمر على انقسام القوى الاسلامية وتنازعها فى الشئون السياسية والعسكرية حينئذ ، بل أن الخلافة الاسلامية نفسها ، كانت منقسمة إلى خلافتين متنازعتين متنافرتين ، نافست ، كل منها الأخرى للفوز بزعامة العالم الاسلامى، وتناحرتا فى سبيل ذلك، بالرغم من حالة الضعف والاضمحلال التى أمست فيها كل منها إبان القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) على وجه الخصوص .

ولاشك أن اضمحلال الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة وتنازعهما جاء نكبة على المسلمين عامة والقوى الاسلامية فى الشرق الأدنى بصفة خاصة ، إذ أنه ساهم فى ازدياد حدة التفكك والضعف ، فى الوقت الذى كان حريا بالخلافة الاسلامية أن تلقى ظلها الروحى لجمع الكلمة وتوحيد الشمل بدل الفرقة والتنافر

ويجدر بنا أن نعرض حالة الخلافتين لنرى مدى ما أصابهما من الضعف والاضمحلال فى ذلك الوقت .

---

= السلجوقية إلى ثلاثة أقسام عصر الامبراطورية وينتهى بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ، والعصر الأوسط وينتهى بوفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ ثم عصر الاضمحلال والسقوط وينتهى سنة ٥٩٠ هـ حين سقطت الدولة على يد علاء الدين تكش خوارزمشاه

**الخلافة العباسية :ــ**

المعروف أن الخلافة العباسية فى بغداد ، تمتعت فى عصرها الأول أيام خلفائها الكبار : المنصور والمهدى والرشيد والمأمون بعصر زاهر ، مارس فيه الخليفة العباسى سلطات الحاكم القوى فى الدولة الكبيرة التى ضمت إلى جانب جناحيها الكبيرين أقاليما أخرى خضعت مؤخرا للدولة الاسلامية المركزية فى بغداد ، كما تمتع الخليفة إبان هذا العصر بمركزه المرموق بحكم جمعه بين شئون السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، كخليفة يمثل رأس الدولة وأكبر قوة فيها .

ولكن الخليفة المعتصم بالله ٨٣٣ - ٨٤٢م (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) أظهر استهانة بالمبادىء التى سار عليها أسلافه الكبار ، إذ أخذ يمكن للعناصر التركية ، ويقصى العرب عن المناصب القيادية وخاصة فى الجيش ويعزلهم عن الولايات ، فأعطى بذلك فرصة كبيرة للأتراك ليمثلوا خطرا على سلطان الخلفاء إلى نهاية العصر العباسى ذلك أن ضعف العباسيين بعد المعتصم ساعد هذا العنصر ومهد له الطريق للهيمنة على شئون الدولة ، والتدخل فى شئونها بشكل سلب الخلفاء كثيرا من سلطاتهم المتوارثة ثم كان وقوع الخلافة تحت وصاية بنى بويه ابتداء من عام ٩٤٥م ( ٣٣٤ هـ ) وما صاحب ذلك من ازدياد ضعف سلطان الخلفاء وتدهور مكانتهم ، فضلا عن أن البويهيين كانوا من أصل فارسى يعتنقون المذهب الشيعى ، فى حين كانت الخلافة العباسية ترعى المذهب السنى ، الأمر الذى أوجد كثيرا من المفارقات فى الدولة ولما ضعف البويهيين وكثرت الفتن والمحن بينهم وعانت الخلافة نتائج كل ذلك ، تقدم السلاجقة بقيادة طغرلبك إلى بغداد وفرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية السنية قرب منتصف القرن الخامس الهجرى وسارع الخليفة العباسى إلى تسليمه ما بقى فى يده من سلطان ،

وقنع هو برسوم السلطة الشكلية ، وظلت الخلافة على هذا الوضع حتى وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه وقيام أبنائه فى السلطنة .

ورغم أن الخلفاء العباسيين انتهزوا فرصة الخلافات الناشبة بين أفراد البيت السلجوقى وحاولوا التخلص من ربقة السلاطين ، إلا أن هذا لم يكن ليؤدى إلى نتيجة حاسمة وسريعة بالنسبة للوضع القائم فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . بل إن الخلافة العباسية عانت كثيرا من جراء خروج العناصر العربية البدوية ، وخاصة أصحاب الحـــلة من قبيلة بنى مزيد ، على الضفة الغربية لنهر الفرات ، والتى استقل صاحبها صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى بحكمها وجعلها مركزا لنشاطه عام ١١٠١ م ( ٤٩٤ هـ ) ثم قام من بعده إبنه دبيس بن صدقة فيها وشكل خطرا دائما وكبيرا على السلاجقة والخلافة أيضا فى الفترة اللاحقة ، وشارك فى أحداث المنطقة بل حالف الصليبيين . وأطمعهم فى محاربة المسلمين أحيانا [١]

والحقيقة أن الخلافة العباسية ، كانت تمر بمحنة شديدة فى ذلك الوقت حتى أن بعض خلفائها درجوا على احترام الوضع الذى وجدوا فيه ، ولم يحاولوا عمل شىء يغير من مكانتهم ، ويمنحهم سلطة أكبر ونفوذاً أوسع ، وظلوا قانعين بدور ثانوى فى أحداث العصر ، حقيقـة ثار بعضهم - كالخليفـة المسترشد بالله ( ١١١٨ - ١١٣٥ م ) = ٥١٢ - ٥٢٩ هـ - على التسلط السلجوقى ، وخلعوا طاعة السلاطين ، ولم يتردد المسترشد فى محاربة السلطان مسعود ، وفرض وجوده على الأحداث بالشكل الذى أعاد إلى الأذهـــان قوة الخلفاء العباسيين

---

(١) كما حدث حين صاحبهم فى محاصرتهم حلب سنة ٥١٨ هـ بعد أن أطمعهم فى تملكها . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٣ .

الأوائل ومكانتهم السامية إلا أن ذلك كلف هذا الخليفة الطموح حياته فى النهاية، وحياة ابنه الراشد من بعده [1]

ويمكننا القول أن السلاجقة وإن كانوا قد فرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية ، حين كانت تمر بفترة حرجة قرب منتصف القرن الخامس الهجرى فانهم بذلك ساهموا فى زيادة ضعفها وقنوعها بدور ثانوى فى مجريات الامور ، لايتناسب مطلقا مع قدر هذه الخلافة ، وما تمثله من سلطة روحية ودينية بالنسبة للمسلمين قاطبة .

أما فى الفترة التى تهمنا على وجه الخصوص ( الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ) فقد توفى الخليفة المقتدى بأمر الله العباسى فجأة عام ١٠٩٤ م ( ٤٨٧ هـ ) بعد أن شاهد تنازع السلاطين السلاجقة وتصارعهم واضطراب أمور البلاد ، بشكل جعله يتردد فى إقامة الخطبة لأى منهم ، لتلاحق الأحداث وعدم ثبوتها ، ويبدو أنه تأنى شيئا ما فى إقامة الخطبة والتقليد لبركياروق ، حين دخل هذا بغداد فى أوائل عام ٤٨٧ هـ ، مما أحنق بركياروق وأثاره ، فلما توفى المقتدى فجأة قيل أنه مات مسموما بتحريض من بركياروق [2] . وسواء صح هذا الاتهام أم جانبه الصواب ، فإنه بلا شك يلقى ضوءا على مدى ، ماوصلت اليه الخلافة من إستكانة وما ماج به الشرق من قلق .

---

(١) قتل المسترشد فى صراعه ضد السلطان مسعود عام ٥٢٩ هـ ( ١١٣٥ م ) . ثم قتل إبنه الراشد سنة ٥٠٢ هـ ( ١١٣٧ م ) بعد أن ورث عن والده حقد السلاجقة ، فخلع من الخلافة وقتل .

ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٣٦٢ ( سنة ٥٣٢ ) .

(٢) السلامى : مختصر التواريخ ورقه ٢٧١ ( مخطوط ) .

وبويع بالخلافة من بعده إبنه المستظهر بالله ( ١٠٩٤ - ١١١٨ م ) = ( ٤٨٧ - ٥١٢ هـ ) ، وهو الخليفة الذى شهد عهده الأحداث الكبيرة فى الشام والأراضى المقدسة ، وتأسيس الإمارات اللاتينية بها . حقيقة كان هذا الخليفة - كما وصفه المؤرخون - قوى الكتابة ، جيد الأدب والفضيلة كريم الأخلاق ، مسارعا فى أعمال البر [1] ، إلا أن هذه الصفات لم تكن لتمنح صاحبها شهرة بين معاصريه فى ذلك الوقت العصيب الذى تشابكت فيه الأحداث ، وتداخلت وكثرت الفتن ، وأغار الصليبيون فى وحشية على جزء غال من قلب العالم الاسلامى ، هو بمثابة القلب فيه وأقاموا لأنفسهم مركزا فيه ، دون مقاومة تذكر من جانب القوى الاسلامية المفككة. إذن لم يكن هناك مكان سوى لأصحاب السيف وأرباب الهمم وهذا يفسر لنا مدى بعد الخلافة العباسية حينئذ عن عن مقومات القوة التى تستطيع المشاركة الفعلية فى أحداث العصر ، حتى لتخرج عن نطاق القوى الاسلامية المعدودة فى المشرق فى ذلك الوقت .

**الخلافة الفاطمية :**

لم تكن الخلافة الفاطمية فى مصر فى ذلك الوقت . أحسن حالا من الخلافة العباسية وبقية القوى الإسلامية فى المشرق ، إذ أنها بلغت على عهـــد الخليفة المستنصر بالله ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م ( ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ ) درجة كبيرة من الضعف ، فقد عانت نزعة إنفصالية أدت إلى إنسلاخ كثير من أملاكها فى بلاد الشـام

---

(١) اليافعى : مرآة الجنان ج ٣ ص ٢٠٣ ، جمال الدين الوزير : أخبار الدول المنقطعة ورقة ١٠٦ .

ونزلت بها الكوارث الإقتصادية نتيجة لانخفاض النيل وسوء الحكم واضطراب الامور[1] ، وكذلك لثورات الجند ، وتقدم جيوش السلاجقة فى أملاكها ، كل ذلك أعجزها وبالغ فى إضعافها .

ففى عام ١٠٧٠ م ( ٤٦٢ هـ ) ، إستقل قاضى صور ابن أبى عقيل بمدينته ، وطرح طاعة الفاطميين واضطر أمير الجيوش بدر الجمالى - وكان إذ ذاك بالشام - إلى محاصرته لإسترجاعها ، إلا أنه فشل فى ذلك نظراً لإستنجاد ابن أبى عقيل بالسلاجقة [2] وعقد ظلت صور بيد ابن أبى عقيل ثم بيد خلفائه حتى عـــام ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، حين سلمت للفاطميين على أثر الغزوة البحرية التى إفتتحوا فيها معظم المدن الساحلية الشامية حتى جبيل [3] . كما إستقل قاضى طرابلس الحسن بن عمار أيضا بإمارته عن الفاطميين عام ١٠٧٠ م ( ٤٦٢ هـ ) وإستطاع المحافظة على إستقلال ولايته رغم محاولات الفاطميين إسترجاعها ، فبقيت بيده إلى أن إنتزعها الصليبيون عام ١١٠٩ . وتتابع ضياع المدن والقلاع من أيدى الفاطميين ببلاد الشام ففى عام ١٠٧١ ( ٤٦٣ هـ ) فقد الفاطميون مدينة حلب ، كما فقدوا بيت المقدس والرملة فى نفس العام ، ثم دمشق عام ١٠٧٥ م (٤٦٨ هـ) ولم يستطع أمير الجيوش بدر الجمالى الذى دخل مصر ١٠٧٣ م ( ٤٦٦ هـ ) أن يمنح الدولة الفاطمية كل ما كانت فى حاجة اليه من القوة ، بالرغم من هيمنته على شئونها وولايته وزارة السيف والقلم [4] . واضعاً بذلك بداية عهد الوزراء العظام فى مصر .

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨

(٣) ابن ميسر . أخبار مصر ج ٢ ص ٢٨

(٤) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٣ ص ٣٢٠ (تحقيق فؤاد سيد) .

ولم يقتصر الأمر على ضياع نفوذ الفاطميين فى أملاكهم ، واستقلال الأمراء المحليين بإماراتهم ، وما نزل بالدولة من كوارث ، بل إن الانقسامات الداخلية كانت نتائجها بالغة الأهمية ، ذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى توفى عام ١٠٩٤ ( ٤٨٧ هـ ) ، فولى الوزارة بعده إبنه الأفضل شاهنشاه فواصل سياسة والده بل منح نفسه سلطة أوسع ، ولذا دخل الخليفة المستنصر الشهور الباقية من عمره فى حكم هذا الوزير كالمحجور عليه حتى جاز إلى ربه فى شوال من نفس العام ( ٤٨٧ هـ ) فقام الأفضل بالانقلاب السياسى المعروف ، بإقصائه نزار أكبر أبناء المستنصر ، وتوليته الخلافة الابن الأصغر المستعلى بالله [١] ، فساهم بذلك فى تغذية الانقسامات المذهبية والسياسية داخل الدولة ، وبين أتباع المذهب الفاطمى نفسه ، وبذلك لم تستطع الخلافة الفاطمية تلاشى عوامل التفكك والانحلال ، بالرغم أن السلاجقة ما برحوا يعملون على طردها نهائيا من بلاد الشام كلها ، بل أنهم كثيراً ما فكروا فى غـــزو مصر نفسها والقضاء على المذهب الشيعى [٢] .

وقد استرعت حالة الفوضى فى الدولة الفاطمية وضعفها أيام المستنصر بالله نظر المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة الفاطمى ذائع الصيت ، حين زار مصر لأول مرة ، فلم يستطع إخفاء إحساسه باليأس ، فعبر عن خيبة أمله فى الخليفة الفاطمى المغلوب على أمره المسلوب السلطان وحيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ووجه نهار تبرقع بالسحاب وأن المسافة

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ـ نشر الدكتور الشيال ص ٤٨

(٢) Camb. Med. Hist. vol. 5 p. 260.

لعلها تقذفنى فى الإضاعة فى يم ، وتؤدينى من حيث أردت غنما إلى غرم [١]،
وهو الذى عرض حياته لأكبر الأخطار فى المشرق بدعوته للفاطميين ،
وإخلاصه فى نشر مذهبهم فى تلك البلاد ، حتى إضطر فى النهاية إلى الهرب إلى
مصر مطارداً ، فراعه ما عليه خليفتها من ضعف وما تعانيه الدولة من فوضى ،
فاضطربت الصورة التى كونها فى مخيلته عن الخلافة الفاطمية واختلطت معالمها،
والواقع ان حالة الدولة الفاطمية فى أواخر عهد المستنصر لم تكن لترضى مثل
هؤلاء المتحمسين لدعوتها المتأثرين بمذهبها على البعد حين يفدون اليها ويلمسون
بأنفسهم حالتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أثبت الافضل قصر نظره وجهله بطبيعة
الغزو الصليبى حين سارع إلى محاولة التحالف مع الصليبيين عند نزولهم على
أنطاكيه، وحين هلل لانتصار الصليبيين على قوة الأتراك السلاجقة فى شمال الشام،
وقام من جهته باسترداد بيت المقدس عـــام ١٠٩٨ م (٤٩١ هـ) فساهم
بذلك فى إضعاف قوى المسلمين فى مواجهة الغزو الصليبى .

والخلاصة أن الخلافة الفاطمية ، رغم أنها كانت إحدى القوى الإسلامية فى
الشرق عند قدوم الصليبيين إلى الشام ، إلا أن دورها فى أحداث هذا الغزو أبان
عن ضعف وتفكك بالرغم من أنها كانت قادرة على القيام بدوراً كثر فاعلية وأكثر
ايجابية من ذلك ، وليس من شك فى أن تفكير الأفضل المبنى على أساس
القناعة بجنوب الشام بالاضافة الى ما بيده من مدن الساحل الشامى ،
وهو الاتجاه الذى وضح فى سفارته للصليبيين عند انطاكية [٢] . يؤكد جنوح

---

(١) المؤيد فى الدين : سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٨٠ ، ٨٤ ( نشر محمد كامل حسين ).

(٢) Grousset. L'empire du Levant. p. 191

الفاطميين إلى عدم المغالاة فى أطماعهم ، وأن همتهم لم تكن ترقى فى ذلك الوقت الى أبعد من ذلك وهو تأكيد جديد للاحساس بالضعف والقصور لديهم .

كانت هذه حالة الخلافة الإسلامية فى بغداد والقاهرة فى الفترة السابقة لوصول الصليبيين ، وواضح أنها بلغت درجة كبيرة من الاضمحلال والضعف، وإذا عقدنا المقارنة بين موقفهما فى الجانب الإسلامى ، وموقف البابوية المسيحية فى الغرب ، نجد البون شاسعا ، تتضاءل فيه الخلافة الإسلامية بشقيها السنى والشيعى ، وتبدو مجردة من كل مايستر تخاذلها واستكانتها .

ففى الوقت الذى شهد فيه غرب أوربا وفرنسا على وجه الخصوص نشاط البابا أوربان الثانى، وجهوده فى المؤتمرات والمجامع الدينية التى جعل منها هذا البابا منبراً عاليا لدعوته إلى الحرب الصليبية . وحثه الناس على حمل السلاح ،والتأهب للمسير إلى الأراضى المقدسة كانت الخلافة الإسلامية تقبع وراء المهيمنين على شئونها ، ماضية فى دورها الثانوى بالنسبة لمجريات الأمور ، فلا كان الخليفة المستظهر بالله العباسى الذى لم يبلغ من العمر حينئذ أكثر من ستة عشر عاما ، ولا كان ـ الخليفة المستعلى بالله الفاطمى الذى لم يتعد العشرين بعد ، فى موقف يستطيع أى منهما فيه تنبيه الشرق الإسلامى إلى مغبة التنازع والإنقسام ، هذا إذا لم تكن الخلافتين ذاتها فى نزاع وقطيعة تفوق كل وصف حتى لم يعد كبير أمل فى أى تقارب بينهما مع اقتراب الخطر الصليبى ذاته .

أما فى الغرب فقد عقد مجمع كليرمونت فى الفترة بين ١٨ - ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، وناقش المجتمعون فيه فكرة إنفاذ الحملة الصليبية إلى الشرق[١] ،

---

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades I, The First Crusades. p. 107.

ووافقوا عليها ، وأعلن ذلك البابا أوربان الثانى فى خطبته الشهيرة فى جلسة ٢٧ نوفمبر [١] فى شىء من الحماس كان له أكبر الأثر فى تحريك الغرب الأوربى ضد الشرق الإسلامى . إذ لم يكد ينتهى البابا من خطبته حتى هرع اليه أسقف بوى طالبا السماح له بالالتحاق بالحملة المقدسة ، وحذا حذوه المئات ، وبدا أن نوبة الحماس قد اجتاحت المسيحيين بشكل لم يكن يتوقعه أوربان الثانى نفسه [٢].

كما دلت البابوية والكنيسة الغربية ، على مدى حماسها للفكرة حين أعلنت أن أملاك الذين سينخرطون فى الجيش الذاهب إلى الأراضى المقدسة ، والذين سيتغيبون عن ديارهم ، ستكون تحت حماية الكنيسة وفى رعايتها [٣] وما حدث من تعيين قائد روحى من رجال الدين للحملة المقدسة أظهر بوضوح حرص البابوية على ربط هذا الجيش بالتبعية لها ، واستعدادها للقيام بدورها كاملا ، بعكس الخلافة الإسلامية التى غدا من العسير عليها ، بل وربما من المستحيل أن تجمع شمل رعاياها وتوحد جهودهم وهدفهم ، كما فعلت مثيلتها فى الغرب المسيحى .

بل إن تقاعس الخلافة الإسلامية عن قيادة حركة الجهاد الدينى التى تمت بعد ذلك فى السنوات التالية ، أبان أيضا عن قصور همة هذه ـ الخلافة وتهالكها ، ولذا لم نسمع عن حملة مقدسة دعت اليها الخلافة أو نظمتها ، أو قادتها ـ باستثناء المحاولات الباهتة التى قام بها الأفضل فى ظل الخلافة الفاطمية ، رغم ما أصابها من فشل ذريع ، ولم نسمع إلا عن التمنيات الطيبة الصادرة من الخلفاء العباسيين لحملات السلاجقة ضد الصليبيين على عهد السلطان محمد بن ملكشاه دون

(١) Chalandon ; Histoire de la premiére croisade p.37

(٢) Runciman : The first Croisade p. 108

(٣) Runciman ; op. cit. p. 109.

تكلف الخلافة نفسها عبءا أكبر أو مجهودا أعظم ، بالرغم من استنفار المسلمين واستنجادهم الدائم بها طوال تلك المحنة .

### ٣ ـ البيوت العربية والتركمانية والكردية

بجانب القوى الكبرى المشار اليها ، وجدت بيوت أخرى استطاعت أن تقيم حكما ذاتيا فى جهات متفرقة فى شمال العراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى وشاركت فى أحداث العصر ، بشكل محدود ، بل أن وجود هذه البيوت يؤكد قضية التفكك والانقسام الذى منى به المشرق حينئذ .

وقد سبقت الاشارة إلى دور العقيليين العرب ، فى أمارة الموصل وكيف انتهى حكمهم لهذه الامارة ، على يد تاج الدولة تتش ، بعد هزيمة ابراهيم بن قريش العقيلى ، آخر أمراء هذه الاسرة وقتله هو ومعظم أمراء بيته عام ٤٨٦ هـ [1] . لينتهى بذلك عهد هذه الأسرة العربية التى حكمت الموصل ومدت نفوذها إلى جهات أخرى كحلب على عهد شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان يمكن لها أن تمثل احدى القوى الكبيرة فى المنطقة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى لولا تدخل السلاجقه .

أما بنو منقذ فى شيزر فقد استقلوا بها ، منذ أن استطاع أبو الحسن على بن منقذ ، أن يملك حصن شيزر من الأسقف المسيحى صاحبه عام ١٠٨١ م (٤٧٤ هـ) «بمال بذله له وأرغبه فيه إلى أن حصل فى يده وشرع فى عمارته» [2] وقد أثبت بنو منقذ دوما مرونة سياستهم وتكيفهم مع كل القوى المحيطة بهم ، والتى يخشون بأسها على إمارتهم ، مما مكنهم من الاحتفاظ بها زمنا

---

(١) ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ق ١ ص ٦٥ ـ ٦٦

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٣ .

طويلا ، رغم صغرها وضآلة إمكانياتها فى ذلك الجو المشحون المفعم بالأطماع والتكالب على الممتلكات وقد ظل هذا الحصن قائما إلى أن خربته الزلازل عام ١١٥٧ م ( ٥٥١ هـ ) . فاستولى عليه نور الدين محمود فى النهاية [١]

وسبقت الاشارة أيضا إلى قيام بنى عمار فى طرابلس ، وهم من سلالة أسرة شيعية انحدرت مع الفاطميين من بلاد المغرب ، واستطاعت أن تقيم لها حكما استقلاليا فى هذه الولاية بعيدا عن نفوذ الفاطميين ابتداء من عام ١٠٧٠ م ( ٤٦٢ هـ ) ، وحافظ بنو عمار على إمارتهم مدة تقرب من أربعين عاما ، حتى دهمها الصليبيون ، واستولوا عليها عام ١١٠٩م - ( ٥٠٢ هـ ) ، بالرغم مما أبداه صاحبها من نشاط فى سبيل الحفاظ عليها دون جدوى .

ومن الشخصيات العربيـــة أيضا خلف بن ملاعب الكلابى الذى تولى أمر حمص عام ١٠٨٢ مـ ( ٤٧٥ هـ ) بمعاونة شرف الدولة مسلم بن عقيل صاحب حلب والموصل إذ ذاك ، على أثر فشل هذا فى حملته على دمشق ، فرأى وضع ابن ملاعب بينه وبين سلاجقة دمشق ، لما يعلمه من نكايته فى الأتراك وفتكه بمن يظفر به من أبطالهم ، غير أن ابن ملاعب تعرض لغزو السلاجقة عام ١٠٩٠ مـ (٤٨٣ هـ) بقيادة تتش وحليفيه آقسنقر وبوزان ، فاضطر إلى تسليم البلد اليهم ، ثم رحل إلى مصر ، ولكنه عاد إلى أفاميه فأقام بها قليلا حتى طرده منها اقسنقر فى العـــام التالى [٢] وأعاد الفاطميون ابن ملاعب إلى افاميه عام

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٠٥

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠-١٢١ .
ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٢٧ .

١٠٩٦ م ، فظل بها حتى قتله فى النهاية الباطنية عام ١١٠٦م (٤٩٩هـ) [1]

هذا وكانت المنطقة تموج بالقبائل العربية ، التى حافظت على معظم مقوماتها السابقة ، ومن أبرز هذه القبائل ، بنو نمير وبنو عقيل باقليم الجزيرة وبنو كلاب بشمال الشام ، وبنو كلب بوسطه وبنو طى شرق الاردن ، وقد بدأ نفوذ هذه القبائل يقوى منذ فشل الدولة الحمدانية [2] ، ومن ثم أخذت تلعب دورها فى أحداث هذه المنطقة ، وفى الفترة التى نحن بصددها على وجه الخصوص مما ضاعف فى حدة الانقسامات فى هذه البلاد .

أما البيوت التركمانية فأهمها بنو أرتق الذين استطاعوا أن يكونوا لانفسهم أمارات فى جهات متفرقة ، وخاصة بعد أن استولت قوات الدولة الفاطمية على بيت المقدس عام ١٠٩٨م (٤٩١ هـ) ، وكانت اقطاعا لأرتق من قبل السلاجقة[3] ولما توفى أرتق عام ١٠٩١ م خلفه بها ابنه ايلغازى وأقام سقمان الابن الآخر فى أمارة فى حصن كيفا ، كما أقام الاراتقة أمارة أخرى فى ماردين ، واستقل سليمان بن ايلغازى بحكم سميساط [4] ، وقد شارك ( بنو أرتق ) فى أحداث الحروب الصليبية مشاركة فعالة ، وخاصة سقمان وايلغازى ، وتولوا لفترة ، على أيام ايلغازى بن أرتق وبلك بن بهرام بحلب ، حمل راية الجهاد الدينى ضد الصليبيين فى احدى مراحله ، الأمر الذى يستوجب كلمة أنصاف لهم فى هذا المجال .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٥٥.

(٣) العليمى : الانس الجليل ورقم ١٠٧ (مخطوط) .

Encyc. of Isl. Art "Artukids".

(٤) Encyc. of Isl. Art. "Artukids".

أما بنو دانشمند بآسيا الصغرى [١] (١٠٦٣ - ١١٧٤ م) ، فهم عناصر تركمانية ، كان هدفها فى بادىء الأمر الاستيلاء على بعض الأراضى والمدن فى هذه الجهات ، والاعتصام بها وفرض حكمهم على من بها من السكان [٢] ولا شك أنهم أفادوا من خلو سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى بعد مقتل سليمان بن قتلمش ، وغياب ابنه قلج أرسلان ، فقاموا بتحقيق بعض الاستقلال الذاتى فى الجهات التى سيطروا عليها خاصة فى شمال شرق آسيا الصغرى . وكان وجود هذه العناصر التركمانية فى هذه المنطقة بالذات عاملا هاما فى حرمان سلاجقة الروم من بسط سيطرتهم على كل شبه الجزيرة بالرغم من أنهم استطاعوا بسط نفوذهم على جهاتها الداخلية ومده إلى غربيها حتى ساحل بحر إيجه ولما تنبهوا إلى خطر وجود هذه العناصر التركمانية حول الممرات الحيوية فى آسيا الصغرى بدأوا فى مناوئتهم، فى نفس الوقت الذى أخذت فيه القوات الصليبية تطرق آسيا الصغرى .

وثمة بيت آخر بأعالى الجزيرة ، وهو بيت كردى ، حكم ديار بكر بقصبتيها الكبيرتين ميافارقين وآمد وما تبعهما من حصون ومدن صغيرة وهذا البيت هو بيت بنى مروان الأكراد الذين عمرت أمارتهم نيفا ومائة عام، وابتدأت فى ديار بكر عام ٩٩٠م (٣٨٠هـ) حينما ملك الأمير أبو على الحسن بن مروان ميافارقين وآمد، بعد هزيمة ومقتل خاله ويدعى باد بن دوستك الكردى، وهو أول ملك من الأكراد [٣]، حيث قتل على يد الحمدانيين فى العام المذكور [٤] ، فقام ابن مروان

---

(١) أبرز أمرائهم الملك غازى كمشتكين (١٠٨٤ - ١١٢٦ م) يقول ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٩٥ (سنة ٤٩٩) «وانما قيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلما للتركمان ، وتقلبت به الأحوال حتى ملك » .

(٢) Runciman : op. cit. I p. 65.

(٣) الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٥١ - ٥٢

(٤) نفس المرجع ص ٥٨.

بتأسيس البيت المروانى فى ديار بكر وفى سنة ١٠٨٤ م ( ٤٧٧ هـ ) سير السلطان ملكشاه ، فخر الدولة بن جهير إلى ديار بكر لتملكها وإجلاء بنى مروان عنها [١] فاستولى ابن جهير عليها ، وظلت ديار بكر تابعة للسلطنة السلجوقية فى أصفهان حتى توفى السلطان ملكشاه ، فاضطربت الامور بها. ولم يبعث السلاجقة بولاتهم اليها ، وكان ناصر الدولة منصور بن مروان ، قد انتهز فرصة الاضطرابات التى أصابت السلطنة السلجوقية ، واستعاد بعض نفوذه فى إقليم الجزيرة ومن ثم تطلع إلى العودة إلى ميا فارقين، وتهيأت له الفرصة لتحقيق ذلك بإحجام السلاجقة عن المسير اليها أو الاهتمام بها ، فدخلها فى أول عام ١٠٩٣م ( ٤٨٦ هـ ) ولكنه لم يهنأ بها أكثر من ستة أشهر ، حيث انتزعها منه تاج الدولة تتش، وبذلك انتهى حكم بنى مروان الأكراد نهائيا [٢] .

تلك هى صورة المشرق وقت وصول الحملة الصليبية الاولى، لعل خير مايميز وجهها هو الانقسام والتفكك والانحلال والبغضاء بين الحكام والامراء - والخلفاء - فالدولة السلجوقية مزقتها الفتن والحروب تنازعا على السلطة وسلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى عانت من الفوضى بعد مقتل سليمان بن قتلمش كثيرا ، والبيت السلجوقى بالشام تفكك واضمحل بعد مقتل مؤسسه تاج الدولة تتش فى حروب السلطنة ، الذى ترك ولدين لم يكن أحدهما أو كلاهما أهلا للقيام بدور إيجابى فى تاريخ المنطقة . أما فى بغداد فلم يكن فى إمكان الخليفة المستظهر بالله العباسى أن يفعل شيئا فى الوقت الذى ضعفت فيه همة المسيطرين على الخلافة العباسية من السلاجقة أنفسهم وضاعت هيبتهم. أما فى مصر فلم يعد الأمل معقودا على دور ذى فائدة يمكن أن تقوم به الخلافة المتهالكة والوزارة المتصابية، بل لم يعد هناك كبير

---

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٥ .
(٢) الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٢٣٦ .

أمل فى فهم حقيقى لطبيعة الغزو الصليبى نفسه ، لأن الصورة اختلطت أمامهم، فلم يميزوا معالمها إلا بعد فوات الأوان وبعد أن أصبح الاحتلال الصليبى أمراً واقعا أما البيوت الأخرى التى انتشرت فى المشرق فى ذلك الوقت فلا نتوقع لها دورا كبيرا فى أحداث المنطقة نظراً لصغر مواردها البشرية والمادية وضآلة إمكانياتها.

وهكذا دخل الشرق عهد الحروب الصليبية الأولى، وقد اختفى منه كل الرجال الذين كان بامكانهم الصمود أمام هذا الحدث الفريد ، وربما أمكن لهم تغيير وجه التاريخ ، فاختفى ملكشاه ونظام الملك وتتش وسليمان بن قتلمش وشرف الدولة مسلم العقيلى وبدر الجمالى من جانب الحكام ومات المقتدى العباسى وترك المستظهر وعمره نحو ستة عشر عاما ، كما مات المستنصر الفاطمى وقام فى الخلافة المستعلى وهو صغير أيضا ، ولم يعد على مسرح الأحداث فى الشرق - باستثناء الأفضل وزير المستعلى - رجل كبير يتحمل تبعات العصر ، إذ لم يبق سوى بركياروق وقلج أرسلان ورضوان ودقاق والمستعلى والمستظهر ، وكلهم صغـار لم تصقل تجاربهم بعد ، ولم يرتقوا إلى درجة الحدث الكبير ومسئوليته الضخمة ، وتركوا العمل للأمراء والقواد والاتابكة ، فليس من شك أنه كان عهد الاتابكة والقواد والأمراء استنادا إلى الدور الذى قام به كربوغا وباغى سيان وأمراء التركمان وطغتكين وجناح الدولة ونشاطهم الاضطرارى لخلو البـلاد ممن يضعهم على هامش الأحداث ، فصاروا هم الواجهة الكبيرة لأمراء الشرق الاسلامى فى ذلك الوقت .

فإذا كان العالم الاسلامى كما يذهب فريق من المؤرخين المحدثين قد شهد حركة بعث جديدة قرب منتصف القرن الحادى عشر بالذات نظراً لما كان يعانيه من الفوضى والاضطراب فى الأمور السياسية والدينية فى هذه المرحلة ، كمـا

أوجد حاجة ماسة إلى ذلك البعث الجديد وهو الذى صاحبه مجىء السلاجقة واستيلائهم على مقاليد السلطة فى العالم الاسلامى عاملين على توحيده وإعادة بناء مجده ، إلا أن تفكك دولة السلاجقة فى نهاية هذا القرن قد عاق قليلا حركة البعث الجديد بالرغم من أنه لم يتسبب فى القضاء على الفكرة ذاتها [1] ، كما أن الخلافتين السنية والشيعية لم يقدر لهما القيام بدور فعال فيما شهده العالم الاسلامى من بعث وما تم فيه من أحداث كبيرة .

---

(1) Cahen : La Syria du Nurd a l'Epoque de Croisades pp. 374—77.
Von Gruneboum : Medieval Islam. p. 31.
عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ١٤١-١٤٢

## ب ـ الخلاف المذهبي بين السلاجقة والخلافة العباسية من جهة والخلافة الفاطمية من جهة أخرى

من أبرز مظاهر التفكك الذى منى به الشرق الاسلامى عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ذلك الخلاف المذهبي بين الخلافة السنية وحماتها من جهة ، والخلافة الشيعية من جهة أخرى ، وليس من شك فى أن الصراع الذى شهده الشرق الاسلامى بين الاتجاهين وتنافسهما على السيادة أضاف عاملا جديداً فى إضعاف الكيان الاسلامى كله وشغل حيزا ليس ضئيلا فى حياة المسلمين فى ذلك الوقت ، بقدر ما ترتب على ذلك كله من نتائج .

ويذهب فريق من المؤرخين المحدثين الى أن الصراع بين المذهبين السنى والشيعى لم يكن الأساس الذى ترتبت عليه المنازعات السياسية والحربية التى أدت إلى تقسيم بلاد المشرق إلى إمارات ودويلات كثيرة مستقلة ، بل إنه لم يكن العامل الأساسى فى إضعاف وحدة العالم الاسلامى عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، حتى بعد إستقرار السلاجقة (1) .

والواقع أن هذا الخلاف المذهبي وإن لم يكن الأساس فى بروز هذه النتائج ، فإنه لاشك قد ساهم بنصيب كبير فى التفكك والضعف الذى اكتنف المنطقة قبل الغزو الصليبي ، كما أنه أوجد نوعا من التشاحن الروحى والفكرى عند المسلمين ،

---

(1) Cibb : The Caliphate and the Arab States p. 97

العرينى : الشرق الاوسط ج ١ ص ١٣

وجعلهم أكثر إستعدادا لتغليب النزعة الانفصالية المرتكزة على أسس طائفية أو عرقية أو مذهبية . وتاريخ المنطقة يؤكد هذه الحقيقة .

فالفتن المذهبية والصراع بين إتباع المذهبين فى نواحى الشرق - وبصرف النظر عما تطور من خلاف وتنافس بين الخلافتين على المستوى الرسمى قد إستقهم كثير من المحن التى أضافت أعباء جديدة إلى كاهل الخلافتين فى بغداد والقاهرة ، وأوجد نوعا من التنافر بين الرعايا فى كل منها . هذا وأن كان هدفنا هو تتبع جذور الانقسام والصراع بين الخلافتين على المستوى الرسمى ، إلا أننا لانستطيع أن نغفل ما كان يثور بين أنصار المذهبين داخل ما تين الخلافتين، لأن ذلك فيه تجسيم لعنف التفكك والتفتت ، وفيه تأكيد لحالة القلق والفوضى التى عاشتها الشعوب الاسلامية قبل الحكومات حينئذ .

ففى العراق وبغداد على وجه الخصوص استشرت الفتن المذهبية بين السنة والشيعة على مدى القرن الخامس الهجرى كله ( الحادى عشر الميلادى ) وصل الأمر حد القتال بين الطائفتين ، ودام أحيانا شهورا طويلة ، وساعد على ذلك ضعف الخلافة العباسية إذ ذاك عن كبح جماح هذه الطوائف ، ووضع حد لتعصبها ، وأفرد المؤرخون صفحات ضافية من مصنفاتهم لتغطية هذه المصادمات ، كأنها غدت تقليدا من أبرز أحداث العصر ، والشىء الذى يسترعى الانتباه أن هذه المصادمات الحربية جذبت فى بعض أدوارها بعض رجال الدولة الرسميين وبعض القواد ، فانحازوا إلى أطرافها مما ساعد على إذكاء نارها واشتعال لهيبها ، وفى كل الأحوال عانت الدولة نتائج هذه الفوضى .

إشتعلت هذه الفتن بين السنة والشيعة ضارية فى العراق فى أعوام ٤٠٨ ،

٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ هـ كما يحدثنا ابن الاثير [١] ، فاندلعت النيران فى بعض أحياء بغداد ، وتقبع الناس بعضهم بعضا ، ونهب الكثيرون وقتل آخرون ، وعمت الفوضى . وفى سنة ٤٤٨ ، ٤٥٨ هـ أيضا حدث نفس الشىء ورواه لنا أبو المحاسن [٢] ، فى شىء من التأسى ، ولعل أقسى هذه الفتن ما حدث فى أعوام ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ هـ طبقا لما رواه المؤرخ ابن الجوزى [٣] ، لما وقع فيها من ضروب الفوضى بين أتباع المذهبين وانحياز بعض رجالات الدولة من الاتراك إلى صف المتصارعين ، ثم كانت فتنة عام ٤٨٣ هـ [٤] ، وكلها أمثلة لما كان يمر بالدولة من محن وما ينزل بالناس من كوارث ، كانت لها آثارها فى خلخلة الثقة والوحدة والتآلف بين رعايا نفس الدولة وسكان نفس الاقاليم .

وواضح أن هذه الاحداث تصبح خطيرة بالنسبة لكيان الدولة ذاتها وسياستها اذا وجدت هذه الفتن العون الخارجى لاذكائها وازدياد اضرامها كما حدث فعلا . هذا بالرغم من قدم هذه المنازعات المذهبية ، قبل تنافس الخلافتين [٥] .

هذا ما شهده العراق ، أما فى مصر فقد عرف الناس نوعا من هذا النزاع أيضا بين أنصار السنة وأنصار الشيعة ، حتى ليحدثنا المقريزى أن مصر لم تكن

---

(١) ابن الاثير ــ الكامل ج ٧ ص ٢٩٩ ، ج ٨ ص ٦٥ (أحداث السنوات المشار اليها) ــ السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٢٠٨ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٩ ، ٧٧

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٠ ــ ١٦ ص ٢٦ - ٢٧ ، ٤٧ وشذور العقود ورقة ١٤٩ (مخطوط) .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٥) Camb. Med. Hist. vol. 4 p. 301

، تخلو من الفتن فى يوم عاشورا عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب [١] .

وهكذا شهد العالم الاسلامى صور الخلاف والتصادم بين الطوائف المختلفة امتدت الى ما قبل بروز التنافس بين الخلافتين السنية والشيعية على المستوى الرسمى ، وربما الى عهد الفتنة الكبرى ، وعهد على ابن أبى طالب الا أننا نلمس عظم الشقاق والانقسام فى القرن الخامس الهجرى على وجه الخصوص ، وهى المرحلة التى تعنينا فى تقييم آثار هذه الانقسامات المذهبية .

ثم كان التنافس والتنازع بين الخلافتين على المستوى الرسمى تجسيما لحالة الفوضى الدينية التى شهدها المشرق ، وبما نجم عن ذلك من ضعف القـــوى الإسلامية وصرف جانب من اهتمام المسلمين إلى هذه الناحية ، وإيجاد حالة من البلبلة فى العالم الاسلامى كله .

ويكفى لتأكيد هذا ، إلى إنصراف العباسيين إلى محاولة التشكيك فى نسب الفاطميين وعمل المحاضر بذلك وأخذ توقيعات القضاة والشهود والأشراف واتهام الفاطميين بأنهم ديصانية [٢] ، وأنهم مارقون ، وانصراف الفاطميين إلى محاولة انتزاع زعامة العالم الاسلامى من الخلافة العباسية ، وذلك بدلا من توحيد قوى المسلمين واستعادة مكانة الاسلام وإرجاعه إلى سالف عزه وسالف مجده .

---

(١) المقريزى . إتعاظ الحنفاء ١٩٨ ، ابن خلدون — العبر ج٢ ص ٦٠ .

(٢) ابن ميسر . اخبار مصر ج ٢ ص ٦ ، ٣٧ .

السلامى . مختصر التواريخ ورقة ٢٤٨ ( مخطوط ) .

وأبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٣ - والديصانية طائفة من المجوس .

كل هذا يجعلنا نعطى هذه القضية قدرا كافيا من الاهتمام باعتبارها عاملا هاما فيما اكتنف المنطقة من تمزق وتفكك ، وإن كنا مضطرين إلى الرجوع الى الوراء قليلا لعرض أصول هذا الانقسام المذهبي وتتبع جذوره . على أننا يجب أن نسرع الى تسجيل ملاحظة هامة قبل أن نعرض هذا الموضوع وهى أن ازدياد التنازع والاختلاف بين الاتجاهين ، ارتبط كثيرا بمحاولة الدولة الفاطمية تقويض دعائم الخلافة العباسية ، ومد السيادة الفاطمية على ولايات وأقاليم دانت زمنا للعباسيين سياسيا أو روحيا ، فلا شك أن حرص الفاطميين على مد نفوذهم فى المشرق بما يعنية ذلك من اتساع هيبتهم وقوتهم ، صاحبه محاولة القضاء على المذهب السنى بل ومحاولة اجتثاثه من أساسه فى بعض مراحل هذا التنافس والصراع ، واحلال المذهب الشيعى محله .

كانت الجبهة الأولى كمجــال للتنافس والتنازع السياسى والمذهبي بين الفاطميين والعباسيين هى بلاد الشام ، بعد استيلاء الفاطميين على مصر إذ شهدت بلاد الشام امتداد النفوذ الفاطمى وما استتبعه من محاولة نشر المذهب الشيعى بها . حقيقة كانت بلاد الشام مرتعا للإنقسامات السياسية منذ أن ضعفت الخلافة العباسية ، وفقد الخليفة العباسى القدرة على الاحتفاظ بوحدة الدولة ، وانسلخت الإقاليم عن طاعته ، فشهدت الشام حكم الطولونيين والاخشيديين والحمدانيين ، فضلا عن نفوذ القبائل العربية بشماله وجنوبه ، الا أن الوحدة الروحية والمذهبية ظللت هذه البلاد كثيرا ولم تشهد تطاحنا وانقساما دينيا كبيرا كما حدث بعد نشاط الفاطميين فيها ومحاولاتهم الدائبة نشر دعوتهم ، وكما حدث مثلا فى العراق فإذا كانت البلاد قد فقدت وحدتها السياسية ، فإنها لم تكن قد فقدت وحدتها الروحية والمذهبية ، ومن هنا تبدو أهمية الدور الذى لعبته الخلافة الفاطمية الشيعية فى تغذية الانقسامات المذهبية بهذه البلاد .

المعروف أن الفاطميين استولوا على مصر عام ٩٦٨ م ( ٣٥٨ هـ ) ونقلوا اليها خلافتهم الشيعية عام ٩٧٢ م ( ٣٦٢ هـ ) ومن ثم تطلعوا إلى مد نفوذهم الى بلاد الشام والى العراق ومنازعة الخلافة السنية زعامتها للعالم الاسلامى ، وقد نجح الفاطميون الى حد بعيد فى بسط سيطرتهم على بلاد الشام كلها تقريبا فى الفترة بين ١٠٢٨ - ١٠٥٨ م باستثناء مدينة أنطاكية التى ظلت فى حوزة البيزنطيين [١]، ولم يكد ينتصف القرن الحادى عشر الميلادى ( الخامس الهجرى ) حتى كانوا قد بسطوا سلطانهم على معظم جهات الشام وغربى الجزيرة [٢] .

والذى يهمنا فى هذا أن امتداد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام وما استتبعه من محاولة نشر المذهب الشيعى ، وإقامة شعائره فى الخطبة والآذان وغير ذلك ، قد أوجد نوعا من النفور بين طوائف السنة فى هذه البلاد ، كما أن اجتذاب أنصار للمذهب الفاطمى هناك أيضا فتت الوحدة الشعبية وأوجد بذور للانقسام الذى نما وكبر بعد ذلك ، إذ ليس من شك فى أن المذهب الشيعى الفاطمى قد وجد طريقا إلى بعض الجماعات الاسلامية فى جهات متفرقة من بـــلاد الشام فى هذه الفترة بالذات التى صاحبت إمتداد السيادة الفاطمية إذ نسمع عن جماعات « حاكية » و « آمرية »[٣] فضلا عن الدروز والنصيرية والرافضة وغيرهم من غلاة الشيعة ، منتشرين فى قلب سوريا وإلى الجهات الساحلية ( لبنان ) وبالقرب من دمشق وفى جبل السماق وقرب صفد وفى جهات أخرى من بلاد الشام [٤] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٧ ( سنة ٣٥٩ هـ )

(٢) Camb. Med Hist. vol. 4. p. 302.

(٣) الانصارى الدمشقى - نخبة الدهر ص ٢٠٠

(٤) نفس المرجع ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١ .

ورغم ذلك قوبلت محاولات الفاطميين لنشر دعوتهم بمعارضة واستنكار في جهات أخرى من بلاد الشام . فربما استكان الناس أحيانا من الخوف إلا أن النفور مع ذلك لم تمح معالمه بين طوائف السنة، وكلها تأكيدات جديدة لحالة البلبلة والفوضى الدينية التي عاشها المسلمون في ذلك الوقت .[1]

ولكن الأثر الأكبر لإمتداد النفوذ الفاطمي السياسي والديني في بلاد الشام جاء على حساب الوحدة الاسلامية ، وباعد الشقة بين الخلافتين في بغداد والقاهرة ، ووسع الهوة بينهما بما لا يحتمل معها تقاربا بينهما في أي وقت ، بل أرهاصا بمصادمات وحروب ، إذ ظل الفاطميون متحفزين لمد سيادتهم في كل الجهات الخاضعة للعباسيين ، في الوقت الذي نظر فيه هؤلاء إلى المحاولات الفاطمية نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، دون استطاعتهم عمل شيء حاسم يوقف هذا الزحف الشيعي ، نظراً لأن دولتهم كانت تعاني الموت البطيء وتظهر كدولة بدت عليها مخايل السقوط .

أما الجبهة الثانية في مجال التنافس بين الخلافتين ، فقد رغب الفاطميون في جعلها بلاد العراق ذاتها مركز الخلافة العباسية ، راعية المذهب السني، والحقيقة أن الفاطميين مثلما قدر لهم التفوق في بلاد الشام في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، قدر لهم أيضا أن يحرزوا بعض النجاح في الجبهة الثانية في بلاد العراق ، واستطاعوا أن يصلوا بهذا التفوق مداه ، حين إقيمت الخطبة في بغداد

---

(١) الدليل على ذلك ما يرويه أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٨ ، ص ٢٢٤) عندما « أعلن المؤذنون بدمشق : « حي على خير العمل » بأمر القائد جعفر بن فلاح . لم يجسر أحد على مخالفته .. وتألم الناس لذلك » وعند إقامة الخطبة للحاكم بأمر الله الفاطمي في الموصل عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) « جمع معتمد الدولة أهل الموصل واظهر طاعة الحاكم فأجابوه وفي القلوب ما فيها » .

ذاتها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله قرب منتصف هذا القرن ، وكان تطور الأحداث فى صالحهم على هذا النحو مدعاة لقدوم السلاجقة السنيين ، واستيلائهم على مقاليد السلطة فى بغداد ، ووضع الخلافة العباسية تحت الحماية السلجوقية والتصدى لنشاط الفاطميين فى المشرق

ففى بلاد العراق – الجهة الثانية – التى عمل فيها الفاطميون لسلب العباسيين زعامة العالم الإسلامى ، دأب الفاطميون من البداية أى منذ ظهور دولتهم ، على بث دعوتهم فيها وجذب أنصار لمذهبهم من أهلها ، وساعدهم على ذلك ظهور الدعوة القرمطية فى جنوب العراق وهى دعوة قريبة الشبه بالدعوة الإسماعيلية[1] ومن ثم تطلعوا إلى استئصال شأفة الخلافة العباسية ، وخاصة بعد دخول البويهيين بغداد ، وسلبهم الخليفة العباسى ما بقى فى يده من السلطة ، وكان البويهيون يعتنقون المذهب الشيعى على مبادىء الزيدية[2] ، كما كانوا أكثر استعدادا لإقامة الخلافة الشيعية ببغداد ، لولا خوفهم على قوتهم وسلطانهم بالدولة ومع هذا أغضوا الطرف من دعاة الفاطميين فى البلاد الخاضعة لنفوذهم وكان نتيجة ذلك أن لقيت الدعوة الفاطمية رواجا فى بعض جهات العراق فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى العزيز بالله بالموصل ثم للخليفة الحاكم بأمر الله بالموصل وأعمالها والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها عام ١٠١٠ م ( ٤٠١ هـ ) على يد الأمير قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل[3] .

غدت الفرصة مواتية لعمل أكثر جدية ضد هذه الخلافة فى بغداد وهو

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٥ .

(٢) Tomas Arnold ; The Caliphate p. 61, 67.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٥٣ (سنة ٤٠١ هـ)

ماحدث على يد البساسيرى قرب منتصف القرن الخامس الهجرى . ذلك أن البساسيرى ويدعى أبو الحارث أرسلان البساسيرى كان من قواد بنى بويه الأتراك واستطاع أن يمكن لنفسه ببغداد حتى عينه الخليفة العباسى القائم بأمر الله ١٠٢٠-١٠٧٤ م ( ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ ) رئيساً للأتراك ، وقلده الأمور ... وقدمه على جميع الأقران ، إلا أن العلاقة سرعان ماساءت بينه وبين الخليفة بسبب السعاية بينهما ولاتهام الخليفة إياه بالتدبير ضده وعزمه على خلعه وبمكاتبة الفاطميين

وكان البساسيرى قد تأثر فعلا بالدعوة الفاطمية وأصبح يرى ضرورة العمل من أجلها وخاصة بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسى، لذلك إضطر الخليفة أن يراسل طغرلبك السلجوقى عام ١٠٥٤ م ( ٤٤٦ هـ ) سرا يحثه على المسير إلى العراق وكان إذ ذاك بنواحى خراسان[1] وكان طغرلبك سنيا حنفيا متعصبا[2]، فلذا لم يتوان عن تلبية طلب الخليفة لحمايته من ناحية ولبسط نفوذ السلاجقة على العراق بعد أن دان لهم المشرق بالسيادة من ناحية أخرى .

قدم طغرلبك إلى بغداد فى نهاية عام ١٠٥٥م (٤٤٧ هـ) ، وهرب البساسيرى منها إلى الرحبة ومنها كاتب الخليفة المستنصر الفاطمى يذكر له دخوله فى طاعته ، وأنه على إقامة الدعوة له بالعراق فأمده بالأموال وولاه الرحبة ، [3] وغادر طغرلبك بغداد فى نهاية سنة ٤٤٨ هـ .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٦ ( سنة ٤٤٦ هـ )

(٢) Browne : Account of a rare, manuscript. p. 571.

Arnold : The Caliphate p. 80.

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠١ المؤيد فى الدين - السيرة ص ٩٦.

لم تدع الخلافة الفاطمية تأجيجا لنار الصراع والتنافس بينها وبين الخلافة العباسية وحماتها الجدد، هذه الفرصة المواتية، فلم تأل جهدا فى مد البساسيرى بالمعونة والمساعدة حتى يقف فى وجه الخليفة العباسى فما لبث بفضل هذه المعونة وبفضل مبعوث الخلافة الفاطمية المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة، أن قوى أمره فى شمال الشام وشمال العراق، وانحاز اليها صاحب حلب ثمال بن صالح بن مرداس، وصاحب الموصل قريش بن بدران، كما استطاع المؤيد فى الدين استمالة دبيس بن مزيد وغدا نجاح البساسيرى أمرا ميسورا[1].

وفى تلك الاثناء شغل طغرلبك، بالثورة التى أحدثها أخوه ابراهيم ينال بخروجه عليه ومفارقته إياه. قاصدا همدان من بلاد الجبل[2]، وقد قيل أن المصريين كاتبوه،[3] مما اضطر طغرلبك إلى المسير فى أثره للقضاء على فتنته، وما حدث من اضطراب أمور المشرق خلال تلك الفتنة انعكس على بغداد، فاضطربت.. وأرجف المرجفون باقتراب البساسيرى، حتى لم يجد صعوبة كبيرة فى دخول بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)، ومعه الرايات المصرية، وفى صحبته قريش بن بدران العقيلى، وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى جامع المنصور، بعد أن أتى رجاله كثيرا من أعمال السلب والنهب وإحراق الأسواق والتعدى على دار الخلافة، حتى لجأ الخليفة العباسى إلى قريش بن بدران الذى بعث به إلى حديثة عانة[4]

وصفت الأمور للبساسيرى فى بغداد فأخذ يعمل على إحلال السيادة

---

(١) المؤيد فى الدين. السيرة ص ١٠٠ ص ٣ ا ص ١٢٥.

(٢) Le Strange : The Londs of the Eastern Caliphate p.5

(٣) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٨٢ (سنة ٤٥٠ هـ)

(٤) بلد من الرقة وهيت على نهر الفرات (ياقوت: معجم ج ٣ ص ٥٩٥).

الفاطمية محل العباسية في أنحاء العراق ، فقام بفتح واسط والبصرة ، وأقام فيهما الخطبة للمستنصر بالرغم من أنه لم يلق معاونة من الفاطميين(١). في هذا الدور من أدوار مناهضة العباسيين، ومع هذا فقد ظل مخلصا للفاطميين يحاول نشر دعوتهم في أرجاء العراق جميعا .

أما طغرلبك فبعد أن قضى على فتنة أخيه ابراهيم ينال ، أصبح في وضع يسمح له باستئناف العمل ضد البساسيرى ، فسار إلى بغداد ، فلما قاربها ، فارقها البساسيرى وانسحب إلى الكوفة بمن معه ، وأرسل طغرلبك في طلب الخليفة ، واستقبله عند النهروان ، وقبل الارض بين يديه سبع مرات ، ثم أرسل جيشا تتبع البساسيرى ، وأوقع به الهزيمة وقتله في نهاية عام ١٠٥٩ م ( ٤٥١ هـ ) وبذلك زال نفوذ الفاطميين نهائيا من بغداد وأعيدت الخطبة للعباسيين ، ووضعت الخلافة السنية تحت حماية السلاجقة لأول مرة التاريخ(٢) كما انتهى بذلك دور هام في الصراع بين المذهبين السنى والشيعى كانت الغلبة فيه لأهل الشيعة .

ولعله لايغيب عن الذهن أن محاولة انتزاع زعامة العالم الاسلامى من الخلافة العباسية ، كانت الهدف الأكبر لمحاولات الفاطميين في هذا الدور ، والدليل على ذلك ، بالاضافة إلى ماذكره ، مارواه المؤرخ ابن ميسر من أن الفاطميين سعوا للحصول على اعتراف الدولة البيزنطية بزعامتهم للعالم الاسلامى فيذكر أن القاضى أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من مصر إلى القسطنطينية ، برسالة في عام ٤٤٧ هـ ( ١٠٥٥ م ) . وفى نفس الوقت وصل رسول طغرلبك إلى القسطنطينية ، يلتمس

---

(١) المؤيد فى الدين . السيرة ص ١٨٢

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ص ٤٠٣ ،

Arnolb : The Caliphate. p. 79.

من ملكتها أن يصلى فى جامع القسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم العباسى فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فتضايق هذا وأمر بالقبض على جميع مافى كنيسة القيامة .. وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد مابين المصريين والروم » [1] . وواضح أن الفاطميين أساءهم كثيرا فوز السنيين بهذا الاعتراف من الدولة البيزنطية .

وعلى أى حال كان فرض الحماية السلجوقية على الخلافة السنية فى بغداد بداية دور جديد فى قصة النزاع بين المذهبين ، كانت فيه كلمة أهل السنة هى الأرجح فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بفضل هذه الحماية الفتية وما أضفته من هيبة على أهل السنة ، وبفضل الجهود التى بذلها أيضا نخبة من فقهاء الإسلام لاحياء السنة وإعطائها دفعات قوية لتجابه النزعات والنحل الأخرى وخاصة من داخلها ، ولعل أبرز أولئك الفقهاء حجة الاسلام الذائع الصيت الغزالى ( ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ) الذى يرجع اليه الفضل فى إتمام النصر للسنة على أهل الاعتزال [2] هذا من جهة ومن جهة أخرى كان للظروف التى مر بها أقطاب المذهب الشيعى فى مصر ومانزل بهم من محن فى ذلك الوقت أثر فيما حل بمذهبهم من انتكاسات .

فقد أخذت السيادة الفاطمية تنحسر عن أقاليم كثيرة وبلاد عدة جاهدوا فى البداية لضمها لحظيرتهم ونشر دعوتهم بها ، وبدأ نشاط السلاجقة وخاصة على عهد ألب أرسلان وملكشاه يقوض دعائم السيادة الفاطمية ومذهبها الشيعى .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٧ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٤ .
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣ ( سنة ٥٠٥ هـ )

فى عام ١٠٧١ م ( ٤٦٣ هـ ) أخضع ألب أرسلان صاحب حلب المرداسى الذى سارع بقطع الخطبة العلوية وأوقام الخطبة العباسية[1] ، كما بادر أمير مكة بالدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسى والسلطان ألب أرسلان[2] ، وتمكن أتسز التركمانى من الاستيلاء على بيت المقدس والرملة ثم دمشق عام ١٠٧٥ م ، وأزال منها النفوذ الفاطمى وأبطل الآذان « بحى على خير العمل » وغدا المذهب الشيعى يعانى تضييقا شديدا فى هذه البلاد .

وصل الأمر حد إقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله فى مصر ذاتها فى جميع أنحاء الوجه البحرى وذلك بفضل حركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى الذى كان يتولى قيادة الأتراك فى جيش الخلافة الفاطمية ، ولكنه خلع طاعة المستنصر بالله عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) ، وكاتب السلاجقة لإمداده بالنجدة ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول اليه السيادة على مصر جميعها[3] . فرحب بذلك السلطان ألب أرسلان إلا أنه شغل فى العام التالى بحرب البيزنطيين .

غير أن ناصر الدولة لم يثن عن عزمه ، فسار إلى مصر حيث أوقع بالجيش الذى أنفذه المستنصر لمحاربته ، وحذف اسمه من الخطبة عام ١٠٧٢ م فى الوجه البحرى وسار بجيشه الكبير من العرب والبربر إلى الفسطاط فتولى الحكم فيها ،

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨ ( سنة ٤٦٣ هـ )
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٧ ( سنة ٤٦٢ )

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ١٩ — ٢٠

ثم سار إلى القاهرة وبالغ فى إهانة الخليفة الفاطمى « وكان يظهر التسنن من بين أهله ويعيب المستنصر » [1] ، إلا أن حركته لم يقدر لها النجاح فى النهاية إذ سرعان ماثار به الأتراك ووضعوا حدا لمشروعاته. [2]

وليس من شك فى أن ضعف نفوذ المذهب الشيعى فى هذا الدور ارتكز أساسا على بعض العوامل الداخلية فى مصر ، مما جعل الدعوة الفاطمية تعانى ضغطا شديدا من المد السنى الجارف فى المنطقة ، فبالإضافة إلى ضعف شخصية الخليفة المستنصر بالله ، وطول مدة حكمه ، وتحكم الوزراء فى الدولة وتزول الكوارث الاقتصادية بمصر [3] ساهم الانقسام الذى حدث بين الاسماعيلية أنفسهم بعد موت المستنصر إلى نزاريه ومستعلية والانقلاب السياسى الذى قام به الوزير الأفضل فى تنحية نزار وتوليته المستعلى الحكم ، فى إضعاف الدعوة الفاطمية وجعلها أكثر ميلا إلى الاستكانة لضربات أهل السنة ، والمجاهدة فى الحفاظ على مابيدها من أقاليم وعدم الرغبة فى مد السيادة الشيعية أكثر من ذلك، لذا تركت الجو ممهدا لعمل الجبهة الأخرى .

ويستنتج من كل ماسبق أنه كما شهد النصف الأول من القرن الخامس الهجرى مدا شيعيا فى قلب الخلافـــة العباسية ، حتى قامت الدعوة الفاطمية فى بغداد نفسها على يد البساسيرى لمدة عام تقريبا ، شهد النصف الثانى من هذا القرن أيضا رد الفعل عند السلاجقة بصفتهم حماة المذهب السنى ، حتى قامت

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١١٧ ( سنة ٤٦٥ هـ )
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٢٢ .
(٣) المقريزى : إغاثة الامة بكشف الغمة ص ٢٤

بمصر الخطبة للخليفة العباسي على منابر الوجه البحرى ، وذلك بفضل حركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان ، وكما لم يقدر للبساسيرى النجاح فى حركته أكثر من عام فى بغداد لم يقدر أيضا النجاح لناصر الدولة فى مصر أكثر من ذلك . هذا كله يؤكد أن الفترة السابقة لوصول الصليبيين شهدت صراعا كبيرا بين أنصار المذهبين تنافسا على السيادتين الزمنية والروحية فى العالم الاسلامى وذلك على المستوى الكبير بين الخلافتين والحكومتين فى بغداد والقاهرة - وعلى المستوى الشعبى بين الطوائف المختلفة فى العراق وفى مصر وفى الشام وفارس وغيرها من أقطار العالم الاسلامى ، وفى كل الأحوال عانى العالم الاسلامى نتائج هذا الانقسام .

على أن الدارس لا يستطيع أن يغفل أثر الدعوة الاسماعيلية وأتباعها من الباطنية ، والتى لقيت رواجا كبيرا فى المشرق فى فترة الحروب الصليبية وكان لها آثار بعيدة المدى بالنسبة لحركة الجهاد الدينى على وجه الخصوص ، ذلك أن كثيرا من دعاة الجهاد الدينى والشخصيات البارزة حينئذ لقيت مصرعها على يد أتباع هذا المذهب فى شىء من الوحشية مما نتج عنه تصدع الجبهة الاسلامية فى مواجهة الصليبيين فى بعض مراحل الجهاد الدينى ضدهم ، وخلا الميدان أحيانا من شخصيات تفجر طاقة المسلمين فى مناهضة الاستقرار اللاتينى فى المنطقة نتيجة لهذه الاغتيالات حتى لنعجب من قصور همة أتباع هذا المذهب ومؤيدى الانقسام الطائفى إذ ذاك عن النيل من الجبهة الصليبية ، وتوجيه همتهم إلى الجانب الاسلامى والقيام بالاغتيالات السياسية لكثير من الرجال الذين مابرحوا يحملون لواء الجهاد ضد الصليبيين .

وكيفما كان الأمر فان جذور الانقسام المذهبى كانت قد امتدت إلى ماقبل الغزو الصليبى ورسخت فى أعماق المسلمين ولونت علاقاتهم فيما بينهم ، بل أن الانقسامات الداخلية بين أتباع المذهبين أنفسهم ، بين الرافضة والحنفية والحنابلة من أهل السنة [1] ، والاسماعيلية والنصيرية والدروز والحشيشية من الشيعة [2] ، كانت مظهرا من مظاهر التفتت والفوضى أيضا وتأكيدا لسريان روح التعصب الطائفى والانحلال الفكرى .

وبوصولنا إلى الفترة السابقة مباشرة للحروب الصليبية نجد أن الفتنة بين السنة والشيعة فى بغداد لم تنقطع أيام السلطان ملكشـــاه وقبل الغزو الصليبى بسنوات قليلة وعلى المستوى الشعبى ، وقد أظهر هـــذا السلطان شيئا من الاعتدال فى معالجة هذه الفتن حتى انهم باللاين فى معاملة الشيعة وكثر الكلام على السلطان ، وقال العوام هلك الدين ومات السنة [3] » بل اتهم ملكشاه صراحة بالميل إلى عقيدة الباطنية .

حقيقة حاول السلطان ملكشاه تخفيف حدة التوتر بين أنصار المذهبين ويؤكد هذا زيارته لمشهد الحسين فى عام ٤٧٩ هـ ( ١٠٨٦ م ) حيث أمر بعمارة سوره ، كما زار مشهد على عليه السلام ، وأطلق لمن فيه ثلثمائة دينار ـ وتقدم باستخراج نهر من الفرات يطرح الماء إلى النجف » [4] .

---

(١) السلامى : مختصر التواريخ ورقه ٢٦٠ ، ٢٦٩ ( مخطوط ).

(٢) الانصارى الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٣

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٤٨

(٤) نفس المرجع ج ٩ ص ٢٩

إلا أن ذلك لم يكن يعنى ميله إلى هذا المذهب ، وقلة تحمسه للمذهب السنى بل إن المتتبع للعلاقات بين هذا السلطان وبين الخليفـــة المقتدى ( ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ ) يستطيع فى يسر وسهولة فهم الفتور الذى اعترى تلك العلاقات فى بعض أدوارها حتى تحدثنا النصوص أن ملكشاه قدم بغداد لآخر مرة فى حياته عام ١٠٩٢ م ( ٤٨٥ هـ ) وفى نيته إخراج المقتدى من بغداد [١] ، وفضلا عن ذلك يبدو أن ملكشاه أراد بزيارته تلك المشاهد التى يعظمها الشيعة تخفيف حدة التوتر ، وتقليل روح التعصب والفتنة بين الطوائف فى بغداد ، فجهود ملكشاه ضد النفوذ الفاطمى الشيعى فى الشام وفلسطين بل ورغبته فى غزو مصر نفسها [٢] ، ينفى عنه اللين فى مجابهة هذه الدعوة ، بل أن تتبعه لدعاة الاسماعيلية ببلاد فارس وتشدد فى معاملتهم وتشدد وزيره نظام الملك تجـــاه الشيعة كلها قرائن تؤكد عزوف ملكشاه عن الميل إلى الاتجاه الآخر [٣] .

وهكذا ارتبطت السيادة السلجوقية على العـــراق والجزيرة ومعظم جهات الشام ، بنصر المذهب السنى على حساب السيادة والنفوذ الدينى والسياسى الفاطمى ، واصـــل فى ذلك تجسيم لازدياد الهوة بين المذهبين وخاصة فى الربع الأخـــير من القرن الحادى عشر الميلادى ( الخامس الهجرى ) وهى الفترة السابقة للغزو الصليبى للمنطقـة ، فان لم يكن هذا النزاع المذهبى هو المسئول الوحيد عن الحروب التى أدت إلى

---

(٥) جمال الدين الوزير : أخبار الدول المنقطعة ورقة ١٥٥

(١) عماد الدين : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ - ٦٦

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٢٧

ظهور الدويلات المستقلة الكثيرة فى غربى آسيـــا فانه ليس بريئا من مسئولية الشاحن الفكرى بين طبقـــات الأمة والصراع الطائفى بينهم . وهى التى تجعلهم أكثر استعدادا لتغليب الاتجـــاه الانعزالى والنزعة الانفصالية القائمة على أسس طائفية أو مذهبية أو عنصرية فلا شك أن الوحدة الروحية تلقى ظلها على الاتجاهات السياسية فى الامم وتجعلها أكثر تقبلا لفكرة العالمية ونبذ الفكرة الاقليمية .

... ... ... ...

## جـ - تفتت بلاد الشام إلى وحدات سياسية صغيرة وأثر ذلك

ظهر من العرض السابق كيف عانى المشرق من حدة الانقسامات السياسية والمذهبية ، وشدة التنافس بين أمرائه وحكامه فى السنوات السابقة لوصول الحملة الصليبية الأولى ، وكيف كان الانقسام فى بلاد الشام بالذات شديدا والتفكك ظاهرا ، فلم تأت الحملة الصليبية الأولى إلا وهذه البلاد تنقسم إلى مجموعة من الوحدات السياسية المصغرة المتنافرة ، الأمر الذى ساعد على سهولة اختراقها والوصول إلى الهدف دون مقاومة كبيرة.

ولا شك أن بلاد الشام كانت قد تمتعت ، تحت حكم السلاجقة قبل وفاة ملكشاه وتتش بفترة تماسك ، مالبثت أن انقلبت إلى فرقة فى الآونة الأخيرة بشكل حاد ، حتى ليشعر عابر تلك البلاد حينئذ ، إذا انتقل من مدينة إلى أخرى مجاورة ، أنه تخطى حدود أمارتين ، كل منها لها أمير مستقل لا تربط بينها صلة أو تجمعها علاقة ، وليس هناك ما يجسم ذروة التفكك أكثر من هذا[1] .

وقد سبقت الاشارة أيضا إلى أن الدولة السلجوقية هى المسئولة عن تفتت ممتلكاتها فى بلاد الشام بهذه الصورة ، نظراً لما انطوت عليه سياستها فى الفترة الأخيرة من أخطاء لم تظهر فى حياة ملكشاه ولكنها بدأت فى الظهور بعد وفاته مباشرة .

ذلك أن السلاطين السلاجقة دأبوا على إقطاع أجزاء من الامبراطورية

---

(1) Runciman : op. cit. I. p. 78.

لافراد أسرهم وأبنائهم [١] ، وكذلك لكبار قوادهم ورجالهم الأوفياء [٢] ، فاتخذ هؤلاء الجند ، واستعانوا بالقبائل فى تكوين جيوشهم الخاصة ، ومن ثم بدأوا فى التمكين لأنفسهم بمرور الوقت ، وأعطوا إقطاعاتهم صفة الدوام بالرغم من أن الدولة السلجوقية لم تقصد فى بداية الأمر إلى ذلك . وهكذا أضحت الدولة بمرور الوقت عدة ممالك يربط بينها الولاء للسلطان السلجوقى ، وهو رباط فى الواقع ليس متينا سرعان ما ينقطع أمام أى اهتزاز يصيب السلطنة ذاتها أو يزعزع من هيبتها .

أما القواد الأتراك الذين قلدهم السلاطين بعض الولايات ، فقد كان عليهم ـ بحكم اقطاعاتهم ، أعداد الجيوش ، بحيث إذا دعت الحاجة إلى استدعاء الأمير بجيشه كان عليـــه أن يتحرك ليلحق بجيوش السلطان ، وتحدثنا النصوص أن السلطان ملكشاه كثيرا ما كان يبعث فى طلب ولاته (مماليكه) وفرقهم العسكرية فيسيروا اليه فى بغداد فى أحسن تجمل واستعداد [٣] ، فيستعرضهم ، وعندما تنتهى مهمتهم يأمرهم بالعودة .

وطالما كان السلطان قادرا على ربط هذه الوحدات والولايات برباط الولاء له طالما ظلت الامبراطورية بأقاليمها وولاياتها متماسكة متحدة ، غير أنه حدث بعد وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ م أن زال هذا الرباط ، وبرزت المطامع ،

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٩٠-١٩١ (سنة ٤٩٠هـ) .
وابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٠٩
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ ،
وابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤
(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨

مطامع القواد والولاة وأفراد البيت السلجوقى أيضا ، وتنافسوا فى تثبيت استقلالهم ، ومن ثم اضطربت أحوال الامبراطورية ، وسادت الفوضى حتى وجد أفراد البيت السلجوقى أنفسهم صعوبة كبيرة فى تأكيد سلطانهم على أتباعهم، وبذل تاج الدولة تتش ، فى الفترة التى أعقبت وفاة ملكشاه جهدا كبيرا فى اخضاع القواد والولاة فى شمال الشام، لأن هؤلاء اعتقدوا أن الفرصة قد سنحت لإقامة حكم ذاتى لهم بما فى أيديهم من ولايات ، نظرا لما حل بالسلطنة من وهن، وما اعتراها من ضعف .

عانت بلاد الشام إذن من هذه الفوضى بعد موت ملكشاه ، ثم لما اختفى تاج الدولة تتش واختفى كذلك أبرز أولئك القواد والأمراء المحليين زاد التفكك وظهرت الوحدات السياسية الصغيرة التى كان بعضها لايتعدى أسوار مدينة واحدة كما سبقت الاشارة .

ولم يكن النظام الادارى هو العامل الوحيد المسئول عن إبراز هذه الوحدات المصغرة ، وإنماء روح الاستقلال الذاتى لدى الأمراء والولاة ، إذ أن « نظام الأتابكة » الذى درج على أتباعه السلاجقة ساهم بنصيب أكبر فى ذلك أيضا .

و « أتابك » كلمة تركية تعنى الأمير الوالد « أتا » بمعنى اب ـ و « بك » بمعنى أمير وأطلقت على الوصى أو المؤدب لابناء السلاطين السلاجقة . والذى كان يرتبط بالأمير الصغير والمسئول عن تربيته وتنشئته ويبدو أن أول ما عرف لقب « الاتابك » فى الدولة السلجوقية

عرف فى بداية سلطنة ملكشاه ، إذ أنه أضاف هذا اللقب إلى ألقاب وزيره نظام الملك رمزا لتفويضه جميع شئون الدولة ، وربما عرف هذا اللقب قبل ذلك على عهد ألب أرسلان[1] ولكن منذ وفاة ملكشاه استخدام هذا اللقب ، وعرفت الدولة وظيفة الأتابك بصفة ثابتة ، وأصبح لكل أمير سلجوقى - تقريبا - أتابكه وخاصة إذا منح اقطاعا أو احدى الولايات وكان الأتابكة أحيانا يمتون إلى الأمراء بصلة القرابة من جهة الأب . ثم توسع السلاجقة فى اطلاق هذا اللقب حتى شمل قواد الجيش ثم منحه السلطان كلقب شرف للعظماء من دولته [٢] .

كان دأب السلاطين على أقطاع أبنائهم وأفراد أسرتهم الصغار حكم الاقاليم والمدن وارسال أتابكتهم معهم يحكمون باسمهم وربما يصبح الأمراء الصغار قادرين على تحمل أعباء ولاياتهم عاملا هاما فى ازدياد نفوذ الأتابكة ، أو الأمراء المؤدبين ، لما تمتعوا به من سلطة أبوية على الأمراء الصغار ولطلاقة أيديهم فى تصريف أمور الولايات التى وجدوا بها وخاصة فى المجال العسكرى ، بما يعنيه ذلك من توطيد مركزهم واستخدام الجيش فى أغراضهم . فضلا عما درج عليه الأتابك من تزوج والدة الأمير السلجوقى ، وتزوج الأمير ابنة الأتابك[٣] .

---

(١) Ency. of Isl. Art. "Atabak" by CL. Cahen

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٤

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ .

وحينما ضعفت الدولة السلجوقية انتهز الأتابكة الفرصة ليستقلوا بالولايات التى هم فيها ويقيموا بها حكما وراثيا فى أبنائهم ، ومن الأمثلة على ذلك أتابكية دمشق التى أسسها ظهير الدين طغتكين عام ١١٠٤م (٤٩٧ هـ) وظلت مدة طويلة وراثية فى أبنائه مستقلة وصمدت كثيرا لمحاولات ضمها وتوحيد الجبهة الاسلامية فى الشام وشمال العراق ، على يد زنكى إلى أن استطاع نور الدين محمود أن يضمها لملكه ويوحد بها جبهة المسلمين سنة ١١٥٤ م - وكذلك أتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر ابتداء من عام ١١٢٧ م (٥٢١ هـ) .

فنحن إذن أمام عاملين هامين كان لهما أثر فى التمهيد لظهور التفتت والانفصال فى املاك السلاجقة ، وأعنى بها النظام الادارى ونظام الأتابكة ، هذا مع وجود الظروف المواتية وتتمثل فى خلو السلطنة السلجوقية من سلطان يحول دون انفراط عقد الامبراطورية وتفكك وحدتها .

فبالنسبة للنظام الادارى ، نجد أن زيارة ملكشاه لبلاد الشام فى عام ١٠٨٧ م (٤٩٧ هـ) ترتب عليها منح بعض رجالات الدولة ولايات - واقطاعات ، صار أغلبها فيما بعد يمثل الوحدات السياسية المنفصلة التى لم تكن سلطات حاكمها فى أغلب الاحيان تتعداها إلى غيرها من المدن المجاورة .

فقد منح ملكشاه حلب لقسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى ، ومنح انطاكية لياغى سيان ، وأعطى الرها للامير بوزان ، وأقطع حران لمحمد بن شرف الدولة مسلم ، وبدخول أمير شيزر ، وهو الامير نصر بن على بن المقلد بن منقذ فى طاعته ، وتسليمه اياه اللاذقية ، وفاميه وكفر طاب ، أقره ملكشاه على حكم شيزر ، وكان تاج الدولة تتش مستوليا على دمشق وبيت المقدس والرملة ،

فلم ينتزع منه ملكشاه شيئاً ولكنه منعه فقط من توسيع ملكه فى بلاد الشام أو ابتلاع اجزاء أخرى ، وهكذا عاد ملكشاه من بلاد الشام ، وقد وضح بها ملامح الامارات التى استقلت وانفصلت عن الدولة بعد وفاته وبعد مقتل أخيه تتش ، بالرغم من أنه لم يكن يقصد ذلك ، لان معظم هذه الولايات ظلت بيد حكامها الذين عينهم السلطان عند قدوم الصليبيين ، ولكن مع وجود فارق واحد هو عدم تبعيتها للسلطان السلجوقى ، بل كانت قد تنصلت كثيرا من هذه التبعية المطلقة ، واستقلت بنفسها وفى نفس الاطار الذى تركها فيه ملكشاه تقريبا وهكذا يسأل النظام الادارى السلجوقى عن هذا التفتت الذى أصاب الامبراطورية فى الفترة الحرجة .

وبالإضافة إلى وجود هذه الولايات المصغرة ـ أو الوحدات السياسية الصغيرة نجد مجموعة من المدن والولايات الأخرى تحمل نفس الطابع الاستقلالى الانعزالى أشرنا إليها فيما سبق ، ومنها طرابلس التى ظلت تحت حكم آل عمار بما كانت تشرف عليه من الموانى والمدن الصغيرة شمالا وجنوبا وكذلك كانت بيت المقدس قد منحت للقائد التركمانى المعروف أرتق بن أكسب من قبل تاج الدولة تتش ، ولما توفى هذا خلفه فيها أبناؤه كما سبقت الاشارة أيضا ، كل هذا مع بقاء النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ممثلا فى أغلب المـوانى الساحلية التى ظل الأسطول المصرى يرتادها فى ذلك الوقت دون أن يستطيع السلاجقة الاستيلاء عليها .

أما نظام الأتابكة فقد ساهم بنصيب فى هذا التفتت ، وقد عرفته بلاد الشام منذ مقتل تاج الدولة تتش فقد ظهر الأتابكة فى حلب ودمشق ـ كما سنوضح ـ إلا أن الأمر تدرج فى دمشق نحو استئثار الأتابك بأمورها ثم إحلال نفسه محل

بيت تتش وجعل حكم دمشق وراثيا فى أبنائه هو ، ولكن لم يحدث ذلك فى حلب ، ولم تتحول حلب إلى أتابكية يتوارثها أبناء الاتابك ، وهذا هو الفارق الوحيد بين الاثنين .

فبعد مقتل تاج الدولة تتش عام ١٠٩٥ م ، سارع ابنه رضوان إلى مدينة حلب حيث أقام لنفسه حكما فيها بمعونة جناح الدولة الحسين ، وكان أتابكة فى حياة أبيه ، وهيمن جناح الدولة على شئون الحكم فى حلب فترة وشارك فى الأحداث إذ ذاك ، ولكنه تحت وطأة ظروف خاصة آثر الانسحاب منها إلى حمص حيث أقام لنفسه فيها إمارة مستقلة .

أما فى دمشق فقد تملكها دقاق بن تتش ، ثم وصل إليه ظهير الدين طغتكين الذى غدا أتابكه والذى لعب دوراً هاما فى الأحداث انتهى باستئثاره بحكم الولاية ، لذا يجدر بنا أن نتتبع نشاطه منذ التحاقه بخدمة تتش حتى نجاحه فى اقامة أتابكية مستقلة بدمشق .

كان ظهير الدين طغتكين من أقرب خواص تاج الدولة تتش ومن أخلص مماليكه ، وقد رتبه فى أمارة ميافارقين بعد استيلائه عليها ، وهو يتجهز لطلب السلطنة السلجوقية [1] وقد أظهر طغتكين مهارة فى تسيير أمور ولايته ، فعندما ثارت آمد ـ وكانت تابعة لميافارقين ـ قام طغتكين بحصارها وإخضاعها ، وقتل جماعة من الثائرين بها ، وبقيت آمد بحكم تاج الدولة تتش وانتقلت بعده إلى الملك دقاق ، [2] وأثبت طغتكين اخلاصه لتاج الدولة تتش ولبنيه .

---

(١) الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٩ .

ويبدو أن طغتكين كان يتطلع إلى الفوز بولاية دمشق نفسها بعد مقتل تاج الدولة تتش بحكم خدماته السابقة لهذا البيت ، وربما لعدم استقرار حكمه بولاية ميافارقين وآمد من ديار بكر ، لما كان يجرى بهذه البلاد من الانتفاضات بسبب التقلب بين حكم السلاجقة والمروانيين [1] ولذا أراد طغتكين أن يمكن لنفسه بولاية كدمشق معتمدا على ماله بها من رفقاء وأصدقاء منذ عهد تتش ومنتهزا فرصة صغر أبناء تتش وحاجتهم إلى المؤازرة والعون ، وعن طريق ذلك تتهيأ له الفرصة للتمكين لنفسه بها .

وتشير الدلائل إلى أن طغتكين كان وقت مقتل تتش لا يزال واليـــا على ميافارقين وملحقاتها لم يفارقها ، فلما تأكد من مقتل تتش أثر التحرك سريعا إلى دمشق حيث التحق بخدمة دقاق . هذا بالرغم من أن المؤرخ ابن القلانسى يذكر أن طغتكين حضر الوقعة الأخيرة مع تتش بالرى . فلما تمت الهزيمة على تتش وقتل ، وقع طغتكين فى أسر بركياروق ولكنه خلص من الأسر فى نفس العام فجاء إلى دمشق حيث استقبله دقاق ورجالات دمشق بالترحاب واعتمد عليه دقاق « فى تدبير المملكة » [2] .

غير ان المؤرخ ابن الأزرق الفارقى يخالف ابن القلانسى فى هذا ، ويؤكد أن طغتكين كان وقت الوقعة المذكورة بميا فارقين لم يغادرها وأنه عند سماعه بمقتل تتش « مضى إلى دمشق وحصل أتابك الملك دقاق وولى ميا فارقين الأمير شمس الدولة ألتاش ورتبه فيها » [3] .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٦ ، ٢٣٢

(٢) ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ .

(٣) الفارقى : تاريخه ص ٢٤٥.

والواقع أننا نميل إلى تأييد الفارقى فى روايته لمـــا اتسمت أخبـاره عن ميافارقين بالدقة لأنها موطنه وبلاده التى خصص مصنفه لتسجيل تاريخها وأحوالها، فضلا عن أنه عاش قريبا من الأحداث التى رواها واستقى مادته من رجـــال عاصروا هـذه الأحداث بل اشتركوا فيهـا بأنفسهم وأشار اليهم فى كثير من المناسبات .

فإن صحت رواية الفارقى فإننـا بذلك أمام دليـل جديد على طموح هـذا الأتابك ورغبتـه فى بذل جهـده ونشاطه فى دمشق ذاتهـا ، وليس فى إحدى الولايات التابعة لها ، ولا شك أن تطور الحوادث بعد ذلك وتدرجها فى صالحه يؤكد عمله الدائب للفوز بحكم دمشق ، واحلال أسرته محل السلاجقة حكامهـا الأصليين .

وكيفما كان الأمر فسواء جاء طغتكين من ولاية ميـا فارقين أو جـاء من فارس ، فالنتيجة واحدة وهى فرض نفسه على دمشق وعلى مليكها الصغير ، فقد تحرك سريعا بعد عودته فى سبيل التمكين لنفسه ، فلم يطمئن إلى وجود شخصية أخرى بجانبه تنافسه فى تدبير أمور المملكة فأوقع بساوتكين الخادم ، وهو الرجل الذى استنابه تتش بقلعة المدينة والذى استدعى دقاق وسلمه المدينة والقلعة ، ثم واصل طغتكين زحفه إلى الحكم فعقد الوصلة بينه وبين دقاق بأن تزوج الخاتون صفوة الملك والدة دقاق « ودخل بها واستقامت له الحال »[1] ولما قام رضوان صاحب حلب ، بمعاونة سكمان بن أرتق التركمانى ، بمهاجمة دمشق ، دافعهـما طغتكين ودقاق عنها حتى انصرفا إلى بيت المقدس ، فخرج طغتكين وبصحبته

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١

دقاق لملاحقتها حتى اجبراهما على العودة إلى حلب[1] ثم قام ـ بعد ذلك طغتكين ودقاق بمهاجمة حلب نفسها إلا أن رضوان انتصر عليهما ، فعادا إلى دمشق بعد أن وافقا على إقامة الخطبة لرضوان بدمشق قبل أخيه دقاق

على هذا النسق سارت الأمور بدمشق ، وطغتكين هو كل شيء فيها ، ومن ثم جرى اشراك دقاق فى حلف كربوغا لانقاذ انطاكية ، وخرج طغتكين معه وحضر الوقعة مع الصليبيين، وعاد منهزما معه إلى دمشق فبينما دقاق هو الواجهة السلجوقية للحكم فى هذه الإمارة ، إذ بطغتكين هو المحرك لكل هذه الإحداث والشخصية الكبيرة المعول عليها فى كل شيء .

وهكذا تهيأت الظروف أمام طغتكين ليخطو الخطوة الأخيرة فى سبيل الاستحواذ على الإمارة ذاتها ذلك أن دقاق توفى فى عام ١١٠٤ م ( ٤٩٧ هـ ) وكان قد نص على طغتكين فى الولاية من بعده وحضانه ولده الصغير تتش بن دقاق ، ولكن طغتكين تطلعا منه إلى الانفراد بالأمر ، كما سبق أن أشرنا . مالبث أن أرسل فى طلب أرتاش بن تتش، وهو أخ لدقاق وكان معتقلا ببعلبك وأقامه فى الحكم ، إلا أن هذا توجس خيفة من أتابك وأطماعه ، ولعل طغتكين عمد إلى إرهابه فترك المدينة هاربا ، وعاد إلى بعلبك عام ١١٠٥ م . ثم أرسل إلى الفرنج يطلب معونتهم ويحرضهم على المسير إلى دمشق، فلما يئس من معاونة مجدية انتهى به الأمر إلى التوجه ناحية الرحبة « واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالامر واستبد بالرأى »[2] ومنذ ذلك حكم طغتكين دمشق حكما انفصاليا انعزاليا وأورثها أبناءه من بعده ، وهم المعروفون فى التاريخ

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٥ .

« بالبوريين » وانتهى حكمهم على يد نور الدين محمود بن زنكى عام ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ).

أما حلب فقد كانت تشهد فى نفس الوقت حكما استقلاليا أيضا ، سيطر فيه الاتابك جناح الدولة أول الأمر على شئونها ، فظلت بمعزل عن بقية القوى الأخرى ، حقيقة بذلت محاولات من جانب رضوان - صاحبها فرض سيطرة حلب على غيرها من الإمارات وخاصة دمشق والاستعانة فى ذلك بالأمراء التركمان وغيرهم ، إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل وظلت حلب بمعزل عن بقية الإمارات .

وكان يمكن أن تقوم بحلب أيضا أتابكية جديدة وراثية فى نسل الاتابك جناح الدولة - كما حدث فى دمشق - لولا أن هذا الاتابك لم يكن يتمتع بما تمتع به طغتكين فى دمشق من صفات ولم يسع هو سعيا حثيثا الى ذلك ، بل أنه أمام معارضة ياغى سيان ، وتقلب رضوان لم يجد بدأ من الانسحاب من حلب ذاتها إلى حمص حيث أقام بها إمارة مستقلة أخرى آثر الانزواء بها حتى قتله الباطنية عام ١١٠٢ م ( ٤٩٦ هـ ) وظل رضوان بحلب حتى وفاته فأورثها أبناءه ، وتقلبت الأمور بها حتى فقدت استقلالها نهائيا حين استولى عليها الاتابك زنكى عام ١١٢٨ م ( ٥٢٢ هـ ) [1]

كان هذا هو نظام الاتابكية كما عرفته بلاد الشام ، ولعل أبرز مساوئه فى حلب ودمشق هو محاولات الاتابكة الدائمة بث الفرقة والنزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، وإذكاء روح العداء بينهم ليس بدافع رغبة صادقة فى الحفاظ على

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٦
وابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٨

نفوذ هذا البيت بقدر ماكان تمكينا لأنفسهم فى هذه الامارات والعمل على وضع أنفسهم مكان الصدارة منها، بل وسلبها من أصحابها الشرعيين .

وواضح من العرض السابق أن بلاد الشام انقسمت إلى وحدات سياسية مصغرة، ترجع جزئيا، إلى مادرجت على اتباعه من نظم سلجوقية، فشهدت السنوات القليلة السابقة للحروب الصليبية موجة من الانقسام والتنازع، لم تشهدها من قبل على عهد الدول التى تعاقبت على حكم هذه المنطقة، كالعباسيين والطولونيين والاخشيديين والفاطميين، وهى لاشك حالة تدعو إلى الأسف، لما ترتب عليها من نتائج بالغة الأهمية فى السنوات التالية . إذ كان فى كل من حلب ودمشق وأنطاكية وحمص، وطرابلس وشيزر أمير مستقل لايدين بنوع من التبعية لغيره من الأمراء، بينما انعدمت روح الود والاخلاص بينهم، وكل هذه الأمور كانت فى صالح الصليبيين الذين ما لبثوا أن طرقوا أبواب الشام المفتت الجزأ المتشاحن فأفادوا كثيرا من هذه الحالة التى أمست فيها القوى الإسلامية .

فلم يكن من الغريب إذن أن تشق الجموع الصليبية طريقها إلى الأراضى المقدسة، وسط هذا الكيان المتداعى، وأن تهدم بعض أجزائه وتلتهم الأخرى واحدة بعد واحدة، دون أن تستطيع هذه القوى لضآلة قواها البشرية والمادية ولانعدام روح التعاطف بينها وبين جيرانها فى أغلب الأحيان أن تقاوم الزحف الصليبى فسرعان ما انهارت، وفقدت استقلالها المصطنع، ومثلت أجزاء فى الإمارات اللاتينية التى قامت فى المنطقة (١) .

(١) Lane-poole : Saladin. p. 24—5
A Hist. of Egypt. p. 164

ولكن ليس معنى ذلك التقليل من قيمة المقاومة التى أبدتها بعض هذه الوحدات السياسية المصغرة فى الشام ، فالمعروف أن بعض أمراء المدن والموانى أبدوا شجاعة فائقة فى الوقوف فى وجه الصليبيين ولم يترددوا فى طلب المعونة من القوى الإسلامية المجاورة والتى كانوا غالبا فى عداء معها ، ولكن ذلك لم يحصل فى كثير من الأحيان دون وقوعها فى مصيرها المحتوم وأن أضاف فصولا جديدة فى قصة المقاومة الباسلة لبعض هذه الوحدات المصغرة مما يستوجب كلمة إنصاف لها [1] .

نستنتج من ذلك كله أن السلطنة السلجوقية أسرفت فى منح الاقطاعات الهامة دون إيجاد الضمانات الكافية لبقاء هذه الاقطاعات والولايات تابعة لها مباشرة ، وكذلك لما استحدثته من نظام الاتابكة الذى ظهر أثره فى أملاكها ليس ببلاد الشام فحسب بل وفى شمال العراق وفارس وأجزاء أخرى من الامبراطورية وتطور إلى شكل الحكومات المستقلة التى ناوئت السلطنة وحدت من سلطتها . كما كان من نتائج ذلك فيما يختص بموضوعنا ظهور التفتت والانقسام الذى ترتب عليه بالتالى تغلغل الصليبيين فى المنطقة بسرعة استرعت الانتباه ، حيث أقاموا إماراتهم اللاتينية فى المنطقة تحت سمع وبصر المسلمين ، بل

---

(١) من ذلك قصة قاضى جبلة « ابن صليحة » فى ذودة عن مدينته على سبيل المثال لا الحصر .

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩ (أحداث سنة ٤٩٤ هـ)

أنهم دأبوا بعد ذلك على مضايقة البـــلاد المجاورة ومحاولة التوسع على حساب المسلمين ، ولولا نمو فكرة الجهاد الديني بين الجماعات الإسلامية بعد ذلك ، وتشبع بعض الرجال بها ، ابتداء من أوائل القرن الثاني عشر لالتهم الصليبيون المنطقة كلها ولأصبح من الصعب التكهن بمصير المنطقة ومصير القوى الإسلامية بها .

## د - عدم إدراك القوى الإسلامية لحقيقة الخطر الصليبي فى أول أمره

من الغريب حقا ألا يتنبه المسلمون من البداية لحقيقة الغزو الصليبي وأهدافه وألا يهتدوا إلى طبيعة الحركة الصليبية ذاتها وحدودها وأبعادها. حقيقة كان هذا الغزو تجربة جديدة بالنسبة للقوى الإسلامية فى هذه المنطقة غير محدود بمجالها ومداها، ولكن كان يمكن معرفة مقصدها من البداية وأهدافها، فلا شك أن من بين أهدافها الاستيلاء على فلسطين عامة وعلى بيت المقدس بصفة خاصة، وفتح الطريق أمام جموع الحجاج الغربيين سهلا ميسراً، طبقاً لهذا المفهوم كان يمكن للقوى الإسلامية أن تحدد موقفها من هذه الأهداف.

ولقد ساعد على غموض هذه المقاصد من البداية ما أبداه الصليبيون أنفسهم فى الأدوار الأولى من الحرب الصليبيـــة من مرونة فى الاعلان عن أهدافهم ونياتهم، فقد حرصوا على عدم إثارة كافة القوى الإسلامية فى المنطقة وتأليبها، بل حاولوا - على عكس ذلك - كسب بعضها تخفيفاً لوطأة الكراهية ضدهم ريثما يتغلبون على الأخطار التى صادفتهم فى طريقهم، ومن ثم يتفرغون لإتمام بقية القوى الأخرى.

وليس من شك فى أن جانبا من الفضل لنجاحهم فى اختراق آسيا الصغرى استند فى الواقع إلى ما أبداه سلطان السلاجقة هناك من قصور فى فهم طبيعة هذا الغزو الصليبي ومقاصده إذ غاب عنه - فى أغلب الظن - الأهداف الكبيرة لهذه الحركة ومجالها المكانى، كما اعتقد أن فى استطاعته التغلب على تلك الجمـــوع

الصليبية ، وخاصة بعد أن نجحت قواته فى القضاء بسهولة على جموع العامة الذين هاجموا بلاده من قبل ، وحولوها إلى كومة من الاشلاء قرب نيقية[١] . ولذا لم يكترث السلطان كثيرا فى بداية الأمر لأنباء هذا الغزو ، وشغلته الحرب والنزاع مع آل الدانشمند عن الالتفات والاستعداد لصد الحملة الصليبية استعداداً كاملا ، فلما تبين له فى النهاية عظم تلك القوات ودقة تنظيمها بما يوحى بضخامة الأهداف التى خرجت من أجلها ، أسقط فى يده وارتبكت خططه ، فدهمته القوات الصليبية ، قبل زحفها إلى بلاد الشام بالرغم مما أبداه من شجاعة فائقة[٢] .

وعند أنطاكية أعلن الصليبيون - كما يذكر ابن الاثير - أنهم لا يقصدون سوى البلاد التى كانت فى حوزة الدولة البيزنطية من قبل لا يريدون غيرها ، وذلك فى رسالتهم إلى دقاق ملك دمشق ، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية[٣] ، ومن الطبيعى أن يحدث هذا الاعلان تقاعساً لدى بعض القوى الإسلامية وخاصة تلك التى اعتقدت أنها بعيدة عن دائرة هذا النشاط وخارج هذا المجال .

فإن كان الصليبيون قد بعثوا فعلا رسالة إلى دقاق ملك دمشق ، تحمل هذا المعنى[٤] ، فإنها لاشك تعد عملا سياسيا ناجحا ، لأنها أفلحت فى إحداث

---

(١) Runciman ; op. cit. I. p. 131.

(٢) Runciman : op. cit. I p. 185

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٥٨ ( أحداث سنة ٤٩١هـ)

(٤) أشار اليها ابن الاثير ، ولكن لم يشر كل من ابن القلانسى أو ابن العديم إلى شىء من ذلك .

شيء من الشك لدى بعض القوى الإسلامية المجاورة ، فيما يختص بهذا الغزو وطبيعته ، كما أنها نجحت في ستر مقاصد الصليبيين وأهدافهم الحقيقية الأمر الذي ترتب عليه خديعة بعض القوى في المنطقة وتخفيف روح العداء ضدهم في بعض الجهات مما ساعدهم على الوصول إلى أهدافهم وتحقيق أغراضهم .

غير أن المؤرخ الحديث رانسيمان يذهب إلى أن الصليبيين اضطروا إلى إرسال هذه الرسالة إلى دقاق تحت وطأة أنباء استعدادات كربوغا المسير لحربهم ، أي في ربيع عام ١٠٩٨ م بعد هزيمة دقاق في الوقعة التي حدثت عند البارة في نهاية عام ١٠٩٧ م ، ويعلل عدم إكتراث دقاق بهذه الرسالة ، وخروجه للمشاركة في حلف كربوغا ، بأنه اقتنع بأن حياد أخيه رضوان وإحجامه عن مواجهة الصليبيين وخاصة بعد هزيمة قواته أمامهم ، لم يلق حماسا لدى الصليبيين أو ترحيبا منهم [1] بدليل أن أملاكه لم تسلم من هجومهم رغم حياده وانزوائه

ورغم عدم إكتراث دقاق — كما يبدو — برسالة الصليبيين وما جاء فيها إلا أن الدلائل تشير إلى أن دمشق لم تتحمس لمقاومة الغزو الصليبي تحمسا كافيا يؤكد فهمها لحقيقة الموقف في شمال الشام ، وطبيعة الخطر الصليبي ، حقيقة خروج دقاق لانقاذ أنطاكية بعد حصارها على أيدي الصليبيين ، ولكن كان ذلك بناء على إلحاح شمس الدولة ابن ياغي سيان مبعوث والده في هذه المهمة ، وربما ليس عن اقتناع بأهمية هذا الدور ، وشارك دقاق أيضا في حلف كربوغا لنفس الغرض ، ولكن كان ذلك — كما سبقت الإشارة — بسبب اقتناعه بعدم جدوى الحياد أمام هذا العدو والدليل على فتور حماس دقاق أنه حين علم بمراسلة أخيه

(١) Runciman : op. cit I. p. 230.

رضوان الكربوغا أمام أنطاكية ، ترهم من ذلك وخاف[1] ، وبيت النية على الرحيل إلى دمشق ، بينما كان الموقف يتطلب منه فهما أعمق للظروف التي تمر بها البلاد أمام هذا الغزو الغريب .

أما حلب فقد اكتفى ملكها رضوان أمام إلحاح شمس الدولة أيضا أن أرسل معه بعض القوات القليلة لانجاد ياغى سيان ، إلا أن الهزيمة لحقت بهذه القوات على يد الصليبيين ، فعادت فلولها إلى حلب فى حالة سيئة ولم يشترك رضوان فى حملة كربوغا ، بل أحدثت رسالته إلى هذا القائد أمام أنطاكية — كما سبقت الاشارة — شكا لدى دقاق مما أوجد نوعا من الانقسام فى صفوف المسلمين ، وانتهى الأمر بهزيمتهم أمام أنطاكية .

والواقع أن ذلك كان مرده إلى عدم الفهم الصحيح لطبيعة الغزو الصليبى فى أول أمره ، والجهل الواضح بأهدافه القريبة والبعيدة وليس أدل على ذلك من أن بعض القوى الإسلامية سارعت إلى إقامة تحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض ، كما سارعت بعض الوحدات الصغيرة إلى طرح طاعة المسلمين ورفع راية العصيان وطلب المعونة من الصليبيين , مثال ذلك ما فعله أهل تل منس القريب من معرة النعمان[2] الذين كاتبوا الصليبيين وأطمعوهم فى الشام[3] ، واضطرت القوات الإسلامية فى طريقها إلى أنطاكيـــة أن تتوقف لمقاتلتهم وتقرر أموالا عليهم وبعض الرهائن وكذلك فعل عمر والى عزاز الذى استنجد بالصليبيين للوقوف فى وجه رضوان صاحب حلب مما دفع هـذا إلى مواصلة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ٨٧١

(٣) ابن العديم معجم : منتخبات من تاريخ حلب ( المجموعة III, p.850 )

حربه حتى انتزع منه عزاز فى نفس الوقت الذى كانت فيه أنطاكية تعانى الأحداث الكبيرة[1] .

هكذا أخطأت كثير من القوى الاسلامية فى فهم طبيعة الخطر الصليبى فى أول أمره ، وحقيقة الغزو وأهدافه الأمر الذى ترتب عليه نتائج هامة .

على أن الخطأ الأكبر الذى وقع فيه المسلمون ، فى فهم طبيعة الحملة الصليبية الأولى وهدفها جاء من قبل الفاطميين فى مصر[2] الذين أظهروا الفرح والترحيب بمجىء الصليبيين وتقويضهم قوة الأتراك السلاجقة فى شمال الشام ، ونظروا إلى الفرنج نظرتهم إلى حليف قوى يمكن أن يثقوا فى صداقته ومحالفته[3] ضد عدوهم التقليدى ، السلاجقة كما سرهم ما وقع فيه هؤلاء فى شمال الشام من فوضى واضطراب على أثر وصول الصليبيين ، وأظهروا اغتباطهم بذلك بطريقة استرعت انتباه المعاصرين واللاحقين حتى ليعبر ابن الأثير عن ذلك حين يستهل حديثه عن وصول الفرنج إلى أنطاكية بقوله « وقيل أن أصحاب مصر من العلويين ... أرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم[4] .

ولكن فى الحقيقة كانت العداوة والبغضاء بين الفاطميين والسلاجقة وهى التى لونت سياسة الفاطميين إذ ذاك وأملت عليهم إتخاذ هذا الموقف ، تستقد

---

(١) نفس المرجع III. p. 586

(٢) Encyc. Isl. Art. (Alafdal) by G. Wiet

(٣) Lane-poole ; A History of Egypt. p. 164

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٥ (أحداث سنة ٤٩١).

أساسا إلى الاختلاف العرقي والاختلاف المذهبي بين الاثنين - كما سبق أن أوضحنا - وإلى ما قام به السلاجقة من القضاء على نفوذ الفاطميين في بلاد الشام من قبل ، والاستيلاء على معظم البلاد التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية .

فما أن نزل الصليبيون على أنطاكية ، وأخذوا في حصارها ، حتى سارع الأفضل - حاكم مصر الفعلي ١٠٩٠ - ١١٢١ م ( ٤٨٨ - ٥١٤ هـ ) إلى إرسال سفارة إليهم تحمل معها بعض الاقتراحات مؤداها ، طلب عقـــد محالفة مع الجيوش الصليبية ، وتقسيم أملاك الأتراك السلاجقة على أن يكون شمال الشام من نصيب الصليبيين ، أما فلسطين فتكون من نصيب الفاطميين[1] .

ولم يجد الصليبيون بدأ من التظاهر بقبول هذه المقترحات ، ريثما تتحسن ظروفهم عند أنطاكية ويستطيعون تحديد اتجاههم من هذه المسائل في الوقت الذي اعتقد فيه الفاطميون أن هذا التحالف قد وضع نهاية للحكم السلجوقي في الشام ، وأنهم أصبحوا القوة الوحيدة بفلسطين ، ومن ثم أخذوا يتصرفون طبقا لهذا المفهوم الأمر الذي ضاعف من اضطراب السلاجقة في ذلك الوقت وفت في عضدهم .

ومن جهل الأفضل أيضا بهذا الغزو اعتقاده أن هؤلاء الصليبيين ليسوا إلا مأجورين لدى الامبراطور البيزنطي[2] ، مما باعد بينه وبين الفهم الواقعي لحقيقة الصليبيين ومشروعاتهم في الشرق أي أن الفاطميين لم يعتبروا الانتصارات التي أحرزها الصليبيون على سلاجقة الروم في ضورليوم وعلى سلاجقة الشام وفارس عند أنطاكية ، كارثة حلت بالمسلين عامة ، وإنما وجدوا فيها أمنية

(١) Grousset : L'empire du Levant. p. 191.
Runcinan : op. cit 1. p 229.

(٢) Runcimau : op. cit. I. p.229.

عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين [١] .

وطبقا لهذا الفهم أرسل الأفضل سفارته إلى الصليبيين أمام أنطاكية فاستقبلت بشيء من الحفاوة ، ومكثت بمعسكر الصليبيين عدة أسابيع ، ثم عادت إلى مصر مصحوبة بسفارة صليبية صغيرة محملة بالهدايات التي عمد الصليبيون إلى جعلها من الأسلاب والمغانم التي غنموها من السلاجقة [٢] رغم ما في ذلك من سخرية بكافة القوى الإسلامية وعلى أي حال كان سلوك الصليبيين طريق المفاوضات مع الفاطميين ، مع عدم استعدادهم لتغيير شيء من خططهم ، خير دليل على ما لجأوا إليه من الخداع والتمويه وإيقاع الفتنة والدسائس بين القوى الاسلامية لبلوغ أهدافهم الذاتية [٣] .

انتهز الأفضل هذه الظروف المواتية ، وخرج على رأس جيش كبير قاصدا بيت المقدس لاستعادتها . ولما وجد مقاومة من الأراتقة ، إضطر إلى نصب المجانيق عليها ، وأخذ في ضربها حتى تهدم جانب من سورها وبعض استحكاماتها [٤] ، وعند ذاك سلمت المدينة وعادت إلى حظيرة الدولة الفاطمية عــــام ١٠٩٨ م ( ٤٩١ هـ ) وخرج منها سقمان وإيلغازى أبناء أرتق فتوجه سقمان إلى الجزيرة ورحل إيلغازى إلى العراق .

على أن ما يستوقف الدارس في هذه الأحداث ، وما يهمنا لإظهار نتائج عدم فهم الأفضل لحقيقة الخطر الصليبي ، بالإضافة إلى ما أحدثه غزوه لبيت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 229.

(٣) Runciman : op. cit, I. p. 230

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥

المقدس من شقاق بين قوى المسلمين واضطراب للسلاجقة فى وقت كانوا أحوج فيه إلى المعاضدة والمعاونة للوقوف فى وجه الغزاة وجعلهم بين نارين فى الشمال والجنوب ، حتى أن دقاق ملك دمشق أدانته تحركات الفاطميين فى فلسطين أكثر مما أقلقه احتلال الصليبيين لانطاكية ورغب فى الانسحاب من بين صفوف المسلمين عند أنطاكية مخافة أن يتفاقم خطر الفاطميين بالنسبة لأملاكه فى جنوب الشام - أقـول بالإضافة إلى كل هذا فإن تعرض مدينة بيت المقدس للهجوم الفاطمى ، وما أصابها من خسائر ، وما لحق بها من أضرار ، قد اضعفها فى مواجهة الحملة الصليبية التى مالبثت أن وصلت اليها بعد أقل من عام ، دون استعداد كاف من حاميتها الجدد المخدوعين فى حلفائهم الصليبيين ، وكذلك من نتائج الفتح الفاطمى لهذه المدينة أن خرج منها الارتقيون ، وهم عناصر نشطة بحكم تجاربهم فى الحروب السابقة فى بلاد الشام وغيرها ، وربما كانوا أكثر تحملا لمصاعب الحصار الذى فرضه الصليبيون على المدينة قبل أن تسقط فى أيديهم (١)

وهكذا فات الافضل فى الأدوار الأولى للزحف الصليبى معرفة حقيقية هذا الغزو ومقاصده وهو قصور فى فهم طبيعة الأمور ، ومجرياتها ، وقع فيه حكام مصر إذ ذاك خطأ ، وفرة فى حسن النية ترتبت عليها أوخم النتائج. فالواقع أنه لو أتيح للفاطميين التعاون مع بقية القوى الإسلامية للقيام بعمل موحد ضد هذا الخطر فى أول أمره لامكن وضع حد لأطماعه ومشروعاته بدلا من ترك الحرية له فى شمال الشام للانتصار على قوى السلاجقة ثم التحول الطبيعى جهة

---

(١) Lane - poole ; A Hist. of Egypt. p. 164.
Conder : The Latin Kingdom. p. 63.

الفاطميين والانتصار عليهم أيضا وسط ذهول الجميع ، ومن ثم يصبح استقراره أمراً واقعا ويصبح إخراجه يحتاج إلى شيء كبير من الصبر والمثابرة والجهاد .

على أن الحقيقة لم تغب طويلا عن الأفضل ، إذ سرعان ماتنبه لأهداف الصليبيين ومقاصدهم وذلك حين بدأوا في الزحف جنوبا بعد أن تم لهم الاستيلاء على أنطاكية نهائياً ، وفلوا قوة السلاجقة أمامها وبدأوا مشروعهم الكبير نحو الأراضى المقدسة ، فمن قبل تظاهروا بموادعة الفاطميين ومحالفتهم ، حتى يتاح لهم القضاء على أكبر عقبة فى طريقهم وهم السلاجقة بشمال الشام ، فلما تم لهم ذلك ، لم يبق أمامهم سوى الفاطميين بجنوبه ، وهم الجانب الأضعف فى قوى المسلمين تركوا هدمه إلى آخر المطاف إيمانا منهم بأنهم لايشكلون خطراً ذا بال على مشروعاتهم ، وتشير كثير من الدلائل إلى أن الصليبيين أظهروا كثيراً من الاستخفاف بالفاطميين ولم يبدوا نحوهم أى نوع من الاحترام بعكس ماأظهروه تجاه السلاجقة ، وما كانوا يشعرون به أمامهم من الخوف، رغم تفكك السلاجقة وضعفهم ، ظهر ذلك فى كتابات مؤرخيهم المرافقين بما لايدع مجالا للشك فى المنزلة السامية التى احتلها الترك لديهم رغم ما تطفح به قلوبهم من الكراهية لهم ، ويرجع ذلك دون شك إلى أن السلاجقة لم يحكموا معهم سوى السيف ولم يعرفوا معهم طريقا سوى طريق الحرب بعكس الفاطميين الذين حاولوا المناورة وسلكوا طريق المفاوضات ولجأوا إلى محاولة التحالف مع عدو حطم قوة إخوانهم فى الدين ، قصورا منهم ، ودعة تخرج بهم عن نطاق الشهامة إلى حد الاسفاف .

ولما تأكد الأفضل من نقض الصليبيين لتحالفهم وسيرهم جنوبا فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة بادر بارسال سفارة عاجلة اليهم ، قابلتهم عند طرابلس ،

تحمل بعض الهدايا والأموال لزعماء الصليبيين وتحمل لهم عرضا مغريا من الخليفة الفاطمي مؤداه : أن تقوم الدولة الفاطمية بتسهيل عمليـــة الحج لهم وزيارة الأراضي المقدسة بفلسطين ، وأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وألا يدخلوها بأسلحتهم أو يدخلوها دفعة واحدة بل في مجموعات لاتزيد عن مائتين أو ثلثمائة [(١)]

تكشف وجه الصليبيين إذ ذاك أمام مبعوث الفاطميين ، لأنهم سرعان ما أعلنوا الحرب صراحة على الدولة الفاطمية ، وأكدوا ذلك بسرعة زحفهم نحو بيت المقدس ، وفرضوا الحصار عليها ، ثم مالبثوا أن إقتحموها في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ بعد أقل من عام منذ إستيلاء الأفضل عليها ، وما احدثوه من فظائع ووحشية وقتل ونهب بهذه المدينة المقدسة ، كان بمثابة الدرس الأول لحكام مصر في ذلك الوقت .

أما الدرس الثـــاني الذي تلقـاه الأفضل فكان أكثر قسوة ، إذ أنزل به الصليبيون الهزيمة قرب عسقلان في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ م [(٢)] ، قبل أن يفيق من هول الضربة الأولى، وذلك حين خرج بقواته لمنعهم عن بيت المقدس، ووضع حد لخطرهم الداهم كما سبق - وعلى أثر الهزيمة الساحقة التي لحقت به وعودته في فلول جيشه إلى مصر في حالة سيئة ، تركت ايدي الصليبيين حرة في الممتلكات الفاطمية في هذه البلاد وكان ذلك أقسى درس تلقاه حكام مصر على أيدي الصليبيين. ولعل ذلك يفسر لنا هدف الحملات الثلاث التي جردها الأفضل

---

(1) Guillaume de Tyr., p.p. 305-6.
Grousset : Hist. des Croisades : I. p. 149.

(٢) ابن القلانسي : ذ ل ص ١٣٧ ، وابن الاثير : الكامل ج٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢هـ)

فى السنوات القليلة التالية ، لمحاولة زحزحة الصليبيين عن بيت المقدس وفلسطين ، وبالرغم من هذا لم يصبه التوفيق فيما قصد إليه ، ولم يستطع فى النهاية زحزحتهم عن أماكنهم .

وخلاصة القول فيما يختص بعلاقة الأفضل بالصليبيين فى الأدوار الأولى من الحرب الصليبية أنه وقع فى خطأ جسيم باعتقاده إمكان التحالف مع الصليبيين كقوة جديدة فى المنطقة عملت على تصفية نفوذ السلاجقة فى الشام ، وغاب عنه أن هؤلاء الغزاة لم يخرجوا من أوطانهم ولم يتحملوا كل المصاعب والشدائد التى لاقوها لتتكسر موجتهم أمام مشاعره الفياضة ومظاهر وده وتعبيره عن الشكر والامتنان لهم لتخليصه من قوى الأتراك فى شمال الشام وترك يده حرة تجنى ثمـــار ضرباتهم ، لأن مجريات الأمور كانت تحتم عليه فهما أعمق من ذلك وارتفاعا إلى مستوى الحدث الذى شهده وشارك فيه . فليس من شك فى أن الصليبيين كانوا يتوقون إلى الأراضى المقدسة أكثر مما كانوا يرغبون فى تصفية نفوذ السلاجقة لحسابهم او لحساب هـــذا أو ذاك ، وكانوا ينفذون مخططا ليس فى إمكان الأفضل أن يغيره ولو لجأ إلى كل فنون السياسة والدبلوماسية التى برع فيها .

أما الإمارات العربية الصغيرة فى شيزر وحمص وطرابلس [1] ، فلقد كان مسلكها تجاه الصليبيين متسما بالمرونة ، وقام على مسالمتهم ، وعقد تحالفات

---

(١) بنو منقذ فى شيزر وكان أميرها إذ ذاك عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ (١٠٩٨ – ١١٥٤) وجناح الدولة الحسين فى حمص (١٠٩٥-١١٠٣) وبنو عمار فى طرابلس أميرها إذ ذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار الذى توفى عام ١٠٩٩ فخلفه أخوه أبو على فخر الملك بن عمار (١٠٩٩ – ١١٠٨) .

معهم وتسهيل مهمة العبور لهم فى الأراضى التابعة لهذه الامارات ومدهم بالمؤن وما يحتاجون اليه فى سيرهم من الجياد والرجال والأقوات ويرجع ذلك دون شك - بالإضافة إلى تأكد هذه البيوت العربية بعدم جدوى الوقوف فى وجه الجموع الصليبية - إلى جهل هؤلاء الامراء العرب أيضا بطبيعة الغزو الصليبي وحقيقة أهدافه ، ذلك أن الجموع الصليبية ظلت تحمل فى هذا الدور المتقدم اسم والحجاج ، وهى تسمية تنطوى على كثير من المداهنة والتمويه لأنها تحمل الى الذهن معنى يختلف كثيرا عن حقيقة هؤلاء الغزاة ، ويبدو أن الأمراء العرب لم يفطنوا انخـــداع هذه التسمية واعتقدوا فى صحتها بدليل أنهم استعملوها فى مراسلاتهم مع الصليبيين (١) .

وقد حفظت لنا المصنفات المعاصرة مضمون رسالة أمير شيزر إلى الكونت ريموند ، والصليبيون يعبرون أراضى تابعة لهذا الأمير ، وهى رسالة لاتشير أبدا إلى فهم هذا الأمير لحقيقة الصليبيين وغزوهم لبلاد الشرق ، بل على عكس ذلك تؤكد بعد هذا الأمير العربى عن الفهم الواقعى لهذا الخطر . وكما فعل ابن منقذ أمير شيزر فعل جناح الدولة أمير حمص ، ، وابن عمار أمير طرابلس حيث أرسلا الرسل إلى الصليبيين حاملين الهدايا والأموال والجياد ووعوداً بالمساعده والموادعة (٢) ، والواقع أنه إن دل ذلك من الأمراء العرب على تقدير لقوة الصليبيين وغلبتهم فانه يدل أيضا على نقص خطير فى إدراك حقيقة الغزو الصليبى وخطره على القوى الإسلامية كافة .

والحقيقة أن القوة الوحيدة التى أدركت بعض خطر الصليبيين منذ البداية

---

(١) Gesta Francorum, p 78.
( translated into English by Somerset de Chair )

(٢) Gesta Francorum, p. 83.

هم السلاجقة لذلك لم يؤثروا المسالمة معهم ، ولم يلجأوا الى موادعتهم ، بل لم يعرفوا معهم إلا السيف بالرغم من تفـــاوت نجاحهم فى ذلك . بل أن حركة الجهاد الدينى التى هدفت إلى مقاومة الصليبيين وإخراجهم من البلاد وتطهيرها منهم ، بعد فشل جهود إيقافهم إلى الأراضى المقدسة ، هذه الحركة انبثقت من وراء حدود القوى الإسلامية المعروفة فى بلاد الشام ، حين نمت لدى رجال من السلاجقة ، لم يترددا فى حمل لواء الجهـــاد زمنا حتى توجت جهودهم فى النهاية بسقوط مدينة الرها أول أمارات الصليبيين فى الشرق مما اعتبر بداية النهاية بالنسبة لبقية الامارات اللاتينية .

ولكن رغم ذلك ظلت بعض القوى الاسلامية تجهل كالعادة حقيقة الخطر الصليبى ـ حتى بعد سنوات من استقراره فى الشرق ، واعتقدوا إمكان الاستعانة بالصليبيين فيما كان يجرى بينهم من منازعات بين الحين والحين، لتحقيق انتصارات وقتية ومكاسب ذاتية على حساب اخوانهم فى المنطقة، والامثلة على ذلك متوفرة فى تاريخ تلك الحقبة ، وقد رحب الصليبيون كثيرا بالتدخل فى هذه المشاحنات لما تكفله لهم من اعتراف صريح بوضعهم فى المنطقة من ناحية ولما تحققه لهم من المكاسب على حساب القوى المتنافرة من ناحية أخرى .



أقاليم المشرق
وأهم مدنه
البحر الأسود
البحر المتوسط
أرمينيا
أران
آذربيجان
الجزيرة
الموصل
العراق
بغداد
الجبال
الري
أصفهان
طبرستان
جرجان
خوارزم
سمرقند
خراسان
نيسابور
كوهستان
سجستان
غزنة
فارس
اصطخر
شيراز
كرمان

# الفصل الثانى

## البذور الأولى لحركة الجهاد الدينى

ا ـ حملة كربوغا اتابك الموصل لانقاذ انطاكية سنة ١٠٩٨ م ـ تكوين حلف اسلامى فى بلاد الشام بزعامة كربوغا ـ حصار انطاكية ـ هزيمة المسلمين واسبابها واثرها .

ب ـ الخلافة الفاطمية والجهاد : الحملات الفاطمية على فلسطين سنة ١١٠١، ١١٠٢ ، ١١٠٥ ـ فشل الفاطميين فى زحزحة الصليبيين عن المواقع التى احتلوها بالشام .



# البذور الأولى لحركة الجهاد الديني

من أهم الاسباب التي أوجبت عرض أحوال الشرق الاسلامي قبل وصول الصليبيين - وهي التفصيلات التي تضمنها الفصل السابق - هي محاولة عرض صورة صادقة لحالة المسلمين في ذلك الوقت ، ومدى تماسكهم في مواجهة الأخطار التي لاحت في أفقهم البعيد، وبالتالي فهم الظروف التي قامت فيها حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين في هذه المنطقة .

ويستنتج من ذلك العرض أنه بالرغم من تفكك كافة القوى الاسلامية في المشرق ، إلا أن الانقسام في بلاد الشام كان أشد عنفا منه في بقية المنطقة ، وقد أثر ذلك دون شك في حركة الجهاد الديني منذ مراحلها الأولى . ونمت لدى رجال خارج بـــلاد الشام ، وهو أمر ليس غريبا ، بل يتمشى مع الواقع ، لأن بلاد الشام في ذلك الوقت ، لم تكن على استعداد للقيام بمسئوليتها كاملة بما تحمله من أعباء الفرقة والتنازع وتحكم الاهواء والمطامع الشخصية .

وإذا كانت حركة الجهاد الديني في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وهي الفترة التي نحن بصدد دراستها . قد نمت خاصة على عهد السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه ١١٠٥ - ١١١٨ م ( ٤٩٨ - ٥١١ هـ ) ، واكتملت فكرتها على يد عماد الدين زنكي أتابك الموصل ١١٢٧ - ١١٤٦ م ( ٥٢٢ - ٥٤١ هـ ) ، وذلك بسقوط امارة الرها الصليبية على يد زنكي عام ١١٤٤ م ، فإن البذور الأولى لهذه الحركة غرست قبل ذلك بكثير أي

خلال الزحف الصليبي نفسه على بلاد الشام وفى السنوات الأولى لاستقرار الصليبيين فى هذه البلاد .

وبعبارة أخرى فإن حركة الجهاد التى قامت على عهـــد السلطان محمد بن ملكشاه وبعد سنوات قليلة من انفراده بالسلطنة السلجوقية ، لم تكن بداية الاحساس بالخطر فى العالم الاسلامى ، بل امتدت جذورها إلى أبعد من وقت قيامها ، إلى تلك البذور الى وضعت قبل ذلك والتى اعتبرت بمثابة مقدمات وارهاصات سبقتها ومهدت لها .

كان أهم هذه المقدمات الحملة التى قادها كربوغا أتابك الموصل ضد الصليبيين فى محاولة جريئة لانقاذ أنطاكية سنة ١٠٩٨ ووضع نهاية للزحف الصليبي فى بلاد الشام ، يضاف اليها أيضا المحاولات الفاطمية لزحزحة الصليبيين عن بيت المقدس فى السنوات القليلة التالية لاستقرارهم بها هذا بالرغم مما لاقته هذه المحاولات من صعوبة فللت فى النهاية من أثرها ونتائجها لكن ذلك كله كان بمثابة البـــذور الأولى للجهاد المقدس ضد الصليبيين ويمثل مرحلة متقدمة من مراحل المقاومة الاسلامية لهذا الخطر

وليس من شك فى أن بعض القوى الاسلامية ، وخاصة خارج بلاد الشام قد أدركت منذ البداية العبء الذى ألقى على كاهلها لمحاربة الصليبيين الزاحفين على بلاد الشرق الأدنى فحاربت هذه القوى بقدر ما سمحت ظروفها وبقدر ما أتيح لها من مساعدة القوى الأخرى ونظرا لتعدد تلك القوى فى أولى مراحل الجهاد ، وصغر امكانيات الكثير منها ، لم يظهر لجهودها إلا أثر ضئيل يضاف إلى قصة الجهاد فى المراحل اللاحقة ويعتبر بداية الافاقة بالنسبة للمسلمين فى الشرق الادنى .

والواقع أنه ليس من اليسير إغفال المقاومة الاسلامية للصليبيين فى هذه المرحلة المتقدمة بسبب ضآلة الاثر الذى تركته وسلبية النتائج التى أدت اليها ، وانما تبدو قيمة هذه المقاومة ويحسن تقديرها فى ظل نظرة مدققة للظروف التى صاحبت هذه المقاومة سواء فى جانب المسلمين المتنازعين المتنافرين أو فى جانب الصليبيين الذين كانوا يقومون بتحقيق هدف كبير بالنسبة لهم

وعلى هذا فإن غرض الجهاد الاسلامى فى هذه المرحلة الاولى من الحروب الصليبية والتى نفرد لها الصفحات التالية ، لم يتغير وان تغير معناه ، فإذا جاز لنا القول أن الهدف الاسمى للجهاد الدينى فى المراحل اللاحقة - على عهد محمد بن ملكشاه وزنكى - تبلور حول فكرة اخراج الصليبيين من البلاد الاسلامية وتطهيرها منهم . فان هدف الجهاد فى هذه المرحلة المتقدمة كان محاولة منع استقرار الصليبيين فى الشرق الادنى أولا ، ثم محاولة منع توسعهم فيما حولهم حين غدا استقرارهم أمرا واقعا ، وتجمع ذلك كله فى شكل مقاومة كانت فى بعض أدوارها ضعيفة باهتة ولكنها سمت فى أدوار أخرى إلى مرتبة الجهاد الحق كلما واتت فرصة لفهم صادق لطبيعة الخطر الصليبى .

وقبل أن نعرض هذه البذور الاولى والمقومات المبكرة لحركة الجهاد الدينى نحب أن نقول أن جانبا منها تم بفضل جهود السلاجقة وهو الجانب الذى كان مسرحه شمال الشام وخاصة عند أنطاكية وسواء كان هدف السلاجقة من وراء هذه الجهود هو الجهاد الحق أم قاموا بها لاهداف أخرى فإن ذلك لم يغير من النتائج شيئا ، لأنها اعتبرت رغم ذلك بوادر الجهاد وطلائعه المتقدمة . أما الجانب الآخر من تلك الحركة فتم على أيدى الفاطميين ولذا كان مسرحه جنوب الشام فى فلسطين ، ولم تخف معانى هذه الجهود على الفاطميين ، وخاصة بعد أن

تلقوا صفعات قوية على أيدى الصليبيين أعادت إليهم صوابهم وأقنعتهم بضرورة العمل ورفع راية الجهاد ضد هذا الخطر الداهم .

وتلتقى هذه المقومات بشقيها عند هدف واحد هو مقاومة الصليبيين ووضع حد لمشروعاتهم فى الشرق ، بالرغم من أن الجانب الذى قام به السلاجقة كان أسبق وكان هدفه وضع حد لزحف الصليبيين فى بلاد الشام . أما الجانب الآخر فكان هدفه زحزحتهم من فلسطين نهائيا ، وهى التى كانت قد عادت إلى حظيرة الخلافة الفاطمية قبل الغزو الصليبى أى منع استقرارهم وتوسعهم فى هذه المنطقة .

## أ ـ حملة كربوغا أتابك الموصل لإنقاذ أنطاكية سنة ١٠٩٨ م

تكوين حلف إسلامى فى بلاد الشام بزعامة كربوغا

حصار أنطاكية ـ هزيمة المسلمين وأسبابها وأثرها

استطاع الصليبيون فى الحملة الصليبية الاولى أن يخترقوا آسيا الصغرى بعد أن سلمت نيقية عاصمة سلاجقة الروم، وعادت إلى حوزة الدولة البيزنطية فى ١٦ يونيو سنة ١٠٩٧ ، وبعد انتصار الصليبيين على قوات السلاجقة فى موقعة ضوروليوم فى أول يوليو من نفس العام ، واصلوا زحفهم إلى بلاد الشام فوصلت طلائعهم إلى أنطاكية فى ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ومن ثم بدأوا حصارها ، ذلك الحصار الطويل الذى امتد أكثر من سبعة أشهر .

وفى نفس الوقت كان بلدوين البولونى ـ أحد مغامرى الحملة الصليبية الأولى ـ قد استطاع أن يقيم له إمارة فى أعالى الفرات ، فاتخذ من تل باشر فى أول الأمر عاصمة لإمارته ( ا كتوبر سنة ١٠٩٧ ) ثم انتقل إلى الرها عندما استدعاه أميرها ثوروس الارمنى فى أوائل عام ١٠٩٨ على أثر الانباء التى تواترت باستعدادات كربوغا للزحف إلى أنطاكية لإنقاذها ، وخوف ثوروس من أن يقتلع كربوغا فى طريقة الرها وغيرها من ولايات الارمن فى هذه الجهات [١] . ولهذا قام

---

(١) Runciman : op. cit .I. p. 203—4.
Conder : The Latin Kingdom of Jerusalem. p. 38.

باستدعاء بلدوين للتآزر به ووضع الرها تحت حمايته . ووجد بلدوين فى ذلك فرصة لتحقيق أحلامه فى إقامة إمارة كبيرة فى الشرق كما وجد فى أهل الرها من الأرمن خير عون لذلك ، فما لبث أن انفرد بحكم الإمارة فى ١٠ مارس سنة ١٠٩٨ ، بدعوة من أهلها بعد أن شهد نهاية حاكمها ثوروس ، بعد نحو شهر من وصوله إليها .[١]

وهكذا كان إستيلاء بلدوين على مقاليد السلطة فى إمارة الرها أكبر عون للصليبيين عند أنطاكية لأنه كفل لهم جانبا من الحماية كانوا فى أشد الحاجة إليها أمام تقدم جيش كربوغا الزاحف من الموصل .

**حملة كربوغا لانقاذ أنطاكية سنة ١٠٩٨ م :**

عندما وصل الصليبيون إلى مشارف الشام سنة ١٠٩٧ م أصاب الهلع كثيرا من الناس وإنتابهم الخوف نظراً لعظم القوات الغازية وكثرتها وللاحساس بالتفتت والضعف فى مواجهتها ، إلا أن ياغى سيان حاكم أنطاكية ثبت فى هذه الظروف وأخذ يعمل على الدفاع عن مدينته وتحصينها كما أرسل يستنجد بالقوى الإسلامية المجاورة والبعيدة ، فبعث إلى دقاق ملك دمشق ، وإلى جناح الدولة أمير حمص ، وإلى كربوغا أتابك الموصل ، وإلى سلطان السلاجقة وإلى الخليفة العباسى فى بغداد ، كما ارسل إلى وثاب بن محمود وبنى كلاب . وسير ابنه محمداً إلى التركمان وأمراء الشرق وملوكه وسارت كتبـــه إلى جميع الأمراء المسلمين [٢] .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 206.

(٢) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب .(Rec. Hist. or. III. p. 578)

والواقع أنه بالرغم من التنازع والتخاصم الذى ساد القوى الإسلامية فى الشرق قبل وصول الصليبيين ، وسريان روح العـداء بين الأمراء وتغليب الإتجاه الانعزالى بينهم ، إلا أن ياغى سيان عمد إلى استنهاض الهمم والاستنفار للجهاد والاستنجاد بكافة القوى الإسلامية لعل الرباط الذى يجمع هذه القوى كلها وهو الاسلام يكون خير حافز لقيامهم بواجبهم بعد أن تعرض الوطن كله للخطر .

والحقيقة أن إستنجاد ياغى سيان حاكم أنطاكية بكافـة القوى المجاورة والبعيدة عندما دهمه الصليبيون فيه تأكيد للجوء هذا الحاكم إلى آخر رباط يربط بينه وبين تلك القوى وآخر أمل فى نجاته ، كما أن هروع بعض هذه القوى إلى محاولة نجدته فيه تأكيد أيضا لبقاء شىء يسير من التعاطف الروحى والدينى بين هذه القوى ، فضلا عن الأهداف الأخرى المختلفة لهذه النجدات .

إذ كانت إستجابة القوى المختلفة لنداء ياغى سيان ونجدته مرتبطة بمدى مابينها وبينه من علاقات الود من جهة ومقتضيات سياستها فى المنطقة من جهة أخرى مما أدى إلى مبادرة بعضها إلى نجدته وإحجام البعض طبقا لهذه الملابسات والظروف ، ولكن الشىء الذى يستوجب كلمة إنصاف هو حرص ياغى سيان على حفظ مدينته والدفاع عنها أمام جحافل الصليبيين مدة تزيد عن سبعة أشهر ، بالرغم من تأخر النجدات ومحاولات الانقاذ كثيرا حتى أنه لم يهزم فى النهاية بالقوة ، بل هزمته الخيانة .

فمنذ أن علم ياغى سيان بتقدم الصليبيين نحو مدينته ، وأتته الأخبار « بهذه النوبة المستبشعة فى حق الإسلام » [1] ، لم يهدأ ولم يهمل فى الدفاع عنها وكان أن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤

بعث إلى كافة القوى الإسلامية يستنجد بها ثم مالبث أن أخرج المسيحيين من المدينة . وحفر خندقا حولها لزيادة تحصينها بعد أن شحن قلعتها بالمقاتلة ، ووفر لها كميات كبيرة من المــؤن داخلها إستعداداً للحصار الطويل . وعندما نزل الصليبيون على أنطاكية وأخذوا فى حصارها ، أبدى شجاعة عظيمة « وظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه وإحتياطه مالم يشاهد من غيره »[1] مما أعجز الصليبيين وفت فى عضدهم فطالت مدة الحصار ، وقلت الأقوات لديهم ، وفشلوا فى الحصول على كميات منها مراراً من الجهات القريبة . فهلك كثير منهم ، ولاذ فريق آخر بالفرار عائدين إلى أوطانهم كما دأبت قوات أنطاكية الإسلامية على الإغارة عليهم بين الحين والحين ، وخاصة إذا خرجت بعض فرقهم طلبا للمؤن والعلف من الجهات المجاورة وإبتعدت عن المعسكر .[2]

على أن كربوغا أتابك الموصل لم يكف منذ أن علم بأنباء هذا الحصار عن إعلان تجهزه للسير إلى أنطاكية لإنقاذها ، ومن هنا أوجد حالة من الفزع لدى الصليبيين ، على أن أتابك الموصل لم ينتهز فرصة هذه الحـــالة ويتقدم بسرعة لملاقاتهم ، بل تلكأ فى المسير عدة شهور مما كان له أسوأ النتائج كما سيتضح .

على أن الفترة بين ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، ٣ يونيو سنة ١٠٩٨ - ( ذى الحجة سنة ٤٩٠ - رجب سنة ٤٩١ هـ ) وهى فترة حصار الصليبيين لأنطاكية ، وقبل وصول حملة كربوغا ، وقيام الحلف الإسلامى فى بلاد الشام تحت زعامته ، هذه الفــــترة شهدت أحداثا يمكن أن نقف عندها لأنها توحى بقيام تجمعات إسلامية صغيرة لنجـــدة ياغى سيان المتطلع إلى هذه النجدات ولأنها إثبات

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص١٨٦ (حوادث سنة ٤٩١هـ).

(٢) Gesta Francorum. p. 48.

لإنعدام روح الحماسة في الجهاد في هذا الدور، وعدم جدية الحرب ضد الصليبيين ، كما أن في أخبارها إظهارا لحاجة المسلمين الماسة إذ ذاك لقائد يجمع القلوب ويوحد الجهود أمام عدو خطير كالصليبيين .

ففي أواخر ديسمبر سنة ١٠٩٧ ( المحرم سنة ٤٩١ هـ ) تقدمت قوات إسلامية تحت قيادة دقاق مالك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك ، وجناح الدولة صاحب حمص وأمير حماة ومعهم شمس الدولة بن ياغي سيان في طريقهم لنجدة أنطاكية ، واجتمعت هذه القوات بأرض شيزر [1] فبلغهم خبر خروج سرية كبيرة من الفرنج كان يقودها بوهيموند وروبرت أمير فلاندر للاغارة على أعمال حلب طلبا للمؤن ، فخرجت اليهم القوات الإسلامية فقابلتهم بأرض البارة قرب حلب ، ودارت معركة في نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧ م لم تسفر عن نتائج حاسمة بالنسبة للطرفين ، بالرغم من ذهاب الرواية العربية الى تفوق المسلمين في هذه المعركة ، وقتل جماعة من الفرنج ، وعود هؤلاء الى الروج ثم الى أنطاكية [2] .

وعلى كل حال أكدت هذه المعركة المبكرة ، عدم صدق الرغبة في الجهاد وخلاص النية في المقاومة ولعل أكبر دليل على ذلك إنصراف هذه القوات وعدم متابعتها الصليبيين ، وبدليل مفارقة إبن ياغي سيان لهذه القوات، ودخوله

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

(٢) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٢

ابن القلانسي . . ذيل ص ١٣٤ .

Gesta Francorum. p. 37

حاب فى محـــاولة لتصفية الجو مع رضوان والاستعانة بجهوده ضد الصليبيين لإنجاد أنطاكية [١] .

وقد رأى رضوان ملك حلب - تحت الحاح ابن ياغى سيان - أن يشارك فى محاولة إنجاد أنطاكية ، فأنفذ جزءاً من جيشه تحت قيادة سكمان ( سقمان ) بن أرتق ، ومعه ابن ياغى سيان وبعض القوات التركمانية، فاجتمعت هذه القوات قرب حصن حارم إلى الشرق من أنطاكية وعلى بعد نحو ثلاثين كيلو مترا تقريبا منها وجرى بينها وبين قوات ياغى سيان فى أنطاكية تخطيط يهدف الى وضع القوات الصليبية بين شقى الرحى حيث تهاجم هذه القوات الصليبيين عند أنطاكية فى الوقت الذى تخرج قوات ياغى سيان فتهاجمهم من الخلف . ولكن سرعان ماتكشفت هذه الخطة بفعل خيانة المسيحيين من أهل حلب وحارم من الارمن والسريان، وأخبر بها بوهيموند ، فعمل على تلافى الوقوع فى هذا الفخ ، فأخرج فرسان الصليبيين لملاقاة القوات الإسلامية الواحفة فى حين قام مشاتهم بحراسة المعسكر والتصدى لقوات أنطاكيه [٢]

وعند بحيرة العمق التقى فرسان الصليبيين بقيادة بوهيموند بالقوات الإسلامية فى ٩ فبراير سنة ١٠٩٨ ، فهزم المسلمون هزيمة منكرة ، وارتدوا الى حارم ، ومنها الى حلب ، واستولى الصليبيون على حارم بسهولة ، ونجحوا فى حماية جيوشهم عند أنطاكية من هجوم قوات حلب . ولما قام ياغى سيان بمهاجمة معسكر الصليبيين فى غياب الفرسان قاوم المشاة الى أن عاد فرسانهم فارتد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 225.

ياغى سيان إلى داخل المدينة ، وفشلت هذه المحاولة أيضا وهذا التجمع الإسلامى الثانى [١] .

وهكذا هزمت قوات حلب ومن قبلها قوات دمشق ، وفشلت فى إنجاد أنطاكية وإخراج ياغى سيان من محنته ، وهذا مادفع ياغى سيان إلى معاودة الإتصال بامراء الشرق خارج حدود الشام فأرسل الى السلطان السلجوقى وإلى تابعة كربوغا فى الموصل ، وإلى أمراء التركمان فى الجزيرة وعندئذ أعد كربوغا عدته لإنجاده بقوات كبيرة .

على أنه ينبغى قبل عرض أحداث حملة كربوغا أن نشير إشارة سريعة إلى قائدها نفسه قوام الدولة كربوغا ، منذ ظهوره على مسرح الأحداث إلى أن تولى قيادة هذه الحملة الكبرى .

كان كربوغا أحد رجال ملكشاه ، وأحد قواده الكبار ، وبدأت المراجع تردد اسمه منذ وفاة ملكشاة فى بغداد سنة ١٠٩٢ ( ٤٨٥ هـ ) وقيام تركان خاتون بتنصيب ابنها محمود فى السلطنة وتأهبها للعودة إلى أصفهان فاختارت كربوغا على رأس فرقة من الجيش ليسبقها إلى أصفهان ويستولى على قلعتها ، ويمهد الطريق لها فى العاصمة ، وظل كربوغا بلا شك يلعب دوره فى الأحداث التى قامت بين خاتون وبركياروق . وانتهت بإنفراد بركياروق بالسلطنة بعد موت خاتون وابنها محمود ، فدخل كربوغا فى طاعة بركياروق ـ الذى سيره إمداداً إلى الأميرين آقسنقر وبوزان فى حربه مع عمه تاج الدولة تتش بالشام [٢]

---

(١) Gestá Francorum. p. 39—40

(٢) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٧٠ ( سنة ٤٨٧ هـ )

وحضر كربوغا الواقعة الحربية الى جانب قسيم الدولة آقسنقر وبوزان ضد تتش بن ألب أرسلان . ولما هزمت الجيوش المتحالفة أمام تتش وقتل آقسنقر وبوزان وقع كربوغا فى قبضة تتش فأمر بإيداعه السجن بحمص، وظل بالسجن إلى أن قتل تاج الدولة تتش بالرى ، وصفت السلطنة لبركياروق فطلب هذا من رضوان بن تتش أن يطلق كربوغا من سجنه ففعل [(١)]

سار كربوغا بعد فك أسره الى حران ومعه بعض العسكر فملك هذه المدينة ثم الى نصيبين فملكها أيضا [(٢)] ، ثم قصد الموصل وحاصرها قرابة تسعة أشهر قبل أن تسلم اليه فى نهاية عام ١٠٩٦ م ( ٤٨٩ ﻫ ) ويخرج صاحبها محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش مستجيرا بملك العرب صدقه بن مزيد [(٣)]

ومنذ ذلك الوقت وكربوغا يوطد حكمه فى الموصل ويدعم لنفسه بهذه الإمارة فى إطار التبعية للدولة السلجوقية ، ومن ثم أخذ شعوره بأنه أكبر قوة فى شمال العراق والشام يزداد وهو الشعور الذى املى عليه اتخاذ موقف حامى القوى الإسلامية بالمنطقة ، فما لبث أن استغاث به ياغى سيان حتى وجد فى ذلك فرصة طيبة لعمل يضفى عليه شيئا من المهابة كان فى حاجة إليها فى ذلك الوقت

على أننا نحب أن نثير قضية لها نصيب من الأهمية فى تتبع الدوافع والحوافز المختلفة التى تكمن وراء حملة كربوغا ، ليسهل فى النهاية مقارنة نتائجها بما كان وراءها من عال وتدور هذه القضية حول موقف السلطنة السلجوقية من حملة كربوغا فى هذا الدور المتقدم من أدوار الجهاد الدينى . فهل أحست السلطنة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٠ ( سنة ٤٨٩ ﻫ )

(٢) أبو شامة : الروضتين ج١ ق ١ ص ٦٧ .

(٣) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٣ ص ٣٢٤.

السلجوقية فى المشرق بمدى خطر الصليبيين فى إندفاعهم فى بلاد الشام نحو الأراضى المقدسة . وهل سما السلطان السلجوقى بركياروق الى درجة الفهم الواقعى لهذا الحدث الضخم ، وعمل على مقاومته . وهل هو الذى أنفذ كربوغا لمقاومة الصليبيين عند أنطاكية وأمده بالمعونة بما يدفع عنه تهمة الإهمال الخطير الذى ترتبت عليه نتائج سيئة فيما بعد .

الحقيقة أن دراسة حملة كربوغا ودراسة مدققة فيها كثير من الاجابات الصريحة على هذه الأسئلة وفيها تحديد دقيق لوضع السلطة السلجوقية وموقفها من هذه المرحلة من حركة الجهاد المقدس ضد هؤلاء الغزاة .

وفى تصدير هذا الموضوع نقول أن مؤرخى الحروب الصليبية فى الغرب من المحدثين قد درجوا فى دراستهم لهذه الحملة على ربطها بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مباشرة ، وترديد - سواء عن قصد أو غير قصد - أنها تمت تحت رعاية واهتمام كل من السلطان السلجوقى والخليفة العباسى .

ومن هؤلاء المؤرخ الشهير جروسيه Grausset ، حيث يذكر أن جيش كربوغا الذى توجه لنجدة أنطاكية كان منفذا من قبل السلطان السلجوقى فى فارس (١).

بينما جعل المؤرخ رانسيمان Runciman من كربوغا تابعا للخلافة العباسية مباشرة (٢). وفى حديث رانسيمان عن مدى معاونة السلطنة السلجوقية لكربوغا فى إعداد الحملة جارى جروسيه فيما ذهب اليه وذكر أن السلطان أمده بالجنود فأصبح جيشه يضم الى جانب فرقه الخاصة جنودا قادمين من المشرق من لدن السلطان فضلا عن قوات أخرى من الركمان (٣)

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 431,
L'empire du Levant p. 195

(٢) Runciman : op. cit. p. 78

(٣) Runciman : op. cit., p. 230.

أما كوندر Conder فقد ذهب إلى أن كربوغا أرسل إلى كل من السلطان السلجوقي والخليفة العباسي بعض الجنود من المسيحيين الذين أسروا في بعض الجهات ، متباهيا بقوته وكيف يمكن القضاء على الصليبيين بسهولة ، أي أنه كان يطلب الأذن بقيادة الحملة [١] ، كما جاء في Cambridge medieval hist. أن زحف كربوغا إلى أنطاكية كان بناء على موافقة الخليفة العباسي نفسه وتحت رعايته [٢] .

وهؤلاء المؤرخون المحدثون متأثرون لاشك بروايات المراجع الصليبية المعاصرة التي دأبت على إرجاع المقاومة الاسلامية التي لقيها الصليبيون في الشام إلى عمل السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية بوصفها حماة الأسلام في المشرق في ذلك الوقت ، والقوة المسئولة عنه ، وكذلك حتى تبدوا أهمية إنتصاراتهم التي أحرزوها على الأمراء المحليين ، وتكبر أعمالهم إذا اقترنت بأنها كانت ضد السلطنة السلجوقية ذاتها والخلافة العباسية القوة الروحية الكبيرة ، وليست في أتباعهم في هذه المنطقة [٣] ، مثلما بالغ بعض المؤرخين الصليبيين أيضا في عدد الأمراء الذين قادهم كربوغا إلى أنطاكية وعدد الجنود الذين خاض بهم المعركة ضد الصليبيين [٤] ، حتى تزداد قيمة أنتصاراتهم وتبدو أهميتها .

---

(١) Conder : The Latine Kingdom p. 42.

(٢) Camb. Med. Hist. vol. 5. p. 290.

(٣) Gesta Frenkorum p. 53.

(٤) إذ يذهب المؤرخ الصليبي Albert of Aix إلى أن كربوغا قاد ثمان وعشرين أميرا إلى أنطاكية لمحاربة الصليبيين وكانت قواته مائتي ألف جندي .

Conder : The Latine Kingdom p. 47.

ولكننا لم نقف فى المراجع العربية على شيء واضح يؤكد هذا الاتجاه ويشيء بأن السلطان السلجوقى تحمس لإنفاذ كربوغا إلى الشام وحرص على مده بالمعونة لتحقيق ماهدف اليه ، وتتبع حملته بما يؤكد اهتمامه بانجازاتها .

والإشارة الوحيدة التى تنبيء بأن بركياروق أبدى شيئا من الاهتمام الوقتى أو العرضى قبل قيام كربوغا بحملته وجدت عندالمؤرخ ابن الجوزى فى المنتظم[1] حيث يقول : « فى شهر ربيع الآخر ( سنة ٤٩١ هـ ) كثر الاستنفار على الفرنج وتواترت الشكايات بكل مكان ووردت كتب السلطان بركياروق إلى جميع الامراء يأمرهم بالخروج مع الوزير بن جهير لحربهم واجتمعوا فى بيت النوبة وبرز سيف الدولة صدقة فنزل بقرب الأنبار وضرب سعد الدولة مضاربه بالجانب الغربى ، ثم انفسخت العزيمة » . وقد نقل هذه الرواية عنه المؤرخ سبط بن الجوزى فى مرآة الزمان أيضا .[2]

والواقع أن هذا التوقيت ( ربيع الآخر سنة ٤٩١ هـ ) يوافق مارس سنة ١٠٩٨ ، ويوافق كذلك وقت استغاثة باغى سيان بالسلطان بعد يأسه من قدرة الدماشقة والحلبيين على نجدته بعد هزيمتها فى ديسمبر سنة ١٠٩٧ ، وفبراير سنة ١٠٩٨ على التوالى مما يوحى بأن نوبة من الاهتمام انتابت السلطنة السلجوقية فى ذلك الوقت على أثر استغاثة باغى سيان مالبثت أن فترت « وانفسخت العزيمة » .

ورغم أن هذا النص يحوى إشارة إلى تكليف الأمراء بالخروج لحرب الفرنج إلا أن كربوغا لم يذكر ضمن أولئك الأمراء ، كما أن تقاعد هؤلاء عن الخروج

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٠٥

(٢) سبط بن الجوزى مرآة الزمان ( Rec. Hist. or. III. p. 517. ) .

ميع القضية ذاتها وطمس معالمها ، وأعطى تأكيدا جديدا لفتور همة وحماسة السلطان السلجوقى إذ ذاك ، الأمر الذى جعله لايهتم كثيرا بحملة أتابك الموصل أو يتتبع أخبارها .

وباستقراء النصوص الأخرى لانجد شيئا يحسم هذا الموضوع ، فابن الأثير يقول « ولما سمع قوام الدولة كربوغا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام » [١] ، وابن العديم يقول « وجمع كربوغا صاحب الموصل عسكرا عظيما ، وقطع الفرات . . » [٢] وابن القلانسى يشير إلى مثل ذلك إشارة سريعة يقول : « توجه . . الأمير كربوغا فى العسكر إلى أنطاكية وقد وردت الأخبار بقرب الفرنج منها » [٣] وكلها إشارات لاتوضح مدى اهتمام السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية بالمقاومة فى هذا الدور ولاتؤكد أن إنفاذ كربوغا كان بتكليف من السلطان نفسه وتحت رعايته وبالتالى لاتشفى غليل الباحث فيما يختص بهذا الموضوع .

وهذا لاشك يقودنا حتما إلى محاولة ترجيح قيام كربوغا بحملة لحسابه الخاص ، وطبقا لسياسته الذاتية فى أغلب الظن وحسب مخططه هو . فالواقع أن كربوغا لم يكن بحاجة إلى أمر من السلطان أو الخليفة ـ كى يقود جيشه وينحدر نحو الشام ، إذ تشير الدلائل إلى أنه كان يترقب مثل هذه الفرصة لتنفيذ سياسته فقد كان يشعر دون شك بشىء من القوة فى إمارته الكبيرة بالموصل وقوة نفوذه فى هذه المنطقة منذ مقتل تاج الدولة تتش ، كما عد نفسه أكبر قوة فى هذه البلاد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٦ ( ٤٩١ هـ ) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

بالرغم من تبعيته الرمزية للدولة السلجوقية فكان عليه أن يؤكد زعامته للقوى الإسلامية بالشام بعمل كهذا يرفع من شأنه ويضفى عليه شيئا من المهابة ، كما أن كربوغا كان يتطلع إلى تملك حلب وتكوين جبهة قوية تضم شمال العراق وشمال الشام تحت حكمه ، وقدر انه إذا أتيح له تملك أنطاكية فإن حلب تصبح تحت رحمته (1) .

اذن كانت سياسة كربوغا الذاتية فى المنطقة لها دخل كبير فى تسيير هذه الحملة، كما كان تخطيطه السياسى والحربى فى المنطقة هو الذى أملى عليه اتخاذ هذا الموقف فضلا عن دوافع أخرى سنعرض لها فيما بعد ، وكلها أمور تؤكد ما سبق ذكره من ضعف مسألة الربط بين هذه الحملة وبين السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ربطا كاملا .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هناك من القرائن ما يحدو بنا إلى ترجيح إهمال السلطنة السلجوقية لمبدأ الجهاد فى هذا الدور المتقدم وانصراف السلطان عن التفكير فى شىء من هذا وفى بلاد الشام على وجه الخصوص .

فعدم اكتراث بركياروق بأمور الشام لم يكن وليد الساعة إذ ذاك بل انه يتمشى مع سياسته السابقة تجاه الغزو الصليبى ، إذ لم نره قبل ذلك يحفل بما يجرى فى الشام بل ألهته أحداث المشرق والشطر الآخر من الدولة عن النظر إلى هذه المنطقة ، وأكد التقسيم الذى جرى بينه وبين أخيه محمد عقب الصلح الذى عقد بينهما عام ١١٠٤ م ( ٤٩٧ هـ ) عدم اكتراث بركياروق بالشام والشطر الغربى من الدولة ، فقد تنازل عنه لأخيه محمد وقنع هو بالسلطنة وبلاد فارس

---

(1) Runciman : op. cit I. p. 215

والعراق[١] .

ومما يؤكد عدم اكتراث بركياروق بالشطر الغربى من دولته كله ما ورد فى تاريخ الفارقى من أن الناس فى ميافارقين حين سمعوا خبر وفاة السلطان ملكشاه « ماجوا واختلفوا » ثم اتفقوا على أن يرسلوا رسالة إلى بركياروق يدعونه فيها للحضور لتسلم هذه البلاد فكتبوا اليه يقولون أن هذه بلاد أبيك وما نريد غيركم. فتصل لتأخذها أو تنفذ من يتسلمها ، فقد حفظنا البلد لك» . ولكنه لم يكترث بهذا النداء . «ولم يكن له فراغ للحضور[٢]» . ولم يلب الدعوة مما أوقع ديار بكر كلها فى يد آخر المروانيين الأكراد مرة أخرى وهو ناصر الدولة منصور بن مروان إلى أن اكتسحه تاج الدولة تتش فى طريقه وهو خارج لطلب السلطنة كما سبق أن أشرنا [٣] .

إذن كان بركياروق لا يلقى بالا للشطر الغربى كله من الدولة فضلا عن بلاد الشام وهو أمر أكدته الأحداث بما لايدع مجالا للشك .

وثمة أمر هام يمكن أن نضيفه إلى تلك القرائن وهو يكمن فى علاقة السلطنة السلجوقية بإمارة الموصل فى هذا الدور ، ذلك أن الامارة رغم تبعيتها للسلطنة إلا أن هذه التبعية كانت اسمية إلى حد بعيد ، حتى أن كربوغا انتهز فرصة ضعف السلطان بركيارق وما صادفه من عقبات فى سبيل تأكيد سلطنته ، وغدا استقلاله بامارته أمرا واقعا ، وكانت حملة الشام فرصة أخرى لتأكيد هذا الاستقلال لو قدر له النجاح فيها ، فلما عاد منها فاشلا يجر أذيال الخيبة لم يجد بدا من الانقياد للسلطان انقيادا كاملا ، ولم يستطيع أن يتردد حين سحبه

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٠ (سنة ٤٩٧ ﻫ).
(٢) الفارق : تاريخه ص ٢٣١ ( تحقيق بدوى عبد اللطيف )
(٣) نفس المرجع : ص ٢٣٢

بركياروق من الموصل عام ١١٠١ م ( ٤٩٤ هـ ) وسيره إلى أذربيجان ليقوم ببعض العمليات العسكرية هناك ، فأتى خوى من أذربيجان فمرض بها وتوفى فى ذى القعدة سنة ٤٩٥ هـ ( ١١٠٢ م )[١] .

وهناك حادثة جرت ببغداد توضح إلى أى حد حالت احتياجات بركياروق المادية نتيجة للكوارث الاقتصادية التى نزلت بالدولة من جراء الحروب الطاحنة بينه وبين أخيه محمد نزاعا على السلطنة حالت بينه وبين الالتفات إلى الجهاد فى هذا الدور أو القدرة على القيام بأعبائه ، ذلك أن قاضى جبلة ويدعى محمد بن صليحة اضطر فى عام ٤٩٤ هـ إلى ترك مدينته والرحيل بأمواله وثروته إلى بغداد حتى يجد فيها الملجأ والمأوى وكان بركياروق حينئذ ببغداد ، فما أن سمع بثراء ابن صليحة ، وبما معه من الأموال حتى استدعاه ، وطلب منه مالا فحمل أبو محمد بن صليحة جملة طائلة إلى بركياروق ، وقيل بل نهب وأخذت أمواله من غير رضاه [٢]. ولعل هذه الحادثة توضح مدى الضائقة المالية التى نزلت بالدولة، ومدى احتياج بركياروق إلى الأموال بما يصرفه عن التفكير فى شئون الشام .

وحتى اذا افترضنا أن هذه الحملة كانت بتكليف من السلطان السلجوقى وتحت رعايته،فإن ذلك لا يكفى لتأكيد الاهتمام الواجب من جانب السلطنة السلجوقية تجاه الإسلام والمسلمين فى هذا الدور الخطر من أدوار الغزو الصليبى بصفتها حامية الإسلام وأكبر قوة فى الشرق . إذ كان يجب أن يوقف السلطان كل عملياته العسكرية فى الشطر الآخر من الدولة ويخرج بنفسه وبكل امكانياته لصد الصليبيين ووضع حد لأطماعهم .

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٢١٠ (سنة ٤٩٥ هـ)

(٢) ابو الفدا . منتخبات من المختصر فى أخبار البشر .I. or (Rec. Hist. p. 6)

ولعل أكبر دليل على عدم سمو السلطان السلجوقى إلى مرتبة الفهم الحق لاهمية الجهاد فى هذا الدور هو عدم متابعة العمل ضد الصليبيين فى السنوات القليلة اللاحقة إذا افترضنا أنه كانت له يد فى حملة كربوغا. بل أن جمود السلاجقة والسلطنة فى فارس فى السنوات التى أعقبت الاستقرار الصليبى فى الشرق قبل بزوغ فجر الجهاد أيام السلطان محمد بن ملكشاه ليؤكد انصراف السلطان بركياروق عن الاهتمام بأحداث الشام وأمر الجهاد كما يجب .

والارجح أن كربوغا قام بهذه الحملة تلبية لنداء الاستنجاد من ياغى سيان وطبقا لسياسته هو فى المنطقة وبدافع من بعض قيمه ، هذا فضلا عن أنه رأى أن استيلاء الصليبيين على أنطاكية أو غيرها من بلاد الشام لابد أن يحملهم على مد نفوذهم وسيطرتهم على كثير من نواحى العالم الإسلامى وعلى العراق ذاته [1] فدفعته هذه العوامل إلى القيام بحملته فى إطار موافقة السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ، ولكن دون كبير معاونة أو تخطيط من قبلهما . ولكن ليس من شك فى أن ثمة وازع دينى وشعور روحى كان له نصيب فى دفع كربوغا للخروج إلى أنطاكية والانقياد لعاطفته الدينية لحماية المسلمين بها ، وقد استرعى ذلك إنتباه بعض مؤرخى اللاتين أنفسهم ، وخاصة المؤرخ النورمانى المجهول إذ أشار إلى ذلك فى معرض حديثه عن سفارة الصليبيين إلى كربوغا أمام أنطاكية والتى كان من أهدافها صرفه عن حصارهم بالمدينة واغرائه كما يذهب المؤرخ - بالدخول فى النصرانية ، فكان رد كربوغا نابع من إيمانه القوى ويقينه بقداسة الدافع الذى أتى به إلى هذه البلاد وسمو الحافز الذى أدخله فى هذا الصراع [2] .

---

(١) حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ١١٢ .

(٢) Gesta Francorum. p. 67.

وهكذا نجد أن العبء الأكبر وقع على كاهل كربوغا فى مقاومة الزحف الصليبى بعد أن وضح من العرض السابق انصراف السلطان بركياروق عن الاهتمام بهذه الحملة وتتبع أخبارها .

ففى أوائل مايو سنة ١٠٩٨ تأكد بصفة قاطعة مسير كربوغا من الموصل فى طريقه إلى أنطاكية [١] بجيشه الكبير الذى ذكرت الروايات أنه تكون أساسيا من فرقه الخاصة بالإضافة إلى قوات من التركمان جمعها من الجزيرة وبعض قوات أخرى يظن أنها قدمت اليه من المشرق. وكان يمكن لهذا الجيش أن يصل إلى أنطاكية قبل أن تسقط فى يد الصليبيين ، لو لم يتوقف كربوغا فى الطريق ويخطىء فى حساب الزمن وأهمية الوقت فى هذه الظروف الحرجة .

ففى طريقه أدرك خطورة بقاء إمارة الرها الصليبيين وراء ظهره تهدد جناحه الأيمن فرغب فى القضاء عليها قبل أن يتجه إلى الشام ، فوقف أمام أسوارها الحصينة محاصرا طيلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو دون أن يستطيع اقتحامها أو أن ينال منها لحصانة المدينة من ناحية ولقوة دفاع بلدوين عنها من ناحية أخرى [٢] . وبذلك أعطى كربوغا فرصة ذهبية للصليبيين أمام أنطاكية للافلات من أخطار لاتحمد عاقبتها ، وكان لمقاومة بلدوين هذه الأسابيع الثلاثة وصموده أثر هام فى إنقاذ الصليبيين كما عبر عن ذلك المؤرخ وليم الصورى [٣]. إذ لو قدر كربوغا الوصول إلى الشام دون إضاعة هذه الأسابيع الحرجة . فربما أتيح للمسلمين القيام بعمل فعال ضد الصليبيين من داخل المدينة وخارجها وربما تغيرت النتائج التى أسفرت عنها الأحداث اللاحقة .

---

(1) Runciman : op. cit. I. p. 230

(٢) Conder : The Latin Kingdom. p 39.

(٣) Guillaume de Tyr. pp. 216—217.

غير أن الدارس لايسعه إلا أن يلتمس العذر لكربوغا فى محاولة اسقاط الامارة اللاتينية فى الرها قبل رحيله إلى الشام ، إذ كان من المخاطرة فعلا ترك قوات صليبية فى هذه المنطقة الهامة تهدد جيوشه وتقطع بينه وبين مركز إمداداته وقوته فى الموصل ، ولعله أدرك الأهمية الاستراتيجية التى اتخذها الصليبيون فى الرها بحكم موقعها من جهة وبحكم كونها مركزاً للمسيحيين الشرقيين وخاصة الارمن من جهة أخرى ، وكانوا إذ ذاك أشد خطراً وأكثر رغبة فى القضاء على قوة المسلمين وخاصة فى البلاد المجاورة التى غدت المنفذ الطبيعى لإمتداد هذه الإمارة اللاتينية ، وفى مواجهة بلدوين لمدينة سميساط فى النصف الثانى من فبراير سنة ١٠٩٨ بجيش من الارمن (١) مثل بارز لما أصبح لهذه الإمارة الصليبية من نشاط ضد المسلمين المجاورين ، ثم كان استيلاؤهم على سميساط وعلى مدينة سروج التى تقع على بداية الطريق بين الموصل وحلب تأكيداً للخطر المزدوج لوجود الصليبيين فى إقليم الجزيرة (٢) .

وجدير بالذكر أن هذا الحصار الذى تعرضت له الرها بواسطة القوات الإسلامية يعد أول نشاط للمسلمين ضد هذه الإمارة اللاتينية المبكرة وهى التى غدت فيما بعد هدفا لكثير من الحملات الاسلامية أثناء حركة الجهاد المقدس حتى سقطت فى النهاية كما سيلى .

أما الصليبيون أمام أنطاكية فكانت حالتهم قد ساءت كثيرا وعجزوا عن اقتحامها لما أبداه حاكمها ياغى سيان من شجاعة فى مدافعتهم ، ونظرا لما نزل بهم من شدائد بسبب قلة المؤن وصعوبة الحصول على شىء منها من الجهات المجاورة

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 204

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠٤ (٤٩٤ هـ) .

وهجمات الترك على معسكرهم[١] ، فلم يبق أمامهم إذن سوى طريق التآمر . وقد وجد بوهيموند ـ وكان يخطط للانفراد بتملك المدينة بعد سقوطها ـ أن التآمر خير طريق لإنهاء الشدة التى عاشتها الجموع الصليبية أمام حصانة المدينة وقوة استحكاماتها وعناد أهلها بعد أن فشلوا فى اسقاطها.

وخلال الأسابيع الثلاثة التى أضاعها كربوغا فى الحصار الفاشل للرها كان بوهيموند قد استطاع أن يتواطأ مع أحد حراس الابراج فى الجهـــة الشمالية الغربية من المدينة[٢] . ويدعى فيروز ( نيروز ) الذى قام بتسهيل مهمة اقتحام رجال بوهيموند المدينة من جهة، ومن ثم سقطت المدينة فى أيدى الصليبيين فى ٣ يونيو سنة ١٠٩٨، وخرج منها ياغى سيان مع بعض رجاله هاربا، فلما بعد عن المدينة وذهبت عنه الصدمة ندم على الفرار وعدم مقاتلته الفرنج وسأل أصحابه « أين أنا » فقيل له « على أربع فراسخ من أنطاكية ، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم من البلد أو يقتل ، وجعل يتلهف على ترك أهـــله وأولاده والمسلمين » ، ولشدة ما لحقه من الندم خر عن جواده مغشيا عليه وحاول أصحابه إعادته إلى جواده دون جدوى ، فلما يئسوا منه تركوه ومضوا فاجتاز به رجل أرمنى عرفه فقطع رأسه وحملها إلى الصليبيين بأنطاكية[٣] .

---

(١) Gesta Francorum. p. 39.

(٢) Conder : The Latin Kingdom. p. 46.

(٣) تشير المراجع إلى أن فيروز هذا ينتسب إلى أسرة أرمينية ، وكان قد كسب ثقة ياغى سيان وتظاهر باعتناق الاسلام ، فعهد اليه ياغى سيان بحفظ برج كبير من أبراج المدينة ، بالرغم من إضماره الحقد والكراهية لسيده لما قام به من مصادرة أمواله وممتلكاته ، فأخذ فى الاتصال سراً ببوهيموند عن طريق الارمن من بنى جلدته ، وتم الاتفاق على تيسير استيلاء بوهيموند على المدينة فى مقابل وعد من بوهيموند بالحصول على مال واقطاع.

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨ (سنة ٤٩١ هـ)، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤

ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ Cesta Francorum p. 48

ولما دخل الصليبيون أنطاكية أحدثوا بها مذبحة رهيبة راح ضحيتها الآلاف من أهلها من الرجال والنساء والأطفال ، وغنموا ما بها من الأقوات والأموال والسلاح ، وغير ذلك مما لا يدركه حصر ، فعادت اليهم قوتهم شيئا ما وارتفعت معنوياتهم [1] ومع ذلك فقد عزت عليهم قلعتها التى صمدت حاميتها ولجأ اليها من فر من المذبحة الرهيبة من الترك ، وكانت القلعة تقع فى الجنوب الشرقى من المدينة على إحدى قمم الجبل . والواقع أنه بسقوط أنطاكية ينتهى فصل هام فى قصة المقاومة الباسلة لياغى سيان الحاكم الذى لم تهزمه القوة وإنما هزمته الخيانة.

أما كربوغا فرغم إحساسه بضرورة العمل ضد الرها وشل حركة الخطر الصليبى المتربص بمؤخرة المسلمين والقاطع لطريقهم والذى يكمن فى نزعتهـا العدوانية إلا أنه أرغم على الرحيل عنها بعد أن تأكد من عدم جدوى هـــذا الحصار ، ولما أتاه من أخبار سيئة من أنطاكية وسقوطها فى أيدى الفرنج ومـا أحدثوه بها من فظائع ومذابح [2] .

وهكذا فارق كربوغا بجيشه الكبير إقليم الفرات فى طريقه نحـو الشام علّه يستطيع أن يضع حدا للغزو الصليبى والخطر الداهم بالنسبة لهذه المنطقة، وعند مرج دابق شمال مدينة حلب اجتمعت القوات الاسلامية ، وتكون أول حلف إسلامى كبير ببلاد الشام لمقاومة الغزو الصليبى

**تكوين حلف اسلامى ببلاد الشام تحت زعامة كربوغا (سنة ١٠٩٨) :**

كانت الامارات الإسلامية الصغيرة فى الشام وخاصة دمشق وحمص وشيزر

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٤٢.

(٢) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ١٨٦ (سنة ٤٩١ هـ)

وغيرها قد ذاقت غصة الهزيمة على يد الصليبيين فيما حدث بين الجانبين من حروب وضح خلالها لأمراء هذه الممالك الصغيرة ضآلة إمكانياتها تجاه هذا العدو الخطير، وضعفهم فى مواجهة هذا الغزو الفريد فى تاريخ هذه المنطقة، ويبدو أن ذلك جعلهم أكثر ميلا لتقبل فكرة التحالف والتجمع، للوقوف فى وجه هذا الخطر، بالرغم من استمرار فتور الحماسة الدينية وعدم صدق الرغبة فى الجهاد بما يتناسب وأهمية المرحلة التى أقدموا عليها.

فعندما تناهت اليهم أخبار قرب وصول كربوغا إلى بلاد الشام هرعوا إلى لقائه والانضواء تحت رايته للقيام بعمل موحد ضد الصليبيين، وعند مرج دابق توقف كربوغا حيث انضمت اليه قوات الحلفاء، فاجتمع معه . دقاق ملك دمشق وبصحبته طغتكين اتابك، وجناح الدولة الحسين صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وكذلك سقمان بن ارتق [1] . ووصل وثاب ابن محمود ومعه جماعة من العرب [2] أما رضوان صاحب حلب فلم يشترك فى هذا الحلف وأكد فساد سياسته فى هذه الظروف التى توشك أن تشهد تقرير مصير الشام بأكمله، بل أن أحجامه عن الاشتراك فى الحلف كان ضرره مزدوجا بالنسبة لجهود الحلفاء كما سيتضح.

كان هذا هو الحلف الإسلامى الذى توجه لمقاومة الصليبيين عند انطاكية غير أن نظرة سريعة لعناصر تكوينه توحى بأنه كان يحمل معه عوامل فشله وأسباب انهياره قبل الدخول فى معارك ضد الصليبيين، فلا شك أنه كان يضم مجموعة متنافرة من الأمراء والقواد وخليطا غريبا من الجنود فى غير توافق أو

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج٨ ص ١٨٦ (سنة ٤٩١ هـ)

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦

انسجام ودون تسيق أو تخطيط ، فضلا عن أن الدافع لدى الأغلبية لم يكن مقدسا فى هذه الحرب التى تحتاج إلى شىء من الوازع الدينى والحماسة الروحية.

فرغم أن دقاق ملك دمشق كان يعد الشخصية الثانية فى الحلف بعد كربوغا بحكم مركز إمارته وقياسا بقواته التى اشترك بها وصحبته الاتابك طغتكين، ولعدم اشتراك أخيه رضوان ملك حلب وهى أكبر مركز إسلامى فى شمال الشام حينئذ [1] إلا أن دقاق كان فى غير وفاق مع بعض القواد فى الحلف وخاصة سقمان بن ارتق التركمانى . وكما سبقت الاشارة من قبل كان سقمان هذا قد لعب دورا بارزا فى الصراع الذى استشرى بين الاخوين دقاق ورضوان قبل وصول الصليبيين ولهذا لم ينظر دقاق بعين الرضى إلى اشتراك هذا القائد فى الحلف جنبا إلى جنب معه ، وكان طبيعيا أن توجد هوة بين الاثنين حتى فى أشد الأوقات حرجا وأحلكها وأقساها بالنسبة للقوات الاسلامية عامة .

هذا بالاضافة إلى أن دقاقا لم يحرص على إدخار قوته للحرب ضد الصليبيين حينما خرج لمقابلة كربوغا والمسير معه إلى أنطاكية ، بل آثر الدخول فى معارك فرعية وثانوية قبل سيره إلى مرج دابق واجتماعه بكربوغا ، فقام بمهاجمة تل منس ومقاتلة أهلها حينما علم بأنهم « كاتبوا الفرنج وأطمعوهم فى الشام » [2] ، وقرر عليهم مالا ورهائن بما يعنيه ذلك من عـــدم ادخار القوة الرئيسية فى سبيل الهدف الكبير .

أما جناح الدولة الحسين أتابك الملك رضوان وزوج أمه ، والذى خرج

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦

(٢) نفس المرجع ص ١٣٢

مناضياً له وقبيع فى حمص ، فقد رأى كربوغا الاستمانة به وضمه إلى الحلف لحاجته الماسة إلى كل الجهود فى بلاد الشام ، وكذلك ربما لمحاولة حث رضوان على المبادرة بالاشتراك فى هذا العمل الكبير ، أو لمحاولة مضايقته بعد أن يئس كربوغا من ضمه . وسواء كان هذا هدف كربوغا أو ذاك فلم يثمر ضم جناح الدولة الثمرة المرجوة ، بل زاد عناد رضوَان وفشلت الجهود المتكررة للاستمانة بقواته ، ويبدو أن رضوان آثر الابتعاد عن هذا الحلف الذى وجـد أعداءه يتصدرون واجهته ويمثلون أبرز العناصر فيه ،

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان جناح الدولة يبغض سقمان بن أرتق زعيم الأراتقة التركمان بغضا يرجع إلى الأحداث السابقة أيضـا ، كما كان يخشى إنتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج وكلاهما كان على وفاق مع رضوان ، ولنا أن نتصور مبلغ التنازع الشخصى وتضارب الأهواء وسريان روح العداء بين زعماء هذا الحلف الذى أريد له أن يكون حلفا مقدسا .

ويشترك جناح الدولة وسقمان بن أرتق معا فى كره ياغى سيان الذى كان عليهما أن يتعاونا فى إنجاده مع بقية القوى الأخرى ، فليس هناك إذن طرف لم يكن بينه وبين بقية الأطراف شىء من البغض والكرة . وفى هذا تصوير لذروة الفشل منذ البداية .

وبالاضافة إلى هذه المجموعة من الأمراء المتنافرين والقواد المتنازعين كانت القوات العسكرية تمثل خليطا من الأجناس والصفات الغير متناسقة التى تفتقر إلى الانسجام العرقى والنوعى فـقد ضمت الأتراك السلاجقة وأغلبهم تحت قيادة كربوغا ودقاق ، ويمثلون الجانب الأكبر من جيش المتحالفين ، وكذلك

ضمت القوات التركمانية تحت قيادة سقمان بن أرتق ، وقد أثبتت هذه القوات دواما أن هدفها لم يكن مقدسا في كل الأحيان إذ كانت تحركها المغانم والمكاسب أكثر مما كانت تحركها المبادىء والقيم ، وقد تكرر ذلك بشكل واضح في أحداث الحقبة اللاحقة في الشام وشمال العراق ، كما ضم الحلف كذلك بعض القوات العربية أغلبها تحت قيادة وثاب بن محمود وجناح الدولة ، هذا بجانب عناصر أخرى كالأكراد وبعض سكان البلاد في هذه المنطقة من المطوعة .

وليس من شك في أن هذا الخليط من القوات أعوزته الوحدة النوعية بقدر ما افتقر إلى تضافر قادته وتعاطفهم ، فتباين القوات وتنوعها وتعدد قياداتها أوجد شيئا من الارتباك وعدم التنظيم . وكان الأمل معقودا على زعامة كربوغا لهذا الحشد الغير متجانس ، المتنافر ومكانته بالنسبة لمرافقيه لتحقيق ما تطلع اليه المسلمون في الشرق من وضع حد لأطماع اللاتين في هذه البلاد .

**حصار المسلمين لانطاكية :**

كانت نكبة أنطاكية باستيلاء الفرنج عليها نكبة كبيرة ، أكبر من أن توصف إذ تعرض السكان بها لمذبحة هائلة لايفوقها في البشاعة إلا ما حدث ببيت المقدس بعد ذلك بنحو عام ونهبت بيوت سكانها ، وحطم الفرنج ما صادفوه فيها من النفائس والذخائر ، وهلك بها من السكان مالايدركه حصر ، وسبي منهم من نجا من القتل . والحقيقة أن الصليبيين أفرغوا في أهلها من المسلمين والمسيحيين على حد سواء كل ما إختزنوه من حقد . وما جمعوه من الكره ، كرههم لأهلها وحقدهم عليهم ، وكذلك حقد الآلام والمصاعب التى لقوها أثناء حصارها والشدائد التى تعرضوا لها وكادت تقضى على آمالهم وتعصف بمخططهم ، فكان ضحية ذلك عشرات الألوف من أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ،

وضياع أموالهم وأملاكهم [1] .

وفى نفس الوقت كان دخول الصليبيين أنطاكيه على هذا النحو إنقاذا لهم ـ دون شك ـ من أخطار جسام لاحت مع زحف القوات الاسلامية اليهم ، فقد أسكنت أسوار المدينة وحصانتها روع الكثيرين منهم ، واعتقدوا أنهم أصبحوا فى مأمن من هذه الاخطار ، إلا أن ذلك مالبث أن أصبح موضع شك كبير حين ظهرت بوادر المصاعب من جديد .

فعند سماع كربوغا بهذه الاخبار بادر بالرحيل إلى أنطاكية عن طريق نهر العاصى ، ووصلت طلائع قواته يوم ٤ يونيو سنة ١٠٩٨ إلى الجسر الحديد إلى الشمال الشرقى من أنطاكيه بنحو ثمانية أميال وقتلوا من كان به من الفرنج [2] وتابعت القوات الاسلامية تقدمها نحو أنطاكية فظهرت أمام أسوار المدينة بعد ذلك بنحو يومين ، فعلموا أن قلعة المدينة لازالت باقية بيد شمس الدولة بن باغى سيان ومن معه من المسلمين .

وما لبث شمس الدولة أن راسل كربوغا طالبا منه العمل السريع لاستعادة المدينة من أيدى الصليبيين إلا أن كربوغا اشترط أولا تسليم القلعة إلى رجاله قبل إن يشرع فى الحرب ، ورغم مافى هذا الشرط من عدم ثقة متبادلة بين الطرفين إلا أن أحداث الأمس القريب كانت لاتزال ماثلة فى الاذهان ، وخيانة فيروز كان أثرها لازال قويا ، لذا أراد كربوغا أن يؤمن نفسه قبل أن يزج برجاله فى هذه الحرب ، وأن يخضع القلعة لقيادته مباشرة خوفا من أية خيانة تأتى من وراء

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ ، Gesta Francorum p. 54

الظهور فكان له ما أراد ووافق شمس الدولة على ذلك، فولى كربوغا على القلعة احمد بن مروان أحد رجاله الاوفياء .

كانت أولى خطط كربوغا بعد ذلك هي النفاذ إلى المدينة نفسها عن طريق القلعة ، ولكن الصليبيين حشدوا فرقهم تحت قيادة بوهيموند وريموند واستماتوا فى منعه من النفاذ إلى المدينة ، كما أقاموا تحصينات تكفل لهم جانبا من الأمن من هذه الناحية [1] ولكنهم مع ذلك فشلوا فى منع كربوغا من الاتصال برجاله داخل القلعة .

ولما قام أحمد بن مروان بهجوم عنيف على الجبهة القريبة من القلعة وبها بعض زعماء الحملة أمثال هيج دى فرماندوا ، وكونت فلاندرز ودوق نورمانديا ، قام هؤلاء بمدافعته وحربه ، ومع أنهم هزموا فى البداية وتكبدوا خسائر جسيمة إلا أنهم استطاعوا بعد جهد جهيد إجباره على الارتداد إلى قلعته ، وقد وقع هذا الهجوم فى أغلب الظن يوم ٩ يونيو سنة ١٠٩٨ [2] .

ولما تأكد كربوغا من صعوبة النفاذ إلى المدينة عن طريق القلعة ، لجأ إلى خطته الثانية وهى أحكام الحصار حول الصليبيين بالمدينة وتجويعهم داخلها ، ثم شن الهجوم عليهم عند إحساسه بضعفهم ، وبدأ فعلا فى يوم ١٠ يونيو يتحرك لتطويق المدينة والإحاطة بها من جميع جهاتها .

وكانت حالة الصليبيين داخل المدينة قد بدأت تتدهور وتتدرج من سيء إلى أسوأ نظراً لقلة المؤن وخيبة أملهم فى العثور على مستودعات المؤن التى اعتقدوا

---

(١) Runciman : A history of the Crusades. I. p. 238

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 238.

أن ياغى سيان كان يتزود منها . هذا إلى أنهم دمروا فى نشوة انتصارهم كل ثروة المدنية ونفائسها ، ولم يكادوا يفيقون من نشوة الاستيلاء عليها ويتأكدون من خلوها من المؤن والزاد حتى كانوا قد حوصروا تماما بقوات المسلمين الأمر الذى لم يدع لهم فرصة لإتخاذ أية خطوة أخرى سوى انتظار ماتسفر عنه الأحداث فى قلق وخوف .

ولما اشتد حصار المسلمين لهم ومرت الأيام دون جديد بالنسبة لهم ازدادت حالتهم سوءا وانحطت معنوياتهم ، وقلت الأقوات لديهم يوما بعد يوم وارتفعت الأسعار وأخذ الطعام فى النفاذ وبدأ الجوع يعض جماعاتهم « وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميته وورق الشجر » [1] ، وآثر بعض أعيانهم ومبرزيهم أمثال وليم ميسنل صهر بوهيموند ، وغيره من الأعيان الهروب فشقوا طريقهم وسط صفوف المسلمين إلى ميناء السويداء حيث نقلتهم السفن إلى ميناء طرسوس [2] .

ولم يكتف كربوغا بهذا الحصار المحكم ، وإنما قام فى يوم ١٢ يونيو بشن هجوم عنيف على النـــاحية الجنوبية الغربية ، وكاد يظفر بأحد الأبراج فى هذه الجهة ، وانكمش الصليبيون واختبأوا بالمنازل القريبة من السور نظرا لما نزل بهم من المحن والجوع الذى عضهم ، وغدا نجاح كربوغا فى الاستيلاء على ذلك البرج أمرا ميسورا ، لولا أن عمد بوهيموند إلى إحراق المنازل التى استتر بها المحاربون لإجبارهم على الخروج لمدافعة المسلمين مما قلل فى النهاية من فرصة نجاح كربوغا

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٨٧ ( سنة ٤٩١ ) ، Gesta Francorum. p.63
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ .

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 238, Conder : op.cit. p.45
Camb. Med. Hist. vol. 5 p. 292.

فى محاولته ، ومع هذا لم تنقطع المعارك ولم يخلد المسلمون إلى الهدوء فتابعوا الهجمات المتتالية فى شىء من الجسارة والقوة اعترف بها المؤرخون الصليبيون أنفسهم من شهود العيان ، وزاد تسلل الهاربين من الصليبيين رغم خطورة محاولاتهم .

لم يبق للصليبيين إذن أمل فى الخلاص سوى نجدة الامبراطور البيزنطى وكان هذا قد خرج فعلا فى طريقه إلى أنطاكية للمعاونة فى فتحها وإثبات حق الامبراطورية فيها وفى الطريق قابله إثنان من أبرز رجالات الجيش الصليبى وهما ستيفن دى بلوا ووليم ميسنل ، وكانا قد فرا حينما اقتنعا بخطورة موقف الصليبيين واستحالة خروجهم من هذا المأزق ، وتأكدا أن هلاك الصليبيين وهزيمتهم غدت أمرا واقعا ، فتسللا هاربين ، عائدين الى الغرب ، فلقيا الامبراطور فى طريقه إلى أنطاكية ، وعندئذ حاولا تغطية هروبهما وستر فضيحتهما فأخبراه أن كربوغا اقتحم أنطاكية وطوق الصليبيين بها ورجحا له هلاك الصليبيين عن آخرهم [١] ولم يشك الامبراطور لحظة فى هروبهما وفيهما ستيفن دى بلوا .

ويبدو أن الذى أثار خوف الامبراطور ودفعه إلى الارتداد إلى عاصمة ملكه مباشرة ما أخبراه به من أن السلاجقة لابد وأنهم فى طريقهم إذ ذاك لتخليص بقية المدن التى استولى عليها الصليبيون فخشى الامبراطور على أملاكه وعاد لتدبير أموره [٢] لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين [٣] .

---

(١) أعمال الفرنجة ص ٨٧ ( ترجمة الدكتور حبشى )

(٢) Camb Med. Hist. vol. 5. p. 294.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٠٨

ووسط متاعب الصليبيين وانحطاط روحهم المعنوية وهجمات الترك ، والمجاعة التى كادت تؤدى بجموعهم ، جاءت مسألة الحربة المقدسة التى زعم رجل صليبى يدعى بطرس بارتليو أن القديس أندراوس تراءى له فى النوم وأمره أن يمضى إلى ريموند الصنجيلى ويخبره أن الحربة المقدسة التى طعن بها جنب المسيح مدفونة فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكيه ، وأنهم متى استخرجوها أصبح النصر حليفهم وتأكدوا من الظفر بأعدائهم . ومن ثم أخذت الروايات تنتشر بينهم [١] مما كان له أثر فى روحهم المعنوية وإعطائهم دفعة كانوا فى مسيس الحاجة إليها .

وفى نفس الوقت أخذ المعسكر الاسلامى يتصدع شيئا فشيئا ، وبدأ يعانى عوامل الانقسام والفرقة ، وهى التى عصفت بالحلف الكبير فى تلك الظروف الحرجة . فقد أحس كربوغا بحاجته الماسة لمعاونة رضوان والاستعانة بفرقه ، لذا حاول الاتصال به لضمه للحلف ، ولكن هذه الاتصالات أثارت الريبة والشك ـ كما سبقت الاشارة ـ فى نفس دقاق وتوهم منها تآمرا عليه وعلى أملاكه ، كما أن هذا تابع بقلق نشاط الفاطميين فى فلسطين ، ورغب فى العودة إلى أملاكه ، للدفاع عنها أمام ما قد ينجم من غاراتهم هناك ، ونمت روح العداء والاحتكاك بين الترك والعرب من قوات كربوغا . [٢]

كل هذا دفع كربوغا إلى التدخل لمحاولة وضع حد لهذه الإنقسامات وغالى شيئا ما فى استعمال سلطاته ، بل إنه استخدم العنف أيضا ، فأحنق بذلك الأمراء عليه وأغضبهم وزاد من ذلك تعاليه عليهم وتكبره فآثر كثير منهم الانصراف

---

(١) Gesta Francorum. p. 61.

ابن الاثير الكامل : ج ٨ ص ١٨٦ – ١٨٧ ( سنه ٤٩١ هـ )

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦

عنه والعودة إلى بلادهم وأضمر البعض له الغدر . «إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة » (١).

وليس من شك فى أن الحالة التى أمسى فيها المعسكر الاسلامى كانت جد خطيرة، ولا تبشر بخير أبدا ، بل تقود إلى الفشل حتما ، وليت كربوغا اقتنع بذلك وعمل حسابا لذلك التصدع البادى ولكنه أخذ يستخف بالصليبيين ويبدى الثقة المفرطة فى قواته وجيشه مما كان له أسوأ النتائج فى الأحداث اللاحقة .

ذلك أن الصليبيين عقدوا مجلسا حربيا وتشاوروا ، فأجمعت آراؤهم على المبادرة بالدخول فى مفاوضات مع كربوغا ، فأرسلوا فى يوم ٢٧ يونيو سفارة صليبية تتكون من رجلين أحدهما بطرس الناسك إلى المعسكر الاسلامى للتفاوض مع كربوغا .

وقد اختلفت الآراء والروايات فى طبيعة المهمة التى وكلت إلى هذه السفارة الصليبية ، وحقيقة المفاوضات التى أجرتها مع كربوغا ، فذهبت الرواية الصليبية إلى أنها كانت تحمل أمرا من زعماء الحملة إلى كربوغا برفع الحصار من أنطاكية وترك المسيحيين وشأنهم لأن أنطاكية مدينة مسيحية وليس للمسلمين أدنى حق فيما يقومون به من أجل استردادها كما كان من أهدافها إغراء كربوغا بالدخول فى المسيحية ونبذ عقيدته ، فاذا أصر على الحرب كان عليها أن تعرض عليه أن يكون القتال على شكل مبارزة يختار فيها كل من الجانبين خيرة من عنده لإنهاء هذه الحرب الضروس (٢) .

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٨٦ (سنة ٤٩١ هـ)

(٢) Raimond d' Aguilers. p 270, Gesta Francorum. p. 66.

أما الرواية العربية فقد ذهبت إلى أن الصليبيين طلبوا على لسان سفارتهم هذه الأمان من كربوغا وأن يخرجوا من المدينة سالمين ، فرفض كربوغا إعطاءهم الأمان وأصر على إخراجهم بالقوة . [1].

ويتناول أحد المؤرخين المحدثين هذه السفارة ويعلق على مهمتها ، فيذهب إلى أنها وقفت على أحوال المسلمين ، ولمست عن كثب عوامل الفرقة الناشبة أظفارها بين عناصر الحلف أى أن من أهدافها كان التجسس على المعسكر الاسلامى [2] .

وكيفما كان الأمر فقد فشلت المفاوضات ، ولم يعطهم كربوغا ـ على حد ماتذهب الرواية العربية ـ الأمان وقال : « لاتخرجوا إلا بالسيف » ، وليس هناك تعليل لموقف كربوغا هذا إلا إذا وضعنا فى اعتبارنا اختلاف الروايتين الصليبية والعربية.

فاذا كان هدف السفارة هو إقناع كربوغا بالانصراف عن حصار الصليبيين بأنطاكية أو إغرائه بالدخول فى النصرانية أو عرض أى نوع من القتال عليه ، أو كان هدفها التجسس على معسكره ، فان فشل المفاوضات يصبح أمرا متوقعا ويعطينا تعليلا مقبولا لرفض هذه المقترحات ، فلم يكن بوسع كربوغا ترك حصار الصليبيين بها وقد أشرفوا على النهاية وساءت حالتهم كثيرا بما يغرى بالتخلص منهم ، ولم يكن بالإمكان أيضا بمجرد سماع إغراء بترك عقيدته والدخول فى النصرانية كما تذهب الرواية ، وكذلك لم يكن يستطع الموافقة على أن تكون الحرب على شكل مبارزة فردية ، وهو أمر يعطى الصليبيين فرصة اختيار أبرز العناصر عندهم وأقواها فى الوقت الذى كانت غالبية الجموع الصليبية تعانى شدة

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ( سنة ٤٩١ هـ ) .

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 247.

الجوع والضعف والخور الشيء الذى يمنح المسلمين فرصة مواتية للقضاء عليهم ، وأخيرا إذا كان هدف هذه السفارة هو التجسس فانها لن تكون بحال على استعداد لتقبل أية مقترحات من الجانب الآخر ، ومن هنا نجد فشل المفاوضات يصبح أمرا مؤكدا من الجانب الاسلامى .

أما إن صحت الرواية العربية من أنهم طلبوا الأمان فمنعه عنهم كربوغا ، فان تعليل ذلك يرجع فى أغلب الظن إما إلى رغبة كربوغا الانتقام لإخوانه فى الدين ممن لقوا حتفهم عند اقتحام الصليبيين للمدينة ، وقيامهم بإحداث المذابح الرهيبة، وإما لشعوره بأن إعطاء مثل هذه الجموع الأمان أمر لاتحمد عقباه ، وهى جموع كبيرة عضها الجوع ونالت منها المحن ، وبفرض سلامة قواته منها أمام أنطاكية فلابد وأنها ستنصرف إلى غيرها من مدن المسلمين وتسبب له مضايقات هو فى غنى عنها . لذا حاول استئصال شأفتها دفعة واحدة هذا مع ثقته التامة فى النصر على مثل هذا العدو المستسلم إذ أيقن أن طلبه هذا صادر عما به من ضعف وليس عن قوة ، فلا أقل من أن ينتهز الفرصة للقضاء عليه دفعة واحدة .

على أية حال جاء هذا الرفض فى وقت كان الصليبيون يتطهرون فيه من مباذلهم وذنوبهم حسب إشارة رجالهم من الأتقياء ، وفى وقت انتشرت فيه الرؤيات بينهم واعتقدوا فيما تكفله لهم الحربة المقدسة من نصر ، وفى وقت انتعشت فيه آمالهم كثيرا ، وأحسوا أن قوى غيبية قد بدأت تهيء لهم سبل النصر وما نجم عن ذلك من ارتفاع معنوياتهم وتأكدهم من النصر على أعدائهم [١] .

والحقيقة أن دراسة الحرب الصليبية الأولى كلها أبانت أن النصر والهزيمة

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades. I. p. 103.

فيها توقف إلى حد كبير على ملابسات بدت تافهة وصغيرة ، ولكنها غيرت مجرى الأحداث جميعها وحولت تيار التاريخ كله ، فماذا كان يحدث لو وصل كربوغا إلى أنطاكية قبل أن تسقط المدينة في أيدى الصليبيين بفضل الخيانة وماذا كان يحدث لو تقدم الامبراطور البيزنطى لنجدة الصليبيين ، ولم يتراجع أمام مقالة كاذبة من هاربين من الجانب الصليبي نفسه . الواقع أن ثمة ملابسات بسيطة كانت تجرى بالأحداث في اتجاه مضاد نستطيع أن نقول أنها لو لم تقع لجرت الأمور في الاتجاه الآخر ، فلو وصل كربوغا قبل سقوط المدينة فربما أمكن المسلمين داخلها وخارجها انزال ضربة قاصمة للصليبيين وانهاء فتنتهم وأطماعهم في الشرق، ولكنه تأخر أياما لاتزيد عن ثلاثة ، كانت الخيانة تلعب دورها وتكتب فيها الفصل الأخير في سقوط المدينة الحصينة العظيمة. ولو تقدم الامبراطور البيزنطى بقواته لنجدة الصليبيين ، فربما انفرط عقد التحالف الإسلامي الكبير الذى جثم على صدور الصليبيين قرابة ثلاثة أسابيع ذاقوا فيها الأمرين أو لربما وضع حدا للنجدة الموصلية ذاتها منذ البداية . وماذا كان يحدث أخيرا لو لم تنتشر الروايات بين الصليبيين حقيقة كانت أم اصطناعا في هذه الظروف الحرجة، ولو لم يهتدوا إلى فكرة الحربة المقدسة التى زعموا أن جنب المسيح طعن بها ، الحقيقة أن هذه الأمور الأخيرة تضاف إلى الملابسات التى كان لها جانب من الفضل في تغيير الأحداث في صالح الصليبيين الغزاة دائما .

**هزيمة المسلمين أمام أنطاكية ، أسبابها وآثارها :**

فشلت المفاوضات إذن ، وأصبح لامفر من القتال ، وكان الصليبيون قد أصبحوا حينئذ أكثر استعدادا لخوض حرب يائسة بعد نفاذ قوتهم ، ومعاناتهم داخل المدينة ، فكانت الحرب بالنسبة لهم حرب حياة أوموت في الوقت الذى

يئسوا فيه من وصول أية نجدات، وأيقنوا بالمصير التعس أن لم يخرجوا لمحاربة المسلمين خارج المدينة .

وفى صبيحة يوم ٢٨ يونيو بدأ الصليبيون يخرجون من أنطاكية جماعات صغيرة فى أثر بعضها والمسلمون على مقربة منهم يرونهم ، وكان بوهيموند قد باشر هذه العملية ، ولم يفته أن يخلف داخل المدينة نحو مائتى رجل من رجاله لمراقبة الحامية التركية بالقلعة [١] ، وعندئذ أشار أحد قواد كربوغا وهو وثاب بن محمود الكلابى على كربوغا بالوقوف قرب باب المدينة ومهاجمة كل من يخرج منهم قبل أن يتكامل عددهم [٢] فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، غير أن كربوغا رفض ذلك وقال « لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » وحين أجهز بعض رجاله على جماعة من الخارجين قدم اليه بنفسه ومنعهم من ذلك ونهاهم .

ورغم ما تعرض له كربوغا من نقد وتقريع لهذا التصرف ، فإنه يبدو لنا أن كربوغا أراد أن يترك للصليبيين الفرصة حتى يكتمل عددهم فينازلهم ويقضى عليهم مرة واحدة ، ويفرغ منهم دفعة واحدة ، إذ أنه خشى لو ظل اصحابه يجهزون على الجماعات الخارجة فى أثر بعضها أن يتراجع الصليبيون ويحجموا عن الخروج خوف الفناء متفرقين ، مما يعطل مشروع الخلاص منهم ، ويطيل بالتالى مدة حصارهم بالمدينة ، فى الوقت الذى بدأ معسكره يعانى نوعا من الاضطراب والتصدع برحيل التركمان وعودة بعض الأمراء إلى بلادهم ، وسريان روح العداء

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 247

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٦–١٨٧ (سنة ٤٩١ هـ) ، ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ ، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٢

والمنافرة بين أقطاب حلفه ، لذا أراد كربوغا فى أغلب الظن أن تكون هذه الوقعة هى الفاصلة مع الصليبيين ، مع ثقته التامة فى قدرته على القضاء عليهم. أما إذا طالت مدة حصارهم المدينة ، فربما تصلهم فى هذه المرة نجدات ـ أو إمدادات ، وكان الصليبيون قد حصلوا أثناء حصارهم لانطاكية على إمدادات من جهات متفرقة خاصة من الأرمن الساكنين فى بلاد قليقية وأميرهم قسطنطين بن روبين [1] . لذا خشى كربوغا أن يعود حصار الصليبيين بأنطاكية ويطول ويتمكنوا بطريقة أو بأخرى من الحصول على شىء من المؤن والعتاد مما يطيل أمد المعركة وكان فضلا عن ذلك يرغب فى العودة إلى مقر إمارته بعد أن غاب عنها فترة ربما ساوره القلق عليها أثناء تغيبه .

وكيفما كان الأمر فليست هذه كلها أسبابا قاطعة تحدوه لاتخاذ قراره بعدم المبادرة بالهجوم بل على عكس ذلك تدفع اليه دفعا شبهة السطحية وعدم الارتفاع إلى مستوى الحرب التى يخوضها والتى توشك أن تقرر مصير المنطقة بأسرها.

ولما تكامل عدد الفرنج ضربوا مصافا عظيما وبادروا بالزحف على جبهة المسلمين فى إندفاع شديد ، وزحف اليائس ، مما أذهل الجيش الإسلامى ، وكان بوهيموند قد نجح فى بث الحماسة فى نفوس جنده ونفخ فيهم روحا جديدة، وهيأهم لخوض هذة المعركة ، ولذا اندفعوا فى حماسة بالغة نحو صفوف المسلمين واشتد القتال فى الجبهة الرئيسية وعجز الترك عن صد تقدم الصليبيين واضطربت صفوفهم ، وواصل الصليبيون زحفهم مدعمين بقسم من الفرسان كانوا قد

---

(١) مختصر تواريخ الارمن ، نقله إلى العربية القس أنطون خانجى (أورشليم سنة ١٨٦٨ ) ص ٢١٦ .

أعدوهم على جانب التل يركبون أفراسا بيضاء ويلوحون بأعلامهم البيضاء[1] ، مما زاد فى اضطراب الترك وفت فى عضدهم .

وفى هذه الظروف العصيبة قرر فريق من الأمراء المسلمين الانسحاب من المعركة تحت قيادة دقاق بن تتش فتركوا مواقعهم وأحدثوا خللا كبيرا فى صفوف المسلمين فساد الذعر بين الجنود وانهزم فريق منهم وتبعهم آخرون وأوشكت الكارثة أن تحدث ، ولما رأى كربوغا هذا الحال وعجز فى نفس الوقت عن صد تقدم الصليبيين لجأ إلى إشعال النيران فى الحشائش الجافة أمام صفوف الصليبيين حتى يمنعهم من التقدم ويعطى نفسه فرصة ينظم فيها صفوفه[2] غير أن ذلك لم يكن له أثر كبير فى سير المعركة ، إذ لم يبق من الأمراء المسلمين مع كربوغا سوى الأمير سقمان بن أرتق التركمانى وجناح الدولة الحسين العربى ، وحينما عجز هذان أيضا عن الصمود أمام الصليبيين آثرا الفرار كبقية الأمراء ، ويذكر المؤرخ ابن الاثير أن بقاء هذين الاميرين بعد فرار بقية الأمراء بسبب أنهما لم يكونا فى الجبهة الرئيسية ، بل كانا فى الكمين[3] . وكان فرار هذين القائدين فى النهاية قد أعطى كربوغا تأكيدا باستحالة البقاء فى الميدان وأقنعه بأن المعركة خاسرة ، وعندئذ أحرق سرادقه وخيامه وانهزم إلى حلب[4] غير أن جماعة من المسلمين ثبتوا فى المعركة طلبا للشهادة ، وصدقوا القتال وحاولوا عمل شيء

(1) Runciman: op cit. I. p. 246

(٢) مع أن صاحب الجستا يذهب إلى أن إشعال النيران كان لتنبيه من كان من الترك داخل الخيام حتى يلوذوا بالفرار Gesta Francorum. p. 69.

(٣) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ١٨٧ (سنة ٤٩١هـ).

(٤) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧

ينالون به درجة الجهاد الحق ولكنهم استشهدوا ولم تغن صرخاتهم الخافتة وسط هذه المعمعة .

لم يعرج الصليبيون على المغانم والإسلاب ، وإنما أخذوا أولا يتعقبون المنهزمين ويقتلون فيهم حتى جسر الحديد وحارم شرقا ، ثم بعد ذلك أخذوا فى الإستيلاء على ما فى المعسكر الإسلامى من المؤن والغلات والآلات والأسلحة بما لايدركه حصر ، ووثب السريان والأرمن على فلول القوات المنهزمة فنهبوهم وقتلوا من « انقطع من العسكر »[1]، منتهزين فرصة الهلع الذى أصاب المسلمين من جراء هذه الهزيمة .

وهكذا وقعت الهزيمة على الجانب الإسلامى نظرا لتخلى الأمراء المسلمين عن مواقعهم وطرحهم كل القيم جانبا وتحكم روح الأنانية والعداء فيما بينهم فتمت الهزيمة عليهم «ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم »[2]، ولعل ذلك مما أوجد جانبا من الشك فى أول الأمر فى نفوس الصليبيين وخشوا أن يكون وراء انسحاب هؤلاء الأمراء مكيدة للإيقاع بهم ، فأحجموا أول الأمر عن تتبعهم، ولكنهم عندما أيقنوا من عدم وجود شىء من ذلك أخذوا فى مطاردة القوات المنسحبة وأعمال القتل والنهب فيها .

وبهذا أثبت الصليبيون عمليا أنهم قوة جديدة ظهرت على مسرح الأحداث بالشرق بانتصارهم على كافة القوى الإسلامية بالشام وعلى قوات السلاجقة خارج حدود الشام أيضا وثبت عمليا أن دعاة الجهاد الدينى فى هذه المرحلة لم يكونوا

---

(١) نفس المرجع ج٢ ص ١٣٧، Gesta Francorum. p. 70

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ (سنة ٤٩١ ﻫ)

على مستوى الفكرة ذاتها ، ولم تكن لديهم رغبة صادقة فى تحمل كل أعبائها وليس من شك أنها كانت مرحلة متقدمة من المراحل التى مرت بها فكرة الجهاد المقدس ضد الخطر الداهم ، لم تتبلور فيها كل الدوافع التى تسمو بالفكرة إلى مكانتها العالية ، ولكنها على كل حال كانت بداية على الطريق .

انهزم إذن كربوغا إلى حلب فى حالة سيئة ، فبادر رضوان بالخروج للقائه « وحمل له خياما وغيرها » [1] ولكنه لم يمكث هناك طويلا حيث قرر العودة إلى الموصل بعد أن تداعت هيبته ، كما عاد أيضا دقاق إلى دمشق يجر أذيال الخيبة والفشل ، وتفرقت القوات المنهزمة لتترك للصليبيين حرية العمل فى الشام .

وفى نفس الوقت لم يجد نائب كربوغا فى قلعة أنطاكية وهو أحمد بن مروان بدأ من التسليم بعد هزيمة المسلمين ففاوض الصليبيين فى ذلك فلقى عرضه ترحيبا من ريموند خاصة ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه ، وبذلك صفت أنطاكية للصليبيين ولبوهيموند بالذات ليقيم بها إحدى الإمارات اللاتينية فى الشرق .

وعند معالجة أسباب الهزيمة التى تمت على المسلمين أمام أنطاكية لانجد صعوبة فى الوصول إلى جذورها ، إذ يسأل كربوغا نفسه على جل الأسباب « فقد كان لسوء معاملته الأمراء وتكبره عليهم أثر سيء فى انفضاض قلوبهم من حوله واضمارهم الغدر له عند القتال فقد ، أغضب الأمراء وتكبر عليهم ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال ، وأضمروا فى أنفسهم الغدر إذا كان قتال » [2] ،

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٦ ( سنة ٤٩١ هـ )

كذلك لإعراضه عن الأخذ بالنصائح التى بذلوها له بالمبادرة بمواجهة الصليبيين قبل أن تكتمل أعدادهم ، وهو أمر أثار دون شك حفيظة هؤلاء الأمراء وجعلهم يدركون منذ البداية أن قائدهم الاعلى بعيد عنهم وقد استبد برأيه لايخضع لمشورة ولايأخذ بنصح ، وربما قدروا أنه لو عاجل الصليبيين أثناء خروجهم متفرقين من باب المدينة فإما استطاع القضاء على أعداد كبيرة منهم وأضعفهم وإما لجأ الصليبيون إلى الاحجام عن الخروج حيث يتعرضون للهلاك جوعا مع نفاذ الاقوات بل انعدامها نهائيا داخل المدينة .

ويؤخذ على كربوغا كذلك عجزه عن حفظ الوفاق بين الامراء فى حلفه وترك الخلافات الشخصية تستشرى بينهم وتهدد الحلف كله بالانفجار من الداخل وهو ماحدث فعلا ، ولو نجح كربوغا فى معالجة هذه الامور بشىء من الحكمة والاعتدال بدل مالجأ اليه من العنف ضد بعضهم إذن لكان ذلك أوفق ، ولحال دون انفراط عقد التحالف وإلى ماجرى على المسلمين من هزيمة

كذلك لم ينجح كربوغا فى بث الحماسة فى نفوس جنده وقواده بما يتناسب والحرب التى يشنها بالرغم من تهيوء الفرصة أمامه لذلك وإيمانه بقداسة الحرب التى يخوضها يضاف إلى ذلك افتقاره إلى البراعة الحربية والنبوغ العسكرى التى يتمثل فى تعبئة الفرق وتنظيمها وتوزيعها بما يكفل له النصر ، واختيار أوقات الهجوم والارتداد ، ودقة التوقيت ووضع الخطط وحساب العوامل المغيرة لسير المعركة .

والحقيقة أن تاريخ كربوغا قبل هذه الحملة لاينبىء بنبوغ عسكرى أو مهارة حربية أو قيادية ، فباستثناء بعض الحروب القليلة التى خاضها ضد بعض الأمراء المحليين فى الجزيرة وشمال العراق لانجد نصرا حربيا يضعه فى مصاف القواد

العظام ، بل أن موقفه فى الحرب التى خاضها إلى جانب قسيم الدولة آقسنقر وحليفه بوزان ضد تاج الدولة تتش ، لايعين لنا دورا هاما له فى هذه الحرب إن لم يكن أحد أسباب الهزيمة التى تمت على الحليفين (١) ، بل أنه أسر فى النهاية على يد تتش وأودع السجن قبل أن يبذل السلطان مساعيه للافراج عنه .

يضاف إلى ذلك أيضا ماتورده المصادر الصليبية من أن كربوغا كان يستخف بالفرنج وبقوتهم وأسلحتهم (٢) ، وليس ذلك بمستبعد نظرا الثقة المفرطة التى كان يبديها تجاه نفسه وقواته فى كل مناسبة . ولكن لاشك أن عدم تقدير العدو حق قدره ، وتقييم قوته طبقا لحساب دقيق حتى يمكن مواجهته باستعداد تام ، يعد قصورا فى فهم أبسط النظم الحربية والعسكرية ، كما أن التواكل والاعتماد على أن العدو أقل عددا وعدة أو أنه يحارب عن قضية خاسرة أو قضية فاشلة ، لايتمشى مع قواعد المنطق الصحيح .

وإذا كان كربوغا قد حمل الجانب الأكبر من أسباب الهزيمة التى حلت بالمسلمين أمام أنطاكية باعتباره القائد الأعلى للحلف ، فان جانبا لايقل أهمية عن ذلك يقع على كاهل الأمراء المسلمين الذين شاركوه المعركة والذين لم يشاركوه . إذ أثبت أغلبهم أنهم أقل من أن يقدروا أهمية الحرب التى يخوضونها ، فلم يستطيعوا التغلب على الأحقاد الشخصية ونوازع الاختلاف فيما بينهم ويلتفتوا إلى الخطر المتربص بهم يوشك أن يبتلعهم جميعا .

فعدم اشتراك رضوان فى الحلف فضلا عن أنه حرم المسلمين من معاونة

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦

(٢) Gesta Francorum. p. 55.

كانوا فى حاجة اليها قد أوجد استياءا لدى بقية الأمراء وخلق ثغرة فى صفوفهم ، كما أن رسالته إلى كربوغا كان لها أثر سيء فى إقلاق دقاق وإثارة شكوكه بالاضافة إلى خشيته على أملاكه من إغارات الفاطميين فى فلسطين مما جعله اكثر ميلا إلى الانسحاب من ميدان المعركة .

أما جناح الدولة وسقمان وأمير الرحبة فلم تكن العلاقة بينهم - كما سبقت الاشارة - علاقة ود بل لوثتها الاحقاد والبغضاء مما جعل حلفهم هشا عرضه لأن تعصف به الرياح وهو ماحدث فعلا .

على أن هؤلاء الامراء يشتركون جميعا فى عدم الاخلاص لكربوغا بالذات لأنهم أيقنوا دون شك - أن انتصاره فى هذه المعركة لابد وأن يزيد من قوته ويعظم من هيبته وسيكون ذلك على حسابهم هم اولا ، فالانتصار سيمنحه فرصة كبيرة لتدعيم نفوذه فى المنطقة على حساب ممتلكاتهم [١] وهى نظرة ضيقة بطبيعة الحال توضح إلى أى حد بلغ الانحلال بهؤلاء الامراء وكيف تحكمت فيهم المطامع الشخصية دون اعتبار الصالح العام وقدسية الحرب ذاتها .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى افتقرت القوات المحاربة إلى شيء من الحماس الدينى ، وكان جانب منها لايحارب عن عقيدة سليمة أو من أجل مبادىء سامية وإنما داعيه المغانم والاسلاب أكثر مما هزته القيم ، ولعل فى أخبار القوات التركمانية حينئذ وفى الفترة اللاحقة خير دليل على ذلك أو على الاقل كان جانب منها مدفوعا بعوامل أخرى لم تكن الحرب المقدسة إحداها . ونظرا لهذا النقص الخطير فى التشبع بالقيم لدى بعض القوات يمكننا القول أن جانبـــا هاما من

---

(١) Runciman : op. cit .I p. 248

الجوانب التي تكفل النصر في أية معركة قد اختفى ، فساهم بذلك في إنزال الهزيمة بالمسلمين .

وإذا كانت هذه أسباب الهزيمة التي تسبب فيها المسلمون لأنفسهم، فان الصليبيين لهم ضلع فيما صنعوه لأنفسهم من نصر ، نظرا لما تشبعوا به من روح الحماسة والالتفاف حول قائدهم والجرأة في الخروج من المدينة والاشتباك مع الجيوش الاسلامية والاستبسال في الحرب ، وكلها عوامل كفلت لهم النصر في حرب كانوا فيها الجانب الأضعف .

وأما آثار الهزيمة بالنسبة للمسلمين فانهـــا لاشك كانت تجربة قاسية للقوى الإسلامية وخاصة من أخلص منهم النية في القتال وصدق في الجهاد وكان يود نتائج أفضل من تلك التي آلت اليها جهود المسلمين عامة .

وربما يعد أبرز نتائج هذه الهزيمة أنها أبعدت السلاجقة لسنوات عن طريق مقاومة الصليبيين ، ودمغهم بخاتم الجمود قبل أن تبعث حركة الجهاد من جديد على يد السلطان محمد بن ملكشاه ، كذلك كان من أبرز نتائج الهزيمة تثبيت الفرقة والانقسام بين صفوف المسلمين في الشام إذ نظرت بعض القوى إلى غيرها نظرة الشك والريبة وحملتها جانبا من مسئولية الهزيمة ، وهكذا بدل أن يعمل الانتصار الذى كان يجب أن يحرزه المسلمون على لم الشمل وجمع الكلمة عملت الهزيمة ، على زيادة الفرقة والإنقسام ، وليس من شك في أنه لو قدر لكربوغا الانتصار في هذه الحرب إذن لدان له الأمراء بالطاعة وغدت المنطقة كلها تحت رحمته ، وربما كانت نشوة الانتصار قضت على عوامل الفشل والاضمحلال الذى سادها من قبل ، وعلى كل حال كانت الهزيمة من أسباب تثبيت روح العداء والبغضاء بين القوى الإسلامية في الشام وبالتالي سريان النزعة الانفصالية وثبوتها .

كما ترتب على هذه الهزيمة أن أضحت بعض القوى الإسلامية فى الشام تحت رحمة الصليبيين ، بل أن أملاك حلب وخاصة من الجهة الغربية أصبحت فى خطر كبير إذ لم يتردد الصليبيون فى شن الغارات عليها واقتطاع ما تصل اليه أيديهم [١] وسكن رضوان فى أغلب الأحيان وانكمش وخبا متأثرا بأحداث الأمس واضعا هزيمة المسلمين وهم كثرة أمام الصليبيين نصب عينيه ، الأمر الذى جعله لا يجرؤ كثيرا على التصدى لهم باستثناء مرات قليلة [٢] .

وثمة أمر هام برز كنتيجة مباشرة من نتائج هزيمة المسلمين ، هو انتفاض روح السريان والأرمن العدائية ضد المسلمين ، فمجرد أن ظهر تفوق الصليبيين وجد السريان والأرمن من المسيحيين الشرقيين الفرصة سانحة للانتفاض على المسلمين والانتقام منهم [٣] وخاصة أولئك الذين لفظتهم المعركة أمام أنطاكية وأهل الحصون والبلدان القريبة من أنطاكية وحلب . وقد أزالت هزيمة المسلمين أمام أنطاكية القناع عن أوجه هؤلاء المسيحيين الشرقيين الذين بدوا أنهم أخذوا فى الاستفادة من الفرص المواتية ، والمد المسيحى الجارف الذى فجره الصليبيون.

أما فيما يختص بالجانب الصليبى فان نتائج الانتصار كانت أكبر - دون شك - من دلائله إذ فتح هذا النصر للصليبيين الطريق لإلتهام المدن والمعاقل الأخرى فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة بعد أن فرضوا كيانهم على المنطقة وضاعفوا من هيبتهم لدى القوى الإسلامية كلها . والواقع أنه إذا كانت نيقية قد سلمت دون قتال فى بداية الزحف الصليبى ، كما سقطت أنطاكية بعد ذلك بفعل الخيانة ، ولم

---

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب (Rec. Hist, or. III. p. 587)

(٢) نفس المرجع p. 584.

(٣) Gesta Francorum p.70, Runciman : op. cit I. p. 249.

يظهر الصليبيون فى الحرب الفعلية إلا على سلطان سلاجقة الروم الصغير قلج أرسلان فى ضوروليوم ، فان سلاجقة فارس والشام كانوا لايعيرون هذا النصر جانبا كبيرا من الإهتمام ، إذ اعتقدوا أنهم هم القوة الوحيدة التى ستتكسر على نصلها هذه الموجة الصليبية العاتية . فلما حدث الاحتكاك بين الطرفين لأول مرة أمام أنطاكية ومنى المسلمون بالهزيمة القاسية أيقن السلاجقة أن هذا الخطر أكبر مما تصوروا أو تخيلوا .

ولعله لايغيب عن الذهن أن انتصار الصليبيين أمام أنطاكية مكنهم نهائيا من السيطرة على هذه المدينة بعد أن كان ذلك موضع شك كبير (١) ، بل ضمن لهم حمايتها من الجانب الإسلامى لفترة طويلة ، وأصبحوا بذلك فى وضع جديد ومركز يسمح لهم بتهديد شمال الشام بأسره وخاصة حلب .

وبالانتصار على المسلمين أمام أنطاكية زالت عقبة كبيرة من طريق الصليبيين وهم السلاجقة ، فما لبثوا أن زحفوا إلى الأراضى المقدسة ليجهزوا على القوة الاسلامية الأخرى المتمثلة فى الفاطميين فى فلسطين ، وكانوا قد عمدوا إلى تأخير القضاء عليهم إلى هذا الوقت ولم يمض أكثر من عام حتى كانوا قد اقتحموا بيت المقدس ووضعوا نهاية لنفوذ الفاطميين فى تلك البلاد ، ثم ما لبثوا أن انتصروا على الأفضل حين قدم لمدافعتهم ، وبذلك وصل المد الصليبى مداه والتيار الغربى نهايته تقريبا بوصوله إلى فلسطين ، والاستيلاء على بيت المقدس بصفة خاصة وتكوين الامارات اللاتينية فى الشرق .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 249

# ب ـ الخلافة الفاطمية والجهاد

### الحملات الفاطمية على فلسطين سنة ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٥ م

### فشل الفاطميين فى زحزحة الصليبيين عن المواقع التى احتلوها بالشام

**الخلافة الفاطمية والجهاد الدينى :**

إنتهينا فى إشارة سابقة إلى أن الخلافة الإسلامية بشقيها السنى فى بغداد والشيعى فى القاهرة لم تضطلع بدورها الواجب فى مقاومة الغزو الصليبى ولم تضع مقاومة هذا الغزو فى درجته من الأهمية بالنسبة للأحداث المعاصرة ورأينا كيف فات الخلافة الفاطمية بالذات والقائمين على شئونها ، منذ البداية الفهم الواقعى لطبيعة الخطر الصليبى ، وحقيقة المطامع الصليبية فى الشرق . فلما تبينت الخلافة الفاطمية ذلك سارعت إلى محاولة طرد الصليبيين من فلسطين بحملات متكررة فيها شبه رغبة ملحة فى استعادة هيبتها ونفوذها الضائع فى هذه البلاد والحاق ضربة قاصمة بالكيان الصليبى فى مملكة بيت المقدس ولكن مع ذلك خرجت محاولاتها باهتة شيئا ما لا تتناسب وإمكانيات هذه الخلافة وقدرتها على عمل شىء أكبر يغير من الاوضاع التى أمست فيها هذه المنطقة ويعيد لها نفوذها الضائع ، ويبدو أنه فات القائمين على شئونها فى مصر أن يعملوا على تدعيم قوتها وبناء جيشها ، ومنحه طاقة أكبر يستطيع بها أن ينال من عدو بات معلوما حرصه الدائب على حماية نفسه ومكاسبه المغتصبة . ولهذا لم يقدر للخلافة الفاطمية فى النهاية النجاح فيما قصدت اليه . ولعله من الاوفق البدء فى عرض المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين فى فلسطين لتأكيد هذا الاتجاه .

**الحملات الفاطمية على فلسطين :**

لم تكن الحملات الفاطمية التي أرسلها الأفضل في الأعوام ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ هي أول احتكاك عسكري بين الخلافة الفاطمية والصليبيين في الأراضي المقدسة ، فقد سبق أن التقى الجانبان في الحرب التي دارت في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ عقب إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، تلك الحرب التي انتهت بهزيمة القوات الفاطمية هزيمة منكرة وهروب الأفضل إلى مصر وعودة فلول جيشه في حالة غاية في السوء ، قبل أن تفيق الخلافة الفاطمية وتجهز تلك الحملات المشار إليها .

ولعل تناول هذه الموقعة المبكرة يعد خير مدخل لعرض الحملات التالية التي كان هدفها في الواقع أوسع مجالا وأكثر عمقا من هدف هذا اللقاء الأول . فليس من شك أن الحملات المنظمة التي أرسلت في الأعوام المشار إليها كان هدفها زحزحة الصليبيين من أماكنهم في فلسطين وطردهم منها نهائيا إن أمكن ، وتتابعت بشكل أعطى تأكيداً بمحاولة جعلها جهاداً إسلاميا عاما . ولذا عدت حلقة أولى في حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بينما تم اللقاء الأول في ظروف وملابسات أخرى حددت مفهومه وأبعاده .

ويفهم من أغلب النصوص فيما يختص بهذا اللقاء المبكر بين الفاطميين والصليبيين وهي الحرب التي دارت في ١٢ أغسطس قرب عسقلان ، أنها كانت حربا إنتقامية منهم لما أحدثوه في بيت المقدس من فظائع «فلما بلغهم ما تم على أهل القدس جمع الأفضل ... العساكر وحشد وسار إلى عسقلان [١] » ، كما

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢ هـ)

أنها كانت حرب كبرياء أيضا » وأرسل ( الأفضل ) إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم » وكذلك « يوبخهم » [١] فضلا عن أنها كانت حربا ضد عدو سطا على جزء من أملاكهم ، ويوشك أن يلتهم الباقى مما فى أيديهم ، ويفهم ، كذلك أن خروج الأفضل كان نتيجة مباشرة لسقوط بيت المقدس ، وأنه سار لاستعادتها من أيدى الصليبيين والانتقام للمسلمين بها .

ولكن يبدو أن الأفضل كان قد تجهز فعلا للخروج لصد الصليبيين عن فلسطين كلها ومدافعتهم عن بيت المقدس ، وذلك بعد أن أصبحت مقاصدهم معروفة تماما فى مصر منذ حصارهم لعرقة فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة جنوبا[٢] إذ تشير الدلائل إلى أن الفترة الطويلة التى قضاها الصليبيون فى حصار عرقة - نظرا لما أبدته هذه المدينة من مقاومة مشرفة - جعلت مقاصدهم ونواياهم ضد الفاطميين تتكشف شيئا فشيئا ، فقد أرسل الامبراطور البيزنطى الكسيوس إلى الصليبيين يوضح رغبته فى القدوم إلى الشام ليقودهم إلى بيت المقدس وكان يتوقع رفضهم لهذا الاقتراح - لما ظهر من تقصيره فى نجدتهم فى أنطاكية بدليل أنه بعث فى نفس الوقت إلى الفاطميين فى مصر يتنصل من كل مسئولية لتقدم الصليبيين فى أملاك الخلافة الفاطمية فى فلسطين ، هذا بالاضافة إلى أن محاولة التحالف بين الصليبيين والفاطميين كانت قد فشلت من قبل[٣] ، ولذا غدا معروفا فى مصر تماما نوايا الصليبيين ومقاصدهم والصدام المنتظر معهم

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٣٩

(٢) Camb. Med. Hist. vol. 5. p. 296

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 329

فلابد أن الأفضل رتب أموره على هذا الأساس لملاقاتهم فى فلسطين قبل أن يهاجموا بيت المقدس.

ولكن الأفضل فاته أيضا أن يسرع فى ذلك حتى يستطيع لقاءهم قبل أن يهاجموا المدينة وأضاع وقتا ثمينا قبل أن يتحرك إلى عدوه ، فقد وصـــل إلى عسقلان فى ٤ أغسطس بعد أن كانت المدينة قد سقطت فعلا فى أيدى الصليبيين بنحو عشرين يوما ، ويؤكد هذا ما ذكره المؤرخ ابن القلانسى حين قال : ووصل الأفضل فى العساكر المصرية ، وقد فات الأمر ، فانضاف إلى عساكر الساحل ونزل بظاهر عسقلان، [١] والأمر المقصود هنا دون شك هو الوصول قبل الصليبيين ومنع سقوط المدينة فى أيديهم .

نزل الأفضل بقواته الكبيرة فى السهل الواقع أمام عسقلان دون حـــذر أو ترقب ، منتظرا وصول الأسطول فى البحر وقوات العرب ، فما أن تأكد الصليبيون من وجوده حتى جمع جودفرى قواته وخرج من بيت المقدس فى ٩ أغسطس ومعه روبرت دى فلاندرز ، ولحق بهم روبرت النورمندى وريموند الصنجيلى، وقواتهما ، وكذلك انضم إليهم تنكرد ، واجتمعوا قرب الرملة فى ١٠ أغسطس وفى ١١ أغسطس كانت كافة القوات الصليبيـــة مستعدة للزحف إلى قوات المسلمين [٢] .

وبعد أن حصلت القوات الصليبية على راحة فى ليلة ١١ أغسطس زحفت فى السهل الكبير إلى شمالى عسقلان حيث كانت قوات الأفضل معسكرة ، وفى

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

(٢) Funciman: op. cit. I. pp. 295-6

فجر يوم ١٢ أغسطس تقدمت فى تنظيم رائع أثناء الخيوط الأولى لضوء ذلك اليوم حيث كان ريموند على جناحهم الأيمن الواحف بالقرب من ساحل البحر ، وفى القلب كل من : روبرت دى فلاندرز وروبرت النورمندى وتنكرد ، وفى الميسرة جودفرى بوايون . وباغتت هذه القوات جيش الأفضل ، ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم فنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم وأعجلهم الفرنج فهزموهم.[1] فوقع الذعر بين الجنود وانهزموا إلى ناحية عسقلان وفى أثرهم الفرنج ، وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وهرب الأفضل فى خواصه إلى مصر ، بينما لجأ جماعة من المنهزمين إلى أشجار الجميز القريبة فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج واستولوا على كثير من المغانم والأموال والأسلحة، ثم بدأوا فى مضايقة عسقلان فبذل لهم أهلها مبلغا كبيرا من المال فرحلوا عنها.

والواقع أن هذا الانتصار الحاسم الذى تم فى أقل من ساعة على أيدى الصليبيين ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية ، إذ انكمش الأفضل وقبع فى مصر دون عمل شىء قرابة عامين قبل أن يفكر من جديد فى الجهاد ، وبذلك ترك للصليبيين فرصة نادرة لتأسيس المملكة الصليبية دون أية مضايقة [2] وحتى بعد أن قرر الأفضل القيام بالجهاد ضد الصليبيين ظلت فى أغلب الظن صورة الهزيمة التى منى بها ماثلة فى ذهنه ، فصبغت محاولاته التالية بالحذر وعدم الثقة فلم يقدر لها فى النهاية النجاح فيما قصدت اليه .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢هـ)

(٢) Camb. Med. Hist. vol 5. p. 297

كانت هذه الحرب هى مجال الاحتكاك الأول بين القوتين اللتين تنازعتا السيادة على فلسطين ، كما كانت درسا عمليا للأفضل أعاد اليه بعض صوابه بعد أن تورط فى محاولة تحالف فاشل مع هذا العدو ، كما كانت ضربة أصابت الأفضل كثيرا فى هيبته وقوته ، فإلى أى حد استفاد الأفضل من هذا الدرس وعمل على رد إعتباره واستعادة هيبته ؟ الواقع أن دراسة الحملات الثلاث التالية فيها اجابات شافية على هذه الأسئلة .

**الحملة الفاطمية الاولى على فلسطين سنة ١١٠١ م (سنة ٤٩٤ هـ)**

انكمش الأفضل إذن عقب هزيمته فى عسقلان ، ولم يجسر على محاربة صليبى بيت المقدس رغم ما تعرض له سكان فلسطين وغيرها من بلاد الشام من أضرار دفعت أعدادا كبيرة منهم إلى النزوح إلى مصر هربا من الفرنج[1]، والغلاء، فتوافدت جموعهم إلى مصر فى عام ١١٠٠م (٤٩٣هـ) على وجه الخصوص فضلا عما أبداه بلدوين الأول عقب تتويجه من نشاط فى مهاجمة القوى الإسلامية المجاورة [2] .

لم يطل انكماش الأفضل فى مصر إذ أن استمرار نشاط بلدوين فى فلسطين والساحل الشامى وازدياد خطر الصليبيين بالنسبة للأملاك الفاطمية ، أجبره على الخروج من عزلته ، ومحاولة عمل شىء يوقف من هذا التيار الجارف وتخلصه من هذا الخطر المتحفز . ويبدو أن دأب بلدوين الأول على الاستيلاء - خاصة - على المدن الساحلية والموانى وخاصة المواجهة لبيت المقدس والتى كانت لاتزال بيد

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٩

(٢) Runciman: op. cit. II. p. 71

الفاطميين أو تابعة لنفوذهم ، قد أزعج الأفضل كثيرا وجعله يفكر جديا فى مواجهة الصليبيين ومحاولة طردهم من فلسطين نهائيا .

ففى أواخر ابريل سنة ١١٠١م استولى بلدوين على ميناء أرسوف ، ثم اتجه إلى قيسارية واستولى عليها عنوة وأحدث بها مذبحة رهيبة فى ١٧ مايو سنة ١١٠١م[1] ومن ثم وضح خطر الصليبيين على نفوذ الخلافة الفاطمية بشكل لايحتمل ، وزاد بلاؤهم بالنسبة للمسلمين فى المنطقة ، وأضحى القيام بعمل حاسم ضدهم أمرا يوجبه الحفاظ على بقية أملاك الفاطميين فى الساحل الشامى إن لم توجبه مسئولياتهم تجاه دينهم وتجاه سكان المنطقة عامة.

ونكاد نجزم أن ضياع الموانى والمدن الساحلية التابعة للخلافة الفاطمية سواء كانت تبعية فعلية أو اسمية قد عجل بارغام الأفضل على إنفاذ حملته الأولى إلى فلسطين . حقيقة أنه ليس ثمة شك فى وجود حوافز أخرى كان لها أثر فى إظهار بوادر الجهاد الدينى لدى الفاطميين ، واكسابهم نزعة جديدة ترمى إلى صبغ الحرب مع الصليبيين بصبغة الجهاد المقدس ، وحقيقة أن خروجهم لملاقاة هذا العدو يتخطى أسباب ضياع بعض المدن والموانى إلى رغبة أكيدة فى هزيمته والانتقام منه وتطهير الأراضى المقدسة منه ، بدليل تتابع الحملات الفاطمية فى شبه رغبة لإحداث تغيير لصالحهم فى هذه المنطقة ، ومحاولة لكسب أمام هذا العدو يثلج الصدور ويبلسم الجراح ، وبدليل عدم التردد فى طلب المعونة من حكام دمشق السنيين فى بعض مراحل الصراع مع الصليبيين إلا أننا يستطيع أن نؤكد أن ضياع أرسوف فى أواخر ابريل سنة ١١٠١ (جمادى الآخرة سنة ٤٩٤هـ)

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩

وضياع قيسارية فى ١٧ مايو سنة ١١٠١م (رجب سنة ٤٩٤هـ)[١] ، وما حدث بها من مذبحة رهيبة ، هذا التوقيت الزمنى يفسر سرعة خروج الجيش الفاطمى لملاقاة الصليبيين فى ذلك الوقت .

فآراء المؤرخين اتفقت على أن خروج الجيش من مصر كان بعد هذه الأحداث بقليل فابن القلانسى يذكر أنه وصل إلى عسقلان فى أول شهر رمضان سنة ٤٩٤ أى فى يوليو سنة ١١٠١ وأقام بعسقلان إلى ذى الحجة من نفس العام حيث تحرك لمقابلة جيش الفرنج [٢] ، وابن ميسر يتفق مع ابن القلانسى فى ميعاد وصوله إلى عسقلان ولكنه يذكر أن خروجه من مصر كان فى شعبان سنة ٤٩٤ أى فى يونيو سنة ١١٠١ [٣] ، وابن الأثير ينص صراحة على أن خروج عساكر الأفضل لم يكن إلا «ليمنعوا الفرنج عما بقى فى أيديهم (الفاطميين) من البلاد الشامية»[٤] بعد ضياع ارسوف وقيسارية

ويبدو أنه حدث بمصر رد فعل عنيف لتتابع ضياع الموانى والمراكز التى كان يرتادها الأسطول المصرى فى تحركاته على الساحل الشامى، وبسبب الأخبار التى كانت تترى بازدياد نفوذ الصليبيين ، وازدياد بلائهم بالنسبة للمسلمين فى فلسطين وممتلكات الخلافة فيها ، مما جعل الأفضل فى نوبة حماس يأمر بانفاذ الجيش الذى لاشك كان يعده منذ فترة ، تحت أمرة قائد يدعى سعد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠٤ [سنة ٤٩٤هـ]

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١١ [سنة ٤٩٥هـ] .

الدولة القواسى ، ولم يكن الافضل يقدر تماما أنه بدأ حركة جهاد كبيرة ضد الصليبيين .

ومع أن الانفاذ جاء سريعا كما هو واضح ، إلا أن الجيش تأخر فى عسقلان من أول رمضان إلى ذى الحجة (سنة ٤٩٤ هـ) = يوليو - سبتمبر سنة ١١٠١ ، مع ما فى هذا من اعطاء فرصة للعدو للاستعداد والاجتماع ، وليس هناك من تعليل لهذا التأخر سوى انتظاره مزيدا من الامدادات والنجدات .

فلما تكامل الجيش سار من عسقلان فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ متجها ناحية الرملة حيث يستطيع منها تهديد كل من يافا وبيت المقدس[1] ، وقد أبانت هذه الوجهة - دون شك - أن الافضل قصد إصابة الكيان الصليبى ذاته بضربة قاصمة مع توسيع نطاق الحرب معه، وعدم قصرها على مجرد استرداد ما اغتصبه مؤخرا من أملاك الخلافة الفاطمية

أما بلدوين ملك بيت المقدس الجديد الذى تم تتويجه فى يوم عيد الميلاد فى ديسمبر سنة ١١٠٠ م خلفا لأخيه جودفرى بوايون الذى توفى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ كان عليه أن يثبت أقدامه فى الحكم ويؤكد زعامته بالقضاء على متاعب المملكة من جانب الفاطميين وأن يحميها من هجومهم الذى لم يعد مجرد إغارة صغيرة وإنما استهدف المملكة ذاتها للقضاء على الحكم اللاتينى بها

لذا لم يتوان بلدوين حينما علم بتحرك الجيش الفاطمى الكبير عن عقد مجلس حربى فى يافا فى أول سبتمبر سنة ١١٠١ حيث تقرر فيه المبادرة بالزحف ومهاجمة القوات الفاطمية .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٩٤.

ومع أن المراجع العربية قد بالغت في عدد الجيش الصليبي وأكدت أنه كان جيشا كبيرا بحيث بلغ ألف فارس وعشرة آلاف راجل[1]، إلا أن الرواية الصليبية خالفت ذلك وذهبت إلى أنه لم يتعد قوة صليبية صغيرة تقل عن ذلك بكثير كما تشير الدلائل إلا أنه كان جيشا صغيرا فعلا ، إذ ليس من شك في أن بلدوين صادف في بداية حكمه نقصا خطيرا في الرجال[2] بعد أن طحنت المعارك السابقة جانبا كبيرا من القوى البشرية ، وبعد أن آثر كثير من رجال الحملة العودة إلى أوطانهم . على أية حال كان جيش بلدوين صغيرا لم يتعد نحو مائتين وستين فارسا ونحو تسعمائة راجل وذلك بالنسبة للجيش الفاطمي الذي وصفته النصوص بأنه كان «عسكرا كثيفا» غير أن الفارق بين الجانبين لم يكن في عدد الجند وتسليحهم بقدر ما كان في تهيئتهم نفسيا وروحيا لهذه الحرب وشحذ هممهم ، وقد نجح بلدوين في ذلك أيما نجاح .

سار الصليبيون تحت قيادة بلدوين ومعه رجال الدين يحملون صليب الصلبوت متجهين ناحية الرملة لملاقاة الجيش الفاطمي ، فالتقيا في صبيحة يوم ٧ سبتمبر سنة ١١٠١[3] في السهل الواقع جنوب غرب مدينة الرملة حيث دارت معركة بين الطرفين كان النصر النهائي فيها للصليبيين بالرغم من اختلاف الروايات في سير المعركة ، وكيفية انتهائها بهزيمة الفاطميين .

ويتحتم إذن عرض هذه الروايات ، وتتبع اختلافاتها لنتحسس مدى صدق

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠،
ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠

(2) Stevenson: The Crusaders in the East. I. p. 39.

(3) Conder : The Latin Kingdom of Jerusalem. p. 84.

الرغبة فى الجهاد لدى الفاطميين فى هذا الدور المتقدم من أدوار الجهاد . وتشير رواية إبن القلانسى وإبن ميسر فى وصفهما سير المعركة بين الصليبيين والجيش الفاطمى قرب الرملة إلى أن الحرب دارت شديدة منذ بدايتها وحمى وطيسها ومالت على الجانب الإسلامى بعد ذلك فكسرت ميمنته وميسرته فتتبع الصليبيون رجالها المنهزمين ، ولكن سعد الدولة القواسى مقدم الجيش وكان حينئذ فى القلب استبسل فى الجهاد وحاول الصمود أمام ضربات الصليبيين ولكن الحظ تخلى عنه هو الآخر أيضا . فعاجله القضاء وكبا به جواده وسقط عنه إلى الأرض فاستشهد مكانه ... ومضى شهيداً مأجوراً ، غير أن المسلمين عادوا مرة أخرى والتحموا بالفرنج وبذلوا النفوس« فى الكرة عليهم ، فهزموهم إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا وغنموا ولم يصابوا إلا بخسائر طفيفة ، أى أن النصر النهائى طبقا لهذه الرواية كان للجيش الفاطمى [1] .

أما الرواية الصليبية فقد أشارت إلى أن الحرب قرب الرملة بين الصليبيين والقوات الفاطمية انتهت بسرعة باندحار الجيش الفاطمى ومقتل قائده وفرار فلوله إلى عسقلان حيث قام بلدوين بتتبع الفارين حتى أسوار المدينة ، ولكنه آثر العودة لإقتسام الغنائم التى تركها الفاطميون وراءهم بعد المعركة [2] .

على أنه يبدو أن الجيش الفاطمى أصابه النجاح قرب الرملة فى الأدوار

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، ١٤٦ ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠

(٢) Albert d'Aix. pp. 550-3, Fulcher of Chartes. pp. 407-20, Punciman: op. cit II. pp. 74-5, Lane poole; A Hist. o Egypt in the Middle Ages vol. VI. p. 164.

الاولى للحرب . إذ إستطاع القضاء على بعض القوات الصليبيــة نظرا لضخامة أعداده بالنسبة للقوة الصليبية الصغيرة ، غير أن بلدوين ثبت فى موقعه وحمل على الجيش الفاطمى حملة كبيرة أوقعت الرعب فى نفوس المسلمين والاضطراب فى صفوفهم مما ساعد على هزيمتهم وتقهقر أغلب القوات وإنسحابها من ميدان المعركة هاربة نحو عسقلان ، وربما كان إستخفاف الفاطميين بهذه القوة الصليبية الصغيرة عند إنهيارها أمام الضربات الاولى لهم كان له أثر فيما أصابهم من ذهول وهم يشاهدون هذه القوة تثبت وتهاجم فى عنف وإستبسال وفدائية ـ مما أربكهم فحلت بهم الهزيمة فى نهاية الأمر .

كان إذن النصر النهائى فى هذه المعركة فى صالح الصليبيين ، ولم يــكن فى جانب المسلمين كما بالغت بعض الروايات العربية ، ويدل على ذلك أيضا ماذكره المؤرخ ابن الاثير عن هذه المعركة وهى رواية مضطربة شيئا ما ولكنه انتهى فيها إلى أن المسلمين هزموا فى النهاية (١) .

ومن الدلائل على مبالغة الرواية العربية بذهابها إلى أن النصر كان فى جانب المسلمين أنه لو صح ذلك فعلا ، إذن لتبقت هــذه القوات فلول الصليبيين وأكملت خططها صدبيت المقدس ذاتها أو حاصرت يافا أو تحولت إلى الساحل على الاقل فاستعادت بعض موانيه الضائعة ولكننا لانجد إشارة إلى شىء من ذلك فى أى من الكتب المعاصرة .

على العكس يزداد التأكد مما آل اليه مصير هذه الحملة من الفشل طبقا لسير الاحداث وما اعترفت به الرواية العربية ذاتها من مقتل مقدم العسكر سعد الدولة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠٨ (سنة ٤٩٦ هـ)

القواسى فى بداية المعركة ، وما يحدثه ذلك من أثر فى روح الجند ونفسياتهم وكذلك بدليل أن الخلافة الفاطمية أتبعت هذه الحملة بغيرها ولنفس الأهداف

على أنه يستخلص من ذلك كله أن المحاولة الفاطمية هذه المرة كان فيها شىء من الجدية لايقلل من أثرها النتيجة التى آلت اليها والهزيمة التى منيت بها وإنما قادت هذه الهزيمة إلى محاولة ثانية وثالثة وكلها أوضحت بما لايدع مجالا للشك الرغبة الكامنة لدى الفاطميين فى زحزحة هذا العدو من مواقعه والحاق الضرر به بأية وسيلة .

وفى النهاية انسحبت فلول القوات الفاطمية من أرض المعركة - مؤثرة الفرار إلى عسقلان وفى أثرها قوات بلدوين الذى فضل العودة لاقتسام المغانم والاسلاب وما كان أكثرها فى معسكر الفاطميين إذ خلفوا كل ما معهم من مؤن وسلاح وعدد وآلات.

وعلى هذه الصورة انتهت أولى محاولة كبيرة للفاطميين فى فلسطين ، بعد أن تكبدت خسائر ليست قليلة فى الرجال والسلاح والمؤن ، وغـدا لزاما على الأفضل أن يستعد لحملة أخرى علها يصيب النجاح الذى فاته فى المحاولة الأولى.

**الحملة الفاطمية الثانية على فلسطين سنة ١١٠٢ (٤٩٥ هـ)**

لم يستطع الأفضل بحملته السابقة أن يغير شيئا من الأوضاع فى فلسطين لصالحه أو ينجح فى استرجاع شىء مفقود من أملاك الخلافة الفاطمية فى هـذه البلاد ، وكذلك لم يحدث أى تغيير فى مصر بالنسبة لسلطته ونفوذه بالرغم من وفاة المستعلى بالله فى ديسمبر سنة ١١٠١ ( صفر ٤٩٥ هـ ) إذ وضع الأفضل مكانه فى الخلافة ابنه الآمر بأحكام الله وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من العمر

بكثير (١) ، وظل تدبير الأمور كلها بيد الأفضل كما كانت الحال أيام المستعلى الذى « لم يكن له سيرة تذكر » بل « كان الأفضل هو الكل فى الكل »(٢) .

والحقيقة أن وقع الهزيمة التى منيت بها القوات الفاطمية فى موقعة الرملة الأولى كان قاسيا على الأفضل ورجاله فى مصر إذ سرعان ما فكر فى إعادة الكرة من جديد وإعداد العدة لانفاذ حملة أخرى إلى فلسطين مدفوعا برغبة أكيدة فى محاولة تحقيق ما فشلت فى تحقيقه الحملة الأولى ، لذا جعل من الحملة الثانية قوة كبيرة بلغت نحو عشرين ألف جندى معظمهم من العرب والسودان (٣) واختار لقيادتها أحد أبنائه ويدعى شرف المعالى ، هذا برغم ما ذهب اليه المؤرخ ابن القلانسى من أن هدف هذه الحملة كان لانجاد ولاة الساحل فى الثغور الباقية فى أيديهم ، وواضح أنه فات هذا المؤرخ أن الحملة استهدفت أبعد من معاضدة ولاة الثغور إلى عمل كبير ضد الفرنج(٤) .

وقد سلكت الحملة نفس الطريق الذى سلكته الحملة السابقة فيعد التجمع فى عسقلان فى رجب سنة ٤٩٥ هـ ( مايو سنة ١١٠٢ م ) وهى التى غدت بمثابة قاعدة الانطلاق للجيوش الفاطمية ضد الصليبيين فى كل حملاتهم على فلسطين سارت الجيوش الفاطمية إلى ناحية الرملة حيث تستطيع تهديد يافا وبيت المقدس - كما حدث فى المرة الأولى - وكان الأفضل قد أرسل إمدادات أخرى لهذا الجيش لحقته قرب يازور وبذلك زاد حشد الفاطميين وقويت عزائمهم .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠

(٢) اليافعى : مرآة الجنان ج ٣ ص ١٥٨

(٣) Grousset : Hist. des Croisades. pp. 229-30

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

أما بلدوين فكان قد اقتنع دون شك بأن حملات الفاطميين تعدت الأهداف المحدودة إلى تهديد سافر للكيان الصليبي بفلسطين وعملهم الدائب على تهديد كل من بيت المقدس ويافا على وجه الخصوص، لذا حشد بلدوين قوات كافية فى يافا وسار فى مايو سنة ١١٠٢ ( رجب ٤٩٥ ) من بيت المقدس قاصداً الرملة فى قوة صغيرة ، لم تزد فى أغلب الظن عن مائتى فارس فضلا عن أنه قادها فى غير نظام وقلة حذر وربما استخفافا بالفاطميين واستهتاراً بهم بعد إنتصاره الساحق عليهم فى العام السابق ، وربما جهلا باستحالة وصول القوات الفاطمية إلى هذه المنطقة فى ذلك الوقت .

والواقع أن الفاطميين دأبوا فى كل حملة وجهوها ضد الصليبيين على التجمع فى عسقلان فسبقهم دعاية ضخمة تتناقل أخبارها المنطقة كلها ، كما كانوا يضيعون الوقت الثمين فى عسقلان بلغ أحيانا شهورا طويلة إنتظارا لامدادات جديدة أو إنتظارا للأسطول القادم من البحر ، وبهذا كانوا يتركون فرصة مواتية للصليبيين لتدبير أمورهم أما فى هذه الحملة فتشير الدلائل إلى أن الجيش الفاطمى لم ينتظر بعسقلان، بل أنه أسرع بمواصلة سيره إلى جهة الرملة ولحقته الامدادات قرب يازور ، ولم تمض بين وصول القوات الفاطمية إلى عسقلان وبين الوقعة التى حدثت فى ١٧ مايو سنة ١١٠٢ (آخر رجب سنة ٤٩٥ هـ) إلا أيام هى صدر شهر رجب [1] وهى فترة قصيرة نسبيا استغرقت معظمها مسيرة الجند ، وليس من شك فى أن هذه السرعة التى إمتاز بها الزحف الفاطمى فى هذه المرة كان لها أثر كبير فيما لقيته الحملة فى بدايتها من نجاح .

---

١ - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

ذلك أن بلدوين إعتمادا على إستحالة سرعة وصول الفاطميين إلى هـــذه الجهة ـ فى أغلب الظن ـ قياسا ببطئهم وترددهم وإنتظارهم الدائب بعسقلان لم يتوقع وجودهم بهذه الناحية بمثل هذه السرعة ، لذا سار فى قـــوته الصغيرة فى غير نظام وبغير حذر ، وفى السهل الممتد بين يازور والرملة ، وجد نفسه وجها لوجه مع القوات الفاطمية الكبيرة ، وعندئذ فقط تحقق بلدوين من خطئه ، ومع ذلك لم يكن بوسعه الإنسحاب أو التراجع إلى الوراء[١] .

وعندما رأى الفاطميون هذه القوة الصغيرة اعتقدوا أنها ليست إلا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك[٢] ، فبادروا بالهجوم على الملك ورجاله قبل أن تلحق به بقية قواته ، ولم يستطع الملك بطبيعة الحال الثبات أمام جموع المسلمين لذا إنهزم وكثر القتل فى أصحابه ويذكر كل من ابن القلانسى وابن الأثير أنه اختفى فى أجمة قصب حين طورد من القوات المنتصرة فأحرقت تلك الأجمة ، ولحقت النار بعض جسده ،[٣] وفر بعض رجاله إلى يافا فى حين هرب البعض الآخر إلى الرملة فلحقهم الملك بها فى حالة سيئة .

ورغم النجاح الذى أحرزته القوات الفاطمية فى هـذا الدور من الحرب إلا أنها لم تواصل نشاطها بالاستيلاء على الرملة فى نفس اليوم ( ١٧ مايو سنة ١١٠٢ ) والقبض على بلدوين بها ، ولكنها أرجأت ذلك إلى اليوم التالى فى الوقت الذى كان بلدوين بالرملة قد أيقن بمصيره المحتوم فى هذه المدينة القليلة

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 77.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٩٦

(٣) ابن القلانسى . ذيل ص ١٤١

ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٢١٨ ( سنة ٤٩٦ هـ )

التحصين قبل أن تواتيه فكرة الهرب ليلا عازما على المسير إلى يافا ، وفعلا نفذ الفكرة وخرج من المدينة متنكرا تحت جنح الظلام فى طريقه إلى يافا [١] ، وعندما أحس الفاطميون بذلك أرسلوا فى مطاردته وتعقبه فلم يصبهم التوفيق فى اللحاق به ، فتحولوا إلى الهجوم على الرملة والاستيلاء عليها وقتلوا معظم فرسان الصليبيين الذين التجأوا اليها من رجال الملك ، وحمل الباقون إلى مصر أسرى [٢] ، وكان ذلك فى يوم ١٩ مايو سنة ١١٠٢ .

وبينما هذه الأحداث تأخذ مجراها كان الأسطول المصرى يذرع البحر إنتظارا لما تسفر عنه الاشتباكات مع الصليبيين ، فلما فرغ الفاطميون من الرملة توجهوا ناحية يافا وأصدروا الأمر إلى الأسطول بالتوجه اليها أيضا ومحاصرتها حتى يحكموا الحصار حولها برا وبحرا .

على أن تساؤلا يقفز إلى السطح قبل المضى فى عرض بقية أحداث هذه الحملة ، وهو لماذا اختار الفاطميون المسير إلى يافا ولم يتجهوا إلى بيت المقدس ذاتها ومهاجمتها فى غيبة الملك منتهزين فرصة الاضطراب والقلق الذى اعترى الصليبيين على أثر هزيمة الملك فى الرملة .

الواقع أن التردد بين التوجه إلى بيت المقدس ويافا وقع فيه الفاطميون فعلا فى ذلك الوقت ، فقال قوم نقصد البيت المقدس ونتملكه وقال قوم نقصد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ ( سنة ٤٩٦ هـ ) ويقال إن الفضل فى نجاح بلدوين فى الهرب يرجع إلى شيخ من الأعراب كان بلدوين قد أسدى اليه معروفا فى العام السابق، فأتى وخلصه من محنته وساعده على الفرار ردا لذلك الجميل.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ .

ابن ميسر : أخبار مصر ج ١ ص ٤٠-٤١ .

يافا ، (١) ويبدو أن الرأى الأخير هو الذى تغلب فى النهاية فبالرغم من وجاهة الرأى الاول بالتوجه ناحية بيت المقدس فى غيات بلدوين عنها والقضاء على خيرة فرسانه فى معركة الرملة الثانية ، وسهولة إحراز نصر ببيت المقدس إلا أن رجال الجيش الفاطمى وضعوا دون شك فى حسابهم إمكان متابعة القوات الصليبية فى يافا وغيرها من المراكز الصليبية لهم مع خطورة بقاء بلدوين حرا يستطيع أن يطلب النجدة من بقية الامارات اللاتينية ، مما يجعل الفاطميين بين شقى الرحى ويعرضهم لهجوم عليهم من الخلف ، وعلى عكس ذلك إذا اتجهوا ناحية يافا وهى المركز الصليبى الذى عول عليه بلدوين فى الصمود أمامهم فانهم بذلك يتجهون إلى جهة الخطر فعلا فى الوقت الذى تقبع فيه بيت المقدس دون خطر متوقع من ناحيتها إذ ليس بها سوى حامية صليبية رابضة للدفاع عنها إذا حدث عليها هجوم ، وليست هذه الحامية على إستعداد بطبيعة الحال - لتركها ومهاجمة الفاطميين عند يافا ، لهذه الأسباب فضل الفاطميون التحول إلى يافا بعد سقوط الرملة فى أيديهم ، فاذا تيسر لهم فتحها اتجهوا بقضهم وقضيضهم إلى بيت المقدس .

وليس من شك فى أن يافا لقيت إهتماما خاصا من بلدوين احساسا منه بأنها ميناء بيت المقدس الطبيعى على البحر ، فحرص الصليبيين على بقاء طريق البحر مفتوحا سهلا نابع دون شك من رغبتهم فى تأمين وجودهم بفلسطين فبقاء بيت المقدس مرهون بمدى ما تستقبله من نجدات غربية وحجاج وجنود وعناصر جديدة تدفع اليها بدماء متجددة فى مواجهة الخطر الإسلامى المتربص بها والمتحفز فى كل آن وستظل يافا محور السياسة الصليبية لدى بلدوين حتى

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٢١٨ ( سنة ٤٩٦ هـ ) .

تحل محلها هكذا بعد سقوطها فى أيدى الصليبيين فى مايو سنة ١١٠٤ (١) ، فتغدو ميناء بيت المقدس الطبيعى وأهم الموانى بجنوب فلسطين .

وهكذا نصل بطريق غير مباشر إلى سلامة إتجاه القوات الفاطمية إلى يافا بدل إتجاهها إلى بيت المقدس . إذ لو قدر لهم الاستيلاء على يافا إذن لأصبحت بيت المقدس تحت رحمتهم .

كانت فرصة الفاطميين فى الاستيلاء على يافا كبيرة ، وظروفهم كانت مواتية لاحراز نصر ثان فى محاولاتهم الثانية ، فاسطولهم فى البحر يستطيع إحكام الحصار حول المدينة بحرا ويحرمها من أية نجدات ربما تصل اليها ، وقواتهم البرية اتجهت اليها وقد انتعشت آمالها وإرتفعت معنوياتها ، وبلدوين مشرد وضائع خرج متخفيا فى طريقه إلى يافا ولكنه عند ا أحس بتعرضها للحصار الاسلامى تحول إلى أرسوف شمالا ، والقوات المطاردة فى أثره ، وكذلك كانت القوات الفاطمية لاتزال كبيرة لم تلحق بها خسائر فى الاشتباك السابق ، كل هذه كانت عوامل فى صالح الفاطميين لو أنهم استغلوا هذه الفرصة . على كل حال غدت يافا مركز الثقل بالنسبة للصراع الصليبى الفاطمى فى فلسطين . فاذا قدر لأى منهما السيطرة عليها تحول التيار فى جانبه .

وكان الصليبيون فى أرسوف قد أرجفوا بالخطر على أثر الشائعات التى ترددت بهلاك بلدوين وزحف القوات الفاطمية الكبيرة لإسقاط يافا ، ولكنهم مالبثوا أن اطمأنوا عند رؤية بلدوين أمامهم حياً يرزق وطاردتهم القوة بعد أن يئسوا

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I. p. 238-42
Small: Crusading Warfare, p. 23

من النجاة . ولم يضع بلدوين وقتا بل بادر بتجميع القوات الصليبية فى هذه المنطقة وأسرع بدخول يافا عن طريق البحر حيث لحقته الإمدادات الصليبية ولم تمض أيام على بدء حصار الفاطميين ليافا حتى تحول النهار فى صالح الصليبيين مرة أخرى ، فقد وصلت فى أواخر مايو سنة ١١٠٢ نحو مائتى سفينة تحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج إلى ميناء يافا فقلبت هذه النجدة الكبيرة الميزان فى صالح الصليبيين . إذ سارع بلدوين بالاستفادة من هذه الجموع الجديدة المتحمسة ، وحشد رجاله فى يوم ٢٧ مايو وخرج من المدينة لمواجهة القوات الاسلامية المحاصرة . ودارت ومعركة سريعة انتهت بهزيمة القوات الفاطمية وفرار رجالها ناحية عسقلان وتخلص بلدوين بذلك من خطر جثم على صدره وأوشك أن يقضى عليه وعلى الكيان الصليبى فى فلسطين كلها .

على أن تحول الفاطميين من حالة النصر والتفوق أمام الصليبيين إلى حالة الهزيمة كان وقعه قاسيا على الأفضل ورجاله فى مصر فسارع بارداف الحملة الفاشلة بحملتين أحداهما برية بقيادة قائد يدعى تاج العجم قوامها أربعة آلاف فارس والأخرى بحرية بقيادة القاضى بن قادوس طبقا لرواية ابن الاثير فتوجه الاسطول شمالا حيث نزل على يافا ، فى حين نزل تاج العجم بقواته البرية على عسقلان .

ويبدو أن خلافا كبيرا وقع بين هذين القائدين ، رفض على أثره تاج العجم أن يمضى إلى ابن قادوس لمعاونته وهو نازل على يافا متعللا بأنه لم يتلق أمرا من الأفضل بذلك مما أثار حفيظة ابن قادوس ، فأرسل إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها ، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم

فلم يأته ولا أرسل رجلا ، (١) ولما علم الأفضل بذلك أمر بالقبض على الملوك تاج العجم وولى مكانه من يتولى أمر عسقلان ، وقيادة الجيوش الفاطمية بهذه المنطقة .

وهكذا قدر لمملكة بيت المقدس الصليبية أن تنجو هذه المرة أيضا من خطر نوبة الحماس التى إنتابت الفاطميين هذه الدفعة ، كما قدر لها أن تظل تحتفظ بما فى يدها من مدن وموانى بفلسطين عدا عسقلان التى لازالت بأيدى الفاطميين كمركز لكل إنطلاقة لهم فى المنطقة .

هذا وكان بلدوين قد استنجد بتنكرد الوصى على أنطاكية ، وبلدوين دى بورج أمير الرها ، فاستجابا له ، وقادا نجدة بلغت نحو خمسمائة فارس والفا من المشاه وزحفا جنوبا فلقيا بلدوين على يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢، وكانت القوات المصرية قد انسحبت إلى عسقلان بعد الهزيمة التى منيت بها من قبل عند يافا ، فآثر بلدوين وحليفاه أن يهاجموا عسقلان ، ولم يكادوا يفرضوا الحصار عليها حتى آثروا الانصراف عنها لحصانة المدينة من جهة ولافتقارهم إلى مساندة بحرية تحكم الحصار عليها من جهة أخرى (٢) .

**الحملة الفاطمية الثالثة على فلسطين سنة ١١٠٥ (٤٩٨ هـ):**

الواقع أنه ليس بوسعنا أن نقول أن ثمة أحداث وقعت بفلسطين دفعت الفاطميين إلى القيام بمحاولتهم الثالثة والأخيرة فى سبيل زحزحة الصليبيين من أماكنهم، إذ نؤكد من جديد أن ارسال الحملات المتتابعة يتعدى محاولة استعادة بعض الموانى أو مجرد الانتقام لضياع موانى أو مدن جديدة إلى أيدى الصليبيين.

---

(١) ابن الاثير الكامل : ج ٨ ص ٢١٨ ( سنة ٤٩٦ هـ )

(٢) Stevenson: op. cit. Ip. 46-47.

فقد دأب بلدوين ملك بيت المقدس على محاولة إسقاط الموانىء التى لازالت تابعة للخلافة الفاطمية، وبذل جهدا مضاعفا بالنسبة لمدينة عكا خاصة ، ذات الميناء المزدوج التى تعد خير ميناء لمملكة بيت المقدس . فعقب عيد القيامة عام ١١٠٣ قام بلدوين بمحاولة ضد عكا فهاجمها برا وبحرا إلا أن الأسطول المصرى قام بإنجاد المدينة بحرا كما استقبلت المدينة نجدة من صور وصيدا مما أجبر بلدوين على رفع الحصار عنها ، حينما تأكد من عدم جدوى الحصار نظراً لإفتقاره إلى قوة بحرية تعاونه فى أحكام الحصار عليها .

غير أن الظروف ما لبثت أن تبدلت فى العام التالى حيث استطاع بلدوين الاستفادة من الأسطول الجنوى الذى ظهر فى اللاذقية فى فبراير - مارس سنة ١١٠٤ م وكان مؤلفا من نحو سبعين سفينة ، فلما انحدر هذا الأسطول جنوبا إلى ساحل فلسطين ، وجد بلدوين الفرصة سانحة للتفاوض مع الجنويين الذين قبلوا الإسهام فى الإستيلاء على المدينة طبقا لشروط معينة قبلها بلدوين ، وبعد أحكام الحصار على المدينة برا وبحرا ، قاتل واليها نحو عشرين يوما انتظارا للنجدة المصرية فلما لم يصله شىء أذعن للصليبيين وسلم فى مايو سنة ١١٠٤ ، ومع هذا استباح الصليبيون المدينة ولقى عدد كبير من أهلها حتفه بسيوفهم ، وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة[1] .

لم يكن ذلك بطبيعة الحال هو الدافع الوحيد لتحرك حملة الأفضل الثالثة إلى فلسطين إذ كانت الرغبة لاتزال كامنة لدى الأفضل فى مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، ولم يتخل الأفضل بعد عن أمله فى محاولة تطهير المنطقه منهم وإن لم تبرأ هذه الأحداث من أن لها ضلعا فى تحريك الحافز الذى عجل بانفاذ هذه الحملة الكبيرة ضد الصليبيين.

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٧ هـ)

شهد صيف ١١٠٥ آخر المحاولات الفاطمية الكبرى ضد الصليبيين فى فلسطين فقد أعد الأفضل حملة قوامها خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان والعرب ووضعها تحت قيادة ابن آخر له يدعى سناء الملك حسين (١) ، وأمر الأسطول فى البحر بالاستعداد لمساندة الحملة البرية .

على أن الأفضل اتجه بعد ذلك وجهة أبانت استفادته من الدروس السابقة (٢) إذ طرح جانبا الخلافات المذهبية والسياسية مع حكام دمشق وتقدم اليهم طالبا المعاضدة ضد العدو المشترك ، للقيام بعمل موحد عله ينجح هذه المرة فيما فشل فيه فى المرات السابقة .

ولم تكن هذه أول مرة يتقدم فيها الأفضل بطلب كهذا إلى حكام دمشق إذ تذكر النصوص أنه فعل ذلك أيضا فى محاولته السابقة التى جرت عام ١١٠٢ - حينما أصيبت جيوشه بالهزائم والإنتكاسات المتتالية، إلا أن دقاق ا ملك دمشق السلجوقى ، اعتذر عن ذلك ولم يحضر (٣) .

ولكن الظروف تبدلت فى هذه المرة فى دمشق بما يرجى استجابة حكامها لنداء الأفضل، وذلك بعد أن أحل طغتكين نفسه فى حكم دمشق فى عام ١١٠٤ م

---

(١) نفس المرجع ج ٨ ص ٢٢٨ ( سنة ٤٩٨ هـ ) ويلاحظ أن كلا من ابن القلانسى وابن ميسر ذكرا أن قائدها كان شرف المعالى ولد الأفضل وهو سهو منهما دون شك — فشرف المعالى هو الذى قاد الحملة السابقة .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ ،
ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١

(٢) Runciman : op. cit. II. p.89.

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠ – ٤١

ـ كما سبقت الإشارة ـ وراح يعمل على إكساب حكمه الشرعية اللازمة وفى هذه الظروف طلب الأفضل المعونة والمؤازرة فلم يتردد طغتكين فى مده بالنجدة لتكون من ناحيته تأكيدا لما أصبح فيه من القوة وحرية التصرف فى الولاية ومن ناحية أخرى تحذيرا للجانب المعارض فى دمشق بأن الوالى الجديد لايألوا جهدا فى جهادأعداء الدين. ويعلل المؤرخ المحدث رانسيمان هذا التحمس من جانب طغتكين برغبته فى القضاء على الفتنة التى أثارها أرتاش بن تتش الذى انحاز إلى الصليبيين وطالب بحكم دمشق [1] .

ويبدو أن طغتكين كان يفكر فى الركوب بنفسه على رأس هذه القوة فلم يمنعه سوى حرصه على مهاجمة بصرى التى احتمى بها أرتاش بن تتش ومعاونه أيتكين الحلبى الذى أغراه بمراسلة الفرنج والإنحياز اليهم [2] ، بل ذهب ابن القلانسى إلى أن طغتكين ركب فعلا بنفسه بعد أن « استصوب المسير إلى العسكر المصرى للإعتضاد على الجهاد » [3] .

ولكن الراجح أنه أرسل أحد قواده ويدعى « أصبهبد صباوا » على رأس القوة التى بلغت نحو ألف وثلثمائة فارس نجدة لولد الأفضل ، ولم يكن بوسعه أن يغامر بالخروج بنفسه أو بإرسال قوة أكبر لما فى ذلك من خطورة على وضعه بالإمارة ذاتها فضلا عن خطر الصليبيين المتربص بكافة القوى الاسلامية [4] .

على كل حال عدت هذه المعاضدة فى نظر أحد المؤرخين المحدثين أول محاولة

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 89.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩

(٤) Runciman; op. cit. I. p. 89

عملية اشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد العدو المشترك الصليبيين ، [١] سواء قاد هذه النجدة طغتكين نفسه أو قادها أحد رجاله .

اتخذ الجيش المصرى موقعه عند عسقلان وانضم اليه جيش دمشق حيث تقدما إلى جهة الرملة ، وكان بلدوين حين سمع بأنباء احتشاد المصريين خرج من يافا إلى ناحية الرملة كدأبه فى كل مرة ، حتى يستطيع منها حماية كل من بيت المقدس ويافا ، وانحاز اليه كل أتباعه حتى بلغت قواته خمسمائة فارس وألفان من الرجالة [٢] . كما انحاز اليه أرتاش بن تتش المطالب بحكم دمشق .

ودارت المعركة عند الرملة بين جيش الفاطميين وحلفائه الدماشقة وجيوش الصليبيين فى يوم الأحد ٢٧ أغسطس سنة ١١٠٥م ( ذى الحجة ٤٩٨هـ ) وقد ارتاع بلدوين فى بداية المعركة لما أبداه الفاطميون من شجاعة واستبسال واتجاه الميزان فى صالحهم فى البداية ولكن ميمنة المسلمين فضلت عندئذ التحول من ميدان المعركة للقيام بمحاولة ضد ميناء حيفا فى الوقت الذى دارت الحرب على أشدها فلما عادت فى المساء بعد فشل مهمتها ضد حيفا ، كانت المعركة قد انتهت بهزيمة القوات الإسلامية وفرار العسكر الدمشقى شرقا ، وفلول الفاطميين إلى عسقلان ، ووقع فى أسر الصليبيين أميرا عكا وأرسوق السابقان ، فحصل بلدوين منهما على فدية كبيرة ، بينما لم يستطع ذلك بالنسبة لسناء الملك الذى استطاع الفرار إلى مصر ولذلك لم يخف المؤرخ الصليبى فولشر أوف شارتر أسفه لفرار سناء الملك بسبب الفدية الكبيرة التى كان يمكن الحصول عليها لو أتيح لهم أسره [٣]

لم يكن هذا النصر سهلا بالنسبة للصليبيين إذ أن خسائرهم كانت ثقيلة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص٣٠٤

(٢) Grousset : op. cit. I. p.p. 247 - 8

(٣) Fulcher of Charters. p.p. 489 - 503.

كما كانت خسائر المسلمين ثقيلة أيضا ، وقد أشار أغلب المؤرخين إلى أن خسائر الجانبين كانت متقاربة ، حتى ليذهب ابن الاثير إلى أنه لم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى [١]، وتشير كافة الدلائل إلى أن هذا النصر الذى أحرزه الصليبيون لم يكن حاسما ، بل انه لم يزد عن كونه هزيمة مترفقة ، وهنـــاك من الأدلة مايؤكد هذا الاتجاه .

كان دأب بلدوين فى اللقاءات السابقة مع القوات الفاطمية أن يحرص على مطاردة فلول القوات المنهزمة حتى أسوار عسقلان، ثم يعود مرة أخرى لاقتسام الغنائم التى خلفتها القوات المنسحبة ، أما فى هذه المرة فلم يكن بوسع بلدوين القيام بهذه المطاردة لمـــا منيت به قواته من الخسائر ، فاكتفى بنهب المعسكر الاسلامى والاستيلاء على كل ما فيه دون القيام بمحاولة تتبع المنهزمين [٢].

ومن جهة أخرى لو لم تنته المعركة إلى هذه النتيجة المشار اليها ، فلا بد وأن بلدوين كان سيتحول إلى دمشق لمهاجمتها لسببين : أولا لمساهمة طغتكين بقواته مع المصريين فى المعركة الأخيرة ، وثانيا تظاهرا منه بمعاونة الأمير السلجوقى ارتاش بن تتش الذى طلب معونته ضد طغتكين ، ومن الطبيعى أن يحرص بلدوين فى نشوة انتصاره لو حدث فعلا دون تلك الخسائر الهـــائلة أن يوقع الذعر فى الجبهة الأخرى التى بات معلوما نواياها ضد المملكة بما أقدمت عليه من المساهمة الفعلية فى حربه .

ومن الدليـــل على أن شيئا من ذلك لم يجل بفكر بلدوين ما حدث من

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٢٢٨ (سنة٤٩٨هـ).

ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٩ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١ .

(٢). Runciman: op, cit. II. p. 90

انصراف ارتاش عنه بعد يأسه من الحصول على معونته المرتقبة وتفضيله الانسحاب من فلسطين كلها ميمما وجهه شطر الرحبة على الفرات .

وهكذا يستنتج أن النصر الذى أحرزه بلدوين فى موقعة الرملة الثالثة لم يكن نصرا نهائيا أو حاسما ، بل نكاد نجزم أن القوات الفاطمية لو قدر لها مرة واحدة أن تصمد فى وجه الصليبيين الذين قاتلوها فى كل مرة فى قوات تصغرهم بكثير لاصبح من الممكن جدا أن تقضى فى محاولة واحدة على هذا الخطر وتكسر شوكته وتستعيد منه نفوذها فى المنطقة .

أما الأسطول المصرى فقد انسحب عائدا إلى مصر دون أن يقوم بأى نشاط على الساحل الشامى ولم يحقق أية فائدة بالنسبة للقوات المحاربة هناك ، بل أنه تعرض فى طريق عودته لعاصفة شديدة فقد بسببها بعض قطعه ومن ثم أكمل انسحاب الأسطول هناك وما فقده من سفن خطوط الهزيمة وفصول المأساة ، التى كانت آخر محاولة فاطمية كبيرة ضد صليبى بيت المقدس ومن ثم فشلت الخلافة الفاطمية فى زحزحة الصليبيين من أماكنهم التى احتلوها بفلسطين نهائيا [1].

**اسباب فشل الفاطميين فى زحزحة الصليبيين عن المواقع التى احتلوها بالشام :**

لم يقدر للفاطميين أن يصيبوا شيئا من النجاح فى محاولاتهم المتكررة ضد صليبى بيت المقدس وفيما اضطلعوا به من الجهاد ضدهم فى هذا الدور المبكر من أدوار الجهاد الدينى . وليس من شك فى أنها حالة تدعو إلى الأسف فعلا نظرا لكبر إمكانيات الخلافة الفاطمية وعظم مواردها البشرية والمادية حتى أن هذه الحالة استرعت انتباه المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، فتعجبوا من عدم قدرة

(1) Lane-poole : op. cit. V.VI. p.165.

الخلافة الفاطمية على زحزحة الصليبيين من أماكنهم مع قدرتهم فى الأموال والأسلحة والرجال .

الواقع أن بعض العوامل تضافرت لإصابة جهود الدولة الفاطمية بالفشل أمام الصليبيين بفلسطين فى هذا الدور يسأل عن أغلبها الفاطميون أنفسهم .

وفى مقدمة هذه الأسباب عدم الاخلاص فى الحرب . وصدق الرغبة فى التضحية والفداء وذلك على مستوى القادة وكذلك بين الجانب الأكبر من الجنود فبالنسبة للقادة فقد حرص أبناء الأفضل بالذات وهما اللذان قادا الحملتين الثانية والثالثة على حياتهما قبل أن يحرصا على إصابة النجاح ، فلم تكن بوادر الهزيمة تظهر حتى يبادر كل بالفرار مع مافى ذلك من أخطار بالنسبة لجموع الجيش بأسره بالرغم من أن ثبات القائد تكون أحيانا من عوامل قلب الهزيمة إلى نصر ساحق ولكن لم يحدث شىء من ذلك فى المحاولات التى قادها أبناء الافضل لأنه يبدو أن الأفضل كانت تهمه سلامة أبنائه قبل أن يهتم بأى شىء آخر ، بل حرص هو شخصيا على حياته فأحجم كلية عن الخروج بنفسه فى هذه المحاولات الثلاث كقائد للجيش منذ أن لحقت به هزيمة عسقلان فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ على يد جود فرى بوايون ، مع مافى خروجه من شحذ هم جنوده ورفع معنوياتهم . أما فى الحملات التى قادها قواد آخرون كتاج العجم وابن قادوس ، فقد انتهت قبل أن تبدأ فى الحقيقة مهمتها ، نظرا للخلاف الذى نشب بين هؤلاء القواد وأدى إلى فشل الجهود كلها . أما بالنسبة للجنود فواضح من سير المعارك الثلاث أنهم لم يكونوا على استعداد للثبات أو التفانى فى الحرب والاخلاص فيها إلى آخر مدى ويبدو أن ذلك راجع فى بعض جوانبه إلى اختلاف أهوائهم ومشاربهم وأجناسهم فقد كانوا خليطا من المصريين والسودان والعرب ، مع نقص ظاهر فى عملية إبراز

الحافز لديهم وبث الحماس فيهم، كما يبدو أنهم كانوا أقل كفاءة ومقدرة حربية من جنود الصليبيين نظرا لضعف تدريبهم وقلة توجيههم، فليس من المعقول أن تتابع ثلاث معارك كبيرة لا تحقق قوات كبيرة كهذه فيها نصرا مؤزرا يعين لنا درجة عاصة من الكفاءة الحربية والعسكرية فقد انتهت كل المعارك بالهزيمة باستثناء معركة الرملة الثانية التي عاد الفضل في نجاح الجيش الفاطمي فيها - كما سبقت الاشارة - إلى صغر القوة الصليبية وقلة حذرها مما أوقعها فريسة سهلة لقوات تفوقها عددا وعدة وإن لم تفقها كفاءة حربية في أغلب الظن .

وثمة سبب آخر يفرض نفسه ضمن أسباب فشل الفاطميين بالرغم مما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه يعد من دوافع النصر لا من عوامل الانهيار ألا وهو بقاء مدينة عسقلان في أيدى الفاطميين خلال تلك الأحداث .

حقيقة يعتبر نجاح الفاطميين في حفظ عسقلان من السقوط في أيدى الصليبيين بالرغم من محاولات هؤلاء الدائبة لاسقاطها أمر يدعو إلى الارتياح بقدر ما لهذه المدينة من أهمية في هذا الموقع الهام بالنسبة لأية محاولة ضد مصر نفسها وكقاعدة للانطلاق ضد الصليبيين في الساحل الشامي وبيت المقدس ، وحقيقة ظلت عسقلان شوكة في جنب الصليبيين بفلسطين مدة طويلة لم يهدأ لهم روع إلا بإسقاطها في ٢٢ أغسطس سنة ١١٥٣ كل هذا ليس لدينا أدنى شك في صحته ولكن كان الجانب الآخر انعكاسا لاضرار الحفاظ على هذه المدينة بأيدى الفاطميين فيما يختص بمحاولاتهم ضد صليبي بيت المقدس على وجه الخصوص في المحاولات التي عرضنا لها .

فليس من شك في أن شعور الجيوش الفاطميه المحاربة في فلسطين بأن عسقلان قاعدتهم الرابضه على البحر بأسوارها الشاهقه وتحصيناتها القويه تقع

خلفهم وعلى بعد يسير من ميدان المعارك التى دارت قرب الرملة فى المحاولات الثلاث ، هذا الشعور فى حد ذاته لايعطى لحربهم شيئا كبيرا من الفدائيـــة أو المجازفة أو القتال اليائس إذ أنه لايكلف القوات المحاربة أكثر من إرتداد سريع ناحية عسقلان الإحتماء بأسوارها ، ثم لاتلبث سفن الأسطول المصرى أن تنقلهم إلى مصر بعد أن توضع هالة كبيرة حول أسباب الفشل تغطى هذا الانسحاب المزرى ، ولاتلبث المحاولة أن تنتهى إلى لاشـــىء فى كل مرة ، وقد تأكدت الجيوش الفاطمية من سلامة الارتداد فى كثير من الأحيان ، فرغم ماكانت تتعرض له هـــذه الجموع المنهزمة لاخطار المطاردة من جانب الصليبيين إلا أن المطاردة كانت تنتهـــى بسرعة بالوصول إلى عسقلان ، لايلبث الصليبيون أن يتراجعوا أمام حصانة المدينة من ناحية والمسارعة إلى إقتسام المغانم التى خلفتها القوات المنهزمة من ناحية أخرى .

والواقع أن شعور الجندى المحارب بصعوبة الظروف التى تواجد فيها وبأنه لامفر له من القتال اليائس حتى يحمى نفسه ويدافع عن أهدافه هذ الشعور له أثر كبير فى إحراز النصر من أقرب الطرق ، والتاريخ ملىء بالشواهد والقرائن التى تؤكد هذا الاتجاه ، لانريد أن نذهب بعيدا بضرب المثل بطارق بن زياد وفتح الأندلس وغير ذلك من الشواهد بل نؤكد هذا الاتجاه من واقع الحروب الصليبية الأولى ذاتها فى السنوات القليلة السابقة لهذه الأحداث وخاصة الحرب عند أنطاكية ، وخروج الصليبيين منها لمحاربة المسلمين حربا يائسة ، فاستطاعوا أن يحصلوا على النصر فى النهاية بشىء يسير من الاستبسال والمجازفة .

على كل حال لم يكن وجود عسقلان خلف القوات الفاطمية المحاربة بما تمثل فى هذه القوات من نقص ظاهر فى عملية الشحن المعنوى ، أمرا له حسناته

بقدر ما كان له من أضرار فى هذه المحاولات .

أما السبب الثالث من أسباب فشل المحاولات الفاطمية المتكررة هو سلاح كان يمكن تحويله إلى عامل من عوامل النصر وأداة مغيرة لسير المعارك ونقصد به الأسطول المصرى الكبير حينئذ .

الواقع أن المحاولات الفاطمية الثلاث على فلسطين أثبتت ضعف إستفادة القوات المحاربة من وجود الأسطول الكبير فى البحر وهو الذى كان يتحرك غالبا مع كل حملة برية لمساندتها بحرا ، مع أنه لو استغل كما يجب لأحدث أضرارا بالغة للوجود الصليبى فى الساحل الشامى كله .

وقد وضح ضعف إستغلال هذا الأسطول أو قلة إمكانياته فى المحاولة الثانية بصفة خاصة عند يافا حينما تمكنت السفن الصليبية الحاملة لأعداد وافرة من الجند والحجاج من إختراق حصاره ليافا والوصول إلى الميناء ذاته سالمة حيث غيرت هذه الجموع الصليبية سير المعركة وقلبتها رأسا على عقب بالرغم من التفوق الذى أمست فيه القوات الفاطمية وإرتباك بلدوين الاول ـ وإنزعاجه على أثر هزيمته فى الرملة ، فلو قدر للأسطول المصرى الذى دأبت الروايات على وصفه بأنه كان كبيرا وضخما النجاح فى منع هذه السفن الغربية من الوصول إلى الميناء بأية وسيلة ولو تكبد شيئا من الخسائر ، إذن لبقى التفوق للقوات الفاطمية عند يافا ، ولاضحى مصير الصليبيين رهنا بمعركة غير متكافئة مع القوات الفاطمية عندها . فإذا افترضنا أن سبب ذلك يستند إلى ضعف إمكانياته وتسليحه بما يضمن له دورا أكبر فى المعارك الحربية البحرية فما الذى منع الأفضل ، وكان لديه فسحة كبيرة من الوقت ، بلغت بين المحاولة الأولى والثالثة نحو خمس سنين ،

من أن يولى هذه الناحية قدرا كافيا من الاهتمام لإنشاء أسطول قوى برجاله وتسليحه حتى يستطيع إستخدامه خير إستخدام .

الحقيقة أن الفاطميين لم يتنبهوا إلى كل ما يكفل لهم النصر مع عدو وضح من سياسته حرصه على حماية نفسه ومكاسبه ، وحرص كذلك على بقاء طريقه مفتوحا إلى البحر بموانيه ليكون على صلة دائمة بالغرب المسيحى ، وكان على الفاطميين دراسة العوامل المؤثرة فى خطط هذا العدو وحوافز بقائه بين ظهرانيهم ، ولن نغالى كثيرا إذا ذهبنا إلى أن منع الصليبيين بأية وسيله من السيطرة على يافا وحيفا وأرسوف وقيسارية ثم عكا من بعد ، وحصرهم فى الجهات الداخلية كان يجب أن يكون عصب السياسية الفاطمية فى مصـــر ، أو كان يجب أن يكون فى مقدمة أهدافهم إستعادة هذه المدن بعد ضياعها فعلا من أيديهم .

وهناك أمر آخر يدعو إلى العجب فعلا ، وهو يتعلق بأموال الأفضل التى كان يجب أن يضعها فى خدمة الجهاد الدينى فى هذه المرحله الحرجة إذا كان له أن يحرز إنتصارا عليهم أو أراد زحزحتهم من الأماكن التى احتلوها .

ذلك أن المراجع تطالعنا بقوائم طويله للأموال والكنوز والنفائس التى عثر عليها بقصور الأفضل عقب مقتله فى عام ١١٢١ م ( ٥١٥ ﻫ ) حيث أقام الخليفة الآمر فى دور الأفضل أربعين يوما والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصر من ذخائر وأموال ونفائس تجل عن الوصف [١] .

والواقع أن الدارس لايسعه إلاأن يتعجب أمام قوائم الأموال والنفائس التى عثر عليها فى بيوت الأفضل إذ وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا (٦ مليون)

---

(١) Lane-Poole: op. cit. p. 165

وفى بيت الحاضر ثلاثة آلاف ألف دينار ( ٣ مليون ) وفى البيت البرانى ثلاثة آلاف ألف ومائتى وخمسين الف دينار ( ١/٤ ٣ مليون ) وخمسين أردبا دراهم ورق وثلاثين راحلة من الذهب العراقى المعزول برسم الرقم ، وعشر بيوت فى كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليهم العمائم المختلفة الألوان [1] .

هذا عدا النفائس التى استغرق احصاؤها وقتا طويلا « تسعمائة ثوب ديباج ملون وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة ومن الطيب والنحاس والآلات مالا يحصيه عدد ودواة يكتب منها مرصعه بالجوهر قوم جوهرها بائنى عشر ألف دينار وخمسمائة ألف مجلد من الكتب »[2] .

كذلك وجد لديه « من الابقار والجاموس والاغنام والجمال ، مابلغ ضخامة البانه ومناخه أربعين ألف دينار فى السنة » [3] . وكان قد استكمل بناء دار الملك التى جعلها مقر إقامته ونقل اليها « من التحف والاموال والامتعة مايعجز عن بعض وصفه اللسان ، [4] حتى الاطباق كانت من الفضة والذهب الخالص ، فقد عثر لديه على « سبعمائة طبق فضة وذهب ومن الآلات كالاسطال والصحاف والشربات والاباريق والقدور والزبادى والقطع من الذهب والفضة المختلفة

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٥٧

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٥٧

(٣) نفس المرجع : ص ٥٨

(٤) ابن ايبك : درر التيجان وغرر تواريخ الازمان ق٣ ورقة ٢٣٩ (تصوير شمسى)

الأجناس ما لا يحصى كثرة ومن برانى الصينى الكبار والمملوءة بالجوهر التى بعضها منظوم بسبح وبعضها منثور شىء كثير » (١) .

والواقع أن ثراء الأفضل كان فاحشا بل أنه كان مغاليا فى كل شىء حتى فى شهواته ونزواته إذ ترك « ثلثمائة جارية منها حظايا له خمسون جارية لكل واحدة منهن حجرة وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والديباج والذهب والفضة . وحمل من داره أربعة آلاف بساط » (٢) .

على كل حال دلت هذه القوائم على أن الأفضل لم يحاول أن يجعل من أمواله سندا لمشروعاته العسكرية فى فلسطين ، وكما سبقت الإشارة قصر الأفضل كثيرا فى إعادة إنشاء أسطوله وتقويته ، كما لم يستطع الأفضل أن يسخر أمواله فى إعداد جيشه وتسليحه والاكثار من الجنود والفرسان وتدريبهم مع قدرته على ذلك .

وشىء آخر يمكن أن تفيدنا به هذه القوائم المطولة لثراء الأفضل ، وهو أن الأفضل لاشك كان قد خلد إلى حياة الدعة والرفاهية التى كان يحياها فى مصر فى هذا الجو المفعم بأنواع اللذات والشهوات . وربما يفسر لنا ذلك أحجامه عن الخروج بنفسه إلى فلسطين على رأس قواته ، وتكليف قواده وأبنائه بذلك ، مع ضخامة المشروع وكبر الأهداف التى خرجوا من أجلها .

كانت هذه بعض أسباب فشل المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين فى فلسطين وكلها ترجع دون شك إلى الفاطميين أنفسهم ، وتعين لنا قصورا لديهم فى هذه الناحية ، بالرغم من أن الجانب الصليبى كان له فضل فى حماية نفسه من هذا الخطر

---

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٥٨

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٥٨

بفضل يقظته وبفضل النجدات التى تصله من الامارات اللاتينية الأخرى فى الرها وأنطاكية ومن الغرب الأوربى كما حدث فى المحاولة الثانية على وجه الخصوص . فاستطاع الصليبيون أن يتغلبوا على العقبات الناجمة من نشاط الفاطميين المتواصل ضد مملكة بيت المقدس .

وفضلا عن ذلك لم تفتقد القوات الصليبية روح الفداء والمجازفة وصدق الجهاد ، ولا وحدة القيادة وتقديرها لمسئوليتها وهى أمور عانى منها الجانب الإسلامى كثيرا . كما كانت ظروف الصليبيين وحرج موقفهم فى بلاد اغتصبوها وأثاروا ضدهم كافة القوى المجاورة تحتم عليهم اليقظة الدائمة والتضحية والفدائية وإلا هلكوا وسط ذلك الحشد المعادى لهم .

وهكذا إنتهت آخر المحاولات الفاطمية الكبرى فى فلسطين لزحزحة الصليبيين من أماكنهم وأن لم تنته أخطار الفاطميين بالنسبة للكيان الصليبى ذاته فى بلاد الشام، ففى عام ١١٠٦م انتهزت القوات الفاطمية فرصة إنشغال بلدوين فى إقرار الوضع والحدود فى الجليل وقامت بالإغارة على معسكر الفرنج بين يافا وأرسوف وكبدوا الصليبيين خسائر جسيمة ، وفى عام ١١٠٧ أغارت حملة مصرية على حبرون وكادت تستولى عليها لولا مسارعة بلدوين إلى إنقاذها [١] أما فى عام ١١١٠ م فقد شقت القوات المصرية طريقها إلى أسوار بيت المقدس ذاتها ، ولكنهم لم يطيقوا صبراً فما لبثت أن انسحبت هذه القوات من أمام أسوار المدينة دون أن تحقق غرضا [٢] أى أن الخطر الفاطمى ظل يهدد الصليبيين ببيت المقدس بعد فشل الحملات الفاطمية الكبرى .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 90-91

(٢) Albert of Aix, p.p. 646-7
Runciman : op. cit. II. p. 90-91

بقيت نقطة أخيرة قبل أن نطوى الحديث عن الدور المبكر من أدوار الجهاد الدينى لدى الفاطميين فى مصر ، وهى تتعلق بأثر فشل الحملات الفاطمية فى فلسطين بالنسبة لوضع المسيحيين فى مصر أو بمعنى آخر ماذا كان رد الفعل الذى أحدثته حركة الجهاد الدينى الفاطمى وفشلها فى النهاية على علاقة المصريين بالمسيحيين فى مصر ؟

الحقيقة أن هذه النقطة لها ما يبررها ، فما يسترعى الانتباه أنه بينما لقى الآلاف المؤلفة من الأبرياء المسلمين من الرجال والنساء والأطفال حتفهم على أيدى القوات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بالذات وفى المدن والموانى التى سقطت مؤخرا، نجد أن علاقة الود والاخاء كانت تسود بين المسلمين والمسيحيين فى مصر حتى شهد بذلك كتاب النصارى أنفسهم .

ويذكر المؤرخ النصرانى أبو صالح الارمنى فى معرض حديثه عن دير نهيا ( قرب الجيزة ) أن الخليفة الآمر بأحكام الله حضر إلى هذا الدير فى وزارة محمد بن فاتك ودخل الدير وطاف بالكنيسة «ودفع للرهبان ألف درهم بعد ضيافتهم له وخرج من الدير يتصيد » [1] . وكان الآمر يتردد على الدير فى مواكبه وعساكره ، وفى كل مرة يخرج إلى الصيد فى هذه الجهة، فيلقاه الرهبان بالترحاب ويضيفونه « فجعل لهم فى كل ركبة يطرق الدير فيها ألف درهم فحصل لهم من ذلك خمسه وعشرون ألف درهم ورقا صحاحا » [2] .

ويبدو أن الرهبان رأوا فى الآمر تسامحا ظاهرا وقلة تعصب وضح فى « مثل

---

(١) تاريخ أبى صالح الارمنى ص ٧٧ــ٧٨ Translat by: B.T.A. Evelt

(٢) نفس المرجع ص ٧٧-٧٨

هذه الانعام فصار لهم أدلال عليه فسألوه أن يطلق للدير طينا يزرعونه فى كل سنة فأجاب سؤالهم وأنعم على الدير فى أراضى ناحية طهرمس من الجيزة تمليكا ثابتا منه بخط يده قطعة أرض مايقارب ثلاثين فدانا » . واستمر هذا الاقطاع قائما . إلى أن إستولت عليه الحكومة المصرية سنة ٥٦٤ هـ « إنتزعوها من ملك الدير ولم يبق لهم سوى المصيدة ينتفعون بما يصيدونه فيها»[١] .

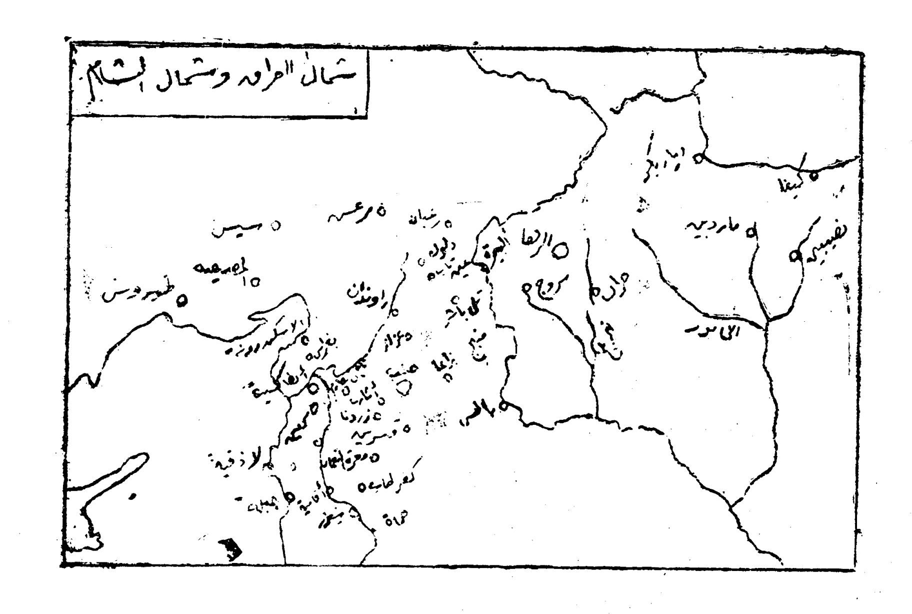
وهكذا ظلل الصفاء والاخاء المسلمين والاقباط فى مصر ولم يحدث بمصر رد فعل لما قام به الصليبيون فى الشام والأراضى المقدسة من مذابح رهيبة ، أو عندما فشلت محاولات الفاطميين فى فلسطين ولقيت كثيرا من الخسائر فى الارواح والأموال والعدد والسلاح ، بما يؤكد تحلى الفاطميين فى مصر بشىء ليس يسيراً من التسامح الدينى وقلة التعصب ، لانهم لم يقوموا بأى تصرف يفرغون فيه حصيلة فشلهم فى الأراضى المقدسة على حساب المسيحيين فى مصر فكانوا بذلك نظيفى الأيدى دون شك وحفظوا للجهاد الدينى معناه المعروف وهو أنه جهاد ضد عدو سطا وسلب ونهب وقتل باسم الدين والدين منه برىء ، وليس جهاداً ضد المسيحيين أنفسهم أو ضد عقيدتهم أو ضد أفكارهم ومبادئهم .

هذه هى البذور الأولى لحركة الجهاد الدينى ، لعل أهم ما يميزها أن الشق الأول منها وهو حملة كربوغا التى خرجت من الموصل كانت البذرة الأولى لجهاد عماد الدين زنكى الذى خرج من الموصل أيضا ودك إمارة

---

(١) نفس المرجع ص ٧٨

الرها الصليبية ، ووضع بداية النهاية بالنسبة للكيان الصليبي ، وكان شقها الآخر وهو حملات الفاطميين على فلسطين البذرة الأولى للجهاد الأكبر الذى تفجر من مصر أيضاً على يد الناصر صلاح الدين بن أيوب الذى أسقط مملكة بيت المقدس الصليبية ، وقوض صدارة الصليبيين بهذه البلاد ، وترك فلولهم ليقضى عليها كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون ثم أخيرا الأشرف خليل بن قلاوون ، وهم من سلاطين دولة المماليك الأولى فى مصر .


شمال العراق وشمال الشام
سيس
مرعش
طرسوس
المصيصة
الرها
حران
سروج
ماردين
نصيبين
اللاذقية
حماة

# الفصل الثالث

## السلطان محمد السلجوقي والجهاد

أ - استنجاد المسلمين في الشام بالخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة .

ب - السلطان محمد يعهد الى مودود أمير الموصل بجهاد الصليبيين

جـ - حملات مودود ضد الصليبيين .

١ - حملة مودود الأولى على الرها سنة ١١١٠ واجلاء الأرمن عن أرض الجزيرة .

٢ - حملة مودود الثانية على الرها سنة ١١١١ وأثرها .

٣ - حملة مودود الثالثة سنة ١١١٣ ثم مقتل مودود في دمشق .

د - البرسقي يخلف مودود في الجهاد ضد الصليبيين .

هـ - حملة برسق بن برسق سنة ١١١٥.



# السلطان محمد السلجوقى والجهاد الدينى

وضح من الفصل السابق كيف فشلت جهود المسلمين فى إيقاف زحف الصليبيين فى بلاد الشام والأراضى المقدسة ، وكيف فشلت محاولة طردهم من فلسطين بعد أن إستقروا بها ، ولم تستطع المقاومة الإسلامية منعهم بالتالى من الاستقرار الدائم فى الجهات الأخرى التى إحتلوها والتى أخذوا فى إحتلالها بعد أن وضعوا ملامح الإمارات اللاتينية وطفقوا يوسعون حدودها ويكفلون لها جانبا من الأرض وسط الحشد المعادى لهم من الإمارات الإسلامية بالمنطقة .

فنى شمال الجزيرة ربضت إمارة الرها الصليبية ، وفى أنطاكية قامت الإمارة الثانية التى أسسها بوهيموند وفى بيت المقدس تأسست المملكة اللاتينية التى غدا لها شىء من الزعامة على بقية الإمارات ، ثم أخيرا تكونت إمارة طرابلس الصليبية - ليكمل بذلك إستقرار الصليبيين ببلاد الشام .

ولم يكد ينتهى العقد الأول من القرن الثانى عشر الميلادى الذى شهد تكون هذه الإمارات اللاتينية حتى بدأت مرحلة جديدة فى قصة المقاومة الإسلامية نظراً للإحساس المتزايد لدى القوى الإسلامية بخطورة الصليبيين ، بعدأن رسخت أقدامهم وبعد أن إتخذوا من أساليب القهر والإستبداد ما جعل المسلمين يدركون أن خطرهم سوف يتعرض له سائر المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأقاليمهم[1] .

ولقد كانت الظروف مواتية كثيرا لينعم الصليبيون بفترة هدوء يقومون

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ١٩٦ (ترجمة الدكتور العرينى)

خلالها بإرساء قواعد إماراتهم فى الجزيرة وبلاد الشام خاصة بعد إحجام السلاجقة عن مدافعتهم بسبب الهزيمة التى لحقت بجلفهم عند أنطاكية من قبل ولاب السنوات الخمس التاليه لسقوط بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ م / ٤٩٢ هـ ) وحتى سنة ١١٠٤ م / ٤٩٧ هـ ) شهدت صراعا كبيرا فى جبهة السلاحقة فى المشرق نزاعا على السلطنة بين بركياروق وأخيه محمد وإنتشرت الفتن خلالها بين الاخوين، وحدثت خمس لقاءات حربية كبيرة بين الاثنين على إمتداد هذه الفترة ، عانت خلالها الدولة السلجوقيه كثيرا من الاضطرابات والفوضى [1] ، ولم تنته إلا بعقد الصلح بين الاخوين فى عام ١١٠٤ ثم بوفاة بركياروق فى العام التالى وإنفراد محمد بالسلطنة السلجوقة .

وكنا قد انتهينا من قبل إلى أن بركياروق لم يضع أمر الجهاد ضد الصليبيين فى سياسته أو خططه ولم يوله شيئا ذا بال من الاهتمام ، وذلك أمر لا يرقى اليه الشك ، إلا أننا اليوم أمام سلطان جديد تهيأت له فرصة كبيرة نوضع هذا الأمر نصب عينيه بعد إنفراده بالسلطنة السلجوقية ، وخاصة بعد إستقرار أحوالها وإستتباب أمورها ، مما دفعه فعلا للتفكير فى حل معضلاتها المرمنة من جانب الصليبيين .

والواقع أن السلطان محمد كان من طراز يختلف عن أخيه الراحل كثيرا ، دأبت المراجع على ذكر تحليه بوازع دينى كبير كان له أثر كبير فى إظهار نزعته إلى الجهاد والحرب المقدسة والرغبة فى تدارك ما فات سلفه بركياروق فى النيل

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٢٨ ( نشر محمد إقبال )

من الصليبيين وطردهم نهائيا من بلاد الشام (١) .

ولعلنا لانكون مبالغين كثيرا أو مجانبين الصواب إذا قلنا أن هذا السلطان كان يعتزم إفتتاح حركة الجهاد ضد الفرنج منذ توليه السلطنة فعلا وإنفراده بشئون الامبراطورية ، إعتمادا على ما لدينا من شواهد تؤيد نزوعه إلى ذلك مبكرا ، هذا برغم ما يتوافر من أن هذه النزعة جاءت بعد مرور سنوات على إنفراده بالسلطة ، وجاءت إستجابة لنداءات الاستغاثة والاستنجاد من جانب المسلمين فى بلاد الشام

والمعروف أن الحملات الإسلامية على عهد هذا السلطان بدأت بنشاط مودود أتابك الموصل إبتداء من عام ١١١٠ م فى حين أن إنفراد محمد بالسلطنة كان فى عام ١١٠٥ م أى أن حركة الجهاد لم تطف إلى سطح السياسة السلجوقية إلا بعد مرور سنوات على تولى هذا السلطان أمر الدولة .

ورغم أن هذه المدة ليست طويلة ، ولا تنفى الاستعداد الطبيعى لدى هذا

---

(1) Browne: Account of a rare manuscript .p 604
Camb Med. Hist. vol. 4. p. 311.

ويصفه الراوندى بقوله : « وكان السلطان محمد صائب الرأى ، ثابت العهد ، صادق القول وكان جاداً فى إعزاز الدين مجاهداً فى قمع الملاحدة الملاعين ، وله اليد البيضاء فى حفظ بيضة الإسلام » .

راحة الصدور : ص ٢٣٥ .

ويقول عنه أبو الفدا : « وكان عادلا حسن السيرة أطلق المكوس والضرائب فى جميع بلاده» . منتخبات من المختصر فى أخبار البشر :

( Rec. Hist. Or. 1. p. 13 )

السلطان للجهاد منذ توليه العرش إلا أن ثمة قرائن تشير إلى أنه كان ينوى البدء فى الجهاد ضد الصليبيين بمجرد إنفراده بالسلطنة وهيمنته على شئونها .

فقد رنا بنظرة ـ بعد إنفراده بالسلطنة ـ ناحية الموصل ، ولم يطمئن إلى وجود جكرمش بها [١] وخشى أن يكون على إتصال بقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم الذى طمع فى مزاحمة سلاجقة فارس والعراق بعض نفوذهم فى هذه الجهات القريبة من مقر ملكه ، كما أنه « تثاقل فى الخدمة وحمل المال » [٢] ، لذا قرر السلطان محمد عزله عن إمارة الموصل بعد توليه السلطنة مباشرة .

ويبدو أن السلطان محمد قرر الجهاد ضد الصليبيين منذ ذلك الوقت ، لأنه ندب الأمير جاولى سقاوو ( سقاوة ) وأمره « بالسير إلى الفرنج ليأخذ البلاد منهم ، وأقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة كلها » [٣] ومما يؤكد هذا ما ذكره المؤرخ سبط بن الجوزى من أن السلطان « ندب الأمير جاولى سقاوة وأميرا من مقدمى عسكره فى عسكر كثير ... وكتب إلى صدقة وإلى جكرمش صاحب الموصل بتقويته بالمال والرجال وأقطعه الرحبة وما على الفرات » [٤] أى أن

---

(١) كان جكرمش واليا على الموصل من قبل بركياروق ، ولم يذعن فى أول الأمر لمحمد حين صارت الموصل من جملة أملاكه بمقتضى الصلح المبرم بين الأخوين ، ولكنه مالبث أن دان بالطاعة له بعد وفاة بركياروق مباشرة .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٤ ،
Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 430

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٨ ( حوادث سنة ٥٠٠ هـ )

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٨ ( سنة ٥٠٠ هـ )

(٤) سبط الجوزى : مرآة الزمان ج ١ ورقة ٢٧٢ ( مخطوط )

هدف جاولى - طبقا لهذه الرواية - هو جهاد الفرنج وليس إنتزاع الموصل من يد جكرمش . بدليل إقطاع هذا القائد الرحبة على الفرات وهى أقرب إلى مسرح الاحداث بالشام من الموصل ذاتها خدمة لهدفه . ولكن ليس من شك فى أن السلطان كان يهدف إلى الاثنين معا : إنتزاع الموصل من جكرمش ثم القيام بالجهاد ضد الفرنج وهكذا جاز لنا القول أن الرغبة كانت حاضرة لدى هذا السلطان لبدء حركة الجهاد الكبرى بعد إنفراده بالسلطنة بقليل

وإذا كان ذلك صحيحا فما الذى أخر حركة الجهاد سنوات أخرى وعوق بدءها تلك الفترة قبل أن يبدأ مودود نشاطه ضد الصليبيين فى عام ١١١٠م؟

الواقع أن ثمة أحداث وقعت فى الجبهة المنوط بها الجهاد ذاتها وفى الدولة السلجوقية كان لها أثر فى تأخير الجهاد تلك السنوات . فلما إختفت أفسحت المجال أمام السلطان لانجاز مشروعه الكبير ضد الصليبيين .

وأول هذه المعوقات مالقيه جاولى نفسه من عقبات غيرت خطته ، ثم كان عصيانه هو نفسه على السلطان وخروجه عن طاعته عملا أساسيا فى هدم المخطط من أساسه . ذلك أن الامراء الذين أمرهم السلطان بمعاونته تقاعدوا عن مساعدته بل وصل الأمر ببعضهم حد محاربته ، فقد دافعه صدقه ولم يعطه أى معونة ، لذا انصرف جاولى إلى الموصل إلا أنه لم يجد من جكرمش ترحيبا فاضطر إلى أن يعيث فى الجهات المجاورة فخرج اليه جكرمش لحربه ، فظفر به الجاولى واستباح عسكره ، [1] مما دفع أصحاب جكرمش إلى الاستنجاد بقلج أرسلان الذى قدم

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٥،
Grousset : op. cit:. .I p. 431

على عجل دون استعداد كاف ، فاهتبل جاولى الفرصة وأنزل به الهزيمة عند نهر الخابور ، وغرق قلج أرسلان نفسه فى النهر فى التاسع من شوال سنة ٥٠٠ هـ ( أول يوليو سنة ١١٠٧ م ) [١] وبمقتل قلج أرسلان دانت الموصل لجاولى فدخلها ، وأعاد الخطبة للسلطان محمد وبذلك حقـــق جزءا من مخططه . وكان عليه أن يبدأ حركة الجهاد بعد ذلك . إلا أنه مالبث أن استبد بشئون الامارة وعصى على السلطان ، ونعتقد أنه لولا الاحداث والعقبات التى صادفها جاولى وعصيان جكرمش عليه وعدم تعاون الأمراء معه لكان مضى إلى جهاد الفرنج كما كانت الخطة تقضى غير أنه أفرغ كل جهوده فى حرب جكرمش ثم قلج أرسلان من بعده ، ولم يكد يفيق من هذه الحروب الطاحنة ويستتب له الامر ، حتى طالبه السلطان بالأموال وبالقيام بالجهاد ـ فلما تثاقل قليلا تأكد السلطان من عصيانه . ولذا أرسل اليه مودوداً الذى انتزع منه الموصل ـ كما سيلى ـ وافتتح سلسلة الحملات ضد الصليبيين .

أما المعوق الثانى فيكمن فى إنشغال السلطان محمد بحرب الباطنية . وكسر شوكتهم . ذلك أن الاضطرابات التى تعرضت لها الدولة من قبل كانت قد ساعدت

---

(١) أوجد مقتل قلج أرسلان فجوة كبيرة فى جبهة الأتراك خاصة فى آسيا الصغرى ، فضلا عن أنه حرم بلاد الشام من قوة كان يمكن أن تدفع قضية توحيد الجبهة فيها خطوة كانت فى مسيس الحاجة اليها ، كما لاحظ ذلك المؤرخ رانسيمان ، بعد أن بات معلوما عزمه على التدخل فى شئون هـــذه المنطقة والانغماس فى أحداثها .

Runciman : A history of the Crusades II. pp. 110-111

هذه الفئة على ازدياد نفوذها وقوة بأسها (١) بشكل لم يستطع السلطان محمد غض الطرف عنه بعد استتباب الأمر له وخاصة وقد أقدموا على التآمر على حياته شخصيا (٢) . لذا أخذ يهاجم قلاعهم فى عنف محاولا استئصال شأفتهم فى هذه الآونة ، ولعله لم يفكر جديا فى التحول إلى جبهة الصليبيين والجهاد ضدهم إلا بعد أن قلم أظفار تلك الفئة من الملاحدة على حد تسميتهم فى أغلب النصوص (٣) .

أما المعوق الثالث فى هذه الفترة فيأتى من جانب ، الأمير العربى سيف الدولة صدقة بن مزيد صاحب الحلة ، الذى رفع راية العصيان وآوى الفارين من وجه السلطان (٤) ، وفى الحرب التى نشبت بين الجانبين فى مارس سنة ١١٠٨ م أنزل السلطان محمد الهزيمة بجيش صدقة قرب الحلة (٥) . وقتل صدقة نفسه فى المعركة وجماعة من وجهاء قومه وتخلص السلطان بذلك من عدو طموح شكل خطرا مزدوجا بالنسبة للخلافة والسلطنة و هذا الدور قبل أن يشتد عود إبنه دبيس صاحب النشاط الجم فى الأحداث اللاحقة .

كما أن القضاء على صدقة كان إيذانا بانتهاء متاعب السلطان محمد ومعوقات

---

(١) Browne op. cit. p. 605-6
وراحة الصدور الراوندى ص ٢٢٥

(٢) Browne : op. cit. p. 608

(٣) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٢٥ ،
Camb Med Hist. Vol. 4 p. 311

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٥٦

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٩ ،
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 433

حركته وطلاقة يده ، فبهذا يكون قد أخضع المارقين عن سلطته من الولاة وقلم أظافر الباطنية وقضى على طموح الأمير العربى صاحب الحلة ، ولم يعد ثمة ما يعوقه عن التفكير فى بدء الجهاد المقدس ضد الصليبيين ، بعد أن مهدت تلك الأحداث الطريق لتدعيم مكانته وكشفت له عن مجموعة من القواد العظام ومنهم مزدود والبرسقى وبرسق كما سبق ، ولم يبق سوى إنتزاع الموصل من جاولى ، قبل أن يأمر بالجهاد المقدس .

## ا - استنجادا المسلمين فى الشام بالخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة

جرت هذه الاحداث بينما كان بلاء الفرنج يزداد بالنسبة للمسلمين فى بلاد الشام وخاصة فى حلب ، لذلك هرعت جماعات إلى بغداد للإستنجاد بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وتنبيه أولى الأمر إلى الخطر المحدق بهم لتجنيد الجنـــود وتجريد الحملات ضد ذلك العدو المتربص ، ونجحت هذه الجماعات فى إجبـــار السلطان على سرعة تجريد الجيوش لمحاربة الصليبيين .

والواقع أن الإستنجاد والإستنفار للجهاد ليس أمراً جديداً على المسلمين فى ذلك الوقت نظراً لإرتباط هـــذا النوع من الإستصراخ بالتصدى للجيوش الكافرة أياكان موطنها ومهما كان غرضها . والمعروف أن الدولة البيزنطية تولت لفترة وخاصة فى القرن العاشر الميلادى مهمة القيام بحملات شبه صليبية ضد المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى وشمال العراق وبلاد الشام وذلك على عـــهد إمبراطوريها الذائعى الصيت نقفور فوكاس وخليفته حنا زمسكيس فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى .

لذلك كثيراً ما تحدثنا المراجع بخروج جماعات المسلمين إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد والإستنجاد بالخلافة للتصدى للاخطار التى واجهتها بلادهم من المغيرين وخاصة من البيزنطيين . من ذلك ما حدث فى عام ٩٧٤م حين تعرضت أطراف بلاد النهرين لضربات الامبراطور البيزنطى حنا زمسكيس ودخل البيزنطيون فى أكتوبر من نفس العام نصيبين وخربوها واستباحوها وأحدثوا بها مذابح

بشرية رهيبة ، وعندئذ هرعت جماعة ممن نجوا من تلك المجازر إلى بغداد «واستنفروا الناس فى الجوامع وكسروا المنابر ومنعوا الخطب وحاولوا الهجوم على الخليفة المطيع » (١) .

ومسألة الدعوة للجهاد والحرب المقدسة تتكرر مراراً فى تاريخ الحقبة التى نحن بصددها ولها ضلع فى تحريك بعض الحملات ضد الصليبيين فى محاولة لطردهم من الجهات التى استقروا بها وعلى سبيل المثال حدث استنجاد بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين إذ قدمت جماعة من المسلمين على رأسهم القاضى أبو سعد الهروى قاضى دمشق إلى الديوان ببغداد وقطعوا شعورهم واستغاثوا « وقام القاضى فى الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين وندب من الديوان من يمضى إلى العسكر السلطانى ويعرفهم هذه المصيبة » ولكن محاولة استنهاض الهمم وبث روح الحماس إذ ذاك لم تثمر أمام ضعف الخلافة وتنازع السلاطين إذ « وقع التقاعد » وانفخست العزيمة ولم تنجح هذه المحاولة فيما قصدت اليه (٢) .

---

( ) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٧ص ٤٤ - ٤٥ ( سنة ٣٦١ ﻫ) .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٠٨

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٢٠٢-٢١٣ (مخطوط)

وقال الشاعر فى ذلك :

| | |
|---|---|
| وكيف تنام العين ملء جفونها | على هفوات أيقظت كل نائم |
| واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم | ظهور المذاكى أو بطون القشاعم |
| تسومهم الروم الهوان وأنتم | تجرون ذيل الخفض فعل المسالم |

وليس من شك فى أن الظروف التى كانت تمر بها دولة السلاجقة فى ذلك الوقت - كما سبقت الاشارة - كانت هى سبب التقاعد ووهن العزيمة .

أما المثل الثانى للإستنجاد بقوى الإسلام الكبرى فى بغداد وهو الذى يهمنا لما ترتب عليه من نتائج فقد جاء من جانب القاضى فخر الملك أبو على بن عمار أمير طرابلس بعد أن زاد بلاء الصليبيين بالنسبة لامارته ويئس من نصرة القوى الإسلامية الأخرى .

ذلك أن ريموند الصنجيلى أخذ يعمل على إسقاط مدينة طرابلس ليجعل منها عاصمة لإمارة صليبية تابعة له بعد أن ضاع أمله فى أنطاكية لذلك بدأ يهاجم المدينة فى غير هوادة محاولا إسقاطها . غير أن ابن عمار قاومه مقاومة باسلة ، فتحول ريموند إلى الحصون والمدن القريبة من طرابلس والتابعة لها واستطاع أن يستولى نهائيا على أنطرسوس فى إبريل سنة ١١٠٢ ثم على جبيل فى آواخر سنة ١١٠٤ م [١] ، وطفق يكون ملامح الإمارة الكبيرة التى لاينقصها سوى عاصمتها طرابلس . ولم يحل هلاك ريموند فى عام ١١٠٥ دون مداومة العمل ضد طرابلس فامتدت الحروب سنوات « فعدمت الاقوات وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم فجلا الفقراء وافتقر الاغنياء وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد » [٢] .

ولم يتردد ابن عمار فى طلب المعونة من القوى الإسلامية الأخرى وخاصة

---

(١) أبو الفدا : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر
Rec. Hist. Or. I. p, 7

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٥ ( سنة ٤٩٨ هـ )

سقمان بن أرتق التركمان فى حصن كيفا وكان سقمان قد تلقى أيضا كتابا من طغتكين يحثه فيه على سرعة الحضور إلى الشام ليسلم اليه دمشق نظراً لمرضه وخوفه الهلاك، وليس بدمشق من يحفظها من الفرنج . لذا لم يتوان سقمان عن النجدة ، وجمع عساكره وانحدر ناحية الشام وفى الطريق مرض مرضا شديداً وأشرف على الهلاك فنصحه أصحابه بالعود إلى حصن كيفا فامتنع وقال : « بل أسير فإن عوفيت تممت ماعزمت عليه ولا يرانى الله تثاقلت عن قتال الكفار خوفا من الموت ، وأن أدركنى أجلى كنت شهيداً سائراً فى جهاد » فساروا به فقضى نحبه فى الطريق وذلك سنة ١١٠٥ م ( ٤٩٨ هـ ) وعاد جيشة إلى حصن كيفا يحمل تابوته ، وفقد ابن عمار بذلك قوة كان يمكن أن تنجده وتخرجه من محنته .

ولما زاد نشاط الفرنج ضد إمارته لم ير ابن عمار بدأ من أن يمم وجهه شطر بغداد - للإستنجاد بالخلافة والسلطنة ذاتها حتى يحول بين الفرنج وطرابلس مدفوعا فى ذلك بعامل مشجع هو ما أمست فيه السلطنة من الاستقرار والإستتباب بعد أن انتظمت الأمور للسلطان محمد « وزال كل مخالف» [1] وفى الطريق عرج ابن عمار على دمشق حيث أرسل معه طغتكين ابنه تاج الملوك بورى محملا بالهدايا والتحف للسلطان لاسترضائه [2] .

ولما وصل ابن عمار إلى بغداد فى مايو سنة ١١٠٨ ( رمضان سنة ٥٠١ هـ ) « لقى من السلطان من الإكرام والاحترام ما زاد على أمله » ، كما استقبله الخليفة العباسى استقبالا حسنا ووعده السلطان بانفاذ العساكر معه وأصدر أمراً إلى

(١) نفس المرجع ص ٢٥٠ ( سنة ٥٠١ هـ )
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦

بعض قواده بالسير معه ، وانجاده على طرد محاصرى بلده والإيقاع بهم، ويجعل المؤرخ ابن القلانسى من رحلة ابن عمار محركا للحملة التى أرسلها السلطان محمد تحت قيادة الأمير مودود للجهاد ضد الفرنج إذ أنه وعد ابن عمار بانفاذ العساكر معه وفى نفس الوقت ، قرر مع العسكر المجرد معه الإلمام بالموصل وإنتزاعها من يد جاولى سقاوه ثم المسير بعد ذلك إلى طرابلس ، (١) أى أن هدف حملة مودود الاولى التى هاجمت الرها كانت أصلا منفذه مع فخر الملك بن عمار لتستولى فى طريقها على الموصل من يد جاولى ثم تستأنف رحلتها لإنجـــاد مسلمى طرابلس من الفرنج .

غير أن ابن عمار ضجر من الانتظار وقلق على مصير إمارته فقرر العودة إلى الشام وغادر بغداد فى نصف المحرم سنة ٥٠٢هـ (أواخر أغسطس سنة ١١٠٨م) بعد أن مكث بها نحو أربعة أشهر بينما تحركت حملة مودود فى صفر من نفس العام ( سبتمبر سنة ١١٠٨ م ) أى بعد رحيل ابن عمار بنحو شهر فى طريقهـــا إلى الموصل .

والذى يهمنا من كل ذلك أن رحلة ابن عمار واستنجاده بالخلافة والسلطنة كان لها أثر فى الإسراع بانفاذ مودود لجهاد الصليبين وسرعة بدء حركة الجهاد المقدس ضدهم فى الجهات التى احتلوها .

وكما لعب استنجاد ابن عمار دوره فى تحريك الحافز لدى السلطان محمد لانفاذ الجيوش للجهاد نجد أن حملة مودود الاولى على إمارة الرها وهى التى تمت فى عام ١١٠ م ( أواخر سنة ٥٠٣ هـ ) قد إنتهت دون أن تحقق شيئـــا ذا بال من

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١

من أهدافها ولم تخدم مسلمي الشام في شيء ، لذا كانت الدفعة الأخيرة من الاستنجاد في هذه الفترة وهي التي قام بها جماعة من أهل حلب ، وما حدث من إتساع نطاق الحرب بين المسلمين والصليبيين في السنوات القليلة التالية وانحدار الجيوش السلطانية ناحية الشام ذاته ومحاربة صليبي الشام وبيت المقدس كان ثمرة من ثمرات الاستنجاد ومن نتائجه المباشرة .

ولعله من الأرفق الإشارة إلى الظروف التي حدثت فيها هذه النوبة الأخيرة من الإستنجاد في هذه الفترة ليسهل تتبعها . ذلك أن رضوانا ملك حلب كان قد انتهز فرصة انصراف تنكرد والقوى الصليبية الأخرى إلى مدافعة مودود عن الرها ، وقام بمهاجمة ممتلكات أنطاكية لاسترداد بعض الحصون والقلاع الضائعة ، فلما فرغ تنكرد من مهامه في الشمال عاد مسرعا لينتقم من رضوان فاستولى على الأثارب وأحدث بها مذبحة رهيبة ، ثم تحول إلى زردنا [1] وفعل بأهله ما فعل بأهل الأثارب [2] ، وذلك في نهاية عام ١١١٠ م ، ومن ثم أخذ يفرض الإتاوات على أمراء المسلمين ويحصل منهم الأموال ، فعظم خوف المسلمين منهم ، وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء الفرنج على سائر الشام لعدم الحامي له والمانع عنه ، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الإجابة إلا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة،

---

(١) الأثارب وزردنا يقعان غرب حلب - بين حلب وأنطاكية وعلى بعد يسير من حلب (ياقوت معجم ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ٩٢٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٠ ( سنة ٥٠٤ هـ ) ، أبو الفدا منتخبات في المجموعة I. p. 10 .

فامتثل رضوان لدفع الأتاوة وكذلك فعل صاحب صور وابن منقذ صاحب شيزر - وصاحب حماة » وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلة وحصادها »[1] .

وواضح أنه لم يعد هناك إذلال للقوى الإسلامية فى الشام أكثر من ذلك ، وهذا يفسر لنا فى الحقيقة بعض دوافع خروج المستنفرين من أهل حلب إلى بغداد متأثرين دون شك بهذه الحالة التى تردت فيها القوى الإسلامية وخاصة رضوان صاحب حلب ، هذا بالاضافة إلى دأب الصليبيين على إسقاط المدن والحصون والموانى على الساحل الشامى ، ومضايقة غيرها من أملاك المسلمين وتوسيع حدود إماراتهم باضطراد[2] ، مما زاد فى تقطيع أوصال هذه المنطقة بما يعنيه ذلك من التضييق على المسلمين فى بلاد الشام بشكل غدا من العسير احتماله .

وتشير أغلب النصوص إلى السبب الذى جعل الكيل يطفح بأهل حلب ويعجل بخروج جماعاتهم إلى بغداد ما أقدم عليه الصليبيون من قطع طرق المواصلات وخاصة البحرية منها بين مصر والشام وعدم إنتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام ومصر والحجاز[3] مما أحنق التجار فى هذه البلاد وضايقهم لانه أمر لم يألفوه منذ حركة الفتوح العربية فى القرن السابع الميلادى[4] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦١ ( سنة ٥٠٤ هـ ).

(٢) Runciman : op. cit. II. p 93

(٣) Small : Crusading warfare. p. 21.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٦٠ .

فلما خرجت قافلة بحرية من تنيس ودمياط بمصر ببضائع وأموال بعد أن « ضجروا وملوا طول المقام وتعذر مسير الأسطول فى البحر ، حملوا نفوسهم على الخطر وأقلعوا ... فصادفتهم مراكب الإفرنج فأخذتهم وحصل فى أيديهم من الأمتعة والمال ما يزيد على مائة ألف دينار » [1] ، فلم يحتمل تجار حلب ذلك فأثاروا جموعا أخرى وقصدوا بغداد للاستغاثة والاستنجاد .

ويبدو أن مشايعة رضوان للباطنية وخضوعه لتنكرد كانت من بين الأسباب التى دفعت أهل حلب للخروج إلى بغداد [2] ، فقد ضمت تلك الجموع المتحمسة إلى جانب التجار وأرباب الحرف جماعة من الفقهاء والصوفية الذين طبعـــوا الحركة بالطابع الدينى وأعطوها مفهومها المقدس .

ومهما كان الأمر فقد مضت تلك الجموع إلى بغداد ، وفى أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤ هـ ( فبراير سنة ١١١١ م ) دخلوا جامع السلطان « فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال ، ومنعوا الناس من الصلاة ... وعادوا فى الجمعة التالية المسير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٧١ - ١٧٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦١ (سنة ٥٠٤ ) : ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٥٧

(٢) Runciman : op. cit II. p. 121

والواقع أن رضوان لم يخفه استياء السلطان محمد منه إذ « بلغ رضوان فى سنة إحدى وخمسمائة ما ذكر به من مشايعة الباطنية وأنه لعن بذلك فى مجلس السلطان محمد بن ملكشاه » . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٣ .

والاستغاثة والنحيب [1] ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزى أنه لما علم السلطان محمد بذلك قال « ما لهم ؟ فقالوا قد استولى الفرنج على الشام وقتلوا وأسروا وسبوا فقال السلطان نسير اليهم العساكر » [2] . وهكذا تسأل هذه الحركة عن نشاط مودود مرة ثانية فى شمال العراق وبلاد الشام ضد الفرنج هناك .

وكان الامبراطور البيزنطى الكسيوس قد أرسل فى نهاية عام ١١١٠ م ، وقبل قدوم الحلبيين سفارة الى بغداد [3] استهدفت كما يبدو وإحداث تقارب بين الدولة البيزنطيه والمسلمين لمناوأة الفرنج وخاصة تنكرد فى انطاكية،ونوهت بدور الكسيوس فى منع بوهموند من اجتياز أرض الدولة البيزنطية وهو عائد إلى الشام لاستئناف حرب المسلمين بها [4] الا أن هذا النداء لم يجد استجابة كبيرة لدى أولى الامر فى بغداد ولعل ذلك ما دفع أهل حلب أن يقولوا للسلطان « أما تتق الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام حتى قد أرسل اليك فى جهادهم » [5] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ ، وابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦١ ( سنة ٥٠٤ هـ ) .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٢٩٥ ( مخطوط ) .

(٣) وصلت السفارة البيزنطيه فى جمادى الاخره سنة ٥٠٤ هـ ( أى ديسمبر ١١١٠ م ) فى حين قدم المستنفرون فى شعبان سنة ٥٠٤ هـ أى فى فبراير سنة ١١١١ ، ابن القلانسى ذيل ص ١٧٣ .

(٤) فشل بوهيموند فى اجتياز أرض الامبراطورية فى البانيا فى طريق عودته الى بلاد الشام برا نظرا لمقاومة الامبراطورية فى عند دورازو فى أكتوبر سنة ١١٠٧.

Grousset: Histoire des Croisades. I p. 417

(٥) ابن الاثير بالكامل ج ٨ ص ١٦١ ( سنة ٥٠٤ هـ )

على كل حال لم يأل الحلبيون جهدا فى استثارة حماسة السلطان ودفعه للتفكير فى إنفاذ جيوشه لجهاد الفرنج وهذه كانت أبرز نتائج خروج المستنفرين إلى بغداد بل إن الخليفة المستظهر بالله العباسى سرعان ما أرسل إلى السلطان محمد يسأله ضرورة علاج هذا الامر وإنفاذ العساكر على أثر ما أحدثته هذه النوبة من الحماس فى بغداد تطور حد أحداث الشغب الذى منع الخليفة من استقبال زوجته السلجوقية خاتون أخت السلطان وكانت قادمة من أصفهان، حتى فكر فى انزال الضرر بمحدثى هذ الشغب ولم يمنعه من ذلك سوى السلطان محمد نفسه (١) .

وهكذا لعب الاستنجاد والاستنفار للجهاد دورا ليس تافها فى توجيه نظر الخلافه والسلطنه إلى مواطن الداء ، ومحاولة استئصال شأفته برغم أن الرغبة كانت حاضرة لدى السلطان للجهاد كما وضح من العرض السابق .

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

## ب ـ السلطان محمد السلجوقى
## يعهد إلى مودود أمير الموصل بجهاد الصليبيين

سبقت الاشارة من قبل إلى أن رحلة ابن عمار إلى بغداد فى مايو سنة ١١٠٨ كانت عاملا هاما فى إسراع السلطان محمد بانفاذ قائده الكبير مودود لجهاد الفرنج بعد أن أمره بالإستيلاء على الموصل أولا من يد واليها المستبد جاولى سقاوه .

فلم يكن من المعقول فعلا أن يمضى مودود إلى جهاد الصليبيين دون أن يستفيد من إمكانيات إمارة الموصل بحكم كونها أكبر وأعظم الإمارات فى شمال العراق من جهة وقربها النسبي من مسرح الاحداث من جهة أخرى . لذا عول مودود على الإستيلاء عليها قبل أن يبدأ مشروعه الكبير ضد الصليبيين . ولعله لا يغيب عن الذهن أن مشروع الجهاد قد أوقف من قبل بسبب عصيان جاولى وتثاقله عن الخدمة بعد إستيلائه على هذه الإمارة فى يوليو سنة ١١٠٧ .

وقد أثبتت الاحداث السابقة واللاحقة أن رواد الجهاد الدينى كانوا يستغلون وجودهم بهذه الإمارة ويستفيدون من إمكانياتها وموقعها فى قيادة حركات المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين كما أنهم كثيرا ما تطلعوا إلى السيطرة على حلب وضمها للموصل والعمل على توحيد جبهة المسلمين بهذه المنطقة لنفس الغرض، ولعل ماقام به قوام الدولة كربوغا ثم شرف الدين مودود ، وآقسنقر البرسقى والاتابك زنكى فيه تأكيد لهذا الإتجاه .

ويبدو أن السلطان محمد فطن إلى أهمية هذه الإمارة بالنسبة للجهاد بصفة عامة فحرص على الإستيلاء عليها وطرد حاكمها المستبد المتثاقل ووضعها فى أيد

أمينة قبل أن يزج بجيوشه لتخوض حربا ضارية ضد الإمارات اللاتينية .

هذا ولم تكن إمارة الموصل قد عرفت الهدوء منذ وفاة كربوغا حتى استولى عليها مودود باستثناء فترات قليلة كانت الأحداث تتابع بعدها لتعكر صفو هذه المدينة الكبيرة ، وتبرز الفتن والأطماع من حولها ، كما أبقت التجارب أن ولاة الموصل فى هذه الحقبة كانوا يطرحون جانبا الولاء والطاعة للسلطنة السلجوقية ويستبدون بأمورها مستقلين ببعدها النسبى وتطرفها وحصانتها التى تكفل لهم جانبا من الأمن فيها ، ولعل العرض التالى لتوالى الأحداث فى هذه الإمارة يبين إلى أى حد إستشرت الفتن فيها منذ مطلع القرن الثانى عشر الميلادى.

ذلك أن كربوغا توفى فى ذى القعدة عام ٤٩٥ هـ (سبتمبر سنة ١١٠٢م) وكان قد أوصى بالإمارة لأحد خواصه ويدعى سنقرجه ، غير أن أعيان المدينة كانبوا قائدا آخر ويدعى موسى التركمانى يستقدمونه من حصن كيفا ، فقدم هذا على عجل ودخل الموصل وإستسلم له الوالى السابق . «وصارت الإمارة إليه» . [1] ولكن صاحب جزيرة ابن عمر وهو شمس الدولة جكرمش المشار إليه من قبل - طمع فى الموصل فسار إلى نصيبين وتسلمها وهو فى طريقه إلى الموصل ولما علم موسى التركمانى بذلك خرج بجيشه لمحاربته ولكنه تعرض لغدر بعض رجاله الذين سارعوا بالإنحياز إلى جكرمش ، لذا آثر التركمانى الإرتداد سريعا إلى المدينة للتحصن بها وفى نفس الوقت أرسل إستغاثة إلى الأمير سقمان بن أرتق ووعده باعطائه حصن كيفا إن أغاثه ، فلما تحرك هذا وتحقق جكرمش من خروجه قرر الإنسحاب عائدا إلى إمارته . ولكن موسى التركمانى لم يهنأ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٠ (سنة ٤٩٥ هـ)

بالموصل طويلا إذ سرعان ماثار به غلمانه وقتلوه وهو خارج للقاء حليفه سقمان الذى قرر فى الحال العودة إلى حصن كيفا ، فأنتهز جكرمش الفرصة وعاد مرة أخرى إلى الموصل ودخلها بعد حصار لم يستمر أكثر من عدة أيام ودانت له بالطاعة وقتا حتى إنتزعها جاولى كما سبقت الإشارة .

وعندما أمر السلطان محمد قائده مودود بالتحرك شمالا كان يعهد إليه فى الواقع بمهمة شـــاقة ومزدوجه فى نفس الوقت ، وهى إنتزاع الموصل من يد جاولى وكذلك المسير لحرب الصليبيين ، فمن هو مودود هذا الذى غدا موضع ثقة السلطان ، والذى سيتصدر زعامة الحـــرب الدينية فى المنطقة فى السنوات القليلة التالية ؟

لعل ما يدعو إلى الأسف حقا أن المراجع قصرت عن مدنا بسيرة وافية لهذه الشخصية العظيمة وسكتت عنا فيما يختص بحياته وسيرته قبل أن يعهد إليـه السلطان محمد ببعض المهام فى الدولة بعد إنفراده بالسلطنة .

وكل ما نعرفه عنه أن إسمه مودود بن التونتكين [١] ، وأنه يكنى بشرف الدين [٢] وأن أول ظهوره على مسرح الأحداث كان بعد سلطنة محمد بن ملكشاه بقليل حيث بدأت المراجع تردد إسمه كأحد رجال هذا السلطان الجديد . وهو لاشك قائد تركى شارك فى الأحداث السابقة على وقت ظهوره وبرز بين قواد السلطان محمد فى الوقائع التى دارت بينه وبين أخيه بركياروق ، وأظهر خلالها نجابة وشهامة إسترعت انتباه السلطان محمد فقربه اليه واختاره لبعض المهـــام

---

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ١٣٨ ( سنة ٥٠٠ هـ )
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٤

الكبيرة واستطاع مودود أن يكسب ثقة السلطان باخلاصه ونشاطه الدائب فيما وكل اليه من مهام .

وأول مهمة أسندت اليه كانت ضد جاولى فى المشرق ، ذلك أن جاولى ـ قبل أن يصبح أمير للموصل كان واليا على المنطقه الواقعة بين خوزستان وفارس [1] دلى عهد السلطان بركياروق ، ومع أنه قام بتعمير كثير من قلاع هذه الجهـــة وتحصينها الا أنه أساء السيرة فى أهلها ، فقطع أيديهم وجذع أنوفهم وسمل أعنيهم ، فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة كثرت الشكوى من جاولى وضج الناس منه . وعندئذ أمر السلطان محمد الأمير مودود بالمسير اليه لانتزاع الامارة منه ؛ وانتهى الامر باستسلامه لجيوش السلطان فى نهاية ٤٩٩ هـ ( ١١٠٦ م) فعفا عنه السلطان وقدم إلى بغداد فى أوائل العام التالى حيث أمره السلطان بالمسير إلى الموصل كما سبقت الاشارة ـ وكانت هذه أول مهمة تسند إلى مودود وأول اشارة تضع أيدينا عليها فى المراجع عن هذا القائد . [2] .

وما لبث أن تهيأت له فرصة أخرى لاظهار مواهبه واحتلاله مكانته المرموقه فى فى الدولة وهى الحرب التى خاضتها جيوش السلطان ضد الأمير العربى صدقة بن مزيد والمشار اليها من قبل ولكن مايهمنا الان هو أن تدبير جيش السلطان وترتيب الحرب وكل اذ ذاك الى مودود فقام بذلك خـــير قيـــام

---

(١) منطقة هامة فى ايران وخاصة مايقع منها فى اقليم فارس الشهير بقصبتيه الكبيرتين شراز واسطخر .

Le Strnge: The lands of the Eastern Caliphate. p6

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٨ ( سنة ٥٠٠ هـ ) .

قيام [1] وانتصر السلطان فى تلك الموقعة فى مارس سنه ١١٠٨ م ، بفضل إخلاص رجاله ومن بينهم الأمير مودود .

لم تكد تتم هذه الموقعة قرب الحلة حتى قدم فخر الملك بن عمار إلى بغداد مستنجدا فى مايو سنة ١١٠٨ فأنفذ السلطان قائده الصاعد مودود إلى الموصل وليفتتح الجهاد ضد الفرنج . وليس من شك فى أن وضع مودود على رأس الحملة أبان عن المنزلة التى غدا يحتلها فى دولة السلطان محمد إذا علمنا أن من بين قواد هذه الحملة كان الامراء آقسنقر البرسقى وسكمان القطبى وبنى برسق [2] ومنهم الرجال الذين خلفوه فى قيادة حركة الجهاد الدينى ضد الصليبين فى الشام ولعبوا دورا بارزا فى الأحداث حينئذ كآقسنقر البرسقى وبرسق بن برسق .

فما أن سمع جاولى بتقدم العساكر السلطانية نحو الموصل تحت قيادة مودود حتى هرع خارجا منها وقصد الرحبة فحاصر مودود الموصل ثم مالبث أن افتتحها فى سبتمبر سنة ١١٠٨ م ( صفر سنة ٥٠٢ هـ ) [3] وأعادها بذلك إلى حظيرة الدولة السلجوقية ، وأهب للقيام بحركة المقاومة ضد الفرنج .

كان هذا هو القائد شرف الدين مودود كما أبرزه الحروب الثلاثة التى خاضها قبل أن يعهد اليه السلطان بقيادة الحرب الدينية والواقع أن السلطان محمد لم يجد أخلص منه بين رجاله ليعهد اليه بالمهمتين معا : إمارة الموصل والقيام بالجهاد .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٩ . هذا برغم تجاهل ابن الجوزى لمودود وإشارته إلى أن البرسقى كان هو قائد السلطان فى هذا الحرب . ج ٩ ص ١٥٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٢ ( سنة ٥٠٢ هـ ) .

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ولسنا نريد أن نورد أكثر من هذا عن مودود فنذكر تدينه وتحليه بالصفات الطيبة وزهده وورعه ورغبته الصادقة فى جهاد أعداء الدين وماتحلى به من وزاع دينى كبير وكرم خلقه ، لان ذلك كله ستبينة الصفحات التاليه وستنطق به جهوده فى السنوات التالية حتى مقتله شهيدا فى ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ ( ١١١٣ م ) .

على كل حال لم يكد مودود يستقر فى إمارته بالموصل وينظم شئونها حتى تلقى أمرا من السلطان محمد ببدء حركة الجهاد ضد الصليبيين . وهى الحركة التى استمرت على عهد هذا السلطان نحو خمس سنين تداول على زعامتها ثلاثة من قواد السلاجقة الكبار .

## ﻫ - حملات مودود ضد الفرنج

### ١ - حملته الاولى على الرها سنة ١١١٠ - إجلاء الارمن عن أرض الجزيره واستيلاء المسلمين عليها :

من العوامل التى شجعت المسلمين على استئناف المقاومة ضد الصليبيين ومحاربتهم ما أمست فيه إمارة الموصل من الاستقرار واستعدادها للقيام بدورها فى ذلك وقد فصل ذلك من قبل ، وكذلك زوال أسطورة تناقلتها الأفواه ورسخت فى اذها المسلمين وقتا وثبت عدم صلاحيتها وهى أن الصليبيين قوة لا تهزم .

إذ كان فشل حملة سنة ١١٠١ فى آسيا الصغرى واندحارها على أيدى العناصر التركمانية هناك [١] كما كانت هزيمة الصليبيين عند حران على ضفاف نهر البليخ [٢] فى عام ١١٠٤ وأسر بلدوين دى بورج وجوسلين على يد القوات الاسلامية مدعاة لضياع هيبة الصليبيين التى عمل لها المسلمون من قبل ألف حساب وكانت سببا مباشرا لإقدام المسلمين على حرب هذا العدو الذى بدا مجردا من أسباب القوة وانحدر إلى درجة من المهانة فى نظر المسلمين فى ذلك الوقت فزالت أسطورة قوته من الأذهان [٣] .

وكان المد الصليبى قد وصل مداه بعد نجاح الصليبيين فى إقامة إماراتهم وانتهاز

---

(١) أبو الفدا: منتخبات من المختصر المجموعة (I .p.5) ، ابن الوردى: تاريخه ج ٢ ص ١١ .

(٢) نهر البليخ يخترق أرض الجزيرة وينحدر جنوبا ليصب فى الفرات قرب الرقة ، ويقع حران على هذا النهر قرب مصبه: Le Strange: Op. Cit. p. 103

(٣) Runciman : op. Cit.II. p.44

فرصة النزاع بين أمراء المسلمين ومحاربة بعضهم البعض لذا تطلع الصليبيون فى الرها وأنطاكيه إلى الاستيلاء على مدينة حران فى شمال الجزيرة نظرا لموقعها الفريد بين الرها والفرات على الطريق المؤدى إلى الموصل فاذا قدر لهم الاستيلاء على حران فانهم بذلك يقطعون الصلة بين مسلمى سوريا ومسلمى الموصل والعراق وفارس ، ومن ثم يكملون الخطة بانفاذ حملة ضد الموصل بصفة خاصه . هذا بالاضافه إلى ما أبداه أمير الرها من طمع فى حران وأراضيها الشاسعه الخصبة التى تمتد إلى نهر الفرات (١) .

لهذا غضب سقمان بن ارتق أمير ماردين وجكومش أمير الموصل وتراسلا وتواعدا على بذل الجهد والنفس فى جهاد الفرنج ومنع حران من السقوط فى أيديهم (٢) وتحركت جيوشهما فعلا صوب المدينة بينما كان بلدوين دى بورج وبوهيموند قد نزلا عليها وبدءا يعملان على إسقاطها لكنهما اختلفا أى منهما يرفع علمه على المدينة بعد الاستيلاء عليها وبينما هما على هذا الاختلاف والتباين دهمتهما القوات الاسلامية فانزلت بهما هزيمة قاسية على ضفاف نهر البليخ فى مايو سنة ١١٠٤ وفر بوهيموند وتنكرد إلى أنطاكية بعد أن تكبدا خسائر فادحة بينما وقع القتل والأسر فى جيش الرها كما وقع بلدوين أمير الرها نفسه فى يد سقمان بن أرتق (٣) وغنم المسلمون غنائم عظيمة وأسروا كثيرا من رجالات

---

(١) Grousset : Op. Cit. 1. p.403

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٢ (٤٩٧ هـ) ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٣ .

(٣) Encyc. Is. Art. Artukids . by cl. Cahen

الصليبيين ومنهم جوسلين دى كورتناى أيضا [١] .

وهكذا زالت الأسطورة من الاذهان وبدا الصليبيون على حقيقتهم ، فكان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيأ مثله ، وبه ضعفت نفوس الإفرنج وقلت عدتهم وفلت شوكتهم وشكتهم وقويت نفوس المسلمين ، على حد تعبير المؤرخ ابن القلانسى . كما كان هذا النصر مدعاة لاستشاف المسلمين حركة الجهاد والمقاومة ضد الصليبيين فافتتحوا سلسلة الحملات ضد امارة الرها الصليبية .

ولكن لماذا وضع المسلمون نصب أعينهم مهاجمة الرها أولا قبل المضى إلى صليبى الشام والأراضى المقدسة ؟ أو بمعنى آخر لماذا ظهرت المقاومة الاسلامية فى شمال العراق ضد إمارة الرها الصليبية قبل بقية الإمارات فى بلاد الشام ؟

الواقع أن متاخمة الرها لإمارة الموصل الإسلامية فى شمال العراق وقربها النسبى من مركز الخلافة فى بغداد ، كما أن فصلها بين جبهتى المسلمين فى شمال العراق وفى بلاد الشام [٢] قد لعب دوره فى جعلها هدفا مبكرا لحركة المقاومة الاسلامية لان المسلمين ازدادوا يقينا بمرور الايام أن صليبى هذه الإمارة فى تحفز دائم للتوغل فى أراضيهم واقتطاع ما تصل إليه أيديهم من أطرافها عند ظهور أية فرصة مواتية [٣] . وفى تتبع نشاط هذه الامارة ضد الاملاك الاسلامية المجاورة تأكيد لهذا الاتجاه [٤] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) Small: Crusading Warfare p. 20

(٣) حبشى نور الدين والصليبيون ص ١١-١٣ .

(٤) فى عام ١١٠٣ م أغار بلدوين دى بورج على املاك الاراتقة فى ماردين =

أما الرها ذاتها فكانت لها منزلة خاصة فى نفوس الصليبيين والمسيحيين بوجه عام . وكان بها عدد كبير من الكنائس كما كان بها دير كبير أيضا ، وزعموا أنه كان بكنيستها العظمى « منديل المسيح الذى مسح به وجهه فأثرت فيه صورته . فأرسل ملك الروم رسولا الى الخليفة وطلبه منه وبذل فيه أسارى كثيرة فأخذه وأطلق الاسارى » [١] . وقد أصبحت بعد استيلاء الفرنج عليها قلعة حصينة وغدت من أمنع المعاقل فى تلك المنطقة لما كفله لها بلدوين الاول من تحصينات ومداومة الصليبيين العناية بالدفاع عنها ، فضلا عما يكفله لها موقعها الفريد من حماية طبيعية ، فهى بوجه عام تقع غربى دجله وتصل جنوبا إلى الصحراء وتوجد فى شمالها جبال أرمينيا ، كما أنها تمتاز بتوسط موقعها وتسيطر على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل [٢] .

أما سكانها فكان أغلبهم من الارمن الذين شاركوا فى أحداث العصر ومالوا إلى الصليبيين وغدوا دعامة حكم بلدوين الاول عقب انفراده بأمورها عام ١٠٩٨ م وقد عمل بلدوين بسرعة على أن يضم اليها بعض القلاع ويؤمن الطرق بينها وبين بقية الحصون التابعة لها .

---

= وقتل وسبى ونهب ما وقع تحت يده وفى نفس العام أغار على مرج الرقه وقلعة جعبر على نهر الفرات وأسر ونهب أيضا واستاق المواشى ، ثم كان طمعه فى مدينة حران قبل أن تلحق به الهزيمة ويقع فى أسر المسلمين .

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ ( سنة ٤٩٦ هـ ) .

Grousset: Op. Cit .I.p. 393

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٠٠ .

[٢] Dussuad: "Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale"

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٢ .

فبدأ بالاستيلاء على سروج الواقعة إلى الجنوب الغربي منها ، وعلى قلعة ألبيرة وتحاضتها على الفرات وكذلك على سميساط وأمن الطريق الممتد بين الرها وتل باشر وراوندان على الضفة الاخرى من الفرات وأصبح بلدوين بذلك يطل على مشارف الشام وفي استطاعته الاتصال بالقوى الصليبية الرئيسية فيها [١] .

والواقع أن إمارة الرها كانت أكبر الامارات الصليبية من حيث المساحة اذ أنها امتدت من راوندان وعين تاب غربا إلى مشارف حران شرقا ومن بهسنى وكسيوم شمالا إلى منبج جنوبا ، كما أنها عدت الدرع الحامى لإمارة انطاكية الواقعة فى غربيها مثلما حمت من قبل الجيش المهاجم لانطاكية والزاحف على بلاد الشام .

لم يكد مودود يتلقى الأمر من السلطان محمد بالجهاد ضد الفرنج حتى أعد عدته للمسير إلى الرها واشترك معه فى تلك الحملة كل من سكمان القطبى أمير خلاط وميا فارقين ونجم الدين ايلغازى ابن أرتق أمير ماردين وبصحبتة جموع كثيرة من التركمان ولما تكاملت جموع المسلمين واتفقت الآراء على افتتاح الجهاد بقصد الرها ومضايقتها إلى أن يسهل الله افتتاحها بحكم حصانتها ومنعتها [٢] ( ابرايل - مايو سنة ١١١٠ ) .

وكان العداء قد أخذ يستحكم بين أميرها بلدوين دى بورج وتنكرد وبين فى انطاكية ،

ولذا لم يبد تنكرد أى اهتمام بهذا الغزو فساورت الشكوك بلدوين دى بورج وأتهم تنكرد بتحريض المسلمين ضده وتآمره معهم ، وردد المؤرخ الصليبى

---

(١) Runciman: op. cit.1.p.209, Grousset: op.cit.1.p. 393

(٢) أبن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩

Albert d'Aix هذا الاتهام ، بينما أشار المؤرخ متى الرهاوى إلى أن كونت الرها وجوسلين دى كورتناى هما اللذان قاما باستدعاء أمير الموصل لمساندتهما ضد تنكرد [١] .

ومهما كان الأمر فان ذلك كله يعطى فكرة عن مدى التباين والاختلاف وعدم الثقة بين القوى الصليبية فى ذلك الوقت مما أوجد هوة سحيقة بينهم دفعتهم إلى التراشق بالتهم فى الوقت الذى بدأت ، فيه حملة مودود الأولى على الرها .

وعندما أرسل بلدوين دى بورج تابعه جوسلين دى كرتناى إلى ملك بيت المقدس طالبا نجدة سريعة لم ينس جوسلين أن ينقل إلى الملك شكوكهما فى تنكرد ، وفى الوقت نفسه بذل تنكرد محاولة أخرى عن طريق أصدقائه لاقناع الملك بافتراء هذه الادعاءات ، ولكنه فى الواقع لم ينجح فى ذلك [٢] .

غير أن الملك لم يستطع أن ينهض لإنجاد الرها بسبب انشغاله بحصار بيروت وإشرافه على إسقاطها ، فلما فرغ من ذلك فى مايو سنة ١١١٠ جمع قواته واستصحب برتراند أمير طرابلس على رأس فرسانه ، وزحف صوب الشمال متحاشيا المرور بأنطاكية لاختصار الوقت من جهة ولانه لم يكن يثق فى نوايا تنكرد حتى ذلك الوقت من جهة أخرى [٣] وقرب سميساط انضمت اليه جموع أخرى من الارمن من البيرة ورعبان فواصل سيره على رأس هذه القوات

(١) Grousset :op.cit. 1.p p.449-50

(٢) Aldert d'Aix .p. 670 , Matthieu d'Edesse .p.91
Rumciman : op. II .p.116

(٣) Ibid: Op cit.11 .p. 116 هذا بينما اعتقد المؤرخ متى الرهاوى أن الملك عرج على أنطاكية حيث أقنع تنكرد بمصاحبته على رأس قواته .
Matthieu d'Edesse p.92
Runciman : Op. cit. 1. p.1241

الكبيرة التي بلغت نحو ١٥،٠٠٠ مقاتل حتى وصل الرها في نهـــاية يونية سنة ١١١٠.

وكانت الظروف مهيأة أمام مودود ليضرب ضربته ضد الرها قبل وصول هذه الحشود الصليبية منتهزا فرصة الخلافات الناشبة بين الامراء الصليبيين في الشمال، لكنه في الحقيقة وقف عاجزا أمام حصانة المدينة وجدية الدفاع عنها، وحينما وصلت الجيوش الصليبية بقيادة الملك بلدوين آثر مودود الارتداد إلى حران قاصدا في أغلب الظن. إطماع الصليبيين في مطاردته واستدراجهم بعيدا عن مركزهم ليتمكن من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات،[1] وحتى يتمكن أيضا من استقبال قوات دمشق تحت قيادة طغتكين الذى التحق به فعلا عند حران.

لهذه الاسباب ارتد مودود ولم يكن ارتداده كما ذهبت الرواية الصليبية بسبب خوفه وهلعه حينما رأى فرسان بيت المقدس يقتربون ترفوف أعلامهم وتتلألأ دروعهم في وهج الشمس[2] هذا فضلا عن أنه كان قد أقدم على حصار الرها مقدرا الاستفاده تماما من الجفوة التي استحكمت بين تنكرد وسهولة احراز نصر على الرها في تلك الظروف، ولكنه مالبث أن تأكد أن كلمة الصليبيين لازالت متفقة بمجرد وصول الجيوش المتحالفه لمدافعته، ولهذا أراد أن يجعل من الانسحاب فخا للجيوش الصليبية لو تجرأت وطاردته في جوف الجزيرة.

ويبدو أن بلدوين الأول فطن إلى هدف مودود من الارتداد فأحجم

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩.

(٢) Runciman: op.cit. II.p.116

كلية عن مطاردته بل أخذ يجمع قوات الإمارات الصليبية كلها ويعدها للدخول فى معركة فاصلة مع الأتراك إذا واتت الفرصة . ولذلك أرسل إلى تنكرد يستدعيه لمشاركة الصليبين هذا المشروع ، وعندئذ لم يسع تنكرد الا أن يلبى النداء فتقدم على رأس نحو ألف وخمسمائة من الفرسان وانضم الى القوات الصليبية ، فأخذ الملك يزيل أسباب الشقاق والمنافرة بين الامراء وأصلح بين تنكرد وأمير الرها ، فاتفق الفرنج كلهم وأزالوا ما بينهم من الشحناء [1] ومع ذلك لم يغامر بلدوين بالالتحام بقوات الصليبين لملاقاة مودود خوفا من أن يتسع فريسة سهلة كما حدث من قبل عند حران فى عام ١١٠٤ [2] ، ولذلك بقيت القوات الصليبية على حالها لا تجرؤ على التقدم شرقى الفرات أو توغل فى أرض الجزيرة بعيدا .

وأدى التزام جانب الحذر والجمود الذى أمست فيه القوات الصليبية فضلا عن تغلب روح العداء والبغضاء بينهم الى تفرقهم وارتدادهم ، فانسحب تنكرد بقواته لما بلغه من نشاط رضوان ضد ممتلكات انطاكية ، فرغب فى العودة سريعا للانتقام من صاحب حلب ، وفى نفس الوقت قدمت رسل إلى الملك بلدوين تخبره بازدياد نشاط الفاطميين ضد المملكة ، وعندئذ قرر الملك الانسحاب من الجزيرة ، ونصح أمير الرها باخلاء القرى والضياع المتطرفة من الرعايا المسيحيين وتوطينهم فى جهات أكثر أمنا على الضفة الاخرى لنهر الفرات نظرا لما انزله مودود بأرض الجزيرة من التخريب ، وفعلا بدأ تهجير سكان تلك

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) Grousset: Op.cit. , p. 454

الجماعات فأعمل فيهم السيف قتلا وأسرا والقوات الصليبية على الضفة الأخرى لا تستطيع نجدتهم ، وعاد مودود فى النهاية إلى حران يحمل كثيراً من المغانم والأسلاب وعدداً وافرا من الأسرى [١].

هذا وقد ذهب المؤرخ المحدث رانسيمان إلى أن جماعات الأرمن واليعاقبة هؤلاء كان أغلبهم من النساء والأطفال والرجال العزل ربما متأثراً فى ذلك برواية المؤرخ متى الرهاوى [٢] عن هذه الحادثة بينما ذهب جروسيه إلى القول بأنهم كانوا نحو خمسة آلاف رجل بالرغم من أنه أورد رواية متى الرهاوى بحذافيرها التى تتضمن ما أشار إليه رانسيمان. ولكن الدارس يستبعد أن يكون الأطفال والنساء والرجال العزل كانوا إذ ذاك هدفا حيا لهجوم مودود ، بالرغم من أنه لو حدث فعلا لما كان عملا مشينا بالدرجة التى بدت فى نغمه مؤرخى الغرب لأنه من النتائج المباشرة لأخطاء الصليبيين وحرصهم على أنفسهم ورجالهم قبل حرصهم على تلك الجماعات التى اقنعوها بإخلاء أماكنها فى الجزيرة وكان عليهم أن يقوموا بحمايتهم والدفع بهم مقدما ليعبروا النهر مع حماية مؤخرتهم من أى هجوم قد يشنه الاتراك .

وكيفما كان الأمر فقد نتج عن هذه الحركة أن أخليت أرض الجزيرة تقريبا من الأرمن والمسيحيين الشرقيين واستولى المسلمون عليها وغدت الرها وسروج وهما المركزان الوحيدان فى الجزيرة قائمان لكنهما حرما من مقومات القوة والازدهار المتمثلة فى المزارع والضياع المنتشرة حولهما ولكن الامارة لم تحرم فى الواقع

---

(١) Grousset : Op. cit. 1.p 455
Matthieu d'Edesse p ,93-4
(٢) Grousset : Oq cit. 1 p 455

من مقومات بقائها على الضفة الأخرى من النهر إذ ظلت تل باشر وبقية المدن والحصون تمثل مراكز الامداد لها ولذلك ستصمد فترة أخرى أمام هجمات المسلمين .

على كل حال إنتهت حملة مودود الاولى ضد أمارة الرها ، وأن لم تسفر عن نتائج حاسمة بالنسبة لوضع هذه الامارة ، الا أنها أدت إلى نتيجتين لا بأس بهما : أولا إخلاء الجزيرة من الارمن كما وضح وثانيا : التأكد من إمكان الاستفادة من قوات دمشق ومشاركتها في حركة الجهاد الديني في هذه المرحلة . حقيقة أن هذا التعاون أسفر عن استحكام المودة بين مودود وبين طغتكين(١) وهي العلاقة التي لم تحمد عاقبتها فيما بعد على حد تعبير مؤرخي العصر ، ولكن مما لاشك فيه أن حركة المقاومة الاسلاميه كانت بحاجة إلى كل جهد في المنطقة .

٢ - حملة مودود الثانيه على الرها سنة ١١١١م وأثرها :—

رأينا كيف عبر المسلمون عن إستيائهم من تأخر النجدات إلى بلاد الشام للوقوف في وجه الفرنج وجهادهم وذلك في حركة أهل حلب إلى بغداد التي إستثاروا بها حماسه الخلافة والسلطة وأحدثوا شيئا من الاهتمام بضرورة إستئناف الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام.

وكذلك لم تفد حملة مودود الأولى أهل الشام في شيء لاقتصار نشاط مودود خلالها على أرض الجزيرة دون عبور الفرات والانحدار إلى بلاد الشام . بل أن نتائجها كانت سيئة بالنسبة لحلب بالذات كما سبقت الاشارة .

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٠

ولم تكد تنتهى نوبة الاستنفار على الجهاد حتى أمر السلطان محمد جيوشه بالتحرك تحت قيادة مودود أيضاً لجهاد الصليبيين فاجتمع مع مودود سكمان القطبى أمير خلاط وتبريز وبعض ديار بكر والاميران ( ايلبكى ) وزنكى إبنا برسق وكانا يحكمان همذان وخوزستان . والامير أحديل أمير مراغه فى آذربيجان كذلك كوتبه الامير « أبو الهيجا » صاحب إربل الكردى ، واجتمع هؤلاء الامراء ماعدا الامير إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين الذى بعث بابنه إياز نيابة عنه[1].

وكان الامير مودود أول من تحرك بجيشه حيث نزل على أطراف أمارة الرها، ففتح بعض حصون الارمن فى الجزيرة وديار ربيعة مثل تل قراد من نواحى شبختان[2] ثم وافاه الامير أحديل الكردى ، ثم لحقهم الامير سكمان القطبى من بلاد أرمينية وديار بكر ثم لحق بهم بقية الامراء قرب سنجار قبل أن يتجهوا لمهاجمة الرها ما عدا الامير برسق بن برسق الذى لحق بهم بعد ذلك .

. وكان بلدوين دى بورج قد أعد عدته للدفاع عن الرها منذ العام السابق حينما تأكد أنها غدت هدفا لنشاط مودود فشحن بها كميات وافرة من المؤن والسلاح ، ودعم حاميتها بالرجال والعتاد ، فلما حاصرها المسلمون وجدوا منها أمرا محكما قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التى تركت عندهم وبكثرة المقاتلين منهم . ولم يجدوا فيها مطمعا ،[3] لذا قرر المسلمون رفع الحصار عنها والانصراف

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٢ (سنة ٥٠٥هـ)
(٢) ابن العديم : زبده الحلب ج ٢ ص ١٥٨-١٥٩ ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٧١
(٣) ابن الاثير : نفس المرجع والصفحة

إلى تل باشر على الناحية الاخرى من الفرات .

ويذكر المؤرخ ابن القلانسى أن أمير شيزر سلطان بن على بن منقذ استغاث إذ ذاك بمودود نظرا لما تعرضت له إمارته من تهديد على يد تنكرد الذى شرع فى بناء تل ابن معشر قبالة شيزر وأخذ يهدد الامارة محاولا إسقاطها ، وكان هذا النداء بالاضافة إلى ما لم تلقه القوات الاسلاميه عند الرها من توفيق قد اقنع مودود برفع الحصار عن الرها ، والاتجاه إلى تل باشر ، فعبر الفرات إليها ، ودمر فى طريقه كل مامر به من ضياع ومزارع الصليبيين [1] وعندما علم تنكرد بنزول عساكر السلطان على تل باشر أوقف عملياته ضد شيزر وانسحب بقواته إلى أنطاكية [2] .

حاصر المسلمون تل باشر مدة خمسة وأربعين يوما [3] وربما طالت هذه المدة بسبب صمود جوسلين دى كرتناى ، وبسبب انتظار القوات الاسلامية الامير برسق بن برسق الذى تسبب مرضه فى تأخره عنهم قبل أن يزحفوا إلى بلاد الشام . وتذكر النصوص أن المسلمين كانوا قد أشرفوا على إسقاط تل باشر «وقاتل المطوعة ... هذا الحصن ونقبوه» ، غير أن جوسلين استطاع أن يستميل أمير مراغه أحمد يل الكردى «وكان أكثر العسكر معه» وحمل اليه مالا ولاطفه بهدايا وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه إلى ذلك[4] .

وكان رضوان قد عانى كثيرا من جراء إغارات تنكرد فكتب إلى مودود

---

(١) Grousset: Op. cit. I. p. 463

(٢) ابن العديم : زبده الحلب ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) ابن الأثير . نفس المرجع والصفحه

(٤) ابن العديم ؛ زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩ ، ابن القلانسى: ذيل ص ١٧٥

« أنني قد تلفت وأريد الخروج من حلب فبادروا إلى الرحيل » . وعندئذ انتهز أحمديل الكردى الفرصة واقنع مودود والأمراء بضرورة الانصراف عن تل باشر والاسراع إلى نجدة حلب فلما ابتعدت القوات الاسلاميه عن تل باشر واطمئن جوسلين خرج بفرسانة ودهم مؤخرة الجيش الاسلامى فقتل نحو الف من الأتراك وعاد محملا بالغنائم والاسلاب الى قلعتة [1] .

ولم تكد الجيوش الاسلامية تقترب من حلب حتى سارع رضوان باغلاق أبواب المدينة فى وجههم ولم يجتمع بهم ، معتقدا أن هذة الجيوش التركيه أخطر فى الواقع على إمارته من الصليبيين أنفسهم . والواقع أنه كان يخشى نوايا السلطان السلجوقى نظرا لما اظهره من مشايعة الباطنية وتقريبهم فضلا عن أنه رأى تلك الحشود الكبيرة تضم جماعة من الامراء ذوي الاغراض والمطامع الشخصية، ولذا لجأ رضوان إلى الباطنية والفرنج معا ، فهادن تنكرد وحالفه ضد الجيوش الاسلامية المتحالفة ، فلما ثار أهل حلب عليه خشى أن يتواطأوا مع مودود ويفتحو له أبواب المدينة لذلك أخذ بعض أعيانهم وعبيدهم وحبسهم بالقلعة كرهائن وفى نفس الوقت استخدم الباطنية وفريقا من الجند والطائفين لحفظ سور المدينة ومنع أهل حلب من الصعود إليه . كما قام ببعض العمليات الاستفزازية ضد مودود اذ « بث الحرامية تخطف من ينفرد من العساكر » [2] ، وهكذا ظلت أبواب حلب مغلقة فى وجه جيوش السلطان سبع عشرة ليلة

لم تجد الجيوش الاسلامية بدا من الانصراف عن حلب والتقدم إلى جهة

---

(١) d'Aix. p. 681
Crousset: Op. cit. I p 464

(٢) ابن العديم : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٠ .

معرة النعمان للعمل على استرداد ما استولى عليه تنكرد مؤخرا من أمـــلاك المسلمين ، ولعل ذلك دليل على أن الجيوش التى قدمت بناء على استغاثه أهل حلب قد حاولت أن تفعل شيئا من أجلهم لانهم "ظهروا من الحماس ما لم يظهره ملكهم رضوان " وكان طغتكين قد التقى بالجيوش الاسلاميه بظاهر حلب ، فتحركت الجيوش كلها إلى حوض نهر العاصى [1] .

ويبدو أن رضوانا لم يطمئن إلى رحيل هذه الجيوش وخشى أن تعاود الكرة من جديد ضد إمارته بعد موقفه منهم ، لذلك أخذ يعمل على الايقاع بين مقدمى هذه الجيوش ، ويروى ابن العديم أن رضوانا راسل بعض الأمراء لبث الفتنة بينهم وبين طغتكين بالذات « حتى أفسد ما بينه وبينهم .. فظهـــر لاتابك منهم الوحشه [2] » لذا خاف أن تؤخذ منه دمشق« فشرع فى مهادنة الفرنج سرا» [3] ، وقربته هذه المخاوف كثيرا من مودود لما رآه فيه من المودة والحكمة « فصار فى جملة مودود صاحب الموصل " وثبت له مودود ووفى له » .

على أى حال حاول طغتكين جهده أن يستفيد من هذه الجموع التركية فيفرغ حماسهم فى حرب ضد الصليبيين لاسترداد طرابلس التى خطط كما يبـــدو لضمها لامارته إذا قدر لها السقوط فى أيديهم ولكن الأمراء المسلمين وجدوا أنه من المخاطرة الابتعاد حتى طرابلس على ساحل البحر فى سبيل مصلحة ذاتية لطغتكين [4] ، ولعل طغتكين ذكرهم بأن هذه الجيوش كانت منفذة أصلا لنجدة طرابلس على أثر استغاثة ابن عمار ، ولكن لم يحل كل ذلك دون تفرق أغلب الامراء والجند ، فقد كان سكمان القطبى قد انفصل عنهم وهو مريض مؤثرا العودة إلى إمارته فقضى نحبه فى الطريق قرب بالس وعاد رجالة يحملون جثمانه إلى بلاده ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٣ ( سنة ٥٠٥ هـ ).

(٤) Grousset: OP. cit. 1. p. 467

كما رغب الأمير أحديل الكردى الاسراع بالعودة ليلتمس من السلطان اقطاعه ما كان لسكمان القطبى من أملاك كما أن الأمير برسق بن برسق اشتد به المرض إذ كان به نقرس فهو « يحمل فى المحفة ولا يتمكن من قول ولا فعل » . وهكذا تفرق الأمراء والجند ولم يبق مع مودود سوى الأمير إياز التركمانى وطغتكين فرحلوا ناحية شيزر .

وفى الوقت الذى فارق فيه جل الأمراء المسلمين مودودا وعادوا إلى أوطانهم ، كان الصليبيون قد حشدوا جموعهم ، واجتمعت كلمتهم بعد التباين والاختلاف ، فقد انسحب تنكرد إلى أفامية وأرسل يستنجد بالملك بلدوين ، فجمع هذا كل فرسان الصليبيين فى إمارته وسار ومعه البطرق جبلين ومعظم أفصال المملكة كأستاش جارنيير صاحب صيدا ووالتر صاحب حبرون ، ولحق به فى الطريق برتراند أمير طرابلس كما انحدر بلدوين دى بورج أمير الرها من الشمال ومعه فصليه جوسلين صاحب تل باشر وباجون صاحب سروج كما ساهم كوغ باسيل بامدادات ونجدات أرمنية [1] .

ونزلت هذه الجيوش الصليبية التى بلغت نحو ١٦ ألف مقاتل من الفرسان والرجالة [2] على الصفة الشرقيه لنهر العاصى قرب فامية ( أفامية ) [3] . وهكذا عمل نشاط المسلمين على اجتماع كلمة الصليبيين بعد اختلافهم وتنازعهم فى هذه المرة أيضا . وعندما أحس سلطان بن منقذ أمير شيزر بقرب مودود وطغتكين خرج إلى لقائهما وحثهما على منازلة الفرنج فرحلوا جميعا وعبروا النهر ونزلوا فى قبلى شيزر ، وبالغ إبن منقذ وجماعته فى الخدمة والمواصلة بالميرة . ووضع

---

(١) Grousset: op cit. 1. p. 266, 468 - 9
Runciman: op. cit 11.p. 122

(٢) Grousset: op. cit. 1. p. 266, 468

(٣) كورة من كور حمص ( ياقوت معجم ج ١ ص ٢٢٣ ) .

تحت تصرفهم قوة من العرب [١] .

أصبح المسلمون والصليبيون وجها لوجه عدة أيام ، وتشير أغلب النصوص إلى أن موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين فقد كانت «خيل المسلمين مثل خيل الافرنج إلا أن راجلهم ( المسلمين ) أكثر » [٢] . لذلك اعتصم الفرنج بتل مجاور ورفضوا الدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين « فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزوهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافا » [٣] .

وطيلة أسبوعين ضجر الصليبيون من هذا الوضع نظرا لدأب الفرسان الاتراك والعرب على الطواف حولهم بسرعتهم وخفتهم المعهودة ومنعهم من ورد مياه نهر العاص معرضينهم للعطش والهلاك فضلا عن أن بعض فرسان المسلمين عبروا نهر العاص وقطعوا الامدادات والمؤن عن المعسكر الصليبي مما زاد فى ضيق الصليبيين إذ ذاك [٤] .

وما لبث الاتراك أن شنوا هجوما على المعسكر الصليبي فى ٢٩ سبتمبر سنة ١١١١ ( ربيع الاول سنة ٥٠٥ هـ ) فظفروا ببعض المغانم والاسلاب وعدة من ضياع الصليبيين وأثقالهم ووقع الاضطراب والفوضى فى فرق الصليبيين فآثرت اتخاذ مواقعها الاولى فوق التل فى حين استطاع الاتراك الافلات بما استولوا عليه من المغانم [٥] .

---

(١) Grousset: 0p. cit. 11. 469.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٣ ( سنة ٥٠٥ هـ ) .

(٤) Grousset: 0p. cit. 1. p. 267. 469

وابن العديم : زبده الحلب ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٥) Albert d'Aix, p. 684, Grousset: op. cit. 2. p.470

واشتد خوف الفرنج من الأتراك ، فأقاموا ثلاثة أيام لا يظهر أحد منهم ولا يصل اليهم شخص ، ثم انتهزوا فرصة خروج المسلمين لصلاة الجمعة فيجامع شيزر فرحلوا قاصدين أفاميه ولكنهم تجاوزوها ، ولمـا تنبه المسلمون لذلك تبعوهم ، وتخطفوا أطرافهم ومن ظفروا به ،[١]

ورغم هذا التفوق الذى أمسى فيه المسلمون الا أنه يبدو أن مودودا لم يكن رغب فى حرب فاصلة مع الصليبين فى ذلك الوقت لاحساسه بالفراغ الناجم عن رحيل بعض الامراء ومفارقتهم اياه ولشعوره دون شك باتحاد كلمة الفرنج مره ثانية لمواجهة تحدى الجيوش الاسلامية فضلا عن انه لم يكن رغب فى قضاء الشتاء بعيدا عن إمارته بالموصل[٢] ولذلك فضل العودة الى امارته وأرجأ مشروع الجهاد فى بلاد الشام الى نوبة أخرى .

وقد أحدث قدوم مودود على رأس قواته الى بلاد الشام أثرا كبيرا فى فكرة الجهاد الدينى ذاتها كما لاحظ ذلك بعض المؤرخين المحدثين ،[٣] لما ترتب على ذلك من توجيه نظر مودود كرائد من رواد الحرب المقدسه الى ضرورة جهاد صليبى الشام وقطع الصلة بينهم وبين صليبى الرها حتى يمكن احراز نتائج أفضل ضدهم ، ولعل ذلك مما قوى أواصر الروابط بين مودود وطغتكين الذى كان لا شك متعلقا بفكرة الجهاد الى حد ما وله جانب من الفضل فى جذب جيوش السلطان الى جهة الشام ومحاولة مهاجمة طرابلس للاستيلاء عليها ربما متطلعا بذلك

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ - ١٧٨

(٢) Runciman: Op. cit. II. p.p. 122 — 3

(٣) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٧

الى تملكها ليصبح سيد أواسط بلاد الشام ويشرف منها على البحر مؤملا قطع الصلة بين أنطاكية شمالا والمملكة الصليبية جنوبا .

الحقيقة أن المتصفح لتاريخ الاتابك طغتكين يكاد يحار فى فهم شخصية هذا الرجل فبالرغم من تعلقة بفكرة الجهاد الدينى الا أنه أظهر فى غير موضع حرصه الدائب على بقاء الأوضاع كما هى ببلاد الشام (١) ، كما انه شرع احيانا فى مهادنة الفرنج والتحالف معهم سرا وعلنا مما يتنافى مع فكرة الجهاد ذاتها ، حتى لقد غدت علاقة الود بينه وبين مودود علاقة غير محمودة العواقب كما سيتضح . ولكن كيفما كان أمر هذا الرجل فالشىء الذى اوضحته الأحداث المشار اليها حتى الآن أن له جانبا من الفضل فى توجيه الجهاد المقدس ناحية الشام بما أظهره من حرص على مصاحبة جيوش السلطان فى الحملة الأولى والثانية ومشاركته الفعلية فى تلك الأحداث .

ولعله لايغيب عن الذهن أن توغل جيوش السلطان السلجوقى فى أراضى الشام ووصولها الى شيزر فى حوض نهر العاصى لحرب الفرنج يعد أمرا جديدا منذ فشل كربوغا عند أنطاكية قبل ذلك بنحو ثلاثة عشر عاما ختمت فيها سياسة السلاجقة بخاتم الجمود فيما يختص بجهاد الصليبيين فى هذه البلاد ، ولا شك أن ذلك كان استئنافا جديدا لفكرة مطموسه فى جعبة السلاجقة قدر لها أن تطفو من جديد وتحتل مكانتها البارزه فى سياستهم لان بلاد الشام شهدت سلسلة من الحملات اللاحقة حرص فيها السلطان محمد على اتمام هذا العمل ولم يأل جهدا فى متابعة الحرب المقدسة ضد الفرنج .

---

(١) Grouset: Op. cit. 1.p. 466

٣ ـ حملة مودود الثالثة ضد الصليبيين فى بلاد الشام سنة ١١١٣ :

على أن اتجاه مودود نحو بلاد الشام لجهاد الفرنج لم يصرفه كلية عن العمل ضد إمارة الرها ذاتها فى الصيف التالى (سنة ١١١٢ م) قام باغارة مفاجئة على ضياع وممتلكات إمارة الرها فى الوقت الذى انصرف فيه طغتكين الى محاولة الصلح مع رضوان تجنبا لدسائسه ومؤامراته واستخدامه الباطنية فى عمليات الاغتيال[1] مما حال فى أغلب الظن دون ترتيب واعداد هذه الحملة وتحديد هدفها، فاقتصرت على إغارة كبيرة على ممتلكات الصليبيين فى الجزيرة ونهب وسلب ما قدرت عليه دون أن تستهدف حصار الرها ذاتها أو تل باشر أو سروج أكبر الحصون فيها .

وعندما زاد نشاط بلدوين ملك بيت المقدس ضد إمارة دمشق ومهاجمته أملاكها وتشديده الحصار على مدينة صور ، تصدى له طغتكين ودافعه وأرسل فى نفس الوقت يستنجد بحليفه مودود لوضع حد لنشاط المملكة الصليبية والاستفادة من حماس مودود فى جهاد الفرنج .

ولم يكد مودود يتلقى هذا الطلب حتى بادر بالانحدار ناحية الشام ويصحبته بعض أمراء النواحى ومنهم تميرك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازى التركمانى وعبر الفرات فى منتصف مايو سنة ١١١٣ ( أواخر ذى القعدة سنة ٥٠٦ هـ) ولقيه طغتكين وجنوده عند سلميه الى الجنوب الشرقى من حماة حيث تجمعت الجيوش الاسلامية ومنها أخذت تصعد ثانية مع نهر العاصى متوجهة نحو الجليل بحذاء شاطىء بحيرة طبريه . [2]

ثم القت الحصار على مدينة طبرية ذاتها غربى البحيرة وكانت إذ ذاك مدينة حصينة وزاد من منعتها قيام فرسان الجليل بالدفاع عنها [3] وعندما أظهرت هذه

(1) Runciman. op. cit. 11. p. 123.
(2) Grousset: op. cit. 1. p. 269.
(3) Ibid: op cit. 1. p. 269.

المدينة مقاومة شديدة آثر مودود ومن معه الانصراف عنها الى تدمير الممتلكات الصليبية الأخرى بين عكا وبيت المقدس فأنزل الخراب بهذه الجهات وبث الرعب فى قلوب الفرنج .

وكان بلدوين دى بورج قد وقف على تحركات مودود منذ عبوره الفرات لذلك بادر بإخبار ملك بيت المقدس الذى استنجد بأميرى أنطاكية وطرابلس وحشد جنده وتقدم للقاء القوات الاسلامية . وعندما أحس مودود وطغتكين بقرب وصول الملك احتميا بسرعة بالمنطقة الواقعة جنوبى بحيرة طبرية وهى التى تعرف بالأقحوانه وهى شبه جزيرة يضمها نهر الاردن مع نهر اليرموك [١] ، مستفيدين لاشك من حصـــانة هذه المنطقة، بل أنهما استطاعا أن يرغما بلدوين الاول فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ على أن يبدأ هما بالهجوم قبــــل أن تصل اليه النجدات من الامارات الأخرى ونصبا له فى نفس الوقت كمينا تعرض بسببه لهزيمة ساحقة عند جسر الصنبرة الى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية . [٢]

ويعلل المؤرخ المحدث جروسيه مبادرة بلدوين بمهاجمة المسلمين وعـــدم انتظار النجدات بأن الخراب والدمار الذى أنزله مودود بالقرى والضياع الصليبية قد أهاج بلدوين وأثاره وجعله يتهور فيما أقدم عليه غير معتبر بما حدث له عام ١١٠٢ م [٣] . ولكن من حسن حظه أنه نجا هنا أيضا من الأسر كما حدث فى المرة السابقة ولكن هزيمته كانت قاسية هذه المرة ، فقد قتل من جيشه نحو ألف ومائتين من المشاه وبعض الفرسان فضلا عن غرق منهم فى نهر الاردن وبحيرة

---

(1) Ibid: op. cit. I. p. 270.

(2) Smail : Crusading warfare. p. 68

(3) Grousset. op. cit. I. p. 270

طبريه [1] فى حين لم ينج الملك نفسه ومعه البطرق الابصموبة كبيره بعد أن قذف بلوائه الخاص حتى لا يعرف بل أشارت بعض الروايات الى أنه أسر فعلا ولكن آسره لم يتنبه الى شخصيته فأطلقه بعد حصوله على الفدية منه واستولى الاتراك فى ذلك اليوم على مغانم وأسلاب كثيرة . [2]

وهكذا غدا بلدوين طليقا وأصبحت لديه فرصة لاستقبال نجدات امارتى انطاكية وطرابلس اذ ما لبث أن لحق به روجر الانطاكى ومعه اربعمائه من الفرسان وستمائه من المشاه وكذلك وصل بونز أمير طرابلس فى قواته وأصبح بلدوين اكثر استعدادا لمواجهة السلاجقة .

ولكن يبدو أن احساسه بآثار الهزيمة التى لحقت به والخسائر التى منى بها بالاضافة الى التفوق العددى للقوات الاسلامية قد ألزمه جانب الحذر والحيطه وعدم المغامرة فالتجأ بقواته الى بعض المرتفعات الواقعة الى الغرب من بحيرة طبرية ، فأقاموا ستا وعشرين يوما والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ، [3] ومنعوا الميرة والعلوفة عنهم وقد احدقوا بهم كالنطاق ، [4] وحاول المسلمون مرارا استدراجهم للدخول فى معركة فاصلة معهم دون جدوى لذا تركت يد السلاجقة مرة أخرى حرة لانزال الخراب والدمار بضياع الصليبيين وممتلكاتهم حتى بيسان ونابلس [5] دون أن يحاول بلدوين وقواته التصدى لهم .

ومما زاد فى متاعب بلدوين واضطراب الصليبيين ما قامت به حامية عسقلان المصرية من الهجوم على مملكة بيت المقدس فى هذه الأثناء فتقدم المصريون نحو المدينة ودمروا فى طريقهم مزارع القمح وأحرقوها وقتلوا وسبوا من صادفوه

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٦ (سنه ٥٠٧هـ)

(٢) Conder: The Latin kingdom. p — 88

(٣) ابن الاثير . نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٤) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦

(٥) Conder . op cit. p. 88

من الفرنج حتى وصلوا الى أسوار بيت المقدس ذاتها ولكنهم لم يستطيعوا فى الحقيقة المثابرة أمام مقاومتها، وخوفهم من احتمال عودة بلدوين بقواته ولقلة عددهم وقصورهم عن القاء حصار حول المدينة وكذلك لما أبدته حامية المدينة من البسالة فى الدفاع عنها وحماية أسوارها [1] لهذه الأسباب فضـــل المصريون العودة الى عسقلان فى نفس الليلة مما قلل فى النهاية من أثر هذا الهجوم ومن فرصة مودود فى الاستفادة منه .

ولم يطل التفوق الاسلامى على الفرنج فى هذه النوبة أيضا اذ وصلت بعد ذلك الى عكا جموع كبيرة من الحجاج الغربيين بلغوا نحو ستة عشر ألفا مما غير ميزان القوى فى صالح الصليبيين سريعا بعد أن كان مودود قد أذن لجنـــوده بالتفرق والاستراحه والاجتماع فى ضيافة طغتكين.

وواضح من هذه الأحداث أن طغتكين كان حريصا على مشاركة جيوش السلطان جهادها ضد الفرنج سواء صفت نيته فى ذلك أم شابها شىء من الأغراض الاخرى لكنه مع هذا حاول أن يجعل من الارتباط بهذه الحركة والضرب فيها بسهم خطا بارزا لسياسة فى دمشق فى هذا الدور المتقدم من أدوار حكمه صلة لما سبق أن أبداه من مشاركة الفاطميين جهادهم فى محاولتهم الأخيرة ضد المملكه الصليبية فى عام ١١٠٥م ويستطيع المتتبع لتاريخ نشاط هذا الرجل أن يقف هنا ليضع علامة كبيرة تفصل هذا الدور عن بقية مراحل حكمه، ليس لأن الأدوار الأخرى حفلت بالتقلب بين الولاء لفكرة الجهاد وبين نبذها فحسب بل لان هذا الدور وما ميزه من خطوط ارتبط بمكانة طغتكين نفسه بدمشق بعد أن احل نفسه محل حكامها السلاجقة من بيت تاج الدولة تتش .

---

(1) Conder: The Latin Kingdom. p. 88.

وعلى كل حال ما يعنينا من ذلك كله أن طغتكين لم يبخل على حركة الجهاد على عهد مودود بجهد ولم يقف فى نفس الجانب الذى وقف فيه رضوان مالك حلب من هذه الحركة ومن دعاتها المتحمسين القادمين من خلف حدود الشام.

كان هذا هو دور طغتكين فماذا كان موقف رضوان من هذه الحركة التى قادها مودود ؟ لقد سبقت الاشارة الى أنه أغلق أبواب حلب فى وجه جيوش السلطان وحاول أن يبث الفتنة بين الامراء وبين طغتكين ، ومع هذا فقد حرص طغتكين بعد ذلك على مصالحته وزاره بحلب وقبل أن تقام له الخطبة بدمشق [1] ، وربما بغرض كسب معونته ضد الفرنج نظرا لازدياد نشاط بلدوين الأول ضد أعمال دمشق وأملاكها فى حوران واغاراته المتكررة على السواد [2]، فضلا عما سبقت الاشارة اليه من محاولة تجنب معاداته بسبب محالفته الباطنية واستخدامهم فى مؤامراته ودسائسه .

وكان متوقعا أن يبادر رضوان اذن بعد أن زالت الخصومة بينه وبين دمشق الى محاولة المشاركة فى الجهاد مع طغتكين ومودود ، ولكنه فى الحقيقة لم يفعل، وكل ما ساهم به فى هذه الحملة الاخيرة مائة فارس [3] بعد أن طالبه مودود مرارا بالمساهمة فى الجهاد . ويبدو أنه لم يكن حريصا على شىء قدر حرصه على إقامة الخطبة له بدمشق ، ولذا لم يحاول أن يتنصل كلية من المساهمة فى الحملة ، فأرسل هذه القوة الرمزية ليظل الباب مفتوحا أمامه لمزيد من الاتصال

---

(١) ابن العديم : زبده الحلب ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٤
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقه ٣١ - ٣١١ ( مخطوط )
(٣) ابن القلانسى : ذيل ص١٨٦

بدمشق ولكن طغتكين غضب لذلك ، وتقدم بابطال الدعوة والسكة بأسم رضوان من دمشق فى أول ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة» [1] وهكذا اثبت رضوان للمرة الأخيرة أنه لم يرتفع بعد الى مستوى الجهـــاد الدينى والحرب المقدسة والصالح العام وظل فى بوتقته الضيقة ومحيط أفقه الصغير حتى ذلك الوقت.

هذا وقد وصفه المؤرخون بالبخل الشنيع وحبه للمـــال بشكل غير عادى «حتى كان أمراؤه وكتابه ينبذونه بأبى حبه» [2] كما وصفوه بأنه كان «غير محمود السيرة ليس فى قلبه رحمة ولا شفقة على المسلمين ، وأنه «مرض أمراضا مزمنه ورأى العبر فى نفسه» [3] .

والواقع أنه لو أتيح لرضوان أن يتعاون مع مودود بالمساهمة الجدية فى الحملة السابقة بالقيام بالاغارة على أنطاكية أو طرابلس وهما خلوا من جيوشهما إذن لاعطى مودودا فرصة مواتية لتحقيق مزيد من الانتصار على الصليبيين بهذه البلاد ، ولكنه لم يضع شيئا من هذا فى سياسته وقبع فى امارته ماضيا فى غيه «وكانت الفرنج تغاور وتسبى من باب حلب ولا يخرج اليهم» وأخيرا وفى نفس العام ١١٠٣ (سنة ٥٠٧ ) توفى بحلب غير مأسوف عيه .

**مقتل مودود .**

كان مودود قد سمح لقواته بالتفرق للاستراحه والعودة فى الربيع لمعاودة الحرب وانصرف هو وبعض خواصه الى دمشق فى ضيافة طغتكين وذلك فى

---

(١) ابن العديم . زبدة الحلب ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) نفس المرجع (منتخبات فى المجموعة III. p. 602 )

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٣١٦-٣١٧

أوائل سبتمبر سنة ١١١٣ (منتصف ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ) حيث أقام بخيمه بمرج باب الحديد بدمشق[1] وفى الجمعة الأخيرة من الشهر التالى (ربيع الآخر) خرج الى الجامع لتأدية الصلاة فلما خرج إلى صحن الجامع ويده فى يد طغتكين «وثب عليه باطنى فضربه فجرحه أربع جراحات»[2] فأسرع حرس طغتكين الى الباطنى فقتلوه، وقطع رأسه ليعرف شخصه فما عرف وأحرقت له نار فألقى فيها وحمل مودودا إلى دار طغتكين وكان صائما واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال لا لقيت الله إلا صائما، ولم تمض ساعات حتى جاز الدرب ومضى شهيدا محتسبا

والحقيقة أن مقتل مودود على هذه الصورة جاء إنكاسة كبيرة لحركة الجهاد الدينى التى مابرح يرفع لواءها منذ توليه أمارة الموصل وكان نصراً جديداً للصليبيين الذين أسرعوا بالتعبير عن ذلك فى كتاب أرسلوه إلى طغتكين فى دمشق أشار إليه ابن الأثير قالوا فيه «أن أمة قتلت عميدها يوم عيدها فى بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها» ورغم الشك الذى يكتنف قصة هذا الكتاب إلا أنه عبر تعبيراً دقيقا عن حالة المسلمين فى ذلك الوقت كما أن فيه جانبا من الإتهام لطغتكين يكاد يطل من بين السطور.

ولاشك فى أن إغتيال مودود بدمشق قد أثار قضية على جانب كبير من الأهمية وهى الشك فى تآمر طغتكين على ضيفه وتحريض الباطنى على قتله، وقد اتهم ابن الأثير صراحة طغتكين بالتآمر على مودود وقتله معللا ذلك بتخوفه منه وخشيته على إمارته من أطماعه بينما دافع بعض المؤرخين عن طغتكين ومنهم سبط

---

(١) ابن القلانسى : نفس المرجع ص ١٨٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦١ (سنة ٥٠٧ هـ)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ص ٢٦١ (سنة ٥٠٧ هـ)

ابن الجوزى إذ يقول « وذكر بعضهم ان أتابك خاف منه فوضع عليه من قتله وليس بصحيح فإنه كان أحب الناس له وحزن عليه حزنا عظيما وشق ثوبه عليه وجلس فى عزائه سبعة أيام وتصدق بمال جزيل »[1] ولعل هذا مما يضع الباحث فى متاهة من التكهنات ويجعله يتروى قبل أن يفرغ بكل ما لديه من الأدلة فى غير صالح هذا الاتابك .

اذ يبدو أن بعض مؤرخى العصر خدعهم ما تظاهر به طغتكين من الفزع والأسى على مودود إكمالا للدور الذى أراد تمثيله ليوهم الناس براءته من دم هذا المجاهد الكبير ونجح ابن القلانسى بالذات فى تصوير مظاهر أسى طغتكين بقوله « فقلق أتابك لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه »[2] . وأخذ بعض المؤرخين اللاحقين هذه الانطباعات عن ابن القلانسى المعروف بشىء من الميل لطغتكين وأبنائه وحفدته الذين عاصرهم وأظهر شيئا ليس تافها من الميل اليهم . وحذف كل ما يشينهم من مصنفه المشهور . ومن الدليل على عدم حيدة ابن القلانسى فى هذه القضية بالذات حرصه على ذكر بعض الجوانب السيئة فى شخصية مودود ذهب إلى أنها بدت خلال الفترة الأولى من حكمه للموصل تمثلت فى جوره وعنته وظلمه للرعية قبل أن ينبذ هذه الأساليب ويثوب إلى الصواب[3] وهذا الاتجاه لانجد له ما يسنده فى بقية المراجع . ولعله أراد بذلك تخفيف الصدمة الناجمة عن مقتل مودود وما أثير حولها من شكوك فى تآمر طغتكين عليه .

هذا ولعل عدم الثقة فى نوايا طغتكين لها ما يبررها إذ كانت موضع ملاحظة

---

(١) ابن سبط الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٣٢٢ (مخطوط)

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٨٧.

(٣) نفس المرجع ص١٨٨

بعض أمراء الشام حتى قبل هذه الحادثة . إذ رفض ابن عمار فى عام ١١٠٨م أن يستضيفه طغتكين وهو فى طريقه إلى بغداد محملا بالهدايا الثمينة والأثقال الفاخرة وأصر على أن ينزل فى الحدائق خارج دمشق ضاربا عرض الحائط بإغراءات طغتكين وولائمه داخل المدينة[١].

ومهما يكن من أمر فأصابع الإتهام تشير فعلا إلى طغتكين فى هذه القضية والأدلة تكاد تدمغه وأول هذه الأدلة ما سبقت الإشارة اليه من طموح هذا الأتابك وعمله الدائب على حماية سلطته ونفوذه ورغبته فى ألا يشاركه أحد فيها دون النظر إلى الصالح العام حتى لو أسرف فى شكوكه .وثانى هذه الأدلة ما ساقه أحد مؤرخينا المحدثين من أن وجود مودود بدمشق ربما أثار مخاوف طغتكين فخشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد الدينى هو رغبة سلطان السلاجقة فى بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين ، فأقدم على فعلته . بل أن تعجل طغتكين فى قطع رقبة القاتل وأحراق جثته ليس إلا دليلا على رغبته فى طمس معالم الجريمة والتخلص من أدلتها[٢]

والواقع أن الامر لا يحتمل غير هذا ، إذ ليس من المعقول أن يمضى مودوداً بدمشق طيلة الشتاء دون أن يثير كوامن الشك والخوف فى نفس طغتكين مهما أبدى هذا من كرم الضيافة وحسن المصاحبه . فالمعروف أن طغتكين كان يتشبث بالإمارة إلى حد غير معقول ، ولم يكن على إستعداد أن يدع قائداً طموحا من من قواد السلطان السلجوقى يراقبه طيلة هذه الشهور ويقف عـــلى خبايا حكمه

---

(١) Grousset : Op. cit . 1.p p.348-9

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ـ ص ٣٧٣

ونوازعه توطئه لسلبه الامارة كما أعتقد .

أما القول بأن الباطنية خافوا مودودا فقتلوه فليس ثمة ما يؤيده وخاصة أن حملات مودود على بلاد الشام لم تستهدف تجمعات هذه الفئة ولم تتعرض لهم بسوء كما أن مودودا لم يقع فى عداء معهم- فيما نعلم بما يوجد هذه الهوة ويدفعهم للتخلص منه على هذا النحو .

وأخيرا نصل إلى الدليل الذى يدمغ طغتكين ويؤكد تآمره وهو مسارعته إلى محالفة الفرنج وتقربه منهم. فبينما سعى من قبل إلى جذب جيوش السلطان إلى الشام لمحاربتهم كان أول عمل قام به بعد إغتيال مودود هو لجوؤه إلى الصليبيين ببيت المقدس وتحالفهم معهم[1] وبئس الخاتمة التى ختم بها طغتكين هذه الصفحة من حكمه حتى لو إفترضنا براءته من دم مودود .

وعلى كل حال كان مقتل مودود خسارة كبيرة لقضية الجهاد الدينى ذاتها التى تعلق بها كثيرا وجعل منها إداة لجمع المسلمين فى العراق والشام على هدف واحد لأول مرة منذ فشل المقاومة الاولى أثناء الزحف وكاد يحقق فيها جانبا من النصر بتحفزه لانزال الضربة القاضية بالفرنج عند وجود أول فرصة مواتية ، ولكن لم يقدر له ذلك ، وثبت أن علاقته بطغتكين كانت غير محمودة العواقب كما لاحظ ذلك المؤرخون المعاصرون.

(١) Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem. p. 88

## د ـ البرسقى يخلف مودود فى الجهاد ضد الصليبيين

لم يأل السلطان محمد بن ملكشاه جهداً فى متابعة خطة الجهاد ضد الصليبيين فلم يكد يعلم بنبأ مصرع مودود فى دمشق حتى عين أحد رجاله ويدعى آقسنقر البرسقى فى إمارة الموصل وأمره باستئناف الجهاد ضد الصليبيين وكان البرسقى كسلفه مودود من رجال دولة السلطان محمد وممن آمنوا بالجهاد المقدس وكشفت عنه الاحداث السابقة مثلما حدث بالنسبة لمودود وكان البرسقى كسلفه أيضا خيراً ديناً قال عنه ابن الاثير أنه «كان موصوفا بالخير والدين وحسن العهد لم يفارق محمداً فى حروبه كلها»[1] . وقال عنه أيضا «كان البرسقى محبوبا الى أهل بغداد لحسن سيرته فيهم»[2] .

أما أول ذكر للبرسقى فكان حين رتبه السلطان محمد فى إبريل سنة ١١٠٥ ( شعبان سنة ٤٩٨ هـ ) شحنة العراق[3] . ثم وجهه فى العام التالى ( سنة ٤٩٩هـ ) لمحاصرة تكريت وكان بها « كيقباذ بن هزاراسب الديلمى المنسوب الى الباطنية»[4] . ثم برز البرسقى فى الحرب التى دارت بين السلطان محمد والأمير العربى سيف الدولة صدقة بن مزيد[5] ، ثم أرسله السلطان ضمن القواد فى الحملة

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ ( سنة ٤٩٨ هـ )

(٢) نفس المرجع ج ٨ ص ٢٨٣ ( سنة ٥١٢ هـ )

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٤٣

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٨ ( تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد )

(٥) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٥٦

ضد جاولى فى الموصل تحت قيادة مودود[1]. وهكذا ظلت مكانته ترقى فى دولة السلطان حتى عهد اليه بإمارة الموصل والجهاد الدينى ضد الصليبيين خلفا لمودود.

بدأ البرسقى بتدعيم نفوذه فى شمال العراق قبل أن يستأنف حركة الجهاد من جديد فاستولى على جزيرة بن عمر كما إستولى على ماردين من صاحبها إيلغازى التركمانى ابن أرتق[2] واجتمع معه بعض الأمراء الذين أمرهم السلطان بمصاحبته كالامير تميرك صاحب سنجار كما استصحب معه الامير عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب على عهد السلطان ملكشاه)، وكان من جملة قواد مودود، وبعث ايلغازى بابنه أياز أيضا وأستعد البرسقى للزحف على الرها فى هذا الحشد.

غدت الرها من جديد مركز الثقل فى الصراع بين المسلمين والصليبيين بعد ما لقيته جهود مودود فى بلاد الشام من عقبات قللت من أثر الجهاد هناك. لذا عادت الرها مرة أخرى هدفا لنشاط البرسقى الذى رغب فى إسقاطها قبل المضى فى جهاد الفرنج فى بلاد الشام وفلسطين وهى نفس الخطة التى إتبعها مودود عقب توليه إمارة الموصل.

إتجه البرسقى بجيوشه الكبيرة التى بلغت نحو خمسة عشر ألف مقاتل تجاه أسوار الرها وألقى الحصار عليها فى ربيع سنة ١١١٤ الا أن المدينة صمدت أيضا وأبدى الفرنج فيها صبرا عظيما فاشتد القتال حينئذ وحمى المسلمون وقاتلوا فقتلوا من الفرنج خمسين فارسا من أعيانهم وأقام عليها شهرين وأياما وضاقت الميرة عن

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٢٥٢ (سنة ٥٠٢ هـ)

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٨ (سنة ٥٠٨ هـ)

المسلمين فرحلوا،[1] اضطر البرسقى إذن أمام حصانة المدينة ومدافعة الفرنج عنها ونقص المؤن ولما أظهره إيلغازى التركمانى فى هذه الظروف من روح العداء له إلى رفع الحصار عنها والإتجاه إلى الممتلكات الصليبية الأخرى فقام بتدميرها، فخرب ضياع الرها وبلد سروج وبلد سميساط ، وأنزل ضربات قوية بأملاك الفرنج فى تلك الجهات .

وبينما كان البرسقى يحاصر الرها تلقى عرضا من أرملة كوغ باسيل الارمنى حاكم مرعش وكسيوم ورعبان الذى توفى فى اكتوبر ١١١٢ [2] وخلف فى أمارته المستقلة أرملته وابنها بالتبنى دغا باسيل[3] وقد ساورت الشكوك هذه الارملة من جهة الفرنج وأطماعهم فى الامارة وخاصة فرنج أنطاكيه لذلك لم تتردد فى طلب الحماية من آقسنقر البرسقى الذى أظهر نشاطا فى جما تلك الآونه بالقائة الحصار على الرها فأرسلت اليه تطلب مندوبا عنه لتفاوضه فى أمر التبعية له فرحب البرسقى بذلك.

وعندما أحس الفرنج بذلك هاجموا مندوب البرسقى والارمن الا أنهم هزموا بينما أظهرت أرملة كواسيل الطاعة للبرسقى وقبلت دفع الجزية رمزاً لتلك التبعية .[4]

وهكذا جاء هذا التحالف الارمنى التركى عوضا عما ترتب على فشل البرسقى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ح ٨ ص٢٦٩ ( سنة ٥٠٨ هـ )
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٣٤٦
(٣) Runciman: Op. cit. 11. p. 129
(٤) ابن الاثير : نفس المرجع و نفس الصفحة

أمام الرها كما أظهر هذا التحالف فشل السياسة التى إتبعها الفرنج تجاه الأرمن والى أدت من قبل إلى إتساع الهوة بين الجانبين وخاصة داخل الرها[١]. مما ترتب عليه قتل وطرد جموع كثير منهم فى هذه المدينة عام ١١١٣م فلعب المطرودون فى أغلب الظن - دوراً كبيراً فى تحريض حكام هذه الامارة الأرمنية المستقلة ضد الفرنج عامة بالتبعية للسلاجقة [٢]

ولكن قبل أن يفيد البرسقى مما أضحى له من نفوذ فى المنطقه وبتحالفه مع الارمن دخل فى صراع مع إيلغازى زعيم الارانقة ، فقد اختلف مع أياز بن ايلغازى ، وكان بصحبته وبادر بالقبض عليه مما أثار ايلغازى الذى استنجد بابن أخيه داود فى حصن كيفا[٣] وجمع جيشا كبيراً والتقى بالبرسقى على نهر الخابور[٤] وانجلت الوقعة عن هزيمة البرسقى وانسحابه وتخليص اياز.

أدت هذه الهزيمة الى لقيها البرسقى فضلا عن فشله السابق أمام الرها إلى أعفائه من إمارة الموصل التى أقطعها السلطان لأمير جيوش بك ومعه الملك مسعود بن السلطان ومنح البرسقى إقطاع الرحبة على الفرات[٥]

* * *

---

(١) Grousset : Op. cit. 1. p. 492-3

(٢) Small : Grusading Warfare p. 48

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٦٩٠ ( سنة ٥٠٨ هـ )

(٤) سبط بن الجوزى . مرآة الزمان ج ١٠ ورقة ٣٢٤ا

(٥) ابن العديم . منتخبات ( المجموعة 111. p. 611 )

ومما يدعو إلى الأسف حقا أن الأحداث التى جرت مؤخرا ببلاد الشام كقتل مودود وهزيمة البرسقى على يد ايلغازى قد أوجدت فجوة كبيرة فى جبهة المسلمين عامة وأضافت إلى الإنتكاسة التى أصابت فكرة الجهاد إذ ذاك ، بلغت هذه الفجوة مداها بإرتماء طغتكين فى أحضان الفرنج ومباركته مافعله ايلغازى بجيوش السلطان وكانت تربطه به علاقة مصاهرة[١] وما حدث بالشام فى ذلك الوقت أعطى ملامح الانتكاسة التى أصابت مشروع الحرب المقدسة والفجوة التى ظهرت فى جبهة المسلمين هناك .

ففى حلب كان رضوان قد توفى فى العام السابق ١١١٣م ( سنة٥٠٧ هـ) وقام بعده فى الحكم ابنه ألب أرسلان المعروف بالاخرس وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة وتولى أمره خادم أبيه يدعى لؤلؤ البابا ( اليايا ) وأساء الب أرسلان السيرة فى حلب وأنتهى الأمر بمقتله بتدبير من لؤلؤ نفسه قبل أن ينقضى عام واحد على توليته الحكم وأقام لؤلؤ مكانه أخا آخر له صغير يسمى سلطان شاه[٢]

أما طغتكين فقد حاول أن يجد لنفسه مكانا مرموقا فى حلب وأن يفرض نوعا من الوصاية على أميرها الصغير فانتهز فرصة اضطراب أمورها وصغر أبناء رضوان وقام فعلا بزيارة المدينة ولكنه لم يلبث أن عاد إلى دمشق دون أن يحقق شيئا لما رآه من احاطة رجال رضوان بالأمير الصغير ، فحين شاهد

---

(١) ابن الاثير : نفس المرجع ونفس الصفحة

Ency. Isl. art " Artukds " by. cl, Cahen

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٥ ،ابن القلانسى : ذيل ص ١٨٩ - ١٩١

الامر على غير السداد والصواب وبان له فساد التدبير واختلاف الئة دير رأى الإنكفاء الى دمشق[١]» . ولما قدم اليه ايلغازى للاتفاق على التعاضد ضد السلاجقة رحب طغتكين بذلك ، واتفقا على الامتناع والالتجاء إلى الفرنج والاحتماء بهم» [٢] فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه ، فحضر عندهما .. عند حمص وجددوا العهود » . وهكذا إتسعت الهوة بين قوى المسلمين واضحت جيوش السلطان تنتظرها مقاومة مزدوجة إسلامية لاتينية . ولم يبق ببلاد الشام حليف مخلص للسلطان ذو قوة أو منعة أو يرجى منه كبير فائدة .

---

(١) ابن القلانسى : نفس الموجع ص ١٩٠

(٢) ابن الاثير : نفس المرجع ونفس الصفحة .

## هـ ـ حملة برسق بن برسق سنة ١١١٥م

كما أعنى البرسقى من إمارة الموصل أعفى أيضا من زعامة الحرب الدينية ضد الصليبيين وعهد السلطان محمد بالجهاد إلى ثالث شخصية تداولت الزعامة فى الحرب المقدمة على عهده وهو الامير برسق بن برسق أمير همذان .

وبرسق هذا سليل أسرة عرفت بإخلاصها للسلاجقة ، فأبوه برسق الكبير كان من أصحاب طغرل بك[1] ، وصار من رجال ألب أرسلان وإبنه ملكشاه كما كان أول شحنة للسلاجقة ببغداد[2] ، ولما قتل برسق هذا فى أغسطس سنة ١٠٩٧ ( رمضان سنة ٤٩٠ هـ ) بقى أبناؤه وخاصة زنكى وايلبكى وبرسق على وفائهم للسلاجقة ، واشتركوا فى الحروب التى جرت بين أبناء ملكشاه : بركياروق ومحمد وكانوا إذ ذاك فى طاعة بركياروق[3] ، ثم دخلوا فى طاعة السلطان محمد بعد وفاة بركياروق وصاروا من رجاله الاوفياء وشاركوا فى الحرب التى خاضها فى بداية حكمه . وحكم زنكى وايلبكى همذان وخوزستان[4] واشتركوا مع مودود فى بداية حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين .

أما برسق فكان السلطان قد قربه اليه وبعثه ضمن قواده فى جيش مودود

---

(١) ابن الوردى : تاريخه المعروف بتتمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة «برسق» .

(٢) ابن الوردى : نفس المرجع ج ٢ ص ١٠

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ١٢٣ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٤ ( سنة ٤٩٦ هـ ) .

(٤) ابن الأثير : نفس المرجع ج ٨ ص ١٩٦ ( سنة ٤٩٤ هـ )

لإستخلاص الموصل من يد جاولى ومعاونة مودود فى جهاد الفرنج،وكان يأمره بالمسير من همذان ـ لمعاونة الجيوش المنفذه لحرب الفرنج فى الرها وبلاد الشام تحت قيادة مودود ولما فشل البرسقى كما رأينا لم يجد السلطان بين رجاله من هو أخلص منه ليعهد اليه بإتمام مشروع الجهاد فى بلاد الشام .

لم يكن قد بقى على الولاء للسلطنة السلجوقية فى بلاد الشام سوى الأسرة العربية الحاكمة فى شيزر بنى منقذ نظراً لتعرض أمارتهم لخطر الصليبيين فى أنطاكية وتهديدهم لفامية وكفر طاب[1] واحساس أمرائها بحاجتهم الماسة لحماية القوى الإسلامية الكبرى ، ـ وكذلك قيرخان بن قراجا صاحب حمص لرغبته فى الإستيلاء على حماة وكانت تابعة لطغتكين وبضمها كان طغتكين يطوق أمارته[2] .

أما لؤلؤ الخادم الوصى على حلب حينئذ فكان متقلبا حاول أول الأمر إظهار الولاء للسلطان وكتب اليه « على سبيل المماطلة يبذل له تسليم حلب والخزائن التى خلفها رضوان وولده ألب أرسلان ويطلب إنفاذ العساكر اليه »[3]. ولكنه تحول فجأة قبل وصول جيش برسق بن برسق إلى حلب « وكتب الى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ووعده تسليم حلب اليه » .

أما ايلغازى فكان قد اتفق مع طغتكين على مواجهة جيوش السلطان ثم رحل عائدا إلى مقر امارته فى ديار بكر ليجمع الجند ، ولكنه عندما وصل إلى الرستن

---

(١) Grousset : Op. cit 1. p. 498

(٢) Ibid : Op. cit 1. P. 498

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٤

قرب حمص خرج اليه قيرخان وقبض عليه معتقدا أن جيوش السلطان لن تلبث أن تصل وتتسلمه . ولما تأخر برسق قليلا اضطر قيرخان إلى إطلاق سراحه[١] .

جهز السلطان الحملة تحت قيادة برسق وسير معه الامير جيوش بك أمير الموصل والأمير كنتغدى[٢] والأمير سنقر دراز والحاجب الكبير بكتمر وزنكى ابن برسق وتميرك صاحب سنجار واسماعيل البكجى وغيرهم من الأمراء[٣].

وبعد أن تجمعت الجيوش فى الجزيرة القت الحصار على الرها فترة وجيزة قبل أن تزحف إلى بلاد الشام لمحاربة طغتكين وحليفه ايلغازى لأن السلطان كان قد « أمرهم بالبداءة بقتال ايلغازى وطغتكين فإذا فرغوا منهما قصدا بلاد الفرنج وقاتلوهم[٤] » . ويبدو أن السلطنة السلجوقية إستهدفت من هذه الحملة بالإضافة إلى محاربة الصليبيين بسط هيمنتها على كافة الامارات الإسلامية فى الشام وشمال الجزيرة[٥] لما أبداه بعض الأمراء من طرح طاعة السلاجقة وقطع صلتهم بها بل ومحاربة جيوشها المنفذه لجهاد الفرنج .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٩ ( سنة ٥٠٨ هـ ) (٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) أسامه بن منقذ : كتاب الإعتبار ص ٧٣ ( نشر فيليب حتى ) وقد اشترك أسامه فى الحرب التى دارت عند كفر طاب فهو إذن شاهد عيان فى هذه الاحداث .

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ ( سنة ٥٠٨ هـ ).

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ؛ Grousset : Op. cit. I. p. 495.

ولما وصل برسق بن برسق إلى بالس على الفرات فى طريقه إلى حلب التى أراد اتخاذها قاعدة يشن منها حربه ضد المخالفين وضد الصليبيين معاً ، إنتاب الخوف لؤلؤ الخادم وشمس الخواص مقدم العسكر بحلب ، فلما طلب برسق منهما الاذعان والطاعة « غالطا فى الجواب » بل وسارعا بالكتابة إلى طغتكين كما سبقت الإشارة .

وعندئذ تحول برسق بجيوشه إلى معرة النعمان فى الوقت الذى كان طغتكين قد إستصحب ايلغازى ودخلا حلب على رأس ألفين من الفرسان لحفظها ، فسار برسق إلى حماة وهى تابعة لطغتكين فاستولى عليها عنوة وسلمها للأمير قيرخان « وكان السلطان قد أمر أن يسلم إليه كل بلد يفتحونه » [١] ، كما أخذوا رهنية من أولاد على الكردى وسلموها إلى قيرخان أيضا [٢] .

أدى ذلك إلى انزعاج طغتكين وايلغازى وحكام حلب وخشى طغتكين من أن تنحدر هذه الجيوش جنوبا لمهاجمة دمشق ذاتها ومن ثم بدأ يعمل على الإتصال بأمير انطاكية الصليبى للتحالف معه [٣] . ولم يكن روجر الانطاكى أقل تخوفا من طغتكين وحلفائه بل أنه كان قد حشد جيشه على نهر العاصى عند جسر الحديد

---

(١) ابن الاثير : نفس المرجع ونفس الصفحة

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ح ٢ ص ١٧٤

(٣) بينما أشار ابن الاثير إلى أن طغتكين وحلفائه هم الذين عملوا على الإتصال بروجر الانطاكى للتحالف معه ضد السلاجقة ، إذا بالمؤرخ الصليبى وليم الصورى يذكر أن روجر هو الذى بدأ بذلك

Grousst : Op. cit I. p. 277-8

الدفاع من انطاكية ومراقبة وتحركات برسق[1]، ولما حدث الاتصال بين طغتكين وحلفائه من جهة وروجر من جهة أخرى بغرض التحالف لمواجهة العدو المشترك استنجد روجر الانطاكى بالملك بلدوين وأمير طرابلس وغيرها من أمـــراء الصليبيين لتنفيذ هذه الإتفاقية ودل ذلك على تحول ظاهـر فى فكرة المقاومة الإسلامية للصليبيين إذ غدا بوسع القوى الإسلاميه فى بلاد الشام وأطراف العراق أن تتحالف مع الصليبيين أنفسهم لمقاومة الجيـوش القـادمة من وراء الحـدود والمنفذة للجهاد ضد الفرنج[2] ولعل ذلك يمثل قمة الإنتكاسة فى مشروع الجهاد منذ مقتل شرف الدين مودود .

انصرف برسق إلى شيزر حيث خرج للقائه أمراء بنى منقذ . ووصـل ملك بيت المقدس فى نحو خمسمائه فارس وألفان من المشـاة وكذلك أمير طرابلس ومعه مائتان من الفرسـان ونحو ألفين من المشاة ولحقت كل هذه القوات بالجيوش الصليبية الاسلامية المتحـالفة عند أفامية[3] غير أنها التزمت جانب الحذر كثيرا ولم تشأ أن تتسرع بالهجوم ، ربما إحســاسا بقوة جيوش برسق فى حين أن برسق تريث هو الآخر ولم يشأ أن يدخل فى معركة فاصلة مع هذه الجيوش لما رآه من اتحاد كلمه المسلمين والصليبيين لمواجهته ويشير المورخ ابن العديم إلى دور هام قام بة طغتكين لمنع إشتباك الجيوش المتحالفة مع جيش

---

(١) Grousset : Op, cit 1, P 499 , Runciman. Op. cit. 1 . p. 131,

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج١ ص ٤٦٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ص ٢٦٩ ( ٥٠٩ هـ ) ، Grousset. Op. cit. 1. p, 278, 503

برسق إذ جعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه أو ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على ما فى يده»[١] ، لذا انسحب برسق بجنوده تجاه الجزيرة وتفرقت الجيوش الإسلامية اللاتينية وبدا أن تلك النوبة قد إنتهت الى لاشىء .

غير أن إرتداد برسق لم يكن سوى خدعة لأنه عاد مسرعا وانقض على كفر طاب كما يصف أسامه بن منقذ ـ وهو شاهد عيان فى هذه الحرب ـ فقاتل المسلمون حاميتها الصليبيه وأخذوا ينقبون أسوارها « والإفرنج قد أيقنوا بالهلاك»[٢] إذ تكاثر المسلمون على الحصن وطرحوا النار فيه « فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى فاحترق الجميع وبقى الجميع معلقين فى أعلاه على الحيطان » . وكان المسلمون قد أستعدوا لذلك فيقول أسامه « وقد لبسنا وزحفنا إلى الخندق لنهجم الحصن إذا وقع البرج »[٣] . وانتهى الأمر بإستيلاء برسق على هذا الحصن الذى كان تابعا إذ ذاك لانطاكية وسلمه لحلفائه بنى منقذ ( ٥ سبتمبر سنة ١١١٥م )[٤].

إتجه برسق بعد ذلك إلى أفامية غير أنه وجدها حصينة فتحول إلى المعرة ومنها أخذ يستعد للاستيلاء على زردنا[٥] . وهى قلعة قرب حلب كانت تابعة للصليبيين أيضا غير أنه فى هذه الأثناء عاد لؤلؤ الخادم إلى عادته فى التلون

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٥

(٢) أسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٣ (٣) نفس المرجع ص ٧٤

(٤) Grousset. Op cit. 1. p. p. 504—5

(٥) بلده من نواحى حلب الغربية ( ياقوت : معجم ح ١ ص ٦٠٣ )

الخادم إلى عادته فى التلون والمداهنة ، ففى الوقت الذى أخذ يحتال فيه ليفرق جموع برسق ويشتت قواه كان قد اتفق مع روجر الانطاكى أن يخرج هذا بجيشه ليكبس بقية جيش برسق ، فأرسل إلى أسباسلار برسق .. يقول تنفذ لى بعض الامراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب فانى أخاف أهـــل البلد ألا يطاوعونى فى التسليم فأريد أن يكون مع الامير جماعة من العسكر أتقوى بهم على الحلبيين . فنفذ اليه أميرالجيوش أوزبة ومعه ثلاثه آلاف فارس»[1] ويذكر إبن العديم أيضا أن رسولا وصل إلى برسق قادما من بزاعا[2] -وهى تقع إلى الشمال الشرق من حلب - من عند شمس الخواص ، يستدعيهم لتسلم بزاعا ويقول أن شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ولؤلؤ يكشف أخبـــار العساكر ويطالع بها الفرنج »[3] وربما استهدفت الفرقة التى أنفذها برسق تحت قيادة جيوش بك الاستيلاء على بزاعا على أثر هذا النداء بالرغم مما فى هذا من إضعاف لقوته وتشتيت لقواه .

ويبد وأن برسق وقع ضحية مؤامرة رخيصة لعب فيها الطواشى لؤلؤ الخادم وشمس الخواص الدور الاكبر ونجحا فى تفريق قوى برسق بغرض تمكين روجر من الانقضاض عليه وانزال الهزيمه به، إذا لم يبق مع برسق سوى الأمير جامدار صاحب الرحبة والأمير تميرك صاحب سنجار لذا قرر المسير شمالا نحو دانيث قاصدا حلب .

وعسكرت القوات السلجوقية فى طريقها غربى سرمين عند دانيث فى غير

---

(١) أسامه : كتاب الاعتبار ص ٧٦ .
(٢) بلده من من أعمال حلب بينها وبين منبج (ياقوت : معجم ج١ ص ٦٠٣)
(٣) ابن العديم: زبده الحلب ج٢ ص ١٧٥ .

تجمع أو نظام » والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة بساعة » [١]. فخرج روجر الانطاكى فى ١٢ سبتمبر سنه ١١١٥ م واتجه صوب الجنوب على نهر العاصى ولحق به بلدوين دى بورج أمير الرها وفى صباح يوم ١٤ سبتمبر وقد تفرق معظم الامراء المسلمين طلبا للمؤن والعلوفة وفى غير توقع أو ترقب من جانب المسلمين وفى اللحظة المواتية انقضت على قوات برسق فأحدثت الهرج والفوضى فى المعسكر ودهمت الجنود وقتلت كثيرين منهم وفر البعض الآخر إلى تل السلطان القريب وعلى رأسهم برسق نفسه وأخيه زنكى » وأحاط بهم السوقية والغلمان . ومنعوا الامير برسق من النزول فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه فقال لا أفعل بل أقتل فى سبيل الله وأكون فداء للمسلمين فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه » [٢] .

غير أن فريقا من الفرسان والجند وعلى رأسهم أمير سنجار ثبتوا فى هذه الظروف وأزاحوا الفرنج عن أماكنهم ، ولكنهم احيطوا فى النهاية ولم يستطع النجاه منهم سوى سراع الفرسان ولم يأت المساء حتى كان العسكر الاسلامى قد انفل نحو الجزيرة [٣] فى حين تعرض الكثيرين للقتل والاسر والفرار على غير هدى، واستتر قوم فى الضياع من العسكر فنهبهم الفلاحون وأطلقوهم » واستولى الفرنج على كثير من الغنائم من « الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والامتعة ما لا يحصى » . [٤] أما الفرقة التى قادها بلك تجاه حلب فقد أخبرت بالكارثة

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ ( سنة ٥٠٩ هـ ) .

(٣) Fulcher of Chartres p.p. 586 - 90
Runciman. Op. cit. 11. p. 133

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٦ .

فأسرع بها جيوش بك منسحبا ناحية الموصل [١] وبذا تمت الهزيمة على برسق الذى أمل فيه المسلمون كثيرا « فخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التى بالشام فانهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم ما لم يكن فى الحساب وعادت العساكر عنهم إلى بلادها » [٢] .

وبالرغم مما لاقاه برسق من عداء القوى الاسلامية فى الشام قبل عداء الصليبيين وبالرغم من العقبات التى وضعوها فى طريقه والتآمر عليه وعلى قواته إلا أنه ندم كثيرا على الهزيمة التى لحقت به ، وعاد إلى فارس حزينا حيث جاز إلى ربه بعد بضعة أشهر ، وبموته أحجمت السلطنة السلجوقية عن الجهاد وأيقن السلطان محمد عبث المقاومة طالما جبهة المسلمين فى هذه البلاد تفتقر إلى الوحدة والتماسك وتتنازعها الأهواء والمطامع الشخصية لذا كانت حملة برسق آخر محاولة كبرى فى حركة الجهاد الدينى على عهد هذا السلطان [٣] الذى كان يأمل فى تتويج أعماله الحربية بنصر مؤزر ضد الصليبيين فى بلاد الشام لكن لم يقدر له ذلك ولم يفكر فى استرداد الشام بقية السنوات القليلة التى عاشها بعد ذلك وتوفى فى سنة ١١١٨ واتخذ الجهاد الدينى ضد الصليبيين مظهرا جديدا فى الحقبة التالية [٤] .

---

(١) Grousset : Op. cit .1.P. 209

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٦٩ ( سنة ٥٠٩ ) .

(3) Sma 11 : Crusading Warfare. p. 29

(٤) مما يسترعى الإنتباه أن المؤرخ جروسيه - رغم اتزانه - قد بالغ كثيرا فى نتائج موقعة تل دانيث سنة ١١١٥ وقارنها بموقعة ضوريليوم سنة ١٠٩٧ فقال أنه كما استطاع الصليبيون إذا ذاك القضاء على مقاومة السلاجقة هناك أستطاع أبناؤهم فى دانيث أن يوقفوا مشروع إعادة الغزو السلجوقى =

أما بالنسبة الشام بعد فشل برسق ، فقد سارع بنى منقذ باخلاء كفر طاب ليحتلها النورمان فى طريق عودتهم إلى انطاكية ، وعاد الافرنج لعنهم الله إلى كفر طاب عمروها وسكنوها [١] ، كما عاد أمراء شيزر أيضا إلى مرونتهم فى التكيف مع القوى المجاورة فعقدوا صلحا مع روجر الانطاكى وحرصوا على عدم التعرض للقوافل الصليبية بين انطاكية وبيت المقدس .

أما طغتكين فقد انتزع رفنية من أمير حمص قيرخان بن قراجا [٢] . ومالبث فى مارس من العام التالى ( سنة ١١١٦ م ) أن رحل إلى بغداد طالبا الصفح من السلطان « فرضى عنه السلطان وخلع عليه » ورجع إلى دمشق « وماسمح إلا ماعاد ببسط عذره واحماد فعله واطراء أمره وتطييب نفسه وابعاد استيحاشه وتأكيد أنسه » [٣] .

---

= الشام . وانكر جروسيه على المؤرخين المحدثين أغفالهم للنتائج الكبيرة لهذه الحرب . ولكن يبدو أنه فات هذا المؤرخ أن توقف مشروع الغزو السلجوقى بعد دانيث فترة لم يكن نتيجة مباشرة لتل دانيث التى انتصر فيها الصليبيون خلسة وفى ظروف خاصة ، وانما توقف الجهاد فترة بسبب موقف الامراء المسلمين ذاتهم وما أظهروه من عداء لمحاولات السلطنة قبل عداء الصليبيين ولذا اقتنعت السلطنة فى اصفهان فى هذا الدور بعبث المقاومة طالما افتقر الشام إلى الوحدة والى تقدير دوره فى الجهاد حينئذ .

Grousset: Op. cit. I p. 510

(١) أسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٦ .

(٢) Grousset: Op. cit. I. p. p. —509—10

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٣ .

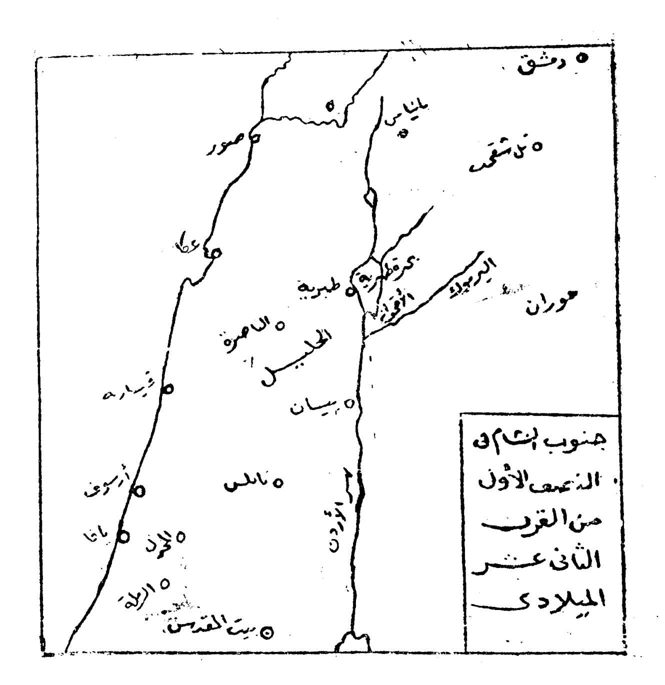
وعلى هذه الصورة انتهت آخر محاولة كبرى فى عهد السلطان محمد لاستعادة بلاد الشام من الصليبيين ، ولعل من أسباب إخفاق هذه النوبة من الجهاد على هذا السلطان ما أمات فيه السلطنة السلجوقية من الاعتماد على أمراء الشام كإمدادات سهلة للجيوش المرسلة لحرب الفرنج هناك ، فى الوقت الذى تشكك فيه هؤلاء من أن جيوش السلطان استهدفت النيل من استقلالهم قبل أن تنال من الفرنج [1] ، فضلا عما أظهره البعض من الامتعاض للانضواء تحت راية قواد السلطان والنزول على آراء قواد السلاجقة نجد الطموح والمطامع الشخصية برزت فى علاقة هؤلاء ببعضهم البعض [2] .

ولعله من الواضح أن تطورا هاما برز خلال هذه النوبة من الجهاد فيما يختص بموقف الصليبيين فى مواجهة المسلمين ، ذلك أن الصليبيين حاولوا بقدر الامكان خلال تلك الاحداث تجنب الاشتباك مع الجيوش الاسلامية، ولم يضعوا مسألة القضاء على تلك الجيوش فى تخططهم بل حرصوا على التجمع فى كل مرة للحيولة دون استيلاء المسلمين على المدن أو القلاع أو الحصون الصليبية والاكتفاء بمراقبة نشاطهم فى الوقت الذى كانوا فيه على استعداد للدخول فى معركة إذا لزم الأمر وإذا واتت فرصة وضمنوا نصرا سهلا [3] .

على كل حال انتهت هذه الدفعة من الجهاد الدينى وأن لم تسفر هى أيضا عن نتائج حاسمة بالنسبة للكيان الصليبى فى هذه البلاد إلا أنها كانت خطوة إلى الامام فى قصة المقاومة الإسلامية ، بل أنها أفسحت المجال لخطوة أخرى وضعت بدايه النهايه بالنسبه للصليبيين واستقرارهم فى تلك المنطقه .

---

(١) Small: Crusading Warfare, p. 29
(٢) Ibid. 0p cit p. 29
(٣) Ibid: op. cit. p. 29


جنوب الشام في
النصف الأول
من القرن
الثاني عشر
الميلادي
دمشق
بانياس
تل شقحب
صور
عكا
بحيرة طبرية
طبرية
اليرموك
حوران
الناصرة
الجليل
قيسارية
بيسان
أرسوف
نابلس
نهر الأردن
يافا
اللد
الرملة
بيت المقدس

# الفصل الرابع

## عماد الدين زنكى والجهاد الدينى

### ١١٢٧ — ١١٤٤ م

**الجهاد الدينى بعد وفاة السلطان محمد حتى تولى زنكى امرة الموصل قيام الاراتقة بحمل راية الجهاد فى هذه المرحلة.**

(أ) ظهور زنكى وأهمية موقع إمارته بالموصل .

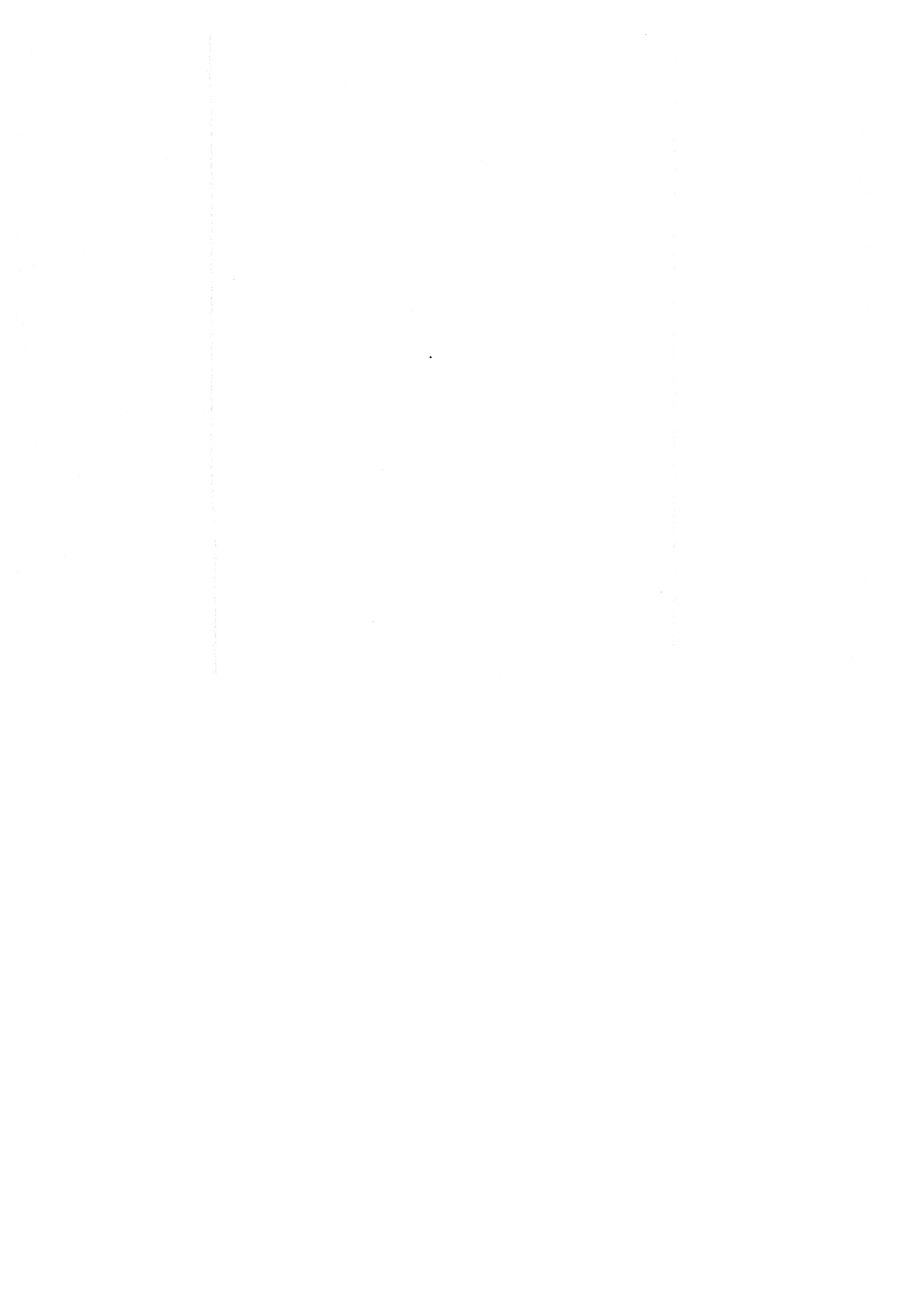
(ب) وضع أساس الجبهة الاسلامية المتحدة وضم حلب .

(ج) زنكى وامارة دمشق .

(د) جهود زنكى ضد الصليبيين واستلائه على الرها سنة ١١٤٤م

(هـ) أثر سقوط الرها بالنسبة لتداعى البنيان الصليبى فى الشرق .

(و) نهاية زنكى.



## الجهاد الديني بعد وفاة السلطان محمد حتى تولى زنكى أمرة الموصل

### قيام الاراتقة بحمل راية الجهاد فى هذه المرحلة :

بوفاة السلطان محمد ابن ملكشاه عام ١١١٨م ، انتهت مرحلة هامة من مراحل الجهاد المقدس ضد الصليبيين ، بل انتهت قبل وفاته بسنوات أى منذ فشل حملة برسق بن برسق فى سنة ١١١٥ م ، فقد اتخذ الجهاد الدينى مظهرا جديدا ارتكز فى بعض جوانبه إلى ماحدث فى جبهة السلاجقة فى المشرق وما أصاب تلك الجبهة من التفكك بسبب الحروب والمنازعات التى قامت بين أفراد البيت السلجوقى بعد وفاة السلطان محمد ، وما أصاب الخلافة الاسلامية فى بغداد من جراء خروج صاحب الحلة العربى وطرحه الطاعة ومحاربته الخليفة المسترشد . لذا اتخذ الجهاد لاول مرة صفة الأصالة ، بمعنى أنه غدا نابع من داخل حدود الشام وأطراف بلاد الرافدين ، ولم تعد الجيوش المنوط بها الجهاد تجىء من خلف الحدود من هناك من فارس ومن أقاليم الشرق ، كما حدث فى المراحل السابقة . وليس من شك فى أن هذا التطور فى فكرة الحرب المقدسة كان يمكن أن يحرز نتائج أفضل لو تنبه القائمون به إلى كل مايكفل لهم الغلبة ، ولو أخلصوا النية تماما ، وقصدوا وجه الجهاد الحق ، لما يميز الأصالة دائما من روح الحماس والاندفاع ، لكن فى الواقع لم يقدم هذا التغيير كثيرا فى صالح قضية الجهاد الدينى بالرغم من أنه قام بنقلة كبيرة ، وأحدث تمهيدا هاما لقضية الوحدة ، تمثل فى خضوع أطراف العراق وشمال بلاد الشام لأمير واحد لأول مرة منذ عهد العقيليين وعهد تاج الدولة تتش ، بما يعنيه ذلك من التمهيد لوضع المنطقة فى يد أمير واحد وهو ما حدث فعلا على عهد زنكى .

كان استيلاء ايلغازى بن أرتق على حلب سنة ١١١٨ م وضمها لامارته فى

ماردين من ديار بكر ، ثم من بعده بلك بن بهرام الأرتقى أيضا ، ثم البرسقى الذى ضم حلب إلى الموصل ، يعد شيئا جديدا يجذب الانتباه لأن زنكى لم يزد عن ذلك إلا بضم المدن والحصون الواقعة ضمن نطاق هذه الجبهة العريضة ، فجنى ثمرة ذلك كله باسقاط إمارة الرها اللاتينية ، ووضع بداية النهاية للاستقرار الصليبي ذاته .

والصفحات التى تقدمها عن هذه المرحلة تعالج الفترة بين وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ م حتى تولى الاتابك عماد الدين زنكى أمر الموصل والجهاد الدينى فى سنة ١١٢٧ م ، وستعالجها من خلال هذين الاتجاهين : أى بمثابتها مرحلة جديدة فى قصة الجهاد الدينى ميزتها الأصالة إلى حد بعيد ، وكذلك بمثابتها مقدمة وتمهيدا لقيام الجبهة المتحدة ، وهى التى حدثت بصورة أوضح على عهد زنكى . ولكن ماهى الظروف التى أملت هذا التطور ، وأحدثت هذه النقلة؟

لعل أهم مايميز جبهة السلاجقة فى الفترة السابقة لهذه المرحلة ، هو الاستقرار الذى مكن السلطان الراحل من الاضطلاع بدوره كاملا فى حركة الجهاد . هذا الاستقرار تبدل بعد وفاته ، وعانت الدولة السلجوقية مرة أخرى من جراء الفوضى والانقسام مامنعها من القيام بعبء الجهاد فى المرحلة الراهنة ، وساعد بالتالى على بزوغ التطور والنقلة المشار اليها .

فبعد وفاة السلطان محمد تولى عرش السلاجقة ابنه السلطان محمود ، غير أن عمه سنجر بن ملكشاه ، الذى كان يحكم خراسان والشطر الآخر من الدولة فيما وراء النهر ، قدم إلى العراق ليسرع بربطه بالتبعية له ، ويخضع ابن أخيه لمشيئته ، ولكن محمودا تجرأ وخرج لمحاربته ، مع تفاوت القوتين وعظم جيش سنجر وقوة بأسه ، إذ كان مع سنجر خمسة ملوك على خمسة أسرة منهم ملك غزنه

ونحو أربعين فيلا» [١]. ولذلك حلت الهزيمة سريعة بجيش محمود، وفر الى اصفهان، ولم يجد بدأ من الاذعان فتقدم إلى معسكر عمه طالبا الصفح والغفران فعفا عنه سنجر وجعله نائبا له فى العراق [٢]. وعاد سنجر إلى مقر حكمه بعد أن أن أكد سلطته على فارس والعراق، وذكر اسمه فى الخطبة قبل ابن أخيه محمود وذلك فى المحرم سنة ٥١٤ هـ (أبريل سنة ١١٢٠ م) [٣].

ولم يكد السلطان محمود يفيق من هذه الاحداث حتى دخل فى صراع ثان مع أخيه مسعود بن محمد الذى طمع هو الآخر فى السلطنة بتحريض من القائمين على شئونه ولاسيما جيوش بك، وقامت الحرب بين الأخوين عند عقبة اسداباد فى يوليو سنة ١١٢٠، ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ)، وانحاز البرسقى إلى جانب محمود فى تلك الحرب فهزم مسعود هزيمة منكرة فهرب واختفى، ثم طلب الامان من أخيه محمود فأجابه إلى ذلك وتم الصلح بينهما. [٤]

وكما شهدت السلطنة هذه الانقسامات عانت الخلافة العباسية أيضا شيئا من الانقسام والمتاعب. ذلك أن الخليفة المستظهر بالله العباسى توفى فى ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ (يوليو أغسطس ١١١٨)، وتولى الخلافة بعده أبنه الخليفة المسترشد بالله الذائع الصيت، ولكن الامير أبا الحسن ابن المستظهر خرج عن

---

(١) ابن الجوزى: المنتظم ج ٩ ص ٢٠٥

(٢) Browne ; Acceunt of a rare manuacript. P.850

ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ (سنه ٥١٢ هـ)

البندارى: تواريخ آل سلجوق ص ١٢٦

(٣) ابن الجوزى: المنتظم ج ٩ ص ٢١٦

(٤) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٢٩١ (سنة ٥١٤ هـ)، ابن الجوزى: المنتظم ج ٩ ص ٢١٧، البندارى: تواريخ آل سلجوق ص ١٢٢ – ١٢٣

طاعته ومضى إلى واسط ودعا لنفسه بها ، فشق ذلك كثيرا على الخليفة المسترشد وبعث إلى دبيس صاحب الحلة يأمره بالقبض على هذا الأمير الخارج ، فقام دبيس بمطاردة الأمير أبا الحسن ثم قبض عليه وسلمه للخليفة ، وكانت مدة خروجه إلى أن أعيد أحد عشر شهرا . (١)

على أن ما أصاب السلطنة والخلافة من متاعب وعقبات حتى ذلك الوقت كان أقل فى الواقع مما أصابها من جراء خروج أمير الحلة العربى دبيس بن صدقة بن مزيد الذى شكل خطرا مزدوجا على الاثنين معا . ذلك أن دبيسا سار على نهج والده صدقة من قبل إذ كان يعجبه اختلاف السلاطين ويعتقد أنه مادام الخلاف بينهم فأمره منتظم، كما استقام أمر والده صدقة عند اختلاف السلاطين ( بركيا روق ومحمد)، فبمجرد أن علم دبيس بخروج مسعود على أخيه السلطان محمود — إن لم يكن له يد فعلا فى تحريض مسعود على ذلك — (٢) زحف إلى بغداد معلنا العصيان فى أكتوبر سنة ١١٢٠ م ( جمادى الآخرة سنة ٥١٤ هـ ) ، وبات أهل بغداد على وجل شديد، ولكنه سرعان ما انسحب إلى الحلة على أثر سماعه باقتراب السلطان من بغداد ، فأرسل السلطان جيشا لمطاردته على رأسه برنقش الذكوى ، فلم يسعه فى النهاية إلا الاذعان وقبل أن يبعث بأخيه منصور رهينة عند السلطان رمزا لطاعته . وانتهت هذه النوبة من عصيان دبيس الذى أصبح عنصرا هاما من عناصر القلاقل والفتنة فى المنطقة بخروجه المستمر ورفعه رأيه العصيان متخذا من العنصر العربى البدوى قوام جيشه وسلاح مغامراته فى المنطقة .

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ٩ ص ٢٠٥

(٢) أبو الفدا : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر (المجموعة I. p.14)

والذى يهمنا من ذلك كله أنه بإنشغال السلطنة والخلافة بهذه الأحداث وأنصرافهما إلى معالجة هذه القلاقل والفتن ، لم تعد لديهما الفرصة الكافية للتفكير فى شئون الشام والجهاد المقدس ضد الصليبيين مما أوجد فراغا فى هذة الناحية عمل الأمراء المحليون على سده والقيام بدورهم فيه .

وكما ماج الشرق بهذه الأحداث ، مهدت أيضاً حالة بلاد الشام ذاتها لبزوغ المرحلة التى نحن بصددها بكل ما فيها من إتجاهات .

ففى حلب كانت الفوضى قد بلغت أوجها بعد وفاة رضوان وتحكم لؤلؤ الخادم فى أمور المدينة مدة ثلاث سنوات ( ١١١٤ - ١١١٧م ) كما سبقت الإشارة . تواطأ فيها على قتل ألب أرسلان بن رضوان ، وأقام بعده سلطان شاه الصغير ، وظل يلعب دوره الخزى حتى قتل على يد بعض غلمانه وهو خارج إلى قلعة جعبر[١] ، فتطلع البرسقى وكان إذ ذاك واليا على الرحبة ، إلى تملك حلب لولا أن سبقه إلى ذلك يرقتاش الأرمنى أحد خدم الملك رضوان الذى دافع البرسقى وراسل ايلغازى الارتقى أمير ماردين بشأن تسليم حلب اليه ، وهادن روجر الانطاكى وأعطاه حصن القبة على الطريق بين حلب ودمشق[٢] وبذل له الأموال جلبا لرضاه ، ولكنه ما لبث أن طرد بعد أقل من شهر على يد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٧٧ (سنة ٥١١ هـ) ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٧٨ .

(٢) Runciman: A history of the Crusades. II P. 133

أهل المدينة أنفسهم الذين سلموا أمرها إلى أبى المعالى بن الملحى فدبر أمر سلطانشاه[١] ووصل بعد ذلك ايلغازى من ماردين ، فأودع بن الملحى السجن وقام بتدبير شئون الملك الصغير ، ولكنه إضطر الى العودة الى أمارته لضعف موارد حلب فى ذلك الوقت عن الوفاء بالتزاماته نحو جنده من التركمان .

ولم تشهد حلب فترة أحرج من تلك التى شهدتها إذ ذاك ، فقد تعرضت لاغارات روجر الذى إستولى على عزاز وبزاعة شرق حلب، وقطع الطريق بينها وبين الفرات والبلاد الواقعة إلى شرق الفرات وإزدادت حالة حلب سوءاً ودبر شئونها حينئذ جماعة من الخدم والقاضى أبو الفضل بن الخشاب ، لذا إتفقت الآراء على إنفاذ بعض الاعيان إلى ماردين لحث ايلغازى على العودة إلى المدينة ، فاستجاب ايلغازى وعاد مرة أخرى ، وسارع بعقد هدنة مع الفرنج ريثما يتمكن من جمع التركمان ، ولم يوافق الفرنج على الهدنة إلا بعد موافقة حلب على تسليم بعض القلاع وتأدية الجزية المستحقة عن أربعة أشهر وهى ألف دينار[٢] .

وفى طريقه إلى الجزيرة لجمع الجند إلتقى ايلغازى بطغتكين عند قلعة جعبر ( دوسر ) وتقررت القواعد بينهما على الاستعداد للجهاد ضد الفرنج والاشتراك فى رد خطرهم عن حلب والواقع أنه باستيلاء ايلغازى على حلب سنه ١١١٨ بدأت المرحلة التى تعنينا فى الجهاد قبل تولى زنكى أمر الموصل .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ح ٢ ص ١٧٩ ، ويذهب جروسيه إلى أن سياسة حلب حينئذ كانت أقرب الى النظام الجمهورى ، لبروز أصوات أعيانها وتسييرهم دقة الأمور فيها .

Groueset : Histoire des Croisades. I. P/549.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ح ٢ ص ١٨٥ - ٨٦ .

ولم يكن اشتراك طغتكين بقواته فى الجهاد فى هذه المرحلة إلى جانب الأراتقة راجعا لما أبداه من توبة وعزم على فتح صفحة جديدة فى حياته بعد عودته من بغداد فى يوليو سنة ١١١٦ م فحسب بل أنه كان أيضا بمثابة رد فعل لضغط الفرنج المتواصل على أمارته منذ ذلك الوقت أى منذ سنة ١١١٦ م ، إذ قام فرنج طرابلس بالاغارة على ناحية البقاع فاستنجد طغتكين بالبرسقى أمير الرحبة حينئذ فسار إليه وتعاونا فى مواجهه قوات طرابلس [1] ، ثم تعرض طغتكين أيضا لاغارة فرنج بيت المقدس على حوران [2] ، وهكذا كان الخطر الصليبى لازال قائما بالنسبة لامارته وأعمالها ما دفعه إلى أن يلتمس فى حركة الجهاد مع الأراتقة فى هذه الاونة فرصة للخروج من عزلته وردا على إغارات الفرنج ضد إمارته فى نفس الوقت .

كانت هذه هى الظروف التى تمت فيها التوبة الجديدة من الجهاد ، وحدثت فيها هذه المرحلة من الحرب المقدسه ، المشرق تشغله أحداث جديدة وحروب وفتن لا يستطيع معها أن يعطى قضية الجهاد نصيبها من الاهمية ثم إمارات الشام ذاتها تشهد أحداثا تستدعى ضرورة مواجهة الفرنج ، ويكفى لبيان أهمية هذه الضرورة أن أحوال حلب الإقتصادية ساءت جدا ، ولم يعد بها من المؤن ما يكفى لمدة شهر ، وبات أهلها فى خوف شديد من الفرنج ، ولم يقبل هؤلاء المدنة معهم إلا بشرط مقاسمتهم « على أملاكهم بباب حلب » [3] ، وتعرض المسلمون فى بلاد الشام لأخطار الإغارة والقتل والنهب ولم يعد فى الامكان

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٧ - ١٩٨

(٢) Grousset : Op. cit I P. 549.

(٣) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٨٤ ( سنة ٥١٢ ﻫ )

انتظار جيوش المشرق لتستأنف الجهاد بل ألحت الظروف فى اضطلاع الامراء المحليين بدورهم حينئذ ، ومن هنا جاءت الخطوة الجديدة المشار اليها.

أما الإتجاه الآخر وهو مقدمات توحيد الجبهة ، فقد بدأه ايلغازى بن ارتق بجمعه بين أمارته بديار بكر شمال العراق ، وبين حلب فى شمال الشام ، وهو أمر لاشك يعد جديداً فى هذه الآونة ترتبت عليه نتائج هامة . وايلغازى هو الإبن الثانى لأرتق بن أكسب وكان قد إنصرف بعد طرده وأخيه سقمان من بيت المقدس إلى بغداد ، فشارك فى أحداث الفتنة بين الأخوين بركيا روق ومحمد ، ثم عين شحنة للعراق[1]. ثم سيره السلطان محمد إلى ديار بكر حيث كانت له يد فى الهزيمة التى منى بها قلج أرسلان ١١٠٧م[2] والتى إنتهت بغرق هذا السلطان فى نهر الخابور ، وفى سنه ١١٠٨ استولى ايلغازى على ماردين من ولد أخيه سقمان، ثم حاول أن يوحد أمارات الأراتقة ويوسع ممتلكاته ، فدخل فى صراع مع صاحب آمد واخلاط وأرزن بتشجيع من السلطان محمد الذى رغب فى توجيه هذه الوحدة فى صالح قضية الجهاد ، إلا أن هذه الخطوة لم تجد إستجابة لدى أمراء الأراتقة بل دخل ايلغازى فى حرب مع صاحب اخلاط لم تنته إلا بوفاة هذا فى سنة ١١١٠م[3].

وشارك ايلغازى فى الحملات التى أرسلت ضد الفرنج على عهد السلطان محمد، لكنه وقف موقفا عدائيا من آقسنقر البرسقى عام ١١١٤ وكون حلفا أرتقيا ضده وأنزل به الهزيمة فجرت الأحداث التى عرضت من قبل.

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ ( سنة ٤٩٨ هـ ) .

(٢) Cahen Encyc. Isl. art Artukids

(٣) Cahen Op. Cit. art. Artukids

على أن قضية توحيد الجبهة أو مقدمات توحيد الجبهة بمعنى أدق قد شهدت خطوة هامة على يد ايلغازى حين إستولى على ميافارقين فى عام ١١١٨ بعد وفاة السلطان محمد وغدا من القوة بحيث تطلعت إليه أبصار أهل حلب الذين باتوا تحت رحمة الفرنج ثم كان مقدمه إلى الشام وإستيلائه على حلب سنة ١١١٨ أهم ما فى ذلك كله من تطور .

وليس من شك فى أن ربط حلب بامارتى ماردين وميافارقين قصبتى ديار بكر الكبيرتين يعد أمرا هاما لما أصبح لا يلغازى من القوة بفضل هذه الجبهة القوية فى السنوات التالية إذ غدت أمارته الارتقية فى شمال العراق مركز إمدادات حربية وبشرية ساعدت على تحقيق بعض الإنتصارات على الصليبيين فى ذلك الوقت . حقيقة لم ينتظم حكم ايلغازى فى هذه الجبهة كلها ، ولم تكن تلك الوحدة متينة بحيث تصمد للقلاقل والمؤامرات التى كانت تعج بها حلب وبلاد الشام عامة حينئذ ، ومع هذا فقد كانت سابقة هامة إستند اليها رواد الجهاد الدينى من بعده وغدت تقليدا جديدا أفاد دعاة الحرب المقدسة ـ وخاصة زنكى فى قيادة حركة المقاومة ضد الصليبيين .

بدأت هذه النوبة من الجهاد فى شكلها الجديد بنشاط ايلغازى ضد إمارة إنطاكية التى عانى أهل حلب منها كثيراً ، إذ جمع التركمان وضم اليه بعض الأمراء كأسامة بن المبارك ابن شبل الكلابى وطغان أرسلان بن المكر صاحب بدليس وأرزن ، وبلغ جيشه نحو عشرين ألف جندى[1] وبهذه الجموع أغار

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤ ( سنة ٥١٢ هـ )

ايلغازى على الرها ، وأنزل بالفرنج هناك خسائر جسيمة ثم عبر الفرات وأغار على تل باشر قبل أن يزحف إلى بلاد الشام .

عاثت هذه الجموع فى نواحى انطاكية ، واتخذ ايلغازى قنسرين إلى الجنوب من حلب قاعدة يشن منها هجماته على فرنج انطاكية فلم يسع روجر إلا طلب النجدة والاستغاثة بأمراء الصليبيين فى الرها وطرابلس وملك بيت المقدس[1] .

ويبدو أن روجر خدعه انتصاره من قبل على جيش السلطان فى تل دانيث سنة ١١١٥ ، واختال زهوا بهذا النصر ، وبتهديده حلب وجعلها تحت رحمته فاستهان بقوى المسلمين واستثارته حشود التركمان التى بيتت النية على حربه ، لهذه الأسباب تسرع روجر بالخروج من انطاكية قبل أن تصله النجدات الصليبية ، وقاد فى عشرين يونيو سنة ١١١٩ ، ( ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ )[2] كل جيش انطاكية البالغ عدده نحو ٧٠٠ فارس ونحو أربعة آلاف راجل[3] واجتاز به جسر الحديد وعسكر فى موضع قريب من سرمدا شمالى الاثارب بين حلب وانطاكية ، وهو موقع حصين يقع بين جبلين ، ليس له طريق إلا من ثلاث

---

(١) Guillaume de Tyr, P. 523
Grousset : Op. cit. I.P.551

(٢) Runciman : Op. Cit. II. P. 149.
هذا وكان بلدوين الأول قد توفى سنة ١١١٨ وانتقل بلدوين دى بورج إلى بيت المقدس خلفا له واقيم جوسلين دى كورتناى حاكما على الرها .

(٣) Runciman: Op. cit. II. P.149

جهات »[1] ولذلك « ظن الفرنج أن أحدا لا يسلك اليهم لضيق الطريق فأخلدوا إلى المطاولة » ، واعتقد روجر أن حصانة هذا الموضع تكفل له السلامه حتى تلحق به بقية الامدادات من الامارات الأخرى .

أما ايلغازى فقد حشد قواته وأنتظر مقدم طغتكين حتى يتفق أعلى لقـــاء الصليبيين غير أن طغتكين تباطأ فى السير فى الوقت الذى ضجر فيه التركمان من الانتظار على عادتهم ، وحثوا ايلغازى على المبادرة بالهجوم ، وقبل أن يمضى ايلغازى إلى الحرب جدد الايمان على الأمراء والقاده أن يخلصوا فى حربهم « ويصابروا فى قتال العدو » فحلفوا على ذلك بنفوس راضية ، ومن ثم ساروا جرائد تجاه المعسكر الصليبى[2] .

بات الجيش الاسلامى قريبا من الصليبيين ، وتظاهر المسلمون بمبارة حصن مطل على تل عفرين « والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زردنا ، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت وأحاطوا بهم من كل جانب »[3] وعندئذ وقف القاضى أبو الفضل بن الخشاب وأخذ يحرض الناس على الجهاد ويحثهم على القتال « وخطب فيهم خطبة بليغة استنهض عزائمهم واسترهف هممهم بين الصفين ، فأبكى الناس وعظم فى أعينهم » .

انقض المسلمون فى فجر يوم الجمعة ٢٨ يونيو سنة ١١١٩ من الجهات الثلاث على الجيش الصليبى وطوقوه تماما ، وغدا من العسير بل ربما من المستحيل خروج

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤ (سنة ٥١٢ هـ)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٩ .

الصليبين من هذا المأزق ، وما لبث التركمان أن أخذوا فى حصد الصليبيين بالسيوف والسهام «وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ماوقع فى الخيل... من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والإتباع والغلمان » وأنزلت سيوف المسلمين القتل الجماعى بالصليبيين فى إبادة شبه تامة حتى إشتهرت هذه الموقعة عند الصليبيين بساحة الدم Ager Sangminis[1] ، لكثرة من صرع فيها حتى لقى روجر الانطاكى نفسه حتفه مع كثير من رجالات أنطاكية المبرزين ، فضلا عمن حل منهم أسرى ولم يستطع النجاه سوى قلة من الفرسان « دون العشرين رجلا »[2] ، انضموا إلى حامية الأثارب التى قدمت متأخرة بعد أن أحيط الصليبيون تماما فيممت وجهها مسرعه ناحية انطاكية كما فر قليل منهم أيضا نحو سرمين[3] ، فى حين لم يتكبد المسلمون خسائر تذكر بل ذكرت بعض الروايات أن خسائرهم لم تزد عن عشرين رجلا ، وغنموا غنائم كثيرة لايدركها حصر[4].

والواقع أن هذا الانتصار الذى أحرزه المسلمون كان يمكن أن يسفر عن نتائج بالغة الأهمية لو استغله ايلغازى كما يجب ، ليس فقط لما أصاب الصليبيين جميعا من رعب وذعر[5] ، على أثر مقتل روجر الإنطاكى ، بل أيضا لأن معظم قواتهم فى الشمال طحنتها المعركة حتى حاميات المدن والقلاع والحصون

---

(١) Groussel : Op. cit I.P.553

(٢) أسامه بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٩ .

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 150

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ص ٢٨٤ ( سنة ٥١٢ هـ )

(٥) Lane - poole : Saldin p.p. 47 - 8

المحيطة التى كانت قد التحقت بالقوات الرئيسية لأنطاكية لقيت حتفها أيضا[١]، مما جعل موقف الصليبيين فى الشمال يبدو بالغ الخطورة .

ولكن من حسن حظ الصليبيين أن ايلغازى لم يفد من هذا النصر الحاسم فى إسقاط انطاكية ذاتها بعد أن فقدت حاملها وجيشها وزهرة شبابها أو يصيب الكيان الصليبى فى الشمال بضربة قاصمة ، إذ يبدو أنه لم يبين خطته على أساس الإستفادة مما قد ينجم عن هزيمة الصليبيين إذ ذاك بل كان يستهدف ـ فى أغلب الظن ـ تقرير مصير حلب وبقائها فى أيدى المسلمين ، بعد أن أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى أيدى النورمان ، لذا لم يغير الانتصار كثيرا فى مراكز الصليبيين فى شمال الشام بقدر ما أسفر عن حماية حلب من أطماعهم وبقائها فى أيدى المسلمين كما لاحظ ذلك أحد مؤرخينا المحدثين[٢].

ومع هذا فقد أحدث هذا النصر دويا هائلا فى أرجاء المنطقة والعالم الإسلامى، وطبقت شهرة ايلغازى الآفاق وتغنى الشعراء بهذا النصر وسر الخليفة به كثيرا وخلع على ايلغازى خلع التشريف[٣]

لم يتجه ايلغازى إذن إلى أنطاكية وإنما قصد أرتاح وتريث حتى انضم اليه طغتكين بقوات دمشق ، فاتجها معا نحو الأثارب وزردنا واستوليا عليهما ،

---

(١) Samil ; Crusading warfare p. 57

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ١ ص ٥٠٦

(٣) مما مدح به ايلغازى قول العظيمى :

قل ما تشاء فقولك المقبول   وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حيث نصرته   وبكى لفقد رجاله الإنجيل

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤ (سنة ٥١٢هـ)

كما أرسلت فوق التركمان لتعيث فى أراضى انطاكية وضياعها بغرض السلب والنهب[١] .

وكان بلدوين الثانى قد وصل إلى الشمال وبادر بدخول انطاكية ، وبعد أن نظم شئونها إنتهز فرصة إنصراف ايلغازى عن متابعة جهوده ضد الامارة، وقام بإسترداد بعض القلاع والحصون من أيدى المسلمين منها كفر طاب والبارة ومعرة مصرين وسرمين ، وحاول الاستيلاء على زردنا إلا أنه إرتد عنها إلى انطاكية[٢] ومن ثم تجمعت فى الافق نذر حرب كبيرة بين الجانبين.

والواقع أن الحرب التى دارت بعد ذلك عند دانيث فى ١٤ أغسطس ١١١٩ بين ايلغازى وطغتكين من ناحية وبلدوين الثانى وأمراء الفرنج من ناحية أخرى كانت أول معركة كبيرة بعد الكارثة التى حلت بالجانب الصليبى فى ساحة الدم وغدت أهميتها بالنسبة للفرنج أنها معركة بقاء فى الشمال ، ومع هذا لم يكن إنتصارهم فيها حاسما بل انها لم تمنع ايلغازى من الاغارة على ممتلكات الفرنج فى أطراف امارة الرها وأعمال انطاكية[٣] ، كما سار فى خطته فى إستمرار مناوأتهم وإقلاق أمنهم ، فحشد جيشه عند عزاز فى يونيو ١١٢٠م ، ولولا ما أبدته جنود

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٢

(٢) نفس المرجع ص ١٩٤

(٣) طبقا لرواية متى الرهاوى : أنزل ايلغازى الدمار بالمنطقة بين تل باشر وكيسوم ( كيسون )

Metthieu d' Edesse , p. 127 - Grousset : Op. cit p.p. 574-5

التركمان من الضجر والضيق وعدم المثابرة[١] - تأكيدا لما سبق ذكره من أن هذه الطائفة كثيرا ما تعجلت المغانم والمكاسب قبل تحقيق الأهداف السامية - لاصبح الصدام مع الفرنج واقعا لامحاولة عند عزاز ، ولكن الأمر انتهى بعقد هدنة بين الطرفين ، ينتهي أمدها في مارس سنة ١١٢١ إعترف فيها ايلغازى بأحقية انطاكية فى أملاكها شرق نهر العاصى ، وما لبث ايلغازى أن عاد إلى ماردين وأناب عنه بحلب ابنه سليمان .

ورغم الاغارات التى شنها جوسلين أمير الرها على منبج وبزاعا والاثارب ، ورغم ما تعرضت له شيزر من مضايقات ، الا أن ايلغازى لم يكترث بشئون الشام كثيرا لانشغاله بحدثين عاقاه عن القدوم فى ذلك الوقت ، أولهما : تأييده لدبيس بن صدقة الذى قدم اليه بماردين هاربا من الخليفة المسترشد وارتبط به بعلاقة مصاهرة اذ تزوج بابنته ، ومن ثم غدت قضية خروج دبيس ومناوأته الخلافة تشغل حيزا من تفكير ايلغازى[٢] . وثانيهما : ما حدث من فتنة الكرج وخروجهم الى أطراف بلاد الاسلام والاغارة عليها واستنجاد الامير السلجوقى طغرل محمد صاحب أران ونفجوان بايلغازى ، فلما خرج هذا وبصحبته دبيس لحربهم تعرضوا جميعا لهزيمة ساحقة على ايدى الكرج وسقطت تفليس فى يد الملك داود زعيم الكرج ، وعاد ايلغازى ودبيس الى ماردين .[٣]

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٠٢ ( ٥١٤ )
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٨ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٤ - ٢٠٥
وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩١ - ٢٩٢ ( سنه ٥١٤ )

على أنه لم يحدث ببلاد الشام بعد ذلك شيء ذو بال يهم قضية الجهاد بقية أيام ايلغازى الذى توفى فى نوفمبر ١١٢٢ ( رمضان ٥١٦ ) ، سوى عصيان ابنه سليمان عليه بحلب ، وعقده صلحا مع الفرنج سلم لهم على اثره زردنا والاثارب مما هدد حلب مرة أخرى تهديدا صارخا لذلك قدم ايلغازى على عجل وقام بمعاقبة ابنه سليمان ونكل بمن زين له هذا العصيان ، ثم حاول استرداد ما أخذه الصليبيون، لكنه لم يدخل فى حرب سافرة معهم ، وعلى هذه الصورة انتهت صفحة الجهاد التى افتتحها هــذا الارتقى قبل أن يستأنف ابن اخيــه بلك بن بهرام مابدأه .

أما فيما يختص بطغتكين ، فقد حرص على مشاركة ايلغازى بعض لقاءاته مع الفرنج ، ولكنه آثر الانسحاب الى امارته لمراقبة التطورات فى جنوب الشام ، ثم انتهز فرصة انهماك بلدوين فى أحداث الشمال ، وقام بالاغارة على اقليم الجليل وأنزل به خسائر جسيمة ، مما دفع بلدوين فى ٥ يوليو سنة ١١٢١ الى القيام باغارة انتقامية على المنطقة الواقعة فى شرقى نهر الاردن ، غير أن طغتكين رفض الاشتباك مع قوات الفرنج وفضل العودة الى دمشق .(١)

تفككت أملاك الاراتقة بعد وفاة ايلغازى فملك أبنه سليمان ميافارقين وابنه تمرتاش ماردين وأبن أخيه سليمان بن عبد الجبار حلب ، وظل بلك بن بهرام محتفظا بخرتبرت ، ثم انتزع حران من سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندما أحس بضعفه وتخاذله وأضافها إلى امارته .(٢)

---

(١) Grousset : Op. Cit. I.p.579

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٣ ( سنة ٥١٧ )

كان بلك أنشط أمراء البيت الأرتقى حينئذ ، وأكثرهم طموحا ورغبة فى الجهاد ، وكان ايلغازى يثق فيه كثيرا ويعرف همته والدليل على ذلك أنه عهد اليه حينما كان شحنة للعراق باخضاع التركمان الخارجين الذين أفسدوا فى بعض أعمال العراق على طريق خراسان ، فقام فى ذلك القيام المرضى وحمى البلاد وكف الايدى المتطاولة ، (١)، وقد استطاع بلك ابتداء من عام ١١١٣ م أن يمكن لنفسه فى شمال شرق دياربكر ، ويقيم له امارة مستقرة جعل خرتبرت عاصمة لها منذ عام ١١١٥م ونجح فى الذود عنها من أطماع الامراء المحيطين ، بل غدا له نفوذ فى ملطية وفى الجهات المحيطة بفضل استفادته من التحالف مع آل دانشمند(٢)، كما انغمس بذلك ايضا فى أحداث شمال الشام مع عمه ايلغازى الذى عينه حاكما للأثارب (٣) ، وشارك فى الوقائع الأخيرة وخاصة فى حصار زردنا فى يونيو سنة ١١٢٢ قبل أن يعود ايلغازى إلى حلب ويقضى نحبه ، لذلك لم يكن غريبا ان يتمم بلك ما بدأه عمه ايلغازى بالنسبة للجهاد الدينى والحرب المقدسة .

بادر بلك بحصار الرها فى خريف سنة ١١٢٢ ( ٥١٦ هـ ) ، وبقى محاصرا لها فترة اقتنع خلالها بعدم جدوى الحصار لحصانة المدينة وحسن الدفاع عنها ، فقرر الانصراف عنها ، إلا أنه علم فى طريق عودته - قرب سروج - أن جوسلين قد حشد جيشه واشترك معه جاليران بقواته وتحركا للايقاع به ، فكمن لهما

---

(١) نفس المرجع ج ٨ ص ٢٢٩ وسنة ٤٩٨ .

(٢) Cahen : Encyc. Isl. art Artukids

(٣) Grousset : Op. Cit. I.p. 574

بقواته فى مكان مناسب [١] ، فلما وصلوا أمطرهم أصحاب بلك بوابل من النشاب « فلم يفلت منهم أحد » ، ووقع جوسلين نفسه فى الاسر وكثير من رجالاته وجاليران أيضا وطالب بلك من جوسلين تسليم الرها مقابل اطلاق سراحهم ولكنه رفض فحمل أسيرا الى قلعة خرتبرت [٢] .

صارت الوصاية على الرها بالاضافة الى أعباء انطاكية موكلة إلى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، ومع ضخامة هذا العبء ، وخطورة الاراتقة فى الشمال ، لم يقدر بلدوين الموقف حق قدره وانما شرع فى محاولة اعادة حدود انطاكية إلى ما كانت عليه قبل نشاط ايلغازى ، فقاد جيشه وجيش انطاكية وجيش الرها ، وضم اليه جموع الارمن وأغار على بزاعا إلى الشمال الشرقى من حلب ، وعلى بالس الى الجنوب الشرقى من حلب ايضا على نهر الفرات ، كما استولى على ألبيرة شرقى حلب ، فأصبحت حلب بذلك شبه مطوقة من جميع الجهات ، فلم يسع أميرها سليمان بن عبد الجبار بن ارتق إلا الدخول فى مفاوضات مع بلدوين فى ابريل ١١٢٣ ( صفر ٥١٧ هـ ) بقصد المهادنة والمصالحة نظير رد الاثارب إلى الفرنج [٣] .

أدى هذا الوضع فى الواقع إلى شعور بلدوين بالقوة ورأى أنه لم يبق إلا تخليص جوسلين من الاسر ، فحشد جيشه وخرج فى الوقت الذى كان فيه بلك

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٠٣ ( سنة ٥١٥ هـ )

(٢) Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate p. 117

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٨ ( سنة ٥١٧ هـ )

نازلا على حصن كركر (١) ، الواقع على نهر الفرات ، وكان تابعا لامارة الرهاء ويبدو أن بلدوين استهدف من هذه المحاولة انجاد الحصن ثم المسير لفك أسر جوسلين بعد ذلك ، لكنه ما كاد يعبر نهر سنجه وهو أحد روافد الفرات إلى ضفته الشرقية ، حتى انقض عليه بلك ، قرب قنطرة سنجة وأنزل به هزيمة قاسية فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣ (٢) وقع على أثرها بلدوين أسيرا فى يد بلك فلم يتوان فى حمله إلى قلعة خرتبرت ليسجن بصحبة جوسلين .

وهكذا غدت الامارات اللاتينية والمملكة ذاتها خلوا من أمرائها باستثناء طرابلس ولعل هذا الاهتزاز الذى أصاب الكيان الصليبى فى المنطقة كان ثمرة الجهاد فى ذلك الوقت بل أول تلك الثمار ، ولو استطاع المسلمون الاستفادة من هذا الوضع الذى أمست فيه الامارات اللاتينية ، لحققوا جانبا كبيرا من النصر ولاصابوا الفرنج بخسائر فادحة فى ممتلكاتهم وحوافز بقائهم لولا ماحدث لدعاة الجهاد الدينى فى هذه المرحلة أيضاً ، وما أصاب جهودهم من معوقات . حقيقة سارع الصليبيون فى الامارات الخالية والمملكة إلى تنظيم أنفسهم وسد الفراغ الناجم عن خلو السلطة بدفع الوصاية إلى شخصيات معروفة بمقدرتها على إدارة الأمور بنجاح فى مثل هذه الظروف ، فقام البطرق برنار دى فالنس بالوصاية على انطاكيـــة ، واختير استاش جرنيه حاكم صيدا

(١) نفس المرجع ج ٨ ص ٣١٢
وابن القلانسى : ذيل ص ٢٠٩

(٢) GrousSet /Op. Cit. I.p. 587

وقيسارية بالوصاية على المملكة ، ولما توفى هذا فى يونيو ١١٢٣ أختير وليم دى بورلاحتلال مكانه ، بينما تولى إدارة الرها جفرى الراهب فسارت الأمور دون تأثر كبير بغياب الحكام ، إلا أن ذلك لم يكن راجعا فى معظمه لمهارة هؤلاء الاوصياء بقدر ما كان راجعا إلى عدم إستغلال المسلمين لهذه الفرصة .

وكان أسر بلدوين الثانى وجوسلين على يد بلك ، وزهو بلك بهذا النصر فضلا عن تخاذل أمير حلب سليمان بن عبد الجبار أمام الفرنج حتى غدت حلب شبه مطوقة بأملاك وقوات الفرنج كل ذلك دفع بلك - وقد أمسى يحمل راية الجهاد الدينى - إلى إنتزاع حلب من يد أميرها المتخاذل والتصدى للفرنج ، وربما كان يفكر أيضا فى توحيد جبهة الاراتقة من جديد[١] .

ولم يكد بلك يستولى على حلب فى يونيو سنة ١١٢٣ حتى شرع فى مهاجمة ممتلكات أنطاكية فاستولى على البارة ، ثم توجه ناحية كفر طاب فى ٧ أغسطس سنة ١١٢٣ ولكن أتاه حينئذ خبر إستيلاء الأسرى الفرنج على قلعة خرتبرت ، فاتجه مسرعا ناحيتها بعد أن كان جوسلين قد تمكن من الهرب بينما إستولى بلدوين ومن معه على القلعة بمعاونة الأرمن فى تلك الجهات[٢] ، ونجح بلك فى استعادة القلعة من يد بلدوين قبل أن يتمكن جوسلين من العودة لتخليصه ، وأمر بنقله إلى حران ليسجن هناك بعيدا عن متناول الفرنج .

ترتب على عدم إستطاعة جوسلين تخليص الملك أن انصرف إلى الانتقام من المسلمين بالإغارة والسلب والنهب والقتل والعبث بقبور الأموات ، فى الوقت

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥١٣ .

(٢) Runcimun : op. cit. II.P; 163

الذى لم ينتهز بلك الفرصة ويعمل على سحق القوات الصليبية فى الشمال بل ألهته أحداث منبج وشغله خروج أميرها حسان البعلبكى عن طاعته على،لذا أتى الحصار هذا الحصن ولما حاول الفرنج أزاحته عنه تفوق عليهم وطردهم واستأنف حصاره ثانية ، غير أنه قرب يومامن الاسوار «ليختار موضعا ينصب فيه المنجنيق،[1] فأصابه سهم طائش « وقع فى ترقوته اليسرى فانتزعه..وقال هذا قتل المسلمين كلهم »[2] ، وأسلم الروح من وقته فى مايو سنة ١١٢٤ (ربيع الاول ٥١٨ هـ ) وكان قد عزم على المسير إلى صور لمدافعة الفرنج عنها وانجاد من بها من المسلمين ولهذا كان تعبيره الاخير فيه كثير من الصدق لان مقتله جاء خسارة أخرى لقضية الجهاد الدينى وما لبثت صور أن سقطت فى أيدى الفرنج بعد ذلك بقليل .

* * *

عانى الاراتقة بقد وفاة بلك عوامل الضعف والاضمحلال من جـــديد . ووقعت حلب فى يد أمير أرتقى أخر هو أحد أبناء ايلغازى ، ويدعى تمرتاش ولم يكن له من الهمة ما يستطيع أن يسير دفة الامور فيها بنجاح فى هذه الفترة الحرجة ، وخاصة أنها غدت مطمحا للامير دبيس بن صدقة الذى فـــر أمام جيوش السلطان والخليفه هذه المرة أيضا[3] ، ونزح الى الشام واتصل بالفرنج وأغراهم بالعمل معه ضد حلب[4]

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ص ٢١٨ - ٢١٩

(٢) ابن العديم : ص ٢١٩

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج٩ص٢٢٣،٢٤٣

(٤) ابن العديم . زبدة الحلب ج٢ص ٢٢٣.

وحيث أن دبيسا كان يعتنق المذهب الشيعى فقد وجد من الباطنية والشيعة داخل حلب تعضيداً ومؤازورة مما جعل تمرتاش يحاول التقرب إلى الفرنج لتخفيف روح العداء من حوله ، على أساس إطلاق سراح بلدوين، كما كان لوساطة أمير شيزر أبو العساكر سلطان بن منقذ أثرها فيما حدث من تقارب بين الجانبين فجرت مفاوضات بشأن اطلاق سراح الملك ومن معه مقابل فدية كبيرة يدفع بلدوين جزءاً منها مقدما والتنازل عن بعض القلاع والحصون قرب حلب وخاصة عزاز والاثارب وزردنا وكفر طاب وهى من أملاك انطاكية ، وعلى هذا الاساس أطلق سراح بلدوين فى صيف ١١٢٤م.

ولما لم يسيف بلدوين بوعده وخاصة فيما يختص بتسليم ، القلاع والحصون نظرا لمعارضة البطرق فى إنطاكية ، وظلت حلب مهددة من جانب الصليبيين ، ولما رآه تمرتاش من تكالب المطامع من حول المدينة، وكذلك لميله لحياة الدعة والرفاهية والانزواء وتفضيلة العافية لكل ذلك آثر تمرتاش ترك حلب فى حراسة أهلها وحامية من الفرسان والعودة إلى ماردين مترقبا وفاة أخيه سليمان ليرثه فى ممتلكاته هناك بالرغم من أن الإستيلاء على حلب غدا عصب السياسه الفرنجية فى شمال الشام وخاصة بعدما أصابوه من النجاح فى الاستيلاء على صور[1] .

وليس من شك فى أن حلب كانت الهدف الدائم لنشاط بلدوين الثانى فى هذه المرحلة لاهميتها بالنسبة للكيان الصليبى كله فى بلاد الشـــام [2]، ولانها كأكبر مركز إسلامى فى شمال الشام ، بدت خطورته حينما آل إلى رجال أشداء

(١) ابن الاثير : الكامل ٨٨ ص٣١٦ ( سنة ٥١٨ هـ )

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 105
Small Crusading Warfare. P. 30 .

كايلغازى وبلك ، لهذا كون بلدوين حلفا صليبيا إسلاميا لاسقاط المدينة ضم اليه دبيس بن صدقة الطامع فيها، وسلطانشاه بن رضوان الذى عزله الأراتقة عن حكمها وأنزلوه حران ، وسالم بن مالك صاحب قلعة جعبر الذى مهد لتحالف دبيس والفرنج[١].

وحاصر بلدوين وحلفاؤه حلب حصارا شديدا فى أواخر أكتوبر سنة ١١٢٤، وأتوا من الأعمال ما جعل أهل المدينة يستميتون فى الدفاع عنها قرابة ثلاثة شهور عانوا خلالها كثيرا « إلى حد أن أكلوا الــــكلاب والميتات ، وقلت الأقوات ونفذ ما عندهم وفشا المرض فيهم فكان المرضى يئنون لشدة المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقـال ، وزحفوا إلى الفرنج وردوهم إلى خيامهم ثم يعودون إلى مضاجعهم »[٢] .

أدت هذه المعاناة إلى استغاثة أهل حلب بتمرتاش فلم يعرهم اهتماما ولم يعبأ بهم فاتجهوا ناحية الموصل للاستنجاد بأميرها آقسنقر البرسقى الذى رحب بذلك ووجد فيه فرصة لاستئناف حركة الجهاد من جديد . ويعتبر حصار الفرنج لحلب هذه المرة أول حصار منظم لهـذه المدينـة وأطول حصار قاموا به لهـا حتى ذلك الوقت[٣]، كما يعتبر صمود حلب فى هذه المرة أيضا نقطة تحول فى حركة المقاومة الاسلامية .

قاد البرسقى جيوشه وانحدر ناحية الشام ، وهناك عند الرحبة كاتب طغتكين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٣

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) Small: op. cit. p. 30

أمير دمشق وخيرخان بن قراجا صاحب حمص للانضمام اليه ، ورحل ناحية بالس ثم استأنف سيره إلى حلب ، وما أن ظهرت قواته بالقرب منها حتى أصابب التداعى حلف بلدوين الثانى ، فرحل دبيس ناحية الشرق ، وأضطر بلدوين إلى التقهقر بين يدى قوات البرسقى ، وخرج أهل حلب للقاء البرسقى والترحيب به ثم سارت قوات البرسقى وراء الفرنج على مهل قاصدة - كما يبدو - ابعادهم عن المدينة دون رغبه فى الاشتباك معهم، فقال القاضى بن الخشاب البرسقى: « يامولانا لوساق العسكر خلفهم أخذناهم فانهم منهزمون والعسكر محيطة بهم » ولكن كان رد البرسقى أن : « قد كفى الله شرهم وندخل البلد ونقويه وننظر فى مصالحه ، ونجمع لهم انشاء الله ونخرج اليهم بعد ذلك » [١] ومن ثم انسحب بلدوين من أمام المدينة مسرعا لايلوى على شىء، ثم مالبث أن عاد إلى بيت المقدس فى أبريل سنة ١١٢٥ م ( ربيع الأول سنة ٥١٩ هـ ) ورجع البرسقى إلى الموصل بعد أن نظم شئون حلب . وهكذا بدخول البرسقى لحلب وجمعه بين حكمها وحكم الموصل أصبح يمثل خطرا كبيرا على الصليبيين فى شمال العراق والشام [٢].

والحقيقة أن البرسقى بما أضحى له من نفوذ فى هذه الجبهة المتحدة لم يأل جهدا فى مواصلة الجهاد إذ سرعان ما عاد إلى بلاد الشام وحرص على الظهـــور بمظهر الحاكم القوى الممثل للسلطان فى الاشراف على الولايات الاسلامية فى المنطقة وعندما وصل إلى تل السلطان استقبل صمصام الدين خيرخان أمير حمص ثم عرج على شيزر حيث خرج أميرها سلطان بن منقذ للقائه ثم قصد حماه وفيها قدم اليه طغتكين بجيشه .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥١٥ .

ولعل شعور البرسقي باتساع نفوذه وقوة بأسه دفعه إلى مهاجمة أملاك الصليبيين فبدأ بكفر طاب فاستولى عليها وسلمها لأمير حمص، وذلك في مايو سنه ١١٢٥ ثم اتجه بجيوشه ناحية زردنا لحصارها في الوقت الذي جمع فيه بلدوين جيوشه وخرج من بيت المقدس لإنجاد أنطاكيه وانضم إليه بونز أمير طرابلس وجوسلين أمير الرها ، وكان البرسقي قد اتجه بجيوشه وحلفائه ناحية عزاز ، وكانت إذ ذاك تابعة لجوسلين صاحب الرها[1] وألقى الحصار عليها إلا أن جيوش الفرنج بقيادة بلدوين لحقته عندها واستطاعت أن تنزل به هزيمة ساحقه[2] وقتل وأسر عدد كبير من جنوده وفر البعض الآخر من ميدان المعركة وغنم الصليبيون غنائم كثيرة استطاع بلدوين أن يدفع منها الفدية المقررة عن ابنته وابن جوسلين ورهائن الفرنج[3] . ثم عقدت الهدنة بين الجانبين واحتفظ المسلمون بكفر طاب وتسلم الفرنج رهائنهم وما لبث البرسقي على أثر هذه الهدنة أن قرر العودة إلى الموصل .

أما طغتكين فقد تعرض لغارة كبيرة من بلدوين الثاني قاد فيها جيشه وهاجم ضياع دمشق وأعمالها ، فخرج إليه طغتكين لمدافعته ، وعند تل شقحب إلى الجنوب الغربي من دمشق دارت معركة انتهت بانهزام قوات طغتكين وارتدادها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٨ ( سنة ٥١٩ )

(٢) نفس المرجع ص ٣١٩ .

(٣) كانت هذه الرهائن لدى بني منقذ منذ إطلاق سراح بلدوين احتفظوا بهم نظراً لعدم وفاء بلدوين بشروط الاتفاقية التي أطلق سراحه بموجبها . ثم سلمت الرهائن للبرسقي على أثر وصوله إلى شيزر . ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٢٢ .

إلى دمشق[1] ، غير أن طوائف التركمان الذين استعان بهم طغتكين استطاعوا أن يهاجموا المعسكر الصليبي في غياب فرسانه ونهبوه وقتلوا من صادفوه فيه[2] . ثم عاد بلدوين إلى بيت المقدس قبل أن يزحف إلى الشمال مرة أخرى .

كانت آخر مرة يعود فيها البرسقي إلى بلاد الشام حينما استغاث به أمير رفنية في مارس ١١٢٦ بسبب حصار بونز أمير طرابلس وبلدوين الثاني له . إلا أن البرسقي وصل بعد أن كانت رفنية قد سقطت فعلا في أيدي الفرنج بعد حصار استمر ثمانية عشر يوما وبوقوع هذه القلعة الحصينة في أيدي الفرنج أصبح الطريق بين أنطاكية وبيت المقدس آمنا[3] . ويبدو أن البرسقي لم يرغب في العودة صفر اليدين إذ قرر الاستفادة - في أغلب الظن - من نشاط الأسطول المصري حينئذ على الساحل الشامي وما نجم عن ذلك من انشغال الصليبيين ، وقام بالهجوم على الأثارب من أملاك أنطاكية لذلك سارع بلدوين الثاني وبصحبته أمراء الصليبيين لمواجهة البرسقي عند الأثارب .

ويبدو أن تعلق بصر بلدوين الثاني بنشاط الأسطول الفاطمي على الساحل قد أرغمه على مراسلة البرسقي طلبا للهدنة ؛ عارضا إرجاع رفنية للمسلمين والاتفاق على إعادة الحالة والأوضاع في المنطقة كما كانت في العام السابق ، فرحب البرسقي بهذا العرض الذي يجنبه كثيرا من العناء ووافق على عقد الهدنة والاحتفاظ بالوضع الراهن في شمال الشام ثم عاد إلى الموصل في ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢١٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (المجموعة III. P. 566)

(٢) أبو الفدا . منتخبات من المختصر في أخبار البشر ( المجموعة I.P.16)

(٣) Runciman: Op. Cit. II.P.174-5

ومن سوء حظ البرسقى أنه تعرض لمؤامرة دنيئة دبرها الباطنيون هناك فدفع حياته ثمنا لها فى نفس اليوم الذى عاد فيه إلى الموصل وخسرت الجبهة مرة أخرى شخصية شاركت فى قيادة الحرب المقدسة وكان يمكن أن تواصل رفع راية الجهاد فترة أخرى ، وكان البرسقى حسن السيرة خيرا دينا كثير الصلاة والعبادة أسلم الروح وهو صائم[1] وقد أفاضت المراجع فى وصف عدله وحسن سياسته[2] وتواضعه مع حبه للجهاد وتفانيه فى خدمة قضية المقاومة بقدر ما سمحت إمكانياته وما أتيح له من مساعدة .

تلك هى الفترة الممتدة من وفاة السلطان محمد حتى تولى زنكى أمر الموصل والجهاد هو جلت من خلال الاتجاهين المشار إليهما من قبل أى بما شهدته من تطور فى فكرة الحرب المقدسة من ناحية وكذلك بوصفها شهدت نقلة أخرى عدت تمهيداً لتوحيد الجبهة الإسلامية التى ظهرت على عهد زنكى من بعـــد ، فاستغلها أحسن استغلال .

---

(١) ابن العديم : منتخبات من بغية الطلب المجموعة III.P.717 .
وابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٣٠ (سنة ٥٢٠هـ)

(٢) ابن العديم : منتخبات من بغية الطلب ( المجموعة III.R.724 ) .
وابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣١ وابن القلانسى : ذيل ص ٢١٤ .

## ١ - ظهور زنكى وأهمية أمارته بالموصل

عبر ابن الأثير عن ارتياحه بولاية عماد الدين زنكى أمر حلب بقوله : « ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بملك أتابك بلاد الشام لملكها الفرنج » ، إذ خلا الشام « من رجل يقوم بنصر أهله فلطف بالمسلمين بولاية عماد الدين »[1] والحقيقة أن ظهور عماد الدين زنكى فى ذلك الوقت جاء عوضا عما فقدته الجبهة الإسلامية من رجال حملوا لواء الجهاد سنين طويلة وأعطوا قضية المقاومة ضد الصليبيين كل ما استطاعوا من جهد وعرق وأولوها كل عناية واهتمام ، وبتولية عماد الدين زنكى أمر الموصل وحلب توشك أن تبدأ صفحة جديدة فى قضية الجهاد الدينى ، صفحة فيها إشراق وفيها مجد وفيها حصاد ، حصاد سنين طويلة من الآلام والمحن وإن لم يزد عن كونه بعض الحصاد .

وزنكى هو الإبن الوحيد لقسيم الدولة آق سنقر ، صاحب السلطان ملكشاه وأمير حلب على عهده ، والذى دفع حياته ثمناً لإخلاصه لورثة ملكشاه ، حينما قتله تتش وهو خارج لطلب السلطنة سنة ١٠٩٣ ميلادية (٤٨٧هـ) ولم يكن زنكى عند مقتل والده قد تجاوز العاشرة من عمره « فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه وفيهم الأمير زين الدين على كوجك بن بكتكين »[2] .

وحينما خلص كربوغا من السجن بعد مقتل تتش واستولى على الموصل أحضر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٧ و(سنة ٥٢٢هـ) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨ . أبوشامه : الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٧ .

مماليك قسيم الدولة آقسنقر وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكى وقال : « هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته » وعندما سار كربوغا إلى آمد للاستيلاء عليها استنجد صاحبها بسقمان بن أرتق وطوائف التركمان ، فخرجوا لقتال كربوغا ورأى كثرتهم عمد إلى زنكى وألقاه بين مماليك والده وقال لهم : « قاتلوا عن ابن صاحبكم » فحينئذ اشتد قتالهم وحمى وطيس المعركة وهزموا سقمان والتركمان ، وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين بعد قتل والده »[1] ، وظل عماد الدين فى رعاية كربوغا حتى وفاته فى عام ٤٩٥هـ (١١٠٢م) .

استولى على الموصل بعد كربوغا موسى التركمانى ، ثم شمس الدولة جكرمش من مماليك السلطان ملكشاه أيضاً ، لذا قرب عماد الدين زنكى لمعرفته السابقة بوالده ثم ملك الموصل بعده جاولى سقاوه ، فاتصل به عماد الدين زنكى « وقد كبر فظهرت عليه إمارات السعادة والشهامة وبقى معه حتى عصى جاولى على السلطان محمد وفارق الموصل إلى الشام ، وعندما علم زنكى بوصول الامير مودود إلى الموصل فارق جاولى وعاد إلى الموصل واتصل بمودود فرأى هذا فيه رجاحة عقل وشجاعة فائقة فقربه اليه » وزاد فى إقطاعه وشهد معه حروبه » . ومما حكاه ابن الاثير عن شجاعة زنكى ابان حروب مودود ما حدث فى الحملة على المملكة الصليبية ومهاجمة طبرية فى صيف سنة ١١١٣ م .

ذلك أن زنكى كان بصحبة نفر من الفرسان وعندما رأى جماعة من الفرنج حث أصحابه على المبادرة بمهاجمتهم وحمل عليهم ظانا أن أصحابه يتبعونه ولكنهم فى الواقع كانوا قد تخلوا عنه وتقدم زنكى بمفرده غير عابىء بالاخطار « فانهزم بين يديه من بظاهر البلد من الفرنج ودخلوا البلد ووصل رمحه الى باب البلد »

---

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٦، ابو شامة : الروضتين ج١ ق١ ص٦٧ .

فأثر فيه ، فقاتلهم عليه وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ، ولما لم ير أحدا وحمى نفسه وعاد سالما وعجب الناس من إقدامه أولا ومن سلامته آخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج ، [١] وأشتهر زنكى على أثر ذلك بزنكى الشامى [٢] .

تولى أمر الجهاد بعد مودود آقسنقر البرسقى فحرص على استصحاب زنكى فى هجومه على الرها وعلى أملاك الصليبيين فى الجزيرة ، وأبلى عماد الدين زنكى فى هذه المواقف كلها بلاء حسنا وعادت العساكر تتحدث بما فعله ... وما ظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقى إلى بغداد وبقى زنكى بالموصل مع جيـوش بك والملك مسعود إلى سنة ٥١٤ هـ ، وقد علا قدره وظهر أسمه ، [٣] .

ولما خلع مسعود وجيوش بك طاعة السلطان محمود وعزموا على الخروج لمحاربته عارضهما زنكى ، وكان يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ويحذرهم عاقبة العصيان فلم يرجعا إلى قوله وبلغ قوله إلى السلطان فعرفه له ، . وعلى أثر أنتهاء تلك الفتنة عهد السلطان بالموصل إلى البرسقى مرة ثانية فى أوائل عام ٥١٥ هـ ( ١١٢٠ - ١١٢١ ) ، وسيره اليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند اشارته ، [٤] .

اشترك زنكى بعد ذلك مع البرسقى فى الحرب التى شنها ضد دبيس بن صدقة

---

(١) أبن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٨

(٢) Lane - Poole: Saladin .P. 37

(٣) ابو شامة : الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٩ .

(٤) أبن الاثير : التاريخ الباهر ص ٢٤ .

فى نهاية عام ٥١٦ هـ وأوائل عام ٥١٧ هـ ( ١١٢١ — ١١٢٢ ) وأقطع زنكى مدينة واسط وأضيف اليه شحنكية البصرة فقام فيها خير قيام [١] ، ولما عاد البرسقى إلى الموصل استدعى زنكى ليسير معه إلى الموصل وهذا ما دفع زنكى إلى إظهار التبرم من كثرة التنقل وعدم الاستقرار نزولا على رغبة الأمراء لذلك فضل أن يسير إلى خدمة السلطان فلقى منه كل تكريم، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان لا يتقدمه أحد ، فمنحه السلطان إقطاع البصرة فكان له فضل استقامة الامـــور بجنوب العراق إذ أمن الطرق وضرب على أيدى المفسدين وواصل السلطان بأخبار العراق [٢] .

توترت العلاقات بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بسبب موقف برنقش الزكوى شحنة بغداد الذى خرج مغاضبا الخليفة شاكيا اياه إلى السلطان تاقماعلى الخليفة — كما يبدو — طموحه وقوة شخصيته وتطاول رجال السلاجقة بالعراق بجانبه تخوفا السلطان عاقبة كل ذلك مما دفع السلطان إلى دخول بغداد فى عام ١١٢٦ ( ٥٢٠ هـ ) حيث جرت بعض الاحتكاكات بين عسكره وعسكر الخليفة [٣] فأرسل الخليفة جيشا يقوده أحد رجاله يدعى عفيف الخادم إلى واسط وفيها زنكى وكان منصرفا اذ ذاك إلى إقرار الامور بالبصرة ، لكنه مالبث أن عبر إلى عفيف عند واسط وأنزل به هزيمة ساحقة وأسر كثيرا من رجاله ومع ذلك فقد تجاوز عن عفيف نفسه حتى نجا من القتل أو الاسر لمودة كانت

---

(١) إبن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٠ .

(٢) إبن الاثير : التاريخ الباهر ص ٢٨ .

(٣) إبن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٢٥٥ - ٢٥٩

بينهما» (١) . ولما أرسل السلطان إلى زنكى يأمره بالحضور بنفسه ومعه الجند فى البر والماء حشد زنكى السفن من البصرة وواسط والبطائح «وأصعدفىالبر والسفن سائرة فى الماء فلما قارب بغداد نشر الأعلام وأظهر السلاح وأخرج بعض من فى السفن إلى البر فامتلأت الارض والماء رجالا وسلاحا فرأى الناس منظراً عجيبا وعظم ذلك فى أعينهم وركب السلطان والعساكر فرأوا ما ملأ قلوبهم وعيونهم وإزداد عماد الدين عند السلطان منزلة وإستدل على كفايتـه ونهضتـــه وحسن سياسته » (٢) .

أضطر الخليفة أمام هذه الحشود إلى مراسلة السلطان طالبا الصلح وتم الصلح بينهما وأقام السلطان ببغداد فترة ثم قرر الرحيل فأراد ان يولى حاكما على العراق يأمن معه الفتن والقلاقل فلم يجد خيرا من عماد الدين زنكى فولاه شحنكية العراق مضافا إلى ما بيده من الاقطاع « وسار السلطان عن بغداد وقد أطمأن قلبه من جهة العراق » (٣) .

وهكذا كان زنكى يرتقى سلم الوظائف فى الدولة ويعلو ذكره يوما بعد يوم ، وليس من شك فى أن زنكى كان على قدر كبـــير من الذكاء والكفاية والطموح بجانب شجاعة ومهابة وكلها صفات أهلته القيام بدوره كاملا فى السنوات التـالية .

تطورت الامور فى الجبهة التى تعنينا تطورا ساعد زنكى على الوصول إلى حكم

---

(١) أبن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢١ ، والتاريخ الباهر ص ٢٩ .

(٢) أبن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٠ .

(٣) أبن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣١ .

الموصل واحتلاله الصدارة فى تلك الجبهة . ذلك أن البرسقى أغتيل بالموصل - كما سبقت الاشاره - فى نوفمبر ١١٢٦ ( ذى الحجة ٥٢٠ هـ ) وكان ابنه عز الدين مسعود بحلب حينئذ ، فلما علم بمقتل والده سار مسرعا إلى الموصل واستولى على الحكم بها ، وطلب من السلطان أن يقره على أملاك والده فوافق السلطان وأصدر منشوره بذلك .

وما لبث مسعود بعد ذلك أن حشد جيشه وسار فى طريقه إلى بلاد الشام ربما قاصدا تأكيد سلطانه فى تلك البلاد ومحاربة الفرنج صلة لما بدأه والده وتكملة لمشروعاته فى المنطقة ، وربما قاصدا الانحدار إلى دمشق لتملكها [1] وضمها إلى أملاكه بالرغم مما ذهب اليه المؤرخ إبن العديم من أنه كان يضمر السوء للشام وأهله ، إذ كان يظن أن قاتل أبيه قوم من أهل حماه فأضمر للشام وأهله شرا عظيما ، [2] . وكيفما كان الأمر فقد بدأ بالرحبة فحاصرها ثم مالبث أن استولى عليها وتسلم قلعتها لكنه لم يكد يهنأ بهذا الفتح حتى توفى فجأة قبل أن يبدأ مشروعه فى بلاد الشام [3] فقام بعده أخ له صغير ودبر أموره مملوك للبرسقى يعرف بجاولى الذى بعث إلى السلطان يطلب أن يقر الامر لولد البرسقى وكانت رسله فى ذلك القاضى بهاء الدين أبو الحسن بن القاسم الشهرزورى وصلاح الدين محمد الياغيسيانى ، فسارا إلى بغداد لمقابلة السلطان .

على أن الشهرزورى والياغيسيانى كانا يخافان من جاولى ، ولا يرضيان بطاعته

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٤ ( سنة ٥٢١ هـ ) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ - ٢١٧ .

والتصرف بحكمه ، ففي بغداد التقى الباغيسياني بنصير الدين جقر الذى كان أعظم أصحاب زنكى منزلة وكانت تربطه فى نفس الوقت بالباغيسياني علاقة مصاهرة فخوفه جقر من أطماع جاولى وحذره منه وقال له : « إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الرأى ... فأجابه إلى ذلك وأخذه إلى القاضى بهـــاء الدين بن شهرزورى وتحدثا معه » [1] .

وفى لقاء هذين المبعوثين بوزير السلطان وهو حينئـــذ أنوشروان بن خالد قالا له : « .... أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان البرسقى يكف بعض عاديتهم ، فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده طفل ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها ، وقد أنهيت الحال اليك لئلا يجرى خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من الله واللوم من السلطان » .

رفع الوزير هـــذا المعنى إلى السلطان فاستحسنه وطلبهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية ، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره فمال السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفاية عقله لمـا تولاه » [2] ، وكتب منشوره بذلك إلى بغداد . وهكذا تمت الخطوة الكبيرة فى حيـاة زنكى بولاية الموصل ، وغدا أبوسمه أن يكتب صفحة جديدة فى قصة الجهاد الدينى وربما أهم تلك الصفحات حتى ذلك الوقت .

أما بالنسبة لأهمية إمارته بشمال العراق ، فن غير شك كان للموصل جانب

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥ .

هام من الفضل فى إعطاء دفعات قوية لرواد الجهاد الدينى ، وقادة حركة المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين ، وقد سبقت الاشارة من قبل إلى دور هذه الامارة وإمكانياتها الكبيرة بالنسبة لقضية الجهاد ، كما سبقت الاشارة أيضا إلى أن السلطنة السلجوقية على عهد محمد بن ملكشاه لم تتهيأ لها الفرصة كاملة لانفاذ الحملات ضد الصليبيين إلا بعد أن ضمنت قيادة هذه الامارة ووضعتها فى أيدى أمينة قبل البدء فى جهاد الفرنج ، وليس ذلك غريبا إذا علمنا أن قربها من مسرح الاحداث وعظم إمكانياتها البشرية والمادية فيه عون كبير لقواد الحرب فى تلك المنطقة ، بل أن خطورة الجانب الاسلامى بالنسبة للجانب الصليبى لم تتضح بصورة فعالة ، إلا بعد أن توحدت الجبهة التى تضم الموصل وحلب أى شمال العراق وشمال بلاد الشام ، ومن ثم لم تستطع الامارة اللاتينية فى شمال الجزيرة الصمود أمام ضربات المسلمين بعد أن وحدوا تلك الجبهة فسقطت قبل غيرها من الامارات اللاتينية وتداعت سريعا أمام قوة هذه الجبهة .

* * *

## ب - وضع أساس الجبهة الاسلامية المتحدة وضم حلب

سار زنكى ناحية الموصل وكان بها إذ ذاك جاولى مملوك البرسقى — وفى طريقه أستولى زنكى على البوازيج [1] ، ليجعلها مركزا له إذا حدث ودافعه جاولى عن المدينة أو صده عنها ، غير أن جاولى حين علم بوصوله خرج على رأس جيشه لاستقباله، بل أنه ترجل عن جواده وقبل الارض بين يديه وعرض الدخول فى خدمته ، وعندئذ لم يسع زنكى إلا أن يقطعه الرحبة وأعمالها [2]، ودخل هو الموصل فى رمضان فى سنة ٥٢١ ﻫ ( سبتمبر سنة ١١٢٧ ) ، وطفق ينظم شئونها ويضع رجاله الأوفياء فى وظائفهم الجديدة كمعاونين له فى حكم هذه الامارة ، فولى نصير الدين جقر دزداريه القلعة فى الموصل وغيرها من القلاع ، وجعل صلاح الدين الياغيسيانى أميرا حاجبا وجعل بهاء الدين الشهرزورى قاضى قضاه بلاده جميعا ، وما يفتحه من البلاد « وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم أنبساطا معه وقربا منه » [3] ، وهكذا كافأ زنكى هذه النخبة من الرجال على وفائهم له وأتيح له فى نفس الوقت أن يستفيد من إخلاصهم وحسن معاونتهم له فى شئون الولاية .

على أن زنكى تحرك سريعا منذ استيلائه على الموصل فى سبيل وضع أساس

---

(١) بلدة قرب تكريت على فم الزاب الاسفل عند مصبه فى دجله . ياقوت : معجم ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٤ .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٥ .

الجبهة الاسلامية المتحدة ، وضم المدن والحصون والقلاع المحيطة ، ثم ضم حلب إلى تلك الجبهة وربط شمال العراق بشمال الشام ، والتأهب للاضطلاع بدوره ضد الفرنج كاملا مستفيدا مما غدا له من القوة فى تلك الجبهة العريضة .

بدأ زنكى بالاستيلاء على جزيرة ابن عمر . وكان بها بعض مماليك البرسقى فامتنعوا أول الأمر من تسليمها اليه . فلما جد فى قتالهم استسلموا فى النهاية وسلموها اليه طائعين[1]. قصد زنكى بعد ذلك نصيبين . وكانت تابعة لحسام الدين تمرتاش ابن ايلغازى ، فألقى الحصار عليها فسارع تمرتاش بطلب النجدة من ابن عمه داود بن سقمان صاحب حصن كيفا الذى وعده بجمع الجند ونجدته . ولكن قبل أن يتمكنا من انجاد المدينة كان زنكى قد استولى عليها بالامان من حاميتها[2] .

واصل زنكى سياسته فى ضم المدن والبلدان القريبة ، وتأكيد سلطانه فى شمال العراق كله ، فبعد أن فرغ من نصيبين سار إلى سنجار فامتنعت عليه فى أول الأمر وقاتله أهلها ولكنهم مالبثوا أن استسلموا له ودخلوا فى خدمته ، فجعل زنكى من هذه المدينة مركزا لبسط هيمنته على شمال شرقى الموصل حيث أخذ فى إرسال الفرق إلى الخابور فملكه جميعه[3] ، ثم اتجه ناحية حران ، وكان أهلها فى ضر عظيم مع فرنج الرها ، لذلك سارعوا بالدخول فى طاعته بل حثوه على الوصول اليهم وخرجوا إلى لقائه ، واستبشروا بقدومه ، واتبع هذا بأن أرسل إلى جوسلين كونت الرها ، وهادنه مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء

---

(١) أبن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٥ ( سنة ٥٢١ هـ ) .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) أبن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٧ .

على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية وإصلاح شأنها ، وكانت الهدنة لمدة سنتين خطط زنكى أن يفرغ خلالها من مسألة توحيد الجبهة الاسلامية فى أغلب الظن [1] .

غير أن ما كان يشغل بال زنكى حينئذ ويحظى باهتمامه هو الاستيلاء على مدينة حلب أكبر المراكز الاسلامية بشمال الشام ، فى سبيل تدعيم الجبهة التى شرع فى إقامتها وتقويتها ، وكانت حلب قد أخذت تمر بفترة حرجة منذ مقتل البرسقى ووفاة ابنه مسعود ، طمع الفرنج فيها حتى أنهم قاسموا أهلها « على رحا بباب الجنان ، بينها وبين المدينة » .

ذلك أن مسعودا كان قد استناب بها أميرا يدعى قومان « تومان » قبل أن يمضى إلى الموصل ، ولكن مالبث أن وصل إلى حلب أمير آخر يدعى قتلغ أبه « ربما معينا من قبل السلطان وبموافقة من مسعود الذى كان يحاصر الرحبة حينئذ غير أن قومان رفض تسليم حلب اليه ، واحتج بأنه لم يتلق أمرا بذلك من مسعود ، فارتد قتلغ إلى ناحية الرحبة لاطلاع مسعود على ذلك إلا أنه وصل بعد وفاته ، فقرر العودة مرة ثانية إلى حلب مسرعا ، وعندئذ سلم اليه الرئيس فضائل بن بديع البلد ، وأنزل قومان من القلعة دون مقاومة ، بعد أن علم بوفاة صاحبه وتسلم قتلغ القلعة فى جمادى الآخر سنة ٥٢١ ( يونيو - يوليو ١١٢٧ م ) [2] .

غير أن قتلغ هذا بالغ فى ظلم أهل المدينة حتى مد يده إلى أموال الناس

---

(١) Runciman ; op. Cit .11.P.182

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

لاسيما التركات » (١) ، مما أحنق الأهالى وجلب استياءهم ،فاتفقوا على مناهضته، وأسرعوا إلى بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وكان حينئذ مقيما بحلب وسبق أن حكم المدينة ، فأقاموه أميراً وقبضوا على أصحاب قتلغ أبه فى شوال من نفس العام، وكان هؤلاء قد أكثروا من الفساد وطرحوا القيم وجاهروا بشرب الخمر ، ثم مالبثت الجموع الغاضبة أن زحفت إلى قلعة المدينة التى اعتصم بها قتلغ نفسه (٢) .

أدت هذه الأحداث المتلاحقة إلى تدخل الامير حسان صاحب منبج والامير حسن صاحب بزاعا بغية تهدئة الامور فى المدينة وربما خوفا من انتهاز الفرنج لهذه الفرصة ومهاجمتها ، وربما أيضا طمعا فى الامارة ذاتها ، ومهما كان الامر فقد باءت جهودهما بالفشل « ولم ينصلح الامر » ، ثم كان قدوم الملك ابراهيم بن رضوان « فأدخله أهل حلب البلد ونادوا بشعاره » (٣) .

أطمعت هذه الفوضى فعلا كلا من جوسلين أمير الرها وبوهمند الثانى أمير أنطاكية فزحف الاول بقواته إلى المدينة «فصانعوه بمال حتى رحل عنهم » (٤) ثم وصل بوهمند الثانى « فخندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها (٥) وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذى الحجة سنة ٥٢١ هـ

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٦ ( سنة ٥٢٢ هـ )، ابن القلانسى : ذيل ص ٢١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة

(٤) أبو الفدا : منتخبات من المختصر ،( Rec. Hist.or.I.P.17 )

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٦ ( سنة ٥٢٢ هـ )

( نوفمبر ١١٢٧ ) فخرج الملك ابراهيم بن رضوان وبدر الدولة سا . . . عبد الجبار والرئيس فضائل بن بديع وجماعة من أهل حلب ، ودارت ا مع الفرنج « فاستقر الامر على الهدنة مدة وحمل إلى بيمدما اقترحه بعد أن أشرف البلد على الهلاك [١] ».

وكان زنكى قد استولى على الموصل فى سبتمبر سنة ١١٢٧ ، وتطلع إلى حلب كما سبقت الاشارة ، وخاصة أن منشور السلطان ينص على ولاية الموصل والجزيرة والشام ، كما أن فى ملكه حلب بالذات إعادة لنفوذ الزنكيين على هذه الامارة التى كانت يوما لقسيم الدولة والد عماد الدين [٢] ، لهذا سير زنكى بعض رجاله للاستيلاء عليها ونجح صلاح الدين الياغيسيانى فى الاستيلاء على قلعة المدينة ورتب أمورها ومالبث زنكى أن زحف بجيشه ناحيتها .

وفى طريقه استولى على منبج والبزاعا ، ففتح بذلك الطريق بين الموصل وحلب ، وعندما قرب من حلب خرج اليه أهلها ، فاستقبلوه بالبشر والترحاب وتقدم فدخل المدينة وسط هذه المظاهر من الحفاوة ، فقبض على قتلغ وسلمه إلى ابن بديع فسمل عينيه ، فقضى نحبه وتولى رئاسة حلب أبو الحسن على بن عبد الرازق [٣] .

وليس من شك فى أن استيلاء زنكى على مقاليد السلطة فى هذه الامارة الكبيرة كان نهاية فترة حرجه ونهاية عهد من الفوضى شهدته حلب ، وبداية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٩ .

(٢) Gousset: op. Cit. P. 668

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .

صفحة جديدة فى تاريخها وفى قصة الجهاد الدينى ضد الصليبيين ، وخاصـــة أن طغتكين لم يلبث أن توفى فى فبراير سنة ١١٢٨م (صفر سنة ٥٢٢ هـ) ولم يمض على تولى زنكى على حلب أكثر من شهر ، وكان طغتكين يضطلع بدور فى الجهاد سواء رضى أم كره ، فلما خلت البلاد منه كان زنـكى يوشك أن يحمـل اللواء ويرفع راية الجهاد فى المنطقة .

على أن زنكى خطابعد ذلك خطوتين أوضحتا بما لايدع مجالا للشك دبلماسيته ويقظته لكل ما يمنحه فرصة تأكيد سلطته واكسابه الشرعية اللازمة، ففى حلب عمد الى الزواج من الخاتون ابنة الملك رضوان ، الوريثةالشرعيةلبيت السلاجقة فى حلب [١] ، آملا أن يكسب حكمه الشرعيه اللازمة من وراء هذا الزواج السياسى ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان فى شمال الشام [٢] أما الخطوة الثانية فهى ذهابه الى بلاط السلطان محمود فى العام التالى سنة ١١٢٩م (سنة٥٢٣هـ) عندما أحس أن نية السلطان تتجه الى اقطاع الموصل والبلاد التى فى حوزته الى الامير العربى دبيس بن صدقه بالرغم من معارضة الخليفة المسترشد لهذه الخطوة نظراً لانضمام دبيس من قبل للفرنج وإطماعهم فى حلب وبعض بلاد المسلمين ، وكان السلطان سنجر قد أشار على ابن أخيه محمود بذلك على أثر الصلح الذى عقد بينهما عام ١١٢٨م (٥٢٢هـ) إذ قال له . وتحول زنكى عن الموصل والشام وتسلم البلاد إلى دبيس وتسأل الخليفة ان يرضى عنه» [٣] ونظرا لاستمرار معارضة الخليفة ولأن زنكى بادر بالمثول بين يدى السلطان وحمل معه هدايا ثمينه ، طرح

---

(١) كان ابراهيم بن رضوان قد هرب إلى نصيبين على أثر سماعه بقرب قدوم زنكى إلى حلب ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٤٢،٢٤٣

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥١٦

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٨

السلطان جانبا مسألة تولية دبيس واستقبل زنكى وأكرمه وأعاده الى الموصل ومعه « التواقيع السلطانية بملك الغرب كله » [١] أما فيما يختص بدمشق ، فقد تولى بعد وفاة طغتكين فى فبراير سنة ١١٢٨ ابنه تاج الملوك بورى وقد أثبت هذا الأمير الجديد همة وكفاية واتجه فى حكم دمشق اتجاهات غايرت فى بعض جوانبها اتجاهات والده وأعطت حكمه شيئا من التميز رغم قصره . ذلك أن طغتكين كان يغضى الطرف عن الباطنية ونشاطهم فى دمشق وغيرها من البلدان التابعة له ، بل ان وزيره أبو طاهر المزدقانى كان يحيط هذه الطائفة برعايته ويمد يد العون لداعيهم بهرام الذى اتخذ من بانياس مقرا لعملياته ، ودأب على استخدام اتباعه فى الاغتيال والسلب والنهب [٢] .

ولما قتل بهرام بسبب مؤامراته واغتيالاته المتكررة قام فى الأمر بعده اسماعيل العجمى « رفيقه فى الضلال والعدوان » ، واستمر المزدقانى فى ممالاة هذه الطائفة ومد يد العون لهذا الداعى الجديد ، وقد راقب بورى نشاط هذه الفئة بشىء من الضيق والحنق وأنكر على وزيره هذا الميل وبيت العزم على وضع حد لهذه الفئة ، وفى سبتمبر ١١٢٩ م ( رمضان سنة ٥٢٣ هـ ) أمر بورى بقتل وزيره المزدقانى وإحراق جثته « لينظر الكافة إلى صنع الله تعالى بمن مكر واتخذ معينا سواه » وسرعان ما ثار الأحداث والغوغاء فقتلوا من ظفروا به منهم ، وهرب بعضهم وتفرقوا فى النواحى القريبة ، ومنهم من لجأ إلى الفرنج ، وسارع اسماعيل الداعى إلى مراسلة الفرنج فى بيت المقدس وسلم بانياس لبلدوين الثانى [٣].

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤٤

(٢) ابن القلانسى: ذيل ص ٢٢١

(٣) Grousset : Op cit I.P.P. 661-2

شجعت هذه الأحداث بلدوين الثانى على مهاجمة دمشق فانتهز فرصة هذه الاضطرابات فزحف فى نوفمبر ١١٢٩ (ذى القعدة ٥٢٣ هـ) على رأس القوات الصليبية [... بانياس ، ومنها تقدم ناحية دمشق]، وخيم بقواته الكبيرة قرب المدينة وكان بورى قد حشد جيشه وضم اليه جموع التركان وجماعات العرب تحت قيادة الأمير مرة بن ربيعة وأخذ يرقب تحركات الفرنج عن كثب ، فتناهى اليه خبر خروج فرقة من فرسان الفرنج من المعسكر الصليبى قاصدة حوران لجلب الميرة والغلال وحينئذ جرد بورى فرقة من جيشه من الدماشقة والتركان والعرب على رأسها الأمير مرة والأمير سوار فى عسكر حماه ، واستطاعت هذه الفرقة أن تنزل الهزيمة الساحقة بالفرنج عند براق قرب حوران وفر قائد الفرقة الصليبية وليم دى بور « كليام دبور »[١] منهكا فى حين وقع القتل والأسر فى أغلب قواته وغنم المسلمون منهم « من الكراع والسلاح والأسرى والغلمان وأنواع البغال شىء لا يحصر ... ولم يسلم منهم ... إلا القليل من الخيالة » لذا أصبح من الصعوبة بمكان استمرار الفرنج فى مشروعهم ضد دمشق فقرروا الانسحاب فى ٥ ديسمبر ١١٢٩[٢] والاحجام عن مهاجمة المدينة فأحرقوا أثقالهم وآلاتهم وعددهم وسلاحهم ورحلوا عائدين « لا يلوون على منقطع ولا يقفون على مقصر » وهكذا وضح مدى استعداد بورى للدفاع عن إمارته والتصدى للفرنج وقتالهم .

على أن زنكى وقد فرغ من ضم حلب أخذ يتطلع إلى الامارات الأخرى فى بلاد الشام ، وكانت حينئذ ثلاثة أمارات هى من الشمال إلى الجنوب : امارة

---

(١) - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٦

(٢) - Grousset : Op cit I.P.665

شيزر فى حوض نهر العاصى وعليها الأمير العربى سلطان بن منقذ ، أما الثانية فهى إمارة حمص وأميرها خيرخان بن قراجا ، والثالثة إمارة دمشق وعليها تاج الملوك بورى بن طغتكين ،وكانت أهم الامارات الثلاث إذ امتدت من حماه شمالا إلى حوران جنوبا (١) .

أما أمير شيزر ابن منقذ فقد تابع سياسة الأسرة فى التكيف مع القوى المجاورة، لذلك آثر عدم الدخول فى صراع مع القوة الجديدة فى المنطقة ، وفضل الارتباط بالتبعية لزنكى مجنبا نفسه وامارته خطر التصدى لهذا الحاكم الجديد. وسار خيرخان ابن قراجا فى نفس الاتجاه وحاول محالفة زنكى ربما ليستفيد من وراء ذلك زيادة اتساع اماراته وتأمينها ، وخاصة أنها تقع بين حماه شمالا ودمشق جنوبا وهما فى حوزة بورى . إذن لم يكن ببلاد الشام حينئذ من يستطيع الوقوف فى وجه زنكى سوى حاكم دمشق بالرغم من أن امارته أضحت الشغل الشاغل لزنكى الذى أراد بضمها إلى الجبهة الاسلامية إعطاء دفعة قوية لفكرة الجهاد الدينى والحرب المقدسة ضد الصليبيين فى بلاد الشام .

وليس من شك فى أن زنكى كان يأمل الإستيلاء على دمشق سريعاً وعقب توطيد حكمه فى حلب لما تكفله امارة دمشق بإمكانياتها الكبيرة لجهوده من نجاح ضد الصليبيين بل أنه لم يفكر فى هذه المرحلة بالذات فى بدء الجهاد ضد الفرنج قبل أن يحدد وضع الامارات الإسلامية فى الشام منه ومن حركته وخاصة إمارة دمشق ، التى كانت دائما تنازع حلب التفوق والغلبة (٢) .

---

(1) Grousset: Op. Cit. I.P.P. 669-70

(2) Ibid: Op. Cit. I.P. 670

على أن الاتجاهات الغالبة لدى المؤرخين المحدثين توحى بفهمهم لقدوم زنكى فى أوائل عام ١١٣٠م (٥٢٤ هـ) على رأس جيشه ودخوله حلب ، أنه كان ينوى إعلان الحرب على الإمارات اللاتينية وبدء حركة الجهاد ضدهم ، ربمـــا تأثراً بقول المؤرخ ابن القلانسى «وفى هذه السنة (٥٢٤هـ) ورد الخبر بوصول الأمير عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل إلى حلب فى عسكره عازما على الجهاد[1]»، واعتمادا كذلك على خطوتين اتخذهما زنكى أوحيا بهذا الفهم أولهما مبادرته بالدخول فى مفاوضات مع بورى بشأن الاتفاق على محاربة الفرنج منتهزا فرصة تعرض دمشق لتهديد بلدوين الثانى والتماس بورى المساعدة منه ، وذلك فى صيف عام ١١٣٠م. أما المحاولة الثانية فهى حرصه على الاستيلاء على الاثارب فى نفس العام سنة ١١٣٠م[2] من صليبى أنطاكية بما يعنيه ذلك من تأمين حدود حلب من الناحية الغربية وتأمين طريقها وأعمالها فى تلك الجهة ، بل وفى هذا التصرف تحد سافر الفرنج فى الشمال واعلانا للحرب عليهم .

غير أنا نتشكك فى هذا الإتجاه ، بل وننظر اليه بشىء من الحذر ليس فقط لما لدينا من شواهد تؤكد عكس هذا ، بل أيضا تمشيا مع تدرج الاحداث ومجريات الأمور .

إذ ليس من شك فى أن زنكى صرف همه حتى ذلك الوقت بل وبعده أيضا لقضية توحيد الجبهة الاسلامية ، ومحاولة الاستفادة من كل امكانيات

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٣١ ( سنة ٥٢٤ هـ ) ، بينما ذهب ابن العديم أنه فتح الاثارب سنة ١١٢٥ (رجب سنة ٥٢٩هـ) زبدة الحلب ص٢٥٩، وقد أشار إلى هذا الاختلاف المؤرخ جروسيه (Op. Cit. p. 676).

المنطقة توطئة للقيام بالحرب المقدسة ، والدليل على هذا أن تلك المفاوضات التى دارت بينه وبين بورى لم تكن فى حقيقتها إلا ستارا لهدفه الأصلى فى تصفية أملاك هذه الامارة ومحاولة ضمها لملكه .

فقد رحب بورى فعلا بالتعاون مع زنكى لحرب الفرنج وسير جماعة من الامراء على رأس نحو خمسمائة فارس ، وأمر ابنه سونج وكان إذ ذاك نائبا عنه بحماه بالإلتحاق بهذه القوات والمسير بهم إلى خدمة عماد الدين زنكى [1] ، وتظاهر زنكى بالرغبة فى انتزاع عزاز من يد الفرنج ولكنه مالبث أن قبض على سونج و بعض الامراء ، واعتقلهم بحلب واستولى على حماه فى سبتمبر سنة ١١٣٠ وبذلك هيض الجناح الايمن لامارة دمشق وجعل من اعتقال سونج عملية ضغط متواصل على بورى عله يستسلم أو ينثنى .

وفى نفس الوقت جعل زنكى من حماه عملية طعم لامير حمص خيرخان الذى كان يتطلع دائما إلى هذه المدينة ، ولا يهدأ له روع طالما كانت فى حوزة أمير دمشق لشعوره بأنه يصبح مطوقا من الشمال والجنوب مع بقاء هذه المدينة تابعة لدمشق ، ولعل ماذكره المؤرخ ابن واصل من أن خيرخان هو الذى زين لزنكى عملية القبض على سونج والاستيلاء على حماة فيه تأكيد لما كان يشعر به هذا الامير من عدم الاطمئنان لبقاء هذه المدينة تحت حكم دمشق [2] . لذلك بذلها له زنكى نظير مبلغ كبير من المال ، ولكنه مالبث أن قبض عليه وسامه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٤١

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

أنواع العذاب ليتخلى من خمص ذاتها إمارته الأصلية [١] . واتجه زنكى فعلا اليها بجيشه وألقى الحصار عليها لكنها صمدت فى الوقت الذى كان فيه الشتاء قد حل فاضطر إلى الانسحاب إلى حلب بعد أن انتزع أرباضها وأعمالها.

وقد بدا قبض زنكى على سونج وخيرخان فى نظر بعض المؤرخين أنه غدر وخيانة وتنكر للمبادىء والقيم ، لما لهذا التصرف من تعارض مع عزم زنكى على بدأ الجهاد المقدس فى هذه المرحلة ، وطبيعى أن يكبر هذا التصرف وتبدو قسوته ، وتظهر ملامحه السيئة باقترانه بفكره الجهاد والحرب المقدسه حينئذ .

ولكن اذا طرحنا جانبا مسألة عزم زنكى فى ذلك الوقت بالذات على بدء حركة الجهاد واعتبرنا ما اتخذه من خطوات أملت هذا الفهم ليست الا مناورة سياسية قصد منها خدمة هدفه الآخر فى توحيد الجبهة ، ظهرت لنا عملية قبضه على سونج وعلى خيرخان مجردة من كل ما شابها من صفات الغدر والتنكر للمبادىء اذ ليس من شك فى أن زنكى كان على استعداد لاكثر من هذا فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية وتأكيد سلطانه على ربوع الشام توطئة لمناوأة الصليبيين وهذا لايعنى بطبيعة الحال ، أننا نقر زنكى على هذه التصرفات ، اذ كان بوسعه الوصول الى أغراضه دون حاجة الى مثل هذه الامور ، فلن يعدم مثل هذا الحاكم القوى وسيلة أخرى لخدمة أهدافه وكل ماهنالك أن عملية توحيد الجبهة والحرص على دفعها خطوات الى الامام أملت هذه التصرفات التى بدا فيها شىء من القسوة والتعسف الى حد ما .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص٢٤٦ .

وثمة دليل آخر يؤكد أن زنكى كان يرجىء مسألة الجهاد الدينى حتى يتحسن موقفه وتقوى جبهته بالرغم من أنه كان دائم التمهيد للحرب ضد الصليبيين تمهيدا عمليا ففى بمنازلته حصن الاثارب عام ١١٣٠ - طبقا لرواية ابن الاثير - أسرع الفرنج فى الشمال الى التجمع والتأهب وحشدوا جيوشهم لمنازلته. ورأى زنكى جموعهم ، ولم يكن له قبل بهم ، فاستشار أصحابه فاشاروا بالتراجع والعود « فإن لقاء الفرنج فى بلادهم خطر لا يدرى على أى شىء تكون العاقبة » فكان رد زنكى « أن الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا فى أثرنا وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم » ، ثم ترك الحصن وتقدم للاشتباك معهم وقال لرجاله : « هذا أول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه فى قلوبهم [١] » ، وأنتهى الأمر بانتصار زنكى وتحقيق هدفه ولكن من الواضح أنه أراد من هذا اللقاء أن يكون بمثابة إرهاب للفرنج وإنزال الرعب فى قلوبهم لحين بدء الجهاد عمليا ضدهم فى وقت آخر .

فلم يكن إذن الهجوم على الآثارب فيه رغبة زنكى لشن حرب واسعة ضد الفرنج بقدر ما هو أمر اقتضته ضرورة الدفاع عن جبهته التى طفق يكون ملامحها ويرسى أسسها ، بل نص المؤرخ ابن الأثير صراحة على أن هجوم زنكى على هذا الحصن كان بسبب شدة ضرره على المسلمين [٢] .

وقضية توحيد الجبهة التى لا زال زنكى يعمل من أجلها هى التى تسببت فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٣١ (سنة ٥٢٤ م) .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

دخوله فى صراع مع الأراتقة فى شمال العراق ، الذين أحسوا ـ دون شك ـ بازدياد نفوذه واتساع ملكه وخطورة الوضع بالنسبة لهم ، وهذا فى حد ذاته تأكيد لاستمرار زنكى بذل الجهد فى سبيل توحيد الجبهة الإسلامية وبسط نفوذه على الامارات الاسلامية وربطها بالتبعية له قبل الدخول فى صراع مع الفرنج ، فقد جمع دواد بن سقمان أمير حصن كيفا جيشه واستعان بطوائف التركمان فى المنطقة وضم الفرع الارتقى الآخر فى ماردين وعلى رأسه حسام الدين تمرتاش [١] وانحاز اليهما صاحب آمد [٢]. وزحف الجميع لقتال زنكى الذى لم يتردد فى الخروج اليهم لكسر شوكتهم من ناحية ولتأكيد سلطانه على ديار بكر من ناحية أخرى ، وهناك بين نصيبين وماردين قرب دارا التقى الجانبان ودار القتال عنيفا فحلت الهزيمة بالاراتقة عام ١١٣٠ م وتفرقت جموعهم واستولى زنكى على سرجه ودارا وحاول تتبع داود فى ديار بكر ولكنه آثر العودة لوعورة المسالك وضيق الطرق [٣] .

ولعل أهم الأدلة التى تؤكد أن زنكى كان يرجىء مسألة الجهاد قليلا هو عدم استفادته من الأحداث التى جرت فى انطاكية فى ذلك الوقت، ذلك أن بوهيمند الثانى أمير انطاكية دفع حياته ثمنا لتهوره ضد الاتراك فى آسيا الصغرى وكان المفروض أن ترثه ابنته كونستانس لولا أن طموح زوجته أليس Alix ابنة بلدوين الثانى جعلها تزج بنفسها فى تلك الفتنة لترث زوجها فى حكم الامارة وتقضى

---

(١) Cahen: Artukids. Encyc. Isl.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٨

(٣) نفس المرجع ص ٣٩.

الوريثة الشرعية ، لكن هذه الخطة لقيت معارضة شديدة من رجالات الامارة الذين سارعوا باستدعاء بلدوين الثانى ليضع حدا لاطماع ابنته فخف هذا الى انطاكية خشية أن يتفاقم الامر بها وتضطرب أحداثها وينتهز المسلمون الفرصة غير أن اليس حينما تحققت من مسير بلدوين الثانى الى المدينة أغلقت أبوابها وبعثت الى زنكى تطلب محالفته[1] ، ولو كانت الرغبة حاضرة لدى زنكى للقيام بالجهاد الدينى اذ ذاك لانتهز هذه الفرصة المواتية ولسارع فى الاستفادة من هذه الاوضاع حقيقة استولى زنكى على حصن الاثارب وبعض الحصون الاخرى التابعة لانطاكية كحارم ومعرة مصرين[2] ، الا أن ذلك أملتــه ـ كما سبقت الاشارة ـ خطة الدفاع عن حلب أكثر مما أوجبته مسألة الهجوم على الصليبيين فى تلك البلاد، ولعل ما أقدم علية زنكى من قبل حين طلب الهدنة من جوسلين كونت الرها فيه تأكيد أنه كان يحاول أن يفرغ من شئون الجبهة وتوحيدها قبل ألقيام بالجهاد المقدس[3] .

بل أن زنكى لم يفد من ظروف كانت أشد ملائمة ، تلك التى جرت ببيت المقدس عقب وفاة بلدوين الثانى سنة ١١٣١ والتى هزت كيان المملكة بشدة وعصفت بحكم فولك الانجوى الملك الجديد .

ذلك أن مسألة هيج دى بواسيه Hugue du Puiset شغلت الرأى العام

---

(١) : Grousset : Op. Cit. I.P. 674

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص٤٣.

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٧

فى المملكة الصليبية عقب تولى فولك العرش نظرا لما كان يربط هيج ببيت بلدوين الثانى من علاقة قرابة فضلا عن أنه نشأ فى هذا البيت وتربى بين بنات الملك ، فلما تزوجت مليزاند ابنة بلدوين الثانى من فولك ، وأصبح هذا ملكا على بيت المقدس ، لم تحظ هذه الخطوة برضاء هيج فى الوقت الذى أثارت صلته بمليزاند شكوك فولك فى زوجته فأضمر السوء لهيج فلم يتردد هذا فى العمل ضده والانتقام منه ولما اتهم هيج علانية بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك اضطر الى الهرب الى عسقلان ولجأ الى حاميتها الفاطمية ، غير انه لم يلبث ان عاد طالبا الصفح والغفران فصفح عنه فولك ومع هذا لم يمض وقت طويل حتى اغتيل هيج مما أثار شبهة فى تآمر الملك على اغتياله وثارت مليزاند على زوجها فلم يجد بدا من قتل قاتل هيج ثم الانقياد لها وتسليمها شئون الحكم فزادت سلطتها وتحكمها فى المملكة(١) .

هذا فى الوقت الذى لم تسر الأمور فى الامارات الأخرى فى الشمال سيرا طبيعيا بعد وفاة جوسلين سنة ١١٢١م ومقتل بوهيمند الثانى كونت انطاكية سنة ١١٣٠ فقد انتهى - على حد تعبير مؤرخ محدث - الجيل الاول من الصليبيين وشهدت الاعوام اللاحقة واجهة جديدة للنزاع بين الصليبيين انفسهم من الجيل الثانى فجوسلين الثانى فى الرها والاميرة اليس فى انطاكية والبيب الحاكم فى طرابلس ، كانوا على استعداد للاندماج فى دورهم فى الشرق باحثين فقط عن مجرد التمسك بما فى أيديهم من ممتلكات ورثوها من الجيل الاول (٢) ، هذا

---

(1) Guillaume de Tyr, P, 628-31
Grousset : op. cit. II. p. 27—9

(2) Runciman: op. Cit, II. P. P. 185-0

إذا لم يكن النزاع بين هذه البيوت قد غدا أبرز ملامح هذا الجيل .

لم يفد زنكى من كل هذا لأنه - كما هو واضح - كان حريصا حتى ذلك الوقت على تجميع المسلمين فى بلاد الشام وشمال العراق وربطهم بالتبيعية له قبل البدء فى مشروعاته ضد الفرنج لما يمثله ذلك من دفع كبير لأى حركة يرجى منها التأثير فى الكيان الصليبى فى المنطقه ويبدو أن زنكى لممارسته الطويلة بشئون المنطقة حتى قبل ولايته الموصل ولاشتراكه فى بعض حملات مودود والبرسقى قد لمس عن كثب عوامل الفرقة الناشبة بين أمراء المسلمين وأثر ذلك على حركة المقاومة التى لم تقدم كثيرا للقضية ذاتها على عهد السلطان محمد ، بل أن علاقته الوثيقة بالبرسقى بالذات واشتراكه معه فى حروبه قد أقنعه أن فشل هذا الامير رجع فى أغلبه إلى موقف الأمراء المسلمين منه وخاصة ايلغازى الأرتقى، لذلك جعل زنكى من دروس الماضى عظة للحاضر وصرف جانبا كبيرا من همته فى توحيد الجبهة قبل المضى فى قتال الفرنج .

لهذه الأسباب كلها نؤكد أن المرحلة المتقدمة من عهد زنكى والممتدة من عام ١١٢٧ ١١٣١ م وربما بعد ذلك بسنوات أيضا شهدت محاولة استهدف زنكى منها توحيد جبهة المسلمين وربطهم برباط متين وتوطيد دعائم حكمه فى تلك الجبهة قبل أن يشرع فى أستئناف المقاومة الاسلامية للصليبيين التى كانت قد توقفت قبل ذلك بسنوات طويلة .

**زنكى واحداث العراق**

لم يدع تتابع الاحداث فى العراق فرصة لزنكى لكى يعطى الشام جهوده فى السنوات القليلة التالية ، لانه سرعان ما انغمس فى الخلافات التى قامت بين ورثة السلطان محمود الذى توفى هو الاخر فى عام ١١٣١ م ، وتكالبت مطامع الامراء السلاجقة على السلطة من بعده .

سلبت إذن أحداث المشرق من زنكى سنوات أخرى مثلث حلقة من حلقات حكمه وكانت أقصى تلك الحلقات بالنسبة له لم يفق منها إلا فى عام ١١٣٣ ثم شغلته حروبه مع الاكراد فى عام ١١٣٤م، قبل أن يعود مرة أخرى إلى أحداث الشام، لذلك كانت الفترة بين ١١٢١ - ١١٣٤م امتدادا للفترة الأخرى لان فيها جانبا من محاولة تأكيد سلطانه وتوطيد حكمه وإعطاء وجوده بشمال العراق وشمال الشام دافعا قويا تمثل فى تدخله فى شئون المشرق ليكسب نفسه أهمية تفيده فى مشروعاته فى بلاد الشام بالرغم من تفاوت نجاحه فى هذه المرحلة بغير ما كان يخطط أو يهوى.

بدأ زنكى هذه المرحلة بعمل سياسى هام أوحى أنه بدأ يتطلع إلى أحداث العراق يريد أن يضرب فيها بسهم ذلك أن دبيس بن صدقة تابع سياسته السالفة فى مناوأة الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ورفع راية العصيان مما دفع السلطان محمود والخليفة المسترشد إلى أنفاذ جيش لقتاله عند البصرة فاضطر إلى الهرب قاصداً بلاد الشام غير أنه ضل الطريق ونزل بالغوطة من أعمال دمشق فقبض عليه تاج الملوك بورى وحمل إلى دمشق فى شعبان سنة ٥٢٥ هـ(١١٣١م)[1]

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن الجوزى: المنتظم ج ١ ص ٢٠
ويقول ابن العديم أنه لجأ إلى قلعة جعبر وسار منها إلى جوسلين ، واستند إلى =

فاما علم زنكى بذلك سارع بمفاوضه بورى فى تسليمه اليه نظير إطلاق سراح سونج ومن معه من الامراء المعتقلين لديه منذ أحداث حماه ، فوافق بورى على الفور وتمت المبادلة وكان دبيس عدوا لزنكى فاعتقد أنه سيلاقى حتفه [١] ، لكن زنكى فى الواقع كان يهدف إلى الاستفادة منه إلى أقصى حد ويجعله آداة للضغط على الخليفة العباسى المسترشد ، لو حدث ودخل معه فى صراع .

توفى السلطان محمود إذن فى نفس العام ١١٢١ ( ٥٢٥ ﻫ ) بعد أن عهد بالسلطنة من بعده لابنه دواد ، غير أن أعمام هذا الصبى نازعوه الامر وطمعوا فى السلطنة وهم : مسعود بن محمد وهو صاحب كنجه [٢] وكان حينئذ فى جرجان ، وسلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان .[٣]

لم يكن زنكى قد حدد موقفه من هؤلاء المتنازعين بقدر ما كان يعمل على الاستفادة من هذا الوضع لصالحه هو إذ يذكر المؤرخ ابن واصل أنه أرسل إلى الخليفة المسترشد يطلب إقامة الخطبة لولد السلطان الراحل ويدعى ألب أرسلان وكان مقيما عنده بالموصل وكان زنكى أتابكه طبقا للنظام السلجوقى المشار اليه من قبل ، وواضح أنه كان يهدف من هذا إلى محاولة الوصاية على السلطنة ذاتها لو نجح فى إقامة ألب أرسلان الصغير فيها ، غير أن المسترشد أعتذر عن ذلك

---

= الفرنج فلم يرما يعجبه ، وذلك قبل أن يقع فى يد بورى. زبدة الحلب ج٢ ص ٢٤٧ - ٢٥٠ . ويقال أنه كان يقصد صرخد بناء على استدعاء زوجة واليها الذى توفى وخلف لها ثراء فرغبت فى أن تتزوجه وتسلم اليه صرخد . ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٣ ( سنة ٥٢٥ ﻫ ) .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٥ - ٤٦ .

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٢٠ (٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٣

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ( سنة ٥٢٦ ﻫ )

ورد بأن السلطان محمود عهد بالسلطنة إلى ولده داود ، وقد وردت رسل الاطراف بالخطبة له ، ونحن منتظرون كتاب السلطان سنجر ابن ملكشاه فانه عم القوم »[١] .

ويبدو أن هذا الرد قد ضايق زنكى وباعد الشقة بينه وبين الخليفة ، فلما ثارت الفتنة ضارية بين مسعود وسلجوق شاه وانحاز الخليفة إلى جانب سلجوق شاه سارع زنكى بالانحياز إلى مسعود ربما ليس إقتناعا بأحقية هذا وعدم أحقية ذاك بقدر ما كان تعبيرا عن سخطه على الخليفة .

سار سلجوق شاه وأتابكه قراجا الساقى فى جيش كبير إلى بغداد ونزل بدار السلطنة فأكرمه الخليفة ووعده النصرة له ، كما قدم مسعود بجيشه ناحية بغداد أيضا وكاتب الخليفة طالبا التأييد ولما لم يجبه إلى شىء نزل بعباسية الخالص قرب بغداد وفى نفس الوقت أناب زنكى عنه بحلب الأمير سوار[٢] . وسار تجاه بغداد لمعاونة مسعود والاستيلاء على بغداد . ولما خرج جيش سلجوق شاه والخليفة لمحاربة مسعود علموا بوصول زنكى إلى المعشوق على الجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء ، لذلك تقدم قراجا الساقى وسلجوق شاه لقتال مسعود فى حين سار الخليفة إلى المعشوق ، فواقع عماد الدين زنكى فهزمه وأسر كثيرا من أصحابه »[٣] ووقع القتل والاسر فى أصحاب زنكى فلم يجد بدا من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦ .

(٢) كان سوار فى خدمة بورى وقدم إلى زنكى فأكرمه لمعرفته بشجاعته وأقدامه . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٨

الانسحاب سريعا ناحية تكريت فى حالة غاية فى السوء فد لهدزدار تكريت وهو نجم الدين أيوب يد العون وسهل له عبور دجلة حتى أمن شر المطاردة وكان ذلك سببا فى أتصال البيت الايوبى بالزنكيين والدخول فى خدمتهم (١) . وعاد زنكى إلى الموصل ليرتب أموره بينما كانت الأحداث تتلاحق فى العراق .

فقد حدثت مناوشات بين مسعود وطلائع قوات سلجوق شاه وحينما علم بهزيمة زنكى ضعف وأصبح أكثر ميلا لعقد الصلح مع أخيه وخاصة أن الاخبار أخذت تترى بقرب وصول سنجر قادما من خراسان وبصحبته الملك طغرل بن محمد (٢) راغبا فى أقامته سلطانا وأقصاء كل من مسعود وسلجوق شاه ، لهذه الاسباب دارت مفاوضات الصلح بين مسعود وأخيه سلجوق وأتفقا على أن يلى السلطنة مسعود ويكون سلجوق شاه وليا لعهده وأن يتحدا لمواجهة سنجر « وأحلفهم المسترشد على التوافق والطاعة والاجتماع » . (٣) .

وما يهمنا من ذلك كله أن زنكى لازال راغبا فى الانغماس فى هذه الأحداث ومحاولة الاستفادة منها بقدر ما يستطيع ، فباقتراب سنجر ومعه طغرل من الرى خرج مسعود وأخيه سلجوق شاه لملاقاته ومدافعته عن العراق وخرج الخليفة فى أثرهما مكرها وربما لأنه كان يخشى مهاجمة زنكى لبغداد ، وفى نفس الوقت تلقى زنكى ودبيس طلبا من سنجر بالانحدار ناحية بغداد والاستيلاء عليها ،

---

(١) نفس المرجع ص ٤٩ .

(٢) البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ١٥٧ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٢٥ .

واقامة الخطبة له ولابن أخيه طغـــرل بعده (١) ، وفى لقاء مسعود وأخيـــه سلجوق شاه بجيوش السلطان سنجر حلت الهزيمة بالاخين قرب الدينور (٢) ، بالعراق العجمى فى أوائل رجب سنة ٥٢٦ھ ( مايو سنة ١١٣٢ م ) وفر مسعود ولكنه مالبث أن لجأ إلى عمه طالبا الأمان ، فأمنه هذا وعفا عنه لكنه نكل بعن آثار هذه الفتنة من رجاله لاسيما قراجا الساقى الذى لقى مصـــرعه بأمر من السلطان (٣) ، وخلصت السلطنة فى العراق وفارس حينئذ لطغرل بن محمد .

أما زنكى فلم يكن بحاجة إلى أمر من سنجـــر لكى يصطحب دبيسا وينحدرا ناحية بغداد ، إذ لا زالت هزيمته بالأمس القريب خير دافع لمحاولة رد اعتبـــاره أمام الخليفة العباسى فضلا عن رغبته الملحة فى الاستفادة من هذه الأوضاع المضطربة لذا سار هو ودبيس ناحية بغداد بعد أن فارقتها الجيوش كما فارقها الخليفة ، ويبدو أنه كان يرغب فى مباغتة المدينة وهى خـــلوا من المدافعين عنها ولكن مالبث الخليفة المسترشد على أثر سماعه باقترابهما أن أقبل مسرعا والتقى بهما عند «عقرقوف» قرب بغداد وأنزل بهما هزيمة أخرى فر على أثرها زنكى إلى تكريت ومنها إلى الموصل فى حين هرب دبيس ناحية المشرق قاصدا السلطان سنجر وكانت الواقعة فى آخر رجب سنة ٥٢٦ھ ( يونيو سنة ١١٣٢ م ) (٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٩ - ٥٠

(٢) ابن الجوزى . المنتظم ج ١٠ ص ٢٦

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٥

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٩ ٥٥

وابن العديم . منتخبات من تاريخ حلب ( Rec. Hist. or .III P. 664 )

وليس من شك فى أن نشاط زنكى العدائى ضد الخليفة المسترشد ،فى الوقت الذى انصرف فيه هذا إلى محاولة استعادة مجد الخلافة وقوتها وتأكيد سلطانها الروحى والزمنى ، فضلا عن الانتصارات الباهرة التى أحرزها المسترشد على قوات زنكى مرتين متتاليتين كان سببا فى تشجيع هذا الخليفة الطمـــوح على قيادة جيشه فى العام التالى فى يونيو سنة ١١٣٣ م ( شعبان سنة ٥٢٧ هـ ) قاصدا الموصل لمعاقبة زنكى ومحاولة انتزاع الموصـــل منه ، ويضيف المؤرخ ابن واصل أسبابا أخرى لهذا الخروج منها قدوم جماعة من الأمراء إلى المسترشد حرضوه على زنكى وخوفوه أطماعه ولأن المسترشد بعث إلى زنكى برسالة « فيها خشونة » مع الشيخ بهاء الدين أبا الفتح الاسفرائينى الواعظ فقبض عليه زنكى وأهانه لهذه الأسباب كلها قاد المسترشد جيشه وتحرك نحـــو الشمال إلى الموصل وألقى الحصار عليها فى يوليو سنة ١١٣٣ م ( رمضان سنة ٥٢٧ هـ ) . وكان زنكى قد فارقها عندما أحس بقرب وصول المسترشد وترك بها حامية تحت قيادة نائبه نصير الدين جقر ، وقصد سنجار وكان يركب فى كل ليلة ويقطع الميرة عن عسكر الخليفة « ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكل به » .

طال حصار الخليفة للموصل وامتد قرابة ثلاثة شهور « فلم يظفر . . . منها بشىء فى الوقت الذى قلت الأقوات والمؤن عن عسكره فاضطر إلى الرحيـل عنها عائدا إلى بغداد وقيل كان سبب رحيله أنه بلغه أن السلطان مسعود قصـد بغداد فعاد لذلك » [١] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٢ - ٥٣
وابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٧ - ٤٨ .

وبانصراف الخليفة عن الموصل بدأت تنقشع السحب التى غشيت حياة زنكى فى هذه الفترة وأخذ نجمه فى الصعود مرة أخرى ، وتخلص تدريجيا من آثار الهزائم التى منى بها وآثار فشله فى الاستفادة من أحداث المشرق وعلى هذا يمكن القول أن شئون الشام ستحظى بالنصيب الأوفر من جهود زنكى فى السنوات القادمة ، إذ بات مؤكدا أن تلك الجبهة بكل ما فيها من ثغرات أولى من الجبهات الأخرى بالجهد والعمل وأكثر ضمانا للنتائج .

ولعل قيامه بانتزاع بعض الحصون والمدن من الاكراد فى عام ١١٣٤م خير دليل على أنه قد دزم صلة ما بدأه قبل الانغماس فى الأحداث السابقة استمرارا لسياسته فى توحيد الجبهة التى ما برح يعمل من أجلها .

ففى العام المذكور وبعد رحيل المسترشد عن الموصل وجه زنكى جهوده ضد الاكراد الحميدية فاستولى على معظم قلاعهم وولاياتهم منها قلعة العقر وقلعة شوشن [1] قرب الموصل ثم تحول إلى الاكراد الهكارية فاستولى منهم على قلعة أشب وخربها وملك قلعة نوشى والجلاب العمبانى وفرح وكوشر والزعفران والقى وسروة « ملك الجميع واستقام أمر الجبل والزوزان وأمنت الرعايا من الاكراد وإستقامت ولاية الجبال » [2] . وبذلك أمن أمارته وفى نفس الوقت استرد ثقته بنفسه وبقواته إستعدادا للمهام القادمة ، ويشير ابن الاثير إلى أن نشاط زنكى ضد الاكراد الحميدية كان نتيجة لمواقفهم العدائية

---

(١) ابن الاثير . المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٤٣ - ٣٤٤ ( سنة ٥٢٨ هـ ) .

منه أثناء حصار المسترشد الموصل إذ أمد عيسى الحميدى المسترشد بالمؤن والرجال والجند مع ماق هذا من تحد سافر لزنكى الذى أقره من قبل على ولايته على الأكراد [1] .

وكان عقد الصلح بين زنكى والخليفة المسترشد فى عام ١١٣٤ م (٥٢٨ هـ) نهاية هذه المرحلة القاتمة بالنسبة لزنكى وبداية مرحلة جديدة حاول خلالها أن يتفرغ لشئون الشام ولمشروعاته فيها وخاصة أن الأمور بدأت تتدرج فى صالح مسعود هناك فى المشرق ليؤكد سلطته على الامبراطورية ويخضع الخارجين عليها المثيرين للفتن .

أما فيما يختص بأحوال الشام تلك الأحداث التى شغلت زنكى وفيما يتعلق بمناوأة الصليبيين هناك فقد وقع عبئه فى تلك الفترة على طوائف التركمان النازحين من أرض الجزيرة وعلى الأمير سوار نائب زنكى بحلب ، وأيضا أمير دمشق وبعض الأمراء المحليين الآخرين ، فلم تسلم أملاك الفرنج فى المنطقة من الهجوم والتخريب والقتل والنهب ، ففى ربيع عام ١١٣٣ م عبرت الفرات جموع كثيرة من التركمان قادمة من أرض الجزيرة ، اجتاحوا فى طريقهم ضياع الصليبيين ومزارعهم ثم مالبثوا أن هاجموا أملاك انطاكية شرقى نهر العاصى ولما دافعهم الصليبيون فى أبريل سنة ١١٣٣ تحولوا ناحية طرابلس وأنزلوا الخراب والدمار والقتل الجماعى بفرنج هذه الامارة ، وحصل لهم من الغنائم والدواب الشىء الكثير » [2] وعندئذ خرج بونز أمير طرابلس الصليبى لمحاربتهم ولكنه تعرض

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٨ .
وابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٥ — ٥٧ .

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٤٠

لهزيمة قاسية فى سبتمبر سنة ١١٣٣م (ذى الحجة سنة ٥٢٧ ﻫ) «وقتل أكثر رجاله . . . وانهزم فى نفر قليل ودخل حصن بعرين» [١] فحاصره التركمان فى هذا الحصن فى شهر اكتوبر من نفس العام لكنه استطاع الفرار خلسة فى نفر قليل بعد أن أشرف هو ومن معه على الهلاك بسبب نقص المؤن داخل الحصن ووصل فى النهاية الى طرابلس فى حالة سيئة فسارع بالاستنجاد بملك بيت المقدس وهو حينئذ فولك الانجوى وكان الصليبيون فى انطاكيه قد استنجدوا به أيضا فلم يتوان عن الزحف شمالا لترحيل التركمان عن بعرين بعد أن زاد ضررهم بالنسبة للفرنج فى المنطقة ويبدو أن التركمان لم يتراجعوا عن الحصن الا بعد معركة كبيرة مع قوات الفرنج فاتجه جانب منهم ناحية حلب حيث رحبوا بالانضواء تحت قيادة سوار لمواصلة الحرب ضد الصليبيين [٢] .

أما سوار فانه منذ غدا نائبا عن زنكى بحلب لم يخلد الى السكون وكان دائم الاغارة على أملاك الفرنج فى الشمال وخاصة امارتى انطاكية والرها فكان له «وقعات كبيرة مع الفرنج أبان فيها عن شجاعة واقدام وصار له بسببها الهيبة فى قلوب الكفار» [٣] فقد هاجم تل باشر وقتل كثيرا من الفرنج هناك وما لبث أن استعان بالتركمان واستعد للزحف على انطاكية فى أواخر عام ١١٣٣ م غير أن وصول فولك وقوات الصليبيين إلى أرض قنسرين جنوبى حلب جعل سوار يتقدم الى لقائهم بما انضاف اليه من التركمان وهناك دارت معركة كبيرة فى أرض

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٤٠

(٢) Grousset : Op. Cit. II. P. 15

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٥

قنسرين انتهت بهزيمة سوار [1] وقتل من المسلمين و تقدير مائة فارس فيهم جماعة من المقدمين المشهورين . . . وقتل من الفرنج اكثر من ذلك » ويذكر ابن القلانسى أن سوار لم يتوقف عن هجومه على الفرنج بسبب هذه الكسرة اذ بادر بالخروج من حلب وداهم فرقـــة من الفرنج كانت فى طريقها - كما يبدو - الى انطاكية « وعاد المسلمون برؤس القتلى . . . الى حلب فانجلت تلك الغمة بتسهيل هذه النعمة » [2]- .

وتناهى الى سوار خبر اغارة خيل الرها على أملاك المسلمين فى الشمال فخرج اليهم وبصحبته حسان البعلبكى صاحب حصن منبج « فأوقع بهم » وعاد الى حلب ومعه بعض الاسرى ورؤس القتلى [3] . وهكذا لم يخلد سوار الى الهدوء ولم يأل جهدا فى اقلاق مضجع الفرنج فى الشمال وجاء هذا عوضا عن فترة انشغال زنكى بأحداث المشرق فى ذلك الوقت .

أما فى دمشق فكان بورى قد توفى فى يونيو سنة ١١٣٢ م ( رجب ٥٢٦ هـ ) وخلفه ابنه شمس الملوك ابو الفتح اسماعيل فافتتح عهده بهمة عالية وصـــلابة تجاه الفرنج وحين تحرش به أمير بيروت الصليبى ونهب قافلة كانت فى طريقها الى دمشق محملة بالكتان وتقدم اصحابها بالشكوى لاسماعيل ، طلب هذا من أمير بيروت الصليبى رد تلك الاحمال الى أصحابها ولما لم يلق جوابا بادر بالهجوم

(١) Gnillaume de Tyr,p, 616
Grousset : Op. Cit. II. P. 17

(٢) ابن القلانسى: ذيل ص ٢٤٠- ٢٤١

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص٢٥٢

على بانياس التابعة للفرنج واستولى عليها فى نوفبر سنة ١١٣٢ ( غرة صفر سنة ٥٢٧ ﻫ ) « وشاعت الأخبار بذلك فى الإفرنج فهالهم سماعه وارتاعوا لحدوث مثله وامتلأت قلوبهم رعبا ووجلا » [1] كما انتهز اسماعيل فرصة انشغال زنكى وقام باسترداد مدينة حماه من نائب زنكى فى عام ١١٣٣ (٥٢٧ ﻫ) كما استرد بعض الحصون من أخيه محمد صاحب بعلبك بل هاجم بعلبك ذاتها كما حاول منازلة شيزر لولا مابذله له صاحبها من الأموال للانصراف عنها . [2]

على أن أهم مابذله اسماعيل من جهود ضد الفرنج فى الجنوب ماحدث فى اكتوبر سنة ١١٣٤ م (أواخر عام ٥٢٨ ﻫ ) فحينما تناهى اليه خبر احتشاد الجيوش الصليبية وقصدها دمشق بادر هو بجمع فرقه « واستدعى التركمان من الأعمال » وأسرع بمقابلة الصليبيين عند حوران قبل أن يهاجموا دمشق وعسكر بازائهم وحدثت بعض المناوشات بين الطرفين مالبث اسماعيل على أثرها أن غافل الصليبيين وأغار على « عكا والناصره وما جاورهما وطبريه وما والاها » ومن الطبيعى أن ترغم هذه الإغارات الفرنج على سحب جيوشهم والعودة للدفاع عن أملاكهم « فانخذلوا وقلقوا . . . وأجفلوا فى الحال عن منزلهم طالبين أعمالهم وعرف شمس الملوك ذاك فانكفأ الى مخيمه » ونتيجة لهذا طلب الفرنج الصلح مع اسماعيل الذى عاد الى دمشق مزهوا بهذا النصر [3] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٢٧

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٠ - ٣٤١ (سنة ٥٢٧ ﻫ )

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٤٢ - ٢٤٣

وابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٢ ( سنة ٥٢٨ ﻫ )

وهكذا جاء عبء المقاومة الاسلامية للصليبيين ومناوأتهم طوال تلك المرحلة من قبل بعض الأمراء المحليين فى بلاد الشام بالاضافة الى جماعـــة التركمان العـــابرة من أرض الجـــزيرة فاقتصر الأمر على مجرد الاغارات المحدودة والاحتفاظ بالوضع الراهن فى المنطقة دون تعديل أو توسيع نطاق الحرب وهو أمر طبيعى مادام زنكى انصرف فى هذا الوقت بالذات الى شئون أخرى قبل أن يعود مرة أخرى الى الشام .

## ج - زنكى وامارة دمشق

وضح من العرض السابق كيف بدأت أحوال زنكى تتحسن ، وبدأ من جديد يوجه اهتمامه إلى بلاد الشام ، وخاصة امارة دمشق ، التى غدت قضية ضمها إلى الجبهة تمثل ركنا أساسيا فى سياسته منذ ذلك الوقت وكانت أحوال دمشق إذ ذاك تجذب الاهتمام فعلا وتشجع على محاولة التدخل فى شئونها ، ذلك أن أسماعيل أميرها برغم ماأظهره من نشاط ضدالفرنج وضدمنافسيه ألا أنه مالبث أن سار فى اتجاه منحرف كان له أثر فيما حدث فى هذه الامارة من أضطراب فى تلك الآونة تمثل فى جوره وتعنته وظلمه مما كان له أثر فى تعرضه لمؤامرة أغتيال دبرها أحد مماليك والده وكان أن أمر أسماعيل بقتل هذا المملوك وقتل كل من حامت حوله شبه من قريب أو من بعيد حتى أنه قتل أخاه سونج «وأشنع قتله بالجوع فى بيت وبالغ فى هذه الافعال القبيحة والظلم ولم يقف عندحد»[1]

وكان ذلك سببا فى توجس رجالات دمشق منه شرا ولم يأمن الناس على أنفسهم من غدره حتى يوسف بن نيروز مستشار أبيه وأحد رجالاته الاوفياء لم يأمن تقلب هذا الاتابك وسوء طويته ففارقه وهرب إلى تدمر فى بعض غلمانه واعتصم بها مؤثرا الابتعاد عن جو دمشق وجور واليها . ولم يزد ذلك كله اسماعيل الا امعانا فى «ارتكاب القبائح والمنكرات وايغاله فى اكتساب المآثم والمحظورات الدالة على فساد التصور والعقل وصداء الحس وظهور الجهل» ، بلغ هذا التعنت مداه فيما استحدثه من طرق لجمع الضرائب ومصادرة الاموال والاملاك . اذ يحدثنا المؤرخ ابن القلانسى أنه استخدم رجلا كرديا «جاءه من

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٤١ — ٢٤٢

ناحية حمص يعرف ببدران الكافر لايعرف الاسلام ولا قوانينه ولا الدين وشروطه ... ونصبه لاستخراج مال المصادرين من المتصرفين والاخيار المستورين ، بفنون قبيحة اخترعها فى العقوبات وأنواع مستبشعة فى التهديد لهم »[١] . وأضاف اسماعيل إلى هذه الافعال تخاصمه من الكتاب والامراء والحجاب الاوفياء ، مما صرف قلوب الناس عنه وباعد بينه وبين الرعية[٢].

لهذا أخذت المؤامرات تحاك ضده من كل جانب وبات مهددا بالقتل فى كل آونة ، وهـــذا ما دفعه إلى الاتصال بزنكى يحثه على الوصول إلى دمشق « ليسلمها اليه طائعا ، ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والامراء والأعيان باهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم » . ويبدو أنه خشى تأخر زنكى أو عدم اهتمامه بهذا الاقتراح ، فأسرع يهدده بتسليم دمشق للفرنج « وإن اتفق اهمال لهذا الأمر واغفال أو امهال أحوجت إلى استدعاء الفرنج من بلادهم وسلمت اليهم دمشق بما فيها وكان اثم دم من بها فى رقبته »[٣] .

لم يكن زنكى بحاجة لهذا التهديد لكى يقود جيشه ويزحف ناحية دمشق إذ لازالت الرغبة ملحة لديه للاستيلاء على هذه الامارة وتوحيد الجبهة الاسلامية فى هذه المنطقة حتى يمتد سلطانه جنوبا إلى حوران ، فأسرع على رأس جيشه زاحفا ناحية الجنوب ، على الرغم من أن الأحداث تلاحقت بالمدينة بغير ما كان يحب أو يرضى ذلك أن رجالات دمشق ومبرزيها وحتى شعبها أظهروا امتعاضا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٢

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٨

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ ٢٤٦

من عماية استدعاء زنكى ليملك البلد ولما يعلمون من أفعال عماد الدين أتابك إذا ملك البلد»[1]. لذلك تشاوروا فيما بينهم وإستدعاره والدة اسماعيل وهى صفوة الملك خاتون ونقلوا اليها قلقهم واستياءهم فأشارت بقتله ودبرت هى عملية الاغتيال «غير راحمة ولا متألمة لفقده لما علمت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته» وتمت المؤامره واغتيل اسماعيل فى ربيع الاول سنة ٥٢٩ هـ (أول فبراير سنة ١١٣٥ م)، وأمرت بالقاء جثته فى موضع من الدار ليشاهده غلمانه، وأقامت الخاتون أخاه الآخر شهاب الدين محمود أميرا على دمشق.

علم زنكى وهو فى الطريق بمقتل اسماعيل وتولية محمود، ومع هذا لم ييأس بل تابع سيره إلى المدينة، ونزل بشمالها وأخذ فى الهجوم عليها وقاتل أهلها غير أنه وجد اتفاقا من القوم على حربه ومنعه من الدخول إلى دمشق ومدافعته بكل وسيلة وبرز خلال هذه الحرب مملوك لطغتكين يدعى معين الدين أنر أظهر كفاية ومهارة فى رد هجوم زنكى وقتاله «وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال وكمايته مالم يروما كان سبب تقدمه واستيلائه على الامور بأسرها»[2] كما ظهر خلال تلك الاحداث مملوك آخر يدعى شجاع الدولة بزواج فظهر منه ومن أنر «من حسن السياسة فى تدبير العسكرية والاجناد عند الترتيب فى الحرب ماوافق الأغراض وطابق الاصابة والسداد بحيث شكرا وحمدت مقاصدهما»[3].

وكان زنكى قد اصطحب معه فى هذه الحملة الملك ألب أرسلان المقيم لديه

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٤٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٦ (سنة ٥٢٩هـ) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٥٨ - ٥٨

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٤٨

فى الموصل ربما رغبة منه فى الظهور بأنه ليس إلا نائبا لهذا الملك ، وما يفتحه من المدن ليس إلا اجزاء من أملاك هذا الأمير السلجوقى[1] . حتى يعطى مشروعه شيئا من الشرعية ويصبح هذا الامير الصغير ورقة رابحة فى يده يفيد منها فى عملياته العسكرية فى بلاد الشام .

فما أن تأكد زنكى من اجتماع القوم على حربة ودفعه عن المدينة وطال حصاره لها فى غير طائل حتى قرر طلب الصلح مع حكام دمشق على أساس الدخول فى طاعته والتماس خروج شهاب الدين محمود إلى معسكر زنكى خارج دمشق ليطأ بساط ولد السلطان ويخلع عليه ويعيده إلى بلده، ووردت الرسل فى ذلك ووافق حكام دمشق فى النهاية على اقامة الخطبة لالب أرسلان وأناب شهاب الدين محمود أخاه بهرام شاه للخروج إلى معسكر زنكى « فأكرمه وأعاده على أجمل قضية » ، وكان رسول من الخليفة العباسى المسترشد بالله قد وصل يحمل رسالة لزنكى يأمره الخليفة فيها بالعودة عن دمشق واحترام استقلالها ولهذا قرر زنكى سحب جيوشه والعودة إلى حلب فى التاسع والعشرين من جمادى الأول سنة ٥٢٩هـ (مارس سنة ١١٣٥ م) ، فأمنت القلوب « بعد الوجل والنفوس قد سكنت بعد الاضطراب » ، وعندما وصل إلى حماه بادر بعزل نائبه بها لما ظهر من تعنته وشكاية الناس منه ، ثم استأنف سيره إلى حلب[2] .

وهكذا وقفت دمشق عقبة كئود فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية على عهد زنكى وتأخر اتحاد هذه الجبهة نحو نصف قرن من الزمان ، بعد أن كان وشيك

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص٧١

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٨ .

الحدوث فى عام ١١٣٥م [1] فلم يكتف شهاب الدين محمود بذلك بل خرج فى العام التالى فى ربيع الاول سنة ٥٣٠ هـ ( ديسمبر سنة ١١٣٥ - يناير سنة ١١٣٦ م ) ، وتسلم حمص من أولاد خيرخان وعوضهم منها بتدمر وأقطع حمص لمملوكه الوفى معين الدين أنر ، ثم قفل راجعا الى دمشق [2] .

وبذلك قرر للجبهة الاسلامية على عهد زنكى الا تمتد فتشمل دمشق وملحقاتها لتشرف منها على ممتلكات الفرنج فى الجنوب وإلا لكان هناك أمر آخر فى وضع المملكة حينما قرر زنكى الهجوم الشامل ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين فى هذه البـــلاد .

ومع ذلك فقد كانت جبهته حتى ذلك الوقت كافية لاضطلاعه بدور هام فى الجهاد فى المرحلة القادمة ، بالرغم من أنه اضطر مرغما أن يتجه ضد الفرنج فى الشمال وليس فى بيت المقدس فاستفادت المملكة الصليبية من هذه الوجهة لانها نجت من هجومه فى وقت كانت أمورها قد اضطربت وملكيتها قد بدأت تتـــداعى [3] .

ورغم عدم توفيق زنكى فى الاستيلاء على دمشق هذه المرة الا أن هذه لم تكن آخر محاولة له ضد هذه الامارة فقد عاود الكرة مرة أخرى فى عام ١١٢٩، حينما زاد اقتناعه بضرورة دخولها فى حوزته بامكانياتها وموقعها وأثرها فى دفع قضية الجهاد ضد الفرنج قدما وكذلك منتهزا فرصة ما استشرى فيها من فتن فى ذلك الوقت غير أن محاولته الاخيرة باءت بالفشل أيضا ، وسنعرض لها خلال

---

(١) Grousset : op. cit. II.P. 60

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٥٣ ( سنة ٥٣٠ هـ )

(٣) Grousset : Op. Cit II.P. 175

دراسة جهوده ضد الصليبيين فيما بعد . وما يهمنا الآن هو ان صمود دمشق هذه المرة ورفضها الدخول فى أملاكه ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية . ليس فقط بالنسبة لعدم اكتمال الوحدة والجبهة الإسلامية بل وأيضـــا بالنسبة لسياسة دمشق نفسها مع جيرانها لاسيما الفرنج فى بيت المقدس مما كان له آثار كبيرة على قضية الجهاد فى هذه الفترة . ويحسن أن نترك ذلك لنتناوله فى موضعه .

## (د) جهود زنكى ضد الصليبيين
## واستيلائه على الرها سنة ١١٤٤ .

نستطيع أن نقرر مطمئنين أن جهاد عماد زنكى ضد الفرنج قد أحتل الصدارة فى سياسته فى السنوات العشر الأخيرة من حكمه بصفة جادة ، وبطريقة فعالة . حقيقة لم يتواصل جهاده بشكل منتظم خلال هذه المدة ، وانما تخللته التفاتات يمينا أو شمالا نحو الجبهة الشرقية أو نحو أمارة دمشق مرات قطعت أضطراد الجهود ضد الفرنج ولكن مع هذا كانت الحرب المقدسة ورفع راية الجهاد حينئذ هى الصفة المميزة لجهود هذا الحاكم والركن البارز فى سياسته .

ومرة أخرى يلزم أن نعرج على الجبهة الشرقية ، على فارس والعراق لنعرض ماحدث هناك وما تلاحق من وقائع ، قبل أن نمضى فى تناول هذه الصفحة الهامة من الجهـــاد .

ورغم مايبدو من ضعف الربط بين ماحدث فى الجبهة الشرقية وما حدث فى بلاد الشرق الأدنى خلال هذه الحلقة الأخيرة من حكم زنكى ، وضآلة الأثر الناجم عن تتابع الأحداث فى المشرق بالنسبة لجهود زنكى ضد الفرنج ، فأن ثمة أشياء أسترعت إنتباه الباحث ، أكدت أهمية الربط بين ماحدث فى الجبهتين وأثبتت أن هذه الصفحة من الجهاد تأثرت - إن لم يكن فى مضمونها أو كنهها ففى ابتدائها أو وقت قيامها - بما حدث هناك فى الجبهة الأخرى .

لم يعلن زنكى أستئناف الجهاد ضد الصليبيين بعد عودة من مشروعه ضد دمشق فى مارس سنة ١١٣٥ م ولم يحمل راية الجهاد والحرب المقدسة بعد ذلك مباشرة

أى بعد أن حدد وضعه من تلك الامارة وتأكد من معارضة حكامها حينئذ الانضواء تحت زعامته ، بل لم يبد هو شخصيا حرصا على لقاء كبير مع الفرنج فى المنطقة أو استعدادا لعمل كبير ضدهم فى تلك الآونة الراهنة ، برغم مهاجمته بعض الحصون الصغيرة والقلاع مثل زردنا وتل إغذى ومعرة النعمان وكفر طاب شرق نهر العاصى وذلك فى ربيع سنة ١١٣٥ م ، والدليل على أنه لم يكن راغبا اذ ذاك فى تشابك مع القوات الصليبية ماحدث عند قنسرين حين احتشد الفرنج للقائه ، فاحسن التدبير وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا الى بلادهم ، [1] ثم مالبث أن انصرف هو الى الموصل ، بينما كانت القلاع المذكورة سببا فى معارك كبيرة بين الجانبين الصليبى والاسلامى من قبل [2] .

أذن لم يكن زنكى راغبا فى ذلك الوقت فى بدء الصراع مع الامارات اللاتينية أو إعلان الحرب عليها . حقيقة لازال سوار نائبه بحلب دائم الاغارة على أملاك الصليبيين فى الشمال ومهاجمة أراضيهم وضياعهم . ولكن هذه الاغارات استهدفت فى أغلبها إقلاق مضاجع الصليبيين والسلب والنهب والانتقام أكثر مما استهدفت عملا كبيرا ضد الإمارات ذاتها . فما علة تاخر زنكى هذه المرة أيضا فى رفع راية الجهاد ، وما سبب إرجائه هذا المشروع فترة أخرى امتدت قرابة عامين .

يخيل للباحث أن زنكى كان يشعر بعد عوده من دمشق بأن يده ليست طليقة كليه فى اتخاذ مايراه صالحا فى المنطقة طالما كان الخليفه المسترشد دائم التحفز

---

(١) أبن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٥٩

(٢) Small : Op. Cit P. 32

فى بغداد ، حريصا على الوقوف على كل مامن شأنه التغيير فى الاوضاع والتأثير فى شئون المسلمين الى أحسن أو الى أسوأ . ولعل زنكى اقتنع بعد أن أمره الخليفه بترك حصار دمشق واحترام استقلالها أن ثمة أوضاع ببغداد يجب مراعاتها عند اتخاذ مثل هذه الخطوات ، وهذا فى حد ذاته أملى عليه شعورا ظاهرا أو باطنا أن يده ليست طليقة كلية فيما يتخذه ، ويضيف المؤرخ ابن الجوزى شيئا يؤكد هذا الاتجاه حين يذكر أن زنكى أرسل ابنا من ابنائه وزوجة من زوجاته وبعض النساء رهائن لدى الخليفه ، ونزل الابن وقبل عتبات الخليفة وقال: « أنا وأبى عبيد هذه الدولة وما زالت العبيد تجنى والموالى تصفح ونحن بحكم الخدمة فى أى شىء صرفنا تصرفنا» ثم « بذل ان تسلم مفاتيح الموصل وغيرها الى الخليفه » بل قيل أن هذا الابن تقدم الى الخليفة قائلا « هذه والدتى وجماعة من النساء رهائن على ذلك» [١]، وقد عبر مؤرخ محدث عن ذلك تعبيرا صادقا حين علق على استجابة زنكى لامر الخليفة بالانسحاب من أمام دمشق بقوله : «وهل كان إلا أن يؤمر فيجيب ؟ » [٢] .

ليس ذلك فقط ما استرعى انتباه الباحث وأملى عليه مسألة الربط بين ماحدث فى الجبهتين ، ولكن شيئا آخر كشفت عنه الاحداث أوضح بما لايدع مجالا للشك الرغبة الكامنة لدى زنكى فى التخلص أولا من الخليفه المتحفز ، أو على الأقل التخلص من تدخله فى شئونه .هذا برغم ما أصاب العلاقات بينهما مؤخرا من إطراد التحسن بعد الصلح الذى عقد بينهما عام ١١٣٤ م -كما سبقت الاشارة

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ص ٤٢

وكان ابن الجوزى معاصرا لهذه الاحـــداث أشار الى ذلك فى نفس المرجع ج ١٠ ص ٣٠ .

(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٨ .

وبرغم أن خطوة يتخذها زنكى ضد الصليبيين لم تكن لتلقى معارضة من المسترشد لولا ما يسبقها مؤكداً من خطوات لتأكيد زعامته بالنسبة لغيره من الأمراء أن لم يكن اتخاذ إماراتهم قواعد لشن الهجوم على الصليبيين .

أما كيف كانت الرغبة ملحة لدى زنكى فى التخلص من الخليفه المسترشد وبالتالى طلاقة يده فيما أعتزمه ، فهو ما يستوجب عرض أحداث المشرق لتوضيح كل ذلك. لم يعد سنجر الى خراسان الا بعد أن أقر الامور فى فارس والعراق ونصب طغرل أبن أخيه سلطانا فى اصفهان وأقصى مسعودا الذى قنع بكنجه مؤقتا ريثما تسنح له الفرصة من جديد لاستعادة السلطة ، بينما نظر داود بن محمود الى ذلك نظرة المغلوب على أمره المسلوب الحق ، لذلك لم يتوان عن الخروج عن طاعة عمه طغرل وزحف الى لقائه ودارت بينهما حرب قرب همذان انتهت بهزيمة داود فى عام ٥٢٦ ﻫ ( ١١٣٢م ) وانسحابه الى بغداد [١] .

شجعت هذه الفتنة مسعودا على رفع راية العصيان هو الآخر ، فسار من كنجه الى بغداد حيث استقبله ابن أخيه داود ، وترجل له وخدمه ودخلا بغداد ونزل مسعود بدار السلطنة ، فى صفر عام ٥٢٧ ﻫ ( ديسمبر سنة ١١٣٢ — يناير ١١٣٣ م ) وخطب له ولداود بعده . وليس من شك فى أن الخليفة العباسى المسترشد كان راغبا فى دوام الفتنة بين الأمراء السلاجقه لما فى ذلك من أزدياد نفوذه وتأكيد سلطانه ، لاسيما وقد رأى من مسعود هذه المرة رغبة أكيدة فى استعادة الهيمنة على الدولة السلجوقية والقضاء على كل مناوئيه ، لذا أوعز اليه

---

( ١ ) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٣٩ ( سنة ٥٢٧ ﻫ )

فى أغلب الظن - بالخروج لمحاربة أخيه طغرل ، ووقع الاتفاق على مسير مسعود وداود الى آذربيجان وأن يرسل الخليفة معهما عسكرا » [١] .

لقى مسعود نجاحا كبيرا فى محاولاته هذه فاستولى على آذربيجان بسهولة وسار منها الى همذان والتقى بأخيه طغرل وأنزل به هزيمة منكرة فر على أثرها هذا الى الرى ودخل مسعود همذان فى شعبان سنة ٥٢٧ هـ ( يونيه ١١٣٣ م ) ثم واصل تقدمه فاستولى على أصفهان ، ثم أخذ يقتفى أثر أخيه طغرل فى بلاد فارس ، ولما لحق به أنزل به هزيمة ثانية أكدت نجاحه فى إقصاء هذا السلطان واستعادة السلطنة منه ، ثم مالبث أن عاد الى همذان ظافرا . [٢]

ولا يقلل من هذا النجاح ، المحاولة الأخيرة التى قام بها طغرل أثناء انشغال مسعود بخروج إبن أخيه داود أيضا ، لأن طغرل مالبث أن توفى فى المحرم من عام ٥٢٩ هـ ( ١١٣٤ م ) وخلصت السلطنة من جديد لمسعود ليصبح عاهل السلاجقة الكبير لفترة طويلة ( ١١٣٤ - ١١٥٢ م ) .

ولكن العلاقة بين مسعود والخليفة المسترشد سرعان ماساءت بسبب سعاية بعض الامراء السلاجقه الفارين من وجه السلطان وتحريضهم الخليفة على حربه [٣] وكذلك بسبب تعسف نواب مسعود بالعراق [٤] فلما تواترت الانباء بمسير مسعود قاصدا العراق عزم الخليفه على الخروج لمحاربته ومنعه من دخول العراق فقطع

---

( ١ ) نفس المرجع ونفس الصفحة .

( ٢ ) نفس المرجع ونفس الصفحة .

( ٣ ) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٤٩ ، البنـــدارى : تواريخ آل سلجوق ص ١٧٦

( ٤ ) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٩ - ٦٠

الخطبة له من بغداد[1] وخرج فى شعبان سنة٥٢٩ ه (مايو ١١٣٥م) على رأس جيشه للقائه . ومهاقوى هذه الفتنة وزاد فى اندفاع الخليفة ما أقدم عليه بعض الحكام المحليين فى الدولة السلجوقية من الاتصال بالخليفة باذلين له الطاعة سائلين إياه أن يتريث فى مسيره حتى يلحقوا به فاستجاب لهم المسترشد وكان هذا التريث سببا فى إعطاء مسعود فرصة جمع الشمل واصلاح ما فسد بينه وبين بعض الأمراء الخارجين . وكان قبل إصلاحهم فى نحو ثلاثة آلاف فارس فصار فى خمسة عشر ألفا » .

وما يهمنا من ذلك كله وما أوجب الربط بين ذلك وبين أحداث الجبهة التى نعنينا هو ما أقدم عليه زنكى حينئذ ، وما أظهره من رغبة ملحة فى انهاء تحفز الخليفة ووضع حد لطموحه حتى يستطيع أن يخلص إلى مشروعاته فى بلاد الشام ، إذ يحدثنا ابن الأثير أنه أرسل فى هـــذا الوقت بالذات نجدة إلى السلطان مسعود لمؤازرته فى حربه ضد الخليفة . حقيقية وصلت هذه النجدة بعد فوات الأوان أى بعد أن كانت الأزمة قد انتهت فعلا الا أن ذلك لايحجب الغرض الذى أرسلت من أجله ولا المعنى الذى يحمله إنفاذها فى هذا الوقت لتحارب فى جانب مسعود ضد الخليفة . فاذا علمنا أن انسحاب زنكى عن دمشق كان فى مارس سنة ١١٣٥ م وأن خروج الخليفة لحرب مسعود كان فى مايو ١١٣٥م وضح فى يسر وسهولة كيف ألحت الظروف على زنكى لاتخاذ هذا الموقف بما لايدع مجالا للشك فى صحة الربط بين الحدثين ، وبالتالى سلامة الاستنتاج المشار اليه آنفا .

ومع أن كثيرا من الأمراء والجند تسللوا من معسكر الخليفة وانحازوا إلى

---

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٤٣ - ٤٥

جانب السلطان حتى بقى الخليفة فى نحو خمسة آلاف فقط، إلا أنه واصل تقدمه فى آذر بيجان للقاء السلطان، ولم يحفل برسالة داوود الذى طلب اليه الميل إلى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وصار حتى بلغ دايمرج (داى مرك)»[1].
وفى اللقاء الذى حدث بينه وبين مسعود فى ١٠ رمضان سنة ٥٢٩هـ (أواخر يونيو سنة ١١٣٥) وفى الوقت الذى واصل الامراء والجند مفارقته والانضمام إلى صف السلطان وقع الخليفة وجيشه فريسة سهلة لجيش مسعود وكثر القتل والاسر فى عسكره وافضى الامر إلى أن أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه وما لبث أن اغتيل على يد الباطنيــــة ، قيل بايعاز من سنجر[2] ، وقيل بايعاز من مسعود وذلك فى ذى القعدة من نفس العام (نهاية أغسطس ١١٣٥) قرب مراغة وبويع فى بغداد لإبنه الراشد من بعده ، وانتهت بذلك صحوة الخلافة العباسية التى لم تدم طويلا[3] وخلصت الأمور للسلطان مسعود وزادت هيبته وتخلص من خليفة جاء فريدا بين خلفاء الدولة العباسية فى هذه الفترة أعاد بفضل همته ونشاطه إلى الأذهان قوة الخلفاء العباسيين الأوائل ، وطموحهم على الرغم مما آل إليه أمره فى النهاية .

جاء انصراف زنكى عن أمور الشام فى صيف ١١٣٥ وعوده إلى الموصل تعبيرا عن تعلق بصره بأحداث المشرق وترقبه ماتسفر عنه الأحداث هناك ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ (سنة ٥٢٩ هـ) ، التاريخ الباهر ص ٤٩ وابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٤٥

(٢) البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ١٧٧ - ١٧٨
Browne : Account of A rare mannscript. P. 862-3

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧١

كما أن فيه تأكيدا لارتباط جهوده ببلاد الشام بما يقع هناك فى الجبهة الآخرى ، وتأكيداً لانه كان لايزال يتقبع الاحداث فى الجبهة الاخرى منذ أن أرسل فرقة من جيشه لتحارب فى صف مسعود ضد الخليفة ، بل تأكد ذلك بصفة قاطعة حين ترك الموصل وقصد بغداد ذاتها ليدلى بدلوه مرة أخرى فى الاحداث فيها بعد مقتل المسترشد .

وليس من شك فى أن زنكى قد شعر براحة تامة بعد مقتل المسترشد ، أعقبها رد فعل عنده دفعه إلى محاولة استمالة الخليفة الجديد ، وربما محاولة ربطه بنوع من التبعية له وفرض نوع من الوصاية عليه .

وتشير المراجع إلى أن ذلك جاء على أثر تدهور للعلاقات مرة أخرى بينه وبين السلطان مسعود بسبب اغتيال السلطان لدبيس بن صدقة ،ذلك أن دبيسا ـ وكان برفقة السلطان أحس عزم هذا على الغدر بزنكى وأنه بعث يستدعيه وبيت النية على الفتك به ، فأرسل دبيس على عجل إلى زنكى يحذره المجىء والمثول بين يدى السلطان ، فلما وقف السلطان على ذلك أوعز بقتل دبيس فقتله غلام أرمنى وهو آمن مطمئن ،وكان بينه وبين قتل المسترشد ثمانية وعشرين يوما[1]، ويعلق المؤرخ ابن العبرى على ذلك بقوله «ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعاديين فإن دبيسا كان يعادى المسترشد ويكره خلافته ولم يكن يعلم أن السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقاومة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب[2]» ولما علم زنكى بنبأ مصرع دبيس ودوافعه قال : «فديناه بالمال

---

(١) ابن الجوزى : شذور العقود ورقة ١٦٦

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٥٥

فقدانا بالروح»[1] ، وعلى أثر ذلك استحكم الخلاف بين زنكى والسلطان مسعود وهو الخلاف الذى عجل بانحياز زنكى إلى أعداء مسعود ودخوله بغداد عاصيا ثم رعايته الراشد فى هذه الفترة بالذات .

ويذكر ابن واصل أسبابا أخرى لانحدار زنكى إلى بغداد فى هذه المرة مؤداها أن الراشد أرسل اليه يستدعيه لنجدته - حين تأكد لديه زحف مسعود إلى بغداد لخلعه من الخلافة - وضمن لزنكى أن تكون السلطنة والملك لألب أرسلان بن محمود ، وأن تكون أتابكية السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين»[2]. ولكن إذا كانت هذه كلها أسباب وقتية لانحدار زنكى إلى بغداد فان السبب المزمن هو رغبته فى المشاركة الفعلية فى تسيير أمور البلاد واكساب نفسه أهمية خاصة ومنزلة عالية يستطيع معها القيام بدوره كاملا فى الجبهة الأخرى ببلاد الشام .

وعلى الرغم من تواجد بعض الأمراء الخارجين على مسعود ببغداد فى ذلك الوقت واتفاق الجميع على حرب السلطان ، فقد اقتنع زنكى بعد عدة مناوشات مع السلطان عبث الحرب فانسحب إلى الموصل وفى أثره الراشد ، ودخل مسعود بغداد فى ذى القعدة سنة ٥٣٠ هـ ( اكتوبر ١١٢٦ )[3] وتم خلع الراشد والمبايعة للمقتفى لأمر الله (١١٣٦ - ١١٦٠م) .

---

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب
(Rec. Hist. Or. III. P. 664)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٦٣ ، ٦٥

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٣

أما الراشد فقد خرج من الموصل إلى أذربيجان واجتمع بداود وبعض الامراء الخارجين وسار الجميع للقاء مسعود ، ولكنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة فر على أثرها الراشد إلى أصفهان [١] وهناك لقى مصرعه أيضا على يد الباطنية فى ٢٧ رمضان سنة ٥٣٢ هـ (يونيو ١١٣٧) ومن ثم أخذت علاقة زنكى تتحسن مع السلطان مسعود وبادر بالبيعة للخليفة الجديد المقتفى لأمر الله عن طريق مبعوثه إلى بغداد الشهرزورى [٢] .

وبفراغ زنكى من أحداث هذه الجبهة والإطمئنان على موقفه فى امارته ، غدا بوسعه أن يلتفت إلى الجهاد الدينى ببلاد الشام ضد الصليبيين ، وهكذا ثبت أنه كان يشعر بعدم الرضى طالما كان المسترشد فى الخلافة ببغداد متحفزا مترقبا متابعا الاحداث فى الشرق الادنى ، وحينما بدأ زنكى الجهاد ضد الصليبيين بمهاجمة حصن بعرين وذلك فى يوليو سنة ١١٣٧ ، أى بعد هذه الاحداث كلها بقليل تأكد بصفة قاطعة إحساسه بالاطمئنان من ناحية العراق وطلاقة يده فيما يتخذه فى الشام من ناحية أخرى .

فبعد أن قام بمحاولة ضد حمص فى نهاية يونيو سنة ١١٣٧ وكان يحكمها معين الدين أنر نيابة عن حاكم دمشق ، وفشل فى اسقاطها لما أبداه أنر من الشجاعة فى حمايتها والدفاع عنها ولما تناهى اليه من أخبار استعداد الفرنج للزحف اليه ومباغتته [٣] ، تحول زنكى إلى مهاجمة بعرين وهو حصن يقع قرب حماه ويتحكم

---

(١) البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ١٨٠ ،

Browne : Op. Cit. P, 863

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٥٤

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، وابن القلانسى : ذيل ص ٢٥٨ .

فى مدينتى حماه وحمص وله أهمية خاصة فى حماية طرابلس من الجهة الشمالية الشرقية لذلك نهض ريموند الثانى أمير طرابلس لمدافعة زنكى واستنجد بفولك الانجوى ملك بيت المقدس، واجتمعت القوات الصليبية بقيادة فولك وزحفوا إلى زنكى وهو محاصر بعرين ودارت معركة ضارية بين الجانبين وقف عندها بعض المؤرخين المسلمين وقفات تنم عن اهتمام حتى ليذهب المؤرخ أبو شامة أن الفريقين صبرا فى هـــذه الموقعة « صبرا لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن يوم الهرير » [١] وانتهت أخيرا بهزيمة القوات الصليبية هزيمة منكرة « وأخـــذتهم سيوف المسلمين من كل جانب [٢] وأسر الكثيرين منهم من بينهم ريموند الثانى نفسه أمير طرابلس. أما فولك الانجوى فقد أسرع بالهرب فى نفر من رجاله وتحصن بقلعة بعرين [٣] ، وأرسل يستنجد بالامارات اللاتينية الاخرى فى الوقت الذى اتجه زنكى لمحاصرته فى بعرين ونصب على الحصن عشر مجانيق لم تكف عن ضربه ليلا ونهارا [٤] « كما اشتد زنكى فى تضييق الحصار على الحصن ومنع عن المحاصرين كل شيء حتى الاخبار « فكان من به لا يعلم شيئا من أخبـــار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده » .

---

(١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ق ١ ص ٨٧ - ٨٨ ويوم الهرير يوم من أيام معركة صفين بين على ومعاوية شهد أهوالا كثيرة وصبرا من الفريقين عظيم . نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص ٤٧٧ (تحقيق هارون).

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٥٨ (سنة ٥٣١ هـ)

(٣) Guillaume de Tyr, p, p, 643--5
Gruosset : Op, Cit. II. P: 73
Runciman : Op. Cit. II. p, 204

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢





استعد جوسلين الثانى أمير الرها وريموند دى بواتيه أمير أنطاكيه وبطرق بيت المقدس لانجاد الملك المحاصر فى الحصن وزحفوا فعلا بجيوشهم إلا أن فولك لم يكن يعلم شيئا من ذلك ، فلما نفدت المـــؤن واشتد زنكى فى ضرب الحصن بالمجانيق ودأب رجاله على محاولة ثقب الأسوار، اضطر الملك الى ارسال مبعوث الى زنكى يطلب منه أن يعرض أيا من الشروط نظير اطلاق سراحهم واعطائهم الأمان وكانت دهشته كبيرة حين لم يطلب زنكى سوى امتلاك الحصن والحصول على مبلغ خمسين الف دينار نظير ذلك . (١)

والواقع أن زنكى لم يشتط فى مطالبه لما كان يعلمه من قرب وصول الصليبيين لانجاد الملك فضلا عن حملة بيزنطية كانت تقترب بقيادة حنا كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية فلما فارق فولك ورجاله الحصن و وتحققوا خروج ملك الروم انصرتهم ندموا حيث لاينفعهم الندم (٢)، واستلم بعرين وغدا تابعا للمسلمين ولم يعد مرة أخرى الى الجانب الصليبى . (٣)

وليس من شك فى أن امتلاك زنكى حصن بعرين قد أفاده كثيرا فغدا بوسعه أن يهدد أملاك إمارتى انطاكيه وطرابلس وأعطاه فرصة منع الفرنج من التوغل فى وادى العاصى الاعلى ، ولأن السيطرة على مثل هذا الحصن تساعده على حماية كل من حماه وحمص (٤) وكان دائما من أملاك دمشق مع رغبته المستمرة فى انتزاع أملاك هذه الامارة والسيطرة عليها ذاتها .

---

(١) ابن القلانسى . ذيل ص ٢٥٩

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٣

(٣) Saali : Op. Cit p. 33

(٤) Runciman : Op. Cit II P. 205

**زنكى ومواجهة التحدى البيزنطى الفرنجى :**

تطورت الأمور فى بلاد الشام ذلك الوقت تطورا آخر وضع زنكى أمام عداء جديد مسيحى بيزنطى قدر له أن ينضاف الى العداء الصليبى اللاتينى التقليدى رغم ماكان بينهما من قبل من التباين والخلاف ، اختفى وحل محله تحالف وئام وجه ضد زنكى فى بلاد الشام حينئذ .

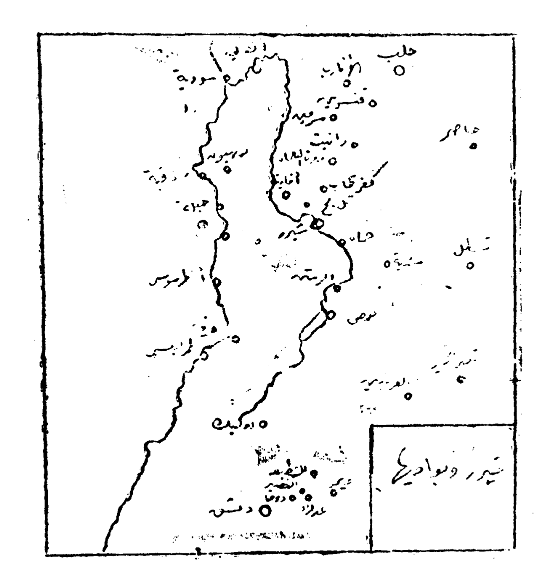
ذلك أن امبراطور الدولة البيزنطية حنا كومنين ( ١١١٨ - ١١٤٣ م ) كان أكثر طموحا من والده الكسيوس كومنين اذ كان قائدا حربيا ماهرا ، لم يقنع كوالده بما اختلسته الامبراطورية من نفوذ فى آسيا الصغرى على أثر تقدم الصليبين ولكن همته ارتفعت الى استعادة مجد هذه الامبراطورية ونفوذها فيما كان خاضعا لها من قبل من البلاد فى المنطقة .

ونجح فعلا فى استرداد كثير من أملاك الامبراطورية فى آسيا الصغرى على حساب سلاجقة الروم وبيت الدانشموند وكذلك على حساب الارمن فى قيليقيا ، ولكن مع ذلك كان دائم التطلع الى أنطاكية باعتبارها كانت درة فى عقد أملاك الدولة البيزنطية فى الشرق .

واذ فشل حنا كومنين فى ربط هذه الامارة بالتبعية للامبراطورية عن طريق عقد مصاهرة سياسية بين أحد أمراء أسرته وابنة روجر الانطاكى فى عام ١١١٩ على أمل أن يؤدى هذا الحل ولو مع مضى الزمن الى عودة انطاكية الى حظيرة الامبراطورية [1] ثم كان زواج كونستانس الوريثة الشرعية الامارة من ريموند دى بواتيه سنة ١١٣٦ م فيه ضياع لآخر أمل للامبراطورية فى استعادة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ص ٥٨٢


شيزر ونواحيها
حلب
قنسرين
أفامية
شيزر
حماه
الرستن
حمص
بعلبك
دمشق

هذه الامارة سلميا . لذا قرر حنا كومنين قيـــادة جيشه فى يوليو سنة ١١٣٧ والزحف الى انطاكية لتحقيق هدفه بالقوة . (١) .

والواقع أن إمارتى أنطاكية وطرابلس كانتا تواجهان اذ ذاك مصاعب كبيرة ففى الوقت الذى اقترب فيه الخطر البيزنطى من إنطاكية كان زنكى يهاجم بعرين من أملاك طرابلس ولذا تلقى الملك فولك الانجـوى الاستغـاثات المتوالية ليسرع بقواته نحو الشمال وكان عليه أن يؤمن جانب طرابلس بطرد زنكى من أمام بعرين قبل أن يتجه الى أنطاكية غير أن الامور جرت على غير ما كان يخطط اذ حوصر فى بعرين بينما وقع ريموند الثانى أسيرا فى يد زنكى الامر الذى ألجأ الملك الى طلب النجدة من ريموند دى بواتيه أمير انطاكيه - كما سبقت الاشارة .

ومع خطورة الوضع بالنسبة لانطاكيه لاقتراب البيزنطيين الا أن ريموند دى بواتيه قاد جيشه وتحرك لنجدة الملك ، وحينما عاد فى أواخر أغسطس سنة ١١٣٧ كانت أنطاكية قد حوصرت بواسطة الجيش البيزنطى ولكنه مع هـذا نجح فى دخولها . ويبدو أن احساس الامبراطور بقوة تحصينات المدينة وحسن الدفاع عنها مع رغبته فى عدم تقويض دعائم الحكم الصليبى فى المنطقة خشية استفادة المسلمين لا سيما زنكى من ذلك ، هذا فضلا عن أن ريموند لم يكن يأمل فى أية معونة من الخارج بعد أن وصلته رسالة غير مشجعة من الملك فولك أشار فيها الى أن أنطاكيه كانت فعلا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية (٢) كل هـــذه الاسباب عجلت بالتقاء وجهات النظر بين الطرفين وأصبحا أكثر رغبة فى عقد الصلح بينهما .

---

(١) Crousset : Op. Cit II. P P. 90 - 91

(٢) Runciman : Op. Cit II P. 213

ولاشك أن الإمبراطور قد إقتنع أنه بفرض استيلائه على انطاكية وإخراج الصليبيين منها لايضمن استمرار الدفاع عنهـا ووضعها متطرف بالنسبة لامبراطوريته مع وجود الخطر الاسلامى مترقبا فى المنطقة ، وربما يفسر لنا هذا تفكيره فى تحالف مع الصليبيين للقيام بحملة صليبية مشتركة لانتزاع حلب من زنكى وشيزر من بنى منقذ وحمص من أمير دمشق وضمهم فى إمارة واحدة يعهد بها لريموند دى بواتيه ، لتكون من ناحية حماية لانطاكية من جهة المسلمين ومن ناحية أخرى تعويضاً لريموند عن أنطاكية.

دارت المفاوضات بين الطرفين على أساس دخول أمير انطاكية فى نطاق التبعية للامبراطور والاعتراف بسيادته وأن يقسم له يمين الولاء ويوافق على تسليم المدينة نهائياً للامبراطور فى حالة نجاح الصليبيين والبيزنطيين معا فى انتزاع المدن المشار إليها وتكوين إمارة واحدة تسلم لريموند[١] ، وعلى هذا الأساس تم الصلح وعقدت إتفاقية بهذا المضمون ورفع على أثر ذلك علم الإمبراطورية على قلعة انطاكية .

تم الإتفاق إذن على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين فى بلاد الشام ، ومع هذا إتجه الامبراطور إلى خداع المسلمين والتمويه عليهم لاكتساب الوقت فأرسل إلى زنكى يخبره بأنه لايفكر فى حربه أو قصد بلاده ، ووصل الرسول إلى زنكى ... فرده ومعه هدية إلى ملك الروم» [٢] ، ولهذا انصرف زنكى إلى نشاطه

---

(1) Grousset : Op. Cit. II. PP. 94-7
Runciman Op. Cit. II. P. 213

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

فى المنطقة ، فنى أكتوبر سنة ١١٢٧م وصل إلى حماة ، ثم إتجه إلى حمص ، ومنها إلى بقاع بعلبك ، فاستولى على حصن المجدل ودخل صاحب بانياس فى طاعته ، وكان المجدل وبانياس من توابع دمشق ، [١] ، وبعد ذلك إتجه مرة أخرى إلى حمص ، فعزت عليه هذه المرة أيضا ، ولم يستطع أن ينال منها وسرعان ماتناهت إليه أخبـــار الحملة المشتركة البيزنطية الصليبية فأوقف كل عملياته العسكرية وبات يترقب .

وكان الامبراطور البيزنطى قد حرص على تكتم أخبار هذه الحملة . وأصدر أوامره إلى سلطات أنطاكية أن تقبض على كافة التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمدن المجاورة حتى لاينقلوا إلى زنكى أخبار الاستعدادات الحربية التى تجرى على قدم وساق منفذا تعاليم الامبراطور ، وقبضوا على التجـــار بأنطاكية والسفار من أهل حلب، [٢] وذلك فى جمادى الأولى سنة ٥٣٢هـ (فبراير سنة ١١٣٨م ) . ووصل الامبراطور البيزنطى إلى انطاكية فى الشهر التالى [٣] ، وأجتمعت لديه قوات الرها تحت قيادة جوسلين وقوات أنطاكية تحت قيادة ريموند وتقرر الزحف تجاه حلب .

ويبدو أن وجود جوسلين الثانى صاحب الرها مع هذا الجيش كان له دخل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ( سنة ٥٢٢ هـ )
ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة حلب ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) Small: Op. Cit. P. 30

فى إقناع الامبراطور بالزحف على بزاعا إلى الشمال الشرقى من حلب ، مع أن مباغتة حلب نفسها كانت الهدف الرئيسى لهذه الحملة ، ولم تصمد بزاعا بطبيعة الحال أمام هذه الحشود أكثر من أسبوع ، سلمت بعده بالأمان فى أواخر رجب سنة ٥٣٢ هـ ( منتصف أبريل سنة ١١٣٨ م ) ، ورغم هذا تعرضت لغـــدر الامبراطور الذى نـكل بأهلها وفقتل منهم واسر وسبى ، وأظهر تطرفا فاق كل ما أظهره الصليبيون من قبل [١] . ثم قرر الامبراطور تسليمها إلى جوسلين الثانى كونت الرها ، وواصل سيره ناحية حلب فى ١٨ ابريل سنة ١١٣٨م [٢] .

أحست حلب بالخطر منذ تحركات العدو تجاه بزاعا ، فأسرع لفيف من رجالها إلى زنكى . وكان إذ ذاك محاصراً لحمص ، وأخبروه الخبر وطلبوا سرعة النجدة فما كان منه إلا أن سير نحو خمسمائة فارس تحت قيادة الأمير سوار للدفاع عن المدينة . وعندما فرض العدو الحصار عليها خرج إليهم جندها وأحداثها واشتد القتال واستبسلت حاميـــة المدينة ، وقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، فاقتنع الامبراطور بعدم جدوى الحصار ، فأقاموا على حلب ثلاثة أيام فلم يظفروا بطائل [٣] ، . وأخيرا قرروا الإنصراف عنها . وبهذا نجح زنكى فى حفظ حلب من السقوط فى أيدى العدو ، وأرغمت حصانة المدينة وقوة إستحكاماتها الامبراطور على التحول عنها سريعاً [٤].

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص٣٥٩ - ٣٦٠ ( سنة ٥٣٢ هـ )

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) Grousset : Op. Cit. II. P. 101

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤) Runciman: Op. Cit . II P. 215

اتجهت الجيوش الغازية بعد ذلك إلى الاثارب وكان أهلها قد أخلوها على أثر سماعهم باقتراب الخطر بعد أن « طرحوا النـــار فى خزائنهم » فاستولى الامبراطور عليها بسهولة وخلف بها أسرى بزاعا من المسلمين مع حامية رومية صغيرة ، واتجه هو بالجيوش ناحيـة معرة النعمان . غير أن بعض الاسرى استطاعوا الفرار من الاثارب إلى حلب حيث أخبروا سوار بصغر الحامية الرومية وكثرة الاسرى المسلمين هناك ، لذلك نهض سوار فى فرقة من الفرسان واستطاع أن يخلص الاسرى ويعود إلى حلب [1] .

أما الامبراطور فقد تابع سيره جنوبا فاستولى على معرة النعمان فى ٢٥ إبريل سنة ١١٣٨م ( ١٣ شعبان عام ٥٣٢ هـ ) ، وقصد بعد ذلك كفر طاب « ورموها بالمجانيق » فسلمها أهلها فى ٢٧ أبريل ( نصف شعبـــان ) ثم تابع سيره ناحية شـــيزر [2] .

سارت الجيوش المتحالفة ناحية شيزر واميرها إذ ذاك أبو العساكر سلطان بن منقذ وكان الامبراطور قد نظر إلى مسألة إسقاط هذه الامارة نظرة جادة لما أصاب جهوده ضد حلب من فشل ، فشيزر هى المدينة الثالثة التى خطط لضمها إلى الإمارة اللاتينيـــة المزمع اقامتها ، بل أنها تتوسط المدينتين الاخرتين ــ حلب وحمص ــ وتمثل أهم المدن فى حوض نهر العاصى الاوسط كما أنها كانت إمارة مستقلة ليست من أملاك زنكى وليست من أملاك دمشق

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٥٩ — ٣٦٠ ( سنة ٥٣٢ هـ ) .
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

«فلأنها لم تكن لزنكى فلن يكون له فى حفظها اهتمام»[1]، وإذا كانت حلب قد صمدت لهجوم الامبراطور واضطرته للرحيل عنها ، فإنه لا شك تأكد أن حمص التى تلقى عناية خاصة من زنكى ودأبا متواصلا للفوز بها ، لن تستطيع هى الأخرى أن تسهم فى إقامة الامارة اللاتينية المرتقبة . إذن لم تبق سوى شيزر المتمتعة بموقع فريد يمكن أن يكون نواة لأى إمارة يرجى تكوينها فى هذه المنطقة . كما أنه لم يرد - كما يبدو - أن تتمخض حملته الكبيرة بما اقترنت به من مؤازرة صليبية ، عن مجرد الاستيلاء على بعض القلاع والحصون الصغيرة دون المدن والامارات الكبيرة .

لهذه الأسباب كلها نشط الامبراطور فى مشروع الاستيلاء على شيزر أكثر مما بذل أمام حلب من قبل حتى ليذهب المؤرخ ابن العظيم أنه هاجمها «فى مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ومعهم من الكراع والسلاح مالايحصية الا الله»[2] واشتد فى حصارها وضربها ، ونصب عليها عدة من المناجيق»[3] وعندئذ لم يسع اميرها ابن منقذ سوى طلب النجدة من زنكى .

أوقف زنكى كل عملياته الحربية وبادر بالرحيل إلى شيزر، ونصب مخيمه على

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦ (سنة ٥٢٢ ﻫ).

(٢) ابن العديم : زبده الحلب ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٤ . ويصف أسامة ابن منقذ ضخامة تلك المجانيق بقوله : « ترمى الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لى ... فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد »

أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٤ .

ضفة نهر العاصى بينها وبين حماة [١]، وليس من شك فى أنه كان يعلم تمام العلم التفوق العددى لاعدائه ، وأنه لا قبل له بهم، بدليل حرصه على عدم الدخول معهم فى حرب فاصلة مع تفاوت العدة العدد، بدليل ارساله أحد جاله إلى بغداد للاستنجاد سريعا بالسلطان مسعود وسنتناول هذه السفارة بعد قليل ، ومايهمنا الآن أن زنكى اكتفى بمراقبة الوضع عند شيزر ، وارهاب الجيوش الغازية والتنكيل بمن يقع فى يده منهم وفى نفس الوقت كان ظهوره قرب المدينة عاملا مشجعا لحاميتها للصمود والقتال ورفع روحهم المعنوية ، ريثما تصله النجدات وينحل الموقف .

شرع زنكى فى ارهاب الامبراطور فبعث اليه يقول «انتم تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » كل هذا مع أنه «لم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه » ، وقد نجح زنكى فى ذلك أيما نجاح ، فقد ألح البعض على الامبراطور للنزول اليه وقتاله ، وهونوا أمره عليه فلم يفعل وقال : أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ماترون انما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين مالاحد له» [٢].

كما أخذ زنكى يوقع بين الطرفين المتحالفين فأرسل إلى الامبراطور يوهمه بخوف الفرنج منه وعزمهم على التخلى عنه ، وفى نفس الوقت أرسل إلى الفرنج يخوفهم من اطماع الامبراطور وأنه إذا ملك حصنا بالشام فلن يكون لهم مقام

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ص ٣١٠ (سنة ٥٣٢ هـ) .
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٨ - ٧٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٦٠ .

معه في تلك البلاد . [١] و نجح في بث الفرقة وبذر الشقاق بين الجانبين .

وكان ذلك بالاضافة الى الرغبة الكامنة لدى ريموند أمير انطاكية في التخلص من الحملة وامله في ألا تسقط شيزر في يد الامبراطور خشية أن يتمسك هذا بشروط الاتفاقية ويقيمه أميرا عليها ويحرمه من انطاكيه مع الفارق بين الامارتين في كل شيء حتى في الموقع ومدى التعرض للخطر الإسلامى . هذا فضلا عن أن جوسلين الثانى أمير الرها مع سوء العلاقة بينه وبين ريموند لم ينظر بعين الرضا الى أى تغيير قد يؤدى الى قرب غريمة منه فى حلب [٢]. لهذا كله اصبح اشتراك هذين الاميرين مع الامبراطور عديم الفائدة وغدا عبئا عليه أكثر مما كان عونا له . واذا أضفنا الى ذلك شجاعة حامية شيزر واستماتة رجالها فى الدفاع عنها تأكدنا ان فشل الحملة الرومية الفرنجية أصبح وشيك الحدوث . فقد استمر حصار المدينة أربعة وعشرون يوما تحدثنا المراجع ان القتال دام فيها نحو عشرة ايام ، ولقى أهل شيزر بلاء عظيما ، ثم اقتصر بعد ذلك على ضرب المجانيق [٣] مما يؤكد استماتة أهلها فى الدفاع عنها وعجز الجيوش المتحالفة على النيل منها .

وفى نفس الوقت تواترت الانباء بما حدث من رد فعل لدى المسلمين على أثر التقدم البيزنطى الفرنجى فى بلاد الشام ، فاستعد السلطان مسعود لارسال نجدة كبيرة لزنكى وتأهب داود بن أرتق للزحف فى طوائف التركمان

---

(١) ابن الاثير . الكامل ج ٨ ص ٣٦ (سنة ٥٣٢ هـ) .
ابن واصل : مفرج الكروب ج١ص ٨١ — ٨٢ .
(٢) Grousset : Op. Cit. II. P. 109
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٨ .

وكذلك ذاع أن عسكر دمشق يوشك أن يصل لمساعدة زنكى ومقاومة البيزنطيين والفرنج [١] ، كما تناهى الى الامبراطور ان زنكى بعث الى بنى دانشمند بآسيا الصغرى ليهاجموا أملاك الامبراطورية هناك حتى يضطر الامبراطور الى الارتداد للدفاع عما بيده بتلك المنطقة .

لهذه الاسباب كلها اصبح الامبراطور البيزنطى اكثر ميلا لعقد الصلح مع شيزر ان لم يكن هو الراغب فى ذلك ليخرج من هذا المأزق ، فلم يكد امير المدينة يتقدم بطلب الصلح عارضا دفع مبلغ من المال وجزية سنوية للامبراطور مع بعض الهدايا الثمينة ، حتى بادر الامبراطور بالموافقة على الفور ، ومن ثم أخذت جيوشه فى الانسحاب من امام المدينة عائدة الى انطاكيه فى مايو سنة ١١٣٨ م [٢] وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الرومية الفرنجية ، ومنيت بالفشل الذريع ولم تحقق أيا من أهدافها .

والحقيقة أن زنكى أبان عن همة ونشاط فى مدافعة هذا العدو ، كما أثبت إخلاصه لقضية الجهاد الدينى ووضعها فى مكانها من الاهمية وذلك نابع دون شك من إحساسه بالواجب الملقى على كاهله تجاه المسلمين والحرب المقدسة ضد الصليبيين ، وإلا لأصم آذانه عن نجدة شيزر وخاصة انها لم تكن جزءا من أملاكه ودليل أبلغ على اخلاصه للقضية التى نحن بصددها ، هو مبادرته بطلب النجدة من السلطان السلجوقى مسعود ، مع أن هذه الخطوة تتعارض كلية مع سياسته التقليدية فى محاولة إغلاق المنطقة امام نفوذ السلطان وعدم جذ به

---

(١) إبن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٦٦ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٦ .

بجيوشه إلى هناك . ذلك ان زنكى عندما علم بنبأ الحملة المعادية وتحركها ناحية بزاعا ، أسرع بانفاذ القاضى بهاء الدين الشهرزورى الى بغداد للاستنجاد بالسلطان مسعود وطلب النجدة ، فقال القاضى لزنكى قبل أن يمضى الى بغداد : « أخاف ان تخرج البلاد من ايدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر فاذا توسطوا البلاد ملكوها » فكان رد زنكى أبلغ دليل على اخلاصه اذ قال: « ان هذا العدو قد طمع فى البلاد ، وان اخذ حلب لم يبق بالشام اسلام وعلى كل حال فالمسلمين اولى من الكفار بها » [1] . وهكذا أوضح زنكى بما لا يدع مجالا للشك حرصه على مصالح الإسلام قبل حرصه على مصالحه هو وقد بذل الشهرزورى جهدا لاقناع السلطان باعداد نجدة لزنكى ، وفى الوقت الذى أوشكت النجدة على التحرك ناحية الشام تلقى الشهرزورى رسالة من زنكى تفيد رحيل الاعداء وعدم حاجته الى جند السلطان [2] والواقع أن زنكى لم يكن ليطلب مثل هذه النجدة إلا تحت ظروف ملحة وايمانا بهدف أسمى من أن يقف فى طريقه ثمة ملابسات أو مصالح فردية ولم يكن هذا الهدف سوى الجهاد الدينى والحرب المقدسة ضد الفرنج .

على كل حال لم يكد الامبراطور يتراجع بجيوشه عن شيزر فى مايو سنة ١١٣٨م حتى انصرف زنكى الى محو أثر هذه الغزوة الفاشلة والتخلص من آخر أثر لها ، فاسترد كفر طاب فى أواخر نفس الشهر ( مايو — سنة ١١٣٨م ) ، وحصن بزاعا فى سبتمبر والاثارب فى أكتوبر من نفس العام [3] وسار الى حصن عرقه من أعمال طرابلس واستولى عليه وأسر من به من الفرنج ثم أمر بتخريبه

---

( ١ ) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧٩ .

( ٢ ) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٠ .

( ٣ ) Grousset Op. Cit. II. P. 132

، وعاد سالما غانما ، (١) وغدت يده طليقة مرة أخرى فى بلاد الشام ، وأصبح له من الشهرة وحسن الذكر ما اكسبه منزلة سامية لدى المسلمين وجعله يمضى قدما فى الجهاد الدينى والحرب المقدسة ماسوف يخلد ذكره (٢) .

**موقف زنكى من امارة دمشق ومن التحالف الدمشقى الفرنجى :**

ما كاد زنكى ينتهى من استرداد الحصون المشار اليها حتى دخل فى مفاوضات مع الأمير شهاب الدين محمود أمير دمشق انتهت باستيلاء زنكى على حمص مقابل تنازله عن حصن بعرين وبعض الحصون الأخرى ، كما تزوج زمرد خاتون والدة محمود فى رمضان سنة ٥٣٢ هـ (يونيو سنة ١١٣٨م) . (٣) آملا ان يستطيع عن طريق هذه الزيجة ان يستولى على دمشق وتحقيق أمله فى ضم هذه الامارة الى ملكه (٤) . ثم قرر العودة الى الموصل بعد ذلك

غير أنه مالبث أن عاد فى العام التالى الى الشام ، ليلعب دورا هاماً ضد دمشق

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥٧ .

(٢) مما مدح به زنكى على اثر فشل الحملة البيزنطية الفرنجية قصيدة الحورى التى مطلعها :

| | |
|---|---|
| بعزمك أيها الملك العظيم | تزل لك الصعاب وتستقيم |
| ألم تر ان كلب الروم لما | تبين أنك الملك الرحيم |
| اراد بقاء مهجته فولى | وليس سوى الحمام له حميم |

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٠ (سنة ٥٣٢ هـ) .
التاريخ الباهر ص ٥٦ — ٥٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٢٦٦ .

(٤) ابو الفدا : منتخبات من المختصر ( I. P. 23 )

وحلفائها من الفرنج . ذلك ان شهاب الدين محمود بن زمرد خاتون زوجة زنكى اغتيل فجأة فى يونيو سنة ١١٣٩م (شوال سنة ٥٣٣ هـ) على يد بعض غلمانه ، فنصب معين الدين أنر أخا له آخر غير شقيق يدعى جمال الدين محمد ، وكان حينئذ ببعلبك استدعاه واقامه اميرا د فلك البلد وفوض أمر دولته الى معين الدين أنر وأقطعه بعلبك وزوجه بأمه د ولكن أنر ظل مقيما بدمشق وأناب عنه ببعلبك بعض خواصه وظل يسير دفة الامور فى دمشق ذاتها خشية ان ينتهز زنكى الفرصة ويستولى على المدينة .

غير ان خاتون زوجة زنكى والمقيمة بحلب حينئذ وقد أفزعها نبأ مصرع ولدها محمود ، سارعت باستدعاء زنكى من الموصل ليقوم بالانتقام من قتلة ابنها والاخذ بثأره، كما هرع أخ آخر لمحمود يدعى بهرام شاه للاستنجاد بزنكى ضد أنر الذى تخطاه وعين أخاه محمد فى الامارة .[1]

لذا عبر زنكى الفرات عازما على قصد دمشق ، ولما أحس حكام دمشق بذلك أخذوا فى الاستعداد وشحنوا البلد بالمؤن والذخائر ، ولم يتركوا شيئا فيها يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد فى تحصيله واقاموا ينتظرون وصوله اليهم ، [2] لكنه سار الى بعلبك ورأى الاستيلاء عليها قبل ان يشرع فى مهاجمة دمشق ، وجد فى حصار بعلبك وقتالها ورماها بالمجانيق حتى « أشرف من بها على الهلاك » [3] فاضطرت المدينة الى التسليم فى اكتوبر سنة ١١٣٩م ، لكن قلعتها ظلت صامدة فترة ، فاستمر زنكى فى قتال حاميتها حتى يئست وطلب رجالها الامان فأمنهم زنكى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٢ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ (سنة ٥٣٣ هـ) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ .

ولكنه عاد فغدر بهم ، وأمريهم فصلبوا عن آخرهم فاستقبح النـاس ذلك واستعظموه وحذره الناس » . [1] وليس من شك فى أن هذه الحادثة ساهمت فيما لقيه زنكى بعد ذلك من مقاومة فى دمشق اذ قال أهلها « لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا فى محاربته » .

تحول زنكى الى حصار دمشق ذاتها فى ديسمبر سنة ١١٣٩ م ( ربيع الاول سنة ٥٣٤ هـ ) . وقبل أن يشرع فى حربها أرسل الى جمال الدين محمد يطلب منه تسليم المدينة ويقترح عليه تعويضه عنها بما يطلب من البلاد الاخرى « فلم يجب الى ما رغب فيه » [2] ، وعندئذ صمم زنكى على القتال ، واستطاع ان ينزل الهزيمة بطلائع قوات البلد « ثم اجتمع عليه جند دمشق فهزمهم » واشتد فى الحرب حتى اشرفت المدينة على التسليم ومع هذا فضل للمرة الاخيرة ان يدخل فى مفاوضات مع رجالها وفى هذه المرة ايضا اقترح ان يعوض اميرها بحمص وبعلبك وغيرها ويذكر كل من ابن القلانسى وابن العديم ان محمدا « اراد إجابته إلى ذلك فمنعه اصحابه وخوفوه الغدر به » [3] ووسط هذه الاحداث توفى جمال الدين محمد فى ٢٩ مارس سنة ١١٤٠ م بينما كان زنكى يشتد فى هجماته فى الخارج.

لم يتأثر الوضع داخل البلد بوفاة محمد لان أنر لازال هو الشخصية المعول عليها فى كل شىء ، اذ سارع باقامة ابن الامير المتوفى ويدعى مجير الدين أبق « فلم يظهر لموت ابيه اثر مع ان عدوهم على باب المدينة لكن أنر اتجه بعد ذلك وجهة جاءت مخيبة للامال ومعوقة لجهود زنكى ومساعدة

---

( ١ ) ابو الفدا : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر ( Rec. I. P. 25 )

( ٢ ) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٧٠ .

( ٣ ) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٧٣

ابن القلانسى : ذيل ص ٢٧١ .

بين وحدة المشاعر عند المسلمين ، أعادت الى الأذهان موقف طغتكين من قصة الجهاد فى السنوات التى اعقبت مقتل مودود .

فقد اتجه الى التحالف مع الفرنج وأرسل سفارة على رأسها اسامة بن منقذ الى فرنج بيت المقدس مقترحاً أن يتحالف الجانبان ضد زنكى لابعاده عن دمشق مقابل ان يدفع لهم مبلغا من المال ويعاونهم فى الاستيلاء على بانياس من أيدى المسلمين ، وفى نفس الوقت خوفهم أثر من أطماع زنكى «وأنه إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ولا يترك لهم بلدا بالساحل » [1] .

أثارت هذه المسألة بعض الاعتراضات فى المملكة الصليبية لكن العقبات زالت بموافقة دمشق على تحمل نفقات الجند الفرنج بدفع مبلغ ٢٠ الف دينار شهريا وان تقدم دمشق رهائن لضمان تنفيذ ذلك «فأجيبوا الى ذلك وحمل اليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين فشرعوا فى التأهب للانجاد والاستعداد للمؤازرة والاسعاد » [2] .

حينما تأكد زنكى من استعداد الفرنج للزحف آثر ترك حصار دمشق فى أواخر ابريل سنة ١١٤٠ م ( رمضان سنة ٥٣٤ هـ ) وتقدم ناحية حوران ليلقى الفرنج قبل ان يتمكنوا من الاجتماع بقوات المدينة . ويبدو أن هذه الحركة قد ارهبت الفرنج فلم يجرؤا على التقدم شمالا لمواجهته [3] ، مما يوحى بأن استنجاد أنر لم

---

( ١ ) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٨ .

( ٢ ) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٧٢ .

( ٣ ) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٤
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٧ ( سنة ٥٣٤ هجرية )

يكن السبب الحقيقى لموافقتهم على التحرك شمالا وإنما كانوا يهدفون فقط صد زنكى ومنعه من السيطرة على دمشق واعاقة الوحدة الاسلامية التى أوشكت على الحدوث بدخول هذه الامارة فى حوزة زنكى مما يصبح خطراً كبيراً على وجودهم بالمنطقة [1] ، فلما ابتعد زنكى عن دمشق ووصل الى حوران لم يعبأ الفرنج كثيرا بسرعة الوصول اليه والدخول معه فى معركة ، ولما طال الانتظار زنكى دون جدوى عاد مرة أخرى الى دمشق فى شوال سنة ٥٣٤هـ (أواخر مايو ١١٤٠) وفى هذه المرة نزل بشمال المدينة . وعندئذ أسرع الفرنج بالتحرك ناحية دمشق .

غير أن زنكى تأكد من عدم جدوى الحصار وقرب وصول الفرنج وامكان اتصالهم بقوات المدينة ، لذا قرر فك الحصار عن المدينة والعودة الى حلب .

وعندما وصل الفرنج الى دمشق بعد رحيل زنكى ، استقبلهم أنر استقبالا حسنا وصاحبهم فى حملة على بانياس طبقا لشروط الاتفاقية وكان ابراهيم بن طرغت واليها - وهو فى طاعة زنكى - قد انتهز فرصة انشغال الفرنج فى الاستعداد للتحرك الى دمشق وقام بالاغارة على أعمال صور ، غير أنه لقى مصرعه على يد ريموند أمير انطاكية الذى كان فى طريقه لمعاونة الملك فى مشروعه ، وهكذا كانت بانياس بلا أمير عند اقتراب الحملة الفرنجية الدمشقية منها ، ومع هذا فقد صمدت للهجوم فترة مالبثت ان استسلمت بعدها فى يونيو عام ١١٤٠م ، فتسلم أنر قلعتها وبادر بدوره بتسليمها الى الفرنج [2]

قرر زنكى العودة سريعاً على اثر هذه الانباء وخشية امتداد العمل الى بعلبك التابعة له ولرغبته كذلك فى القيام برد على هذا النشاط الفرنجى الدمشقى

---

(١) Small : Op. Cit. P. 22
Grousset : Op. Cit II. P. 132

(٢) ابن الأثير : الكامل ٨ ص ٢٦٧ (سنة ٥٣٤ هـ) .

فنزل بعلبك وأخذ يرقب الأمور فيها ثم بادر بانفاذ بعض فرقه للاغارة على حوران وأعمال دمشق ثم تقدم هو تحت جنح الليل ونزل قرب دمشق « فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج البلد » . ولكن يبدو انه لم يخطط حينئذ الهجوم على المدينة وانما هدف من ذلك منع خروج قواتها لمطاردة فرقه التي أخذت تعبث في الجنوب ، وقد أشار ابن الاثير الى ذلك بقوله : « وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكرا الى عسكره وهم متفرقون ، وتأكد هذا حينما ارتد بعد قليل الى مرج راهط[1] « واقام ينتظر عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملأوا ايديهم من الغنائم... فرحل بهم عائدا الى بلاده » . وبهذا يكون زنكى قد حاصر دمشق فى هذه النوبة مرتين لم يستطع فيها تحقيق هدفه وحلمه ، وتأكد بصفة قاطعة صعوبة ضم هذه الامارة الى جبهته . فكانت هذه المرة آخر محاولة له ضد دمشق بعد أن جرب معها كافة الوسائل دون جدوى . ويذهب المؤرخ ابن العديم الى انه لم يرجع عنها هذه المرة الا بعد ان وافق أميرها — أبق — على اقامة الخطبة له بدمشق[2] . فان صحت هذه الرواية فعلا فان هذا يكون الحصيلة الوحيدة لكل هذه المحاولات، والنتيجة الفريدة لنشاطه الدائب حيالها .

أما أنر فقد دعم حلفه مع الفرنج بأن اصطحب اسامه بن منقذ وقام بزيارة للملك فولك فى عكا ، فاستقبل بحفاوة بالغة ، وتأكدت أواصر الصداقة بينه وبين رجالات الصليبيين فى المملكة ، وزار عدة مدن منها بيت المقدس وحيفا وفى كل مكان لقى مظاهر التكريم والحفاوة البالغة[3] . فاذا كان هذا التحالف له ضلع فى اعاقة زنكى ووقوفه فيما وراء دمشق ، فان له فضل فى صرفه الى مشروعاته فى الشمال وهى وجهة جاءت مثمرة كثيراً ، وجاءت ناجحة لما كان يسود الشمال اذ ذاك من ظروف مواتية سنتناولها بعد قليل .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٧٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) Grousset : Op : Cit. II. P. 140-I

**زنكى والاستيلاء على الرها سنة ١١٤٤ م :**

بوصولنا إلى جهود زنكى ضد امارة الرها اللاتينية والاستيلاء على مدينة الرها ذاتها سنة ١١٤٤م نكون قد وصلنا فعلا إلى حصاد سنين الجهاد وحصاد سنين المحن والآلام ، وثمرة الحروب المقدسة التى امتدت وتلاحقت نوباتها على مدى أكثر من أربعين عاما ، فليس من شك فى أنه كان حصاداً مرضيا لاولئك المترقبين بشغف نتائج حركة الجهاد المقدس المتطلعين إلى غد اكثر اشراقا فيه استعادة لمجد الاسلام وسيادة اراضيه ، ليس فقط لاهمية هذه الامارة اللاتينية وأهمية سقوطها بالنسبة لتداعى الكيان الصليبى نفسه وانما أيضا لما فى ذلك من انطلاق لفكرة الجهاد ذاتها واعطائها دافعا كبيرا وحافزا قويا للاستمرار والاجهاز على بقية الامارات الصليبية والاستقرار اللاتينى فى هذه البلاد وتطهيرها منه نهائيا .

وقبل عرض هـــذه الصفحة المشرقة من الجهاد يحسن تناول الظروف التى مهدت لها وساعدت على نجاحها سواء فى الجانب الاسلامى أو الجانب الصليبى ففيما يختص بالجانب الاسلامى ، فقد انصرف زنكى فى الفترة بين سنتى ١١٤٠ – ١١٤٤م أى منذ عودته من مشروعه ضد دمشق حتى اسقاطه الرها إلى عمليات عسكرية ناجحة فى أرض الجزيرة نعتقد أنها فضلا عن كونها تأكيدا لنفوذه وسلطانه فى هـذه الجهات وامتدادا لرقعة دولته ، كانت تأمينا لحدوده وتمهيدا للهجوم على الرها بعد ذلك ، صاحبها تحديد موقفه من السلطنة السلجوقية فى المشرق واقرار العلاقة مع مسعود والتماس رضاه تفرغا لعملياته فى البلاد الجزرية ومشروعاته ضـد الفرنج ، فى الوقت الذى واصل نائبه بحلب الامير سوار مناهضة الفرنج وشن الهجوم عليهم من آن لآن .

وجه زنكى جهوده فى هـذه الفـترة ضد التركمان والاكراد بشمال العراق

والجزيرة فاستولى فى سنة ١١٤٠ (سنة ٥٣٤ هـ) من التركمان على قلعة شهرزور وأعمالها وما يجاورها[١] ، وكانت بيد قفجاق ابن أرسلان تاش التركمانى ، كما استولى فى العام التالى على قلعة بهمود من داود بن سقمان الارتقى[٢] ، وانتزع مدينة الحديثة من آل مهراش ونقلهم إلى الموصل وخطب له فى آمد ودخل صاحبها فى طاعته فى عام ١١٤٢م ثم تحول زنكى إلى الاكراد فخرب بعض قلاعهم وأقام قلعة كبيرة سماها العمادية نسبة اليه[٣] ، وذلك فى عام ١١٤٣ م. ولعل أهم هذه الجهود ماقام به فى ديار بكر فى عام ٥٣٨هـ(١١٤٣-١١٤٤م)، ففتح بعض القلاع والمدن بعضها كان تابعا لجوسلين صاحب الرها ، بدأ زنكى بفتح طنزه واسعرد والمعدن وحصن الروق وفطليس وباناسا ، وحصن القرنين آمد ، وبعض القلاع من أعمال ماردين وكانت تابعة للفرنج منها جملين والموزر وتل موزن وغيرها من حصون شبختان[٤] .

ولايخفى أثر هذه الجهود فى اتساع نفوذ زنكى ومتاخمته إمارة الرها بل انتزاع بعض توابعها مما يرهص باصطدامات معها فضلا عما فى ذلك كله من تطويق لها وتضييق عليها من أغلب الجهات ، وكلها خطوات أوهنت هذه الامارة ومهدت لسقوطها .

أما بالنسبة لعلاقة زنكى بالسلطنة السلجوقية فى هذا الدور ، ففى عام

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٣٦٨ (سنة ٥٣٤ هـ ) والتاريخ الباهر ص ٥٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٩٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج٩ ص٦ (سنة ٥٣٧ هـ)

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٩٠

٥٣٨ هـ حشد مسعود جيوشه فى بغداد واستعد لحرب زنكى لتأكده أنه وراء كل ثورة يعلنها الأمراء المحليون ضد السلطنة ، فبفضل تحريضه لهم كانوا دائمى الخروج على السلطان (١) ، وكان اتابك زنكى لاشك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره (٢) ، فلما فرغ السلطان فى ذلك العام عزم على التخلص منه ، وعندئذ لم يسع زنكى إلا اظهار الولاء للسلطان واستمالته وتم الصلح على مائة ألف دينار .... حمل ثلاثين ألفا ثم تقلبت الاحوال فاحتيج إلى مداراة زنكى فسقط المال (٣) .

ويذكر أبو شامة أن السلطان مسعود طلب مثول زنكى بين يديه وأن يحضر فى خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج ... فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرهاء (٤) ومهما كان الأمر فقد نجح زنكى فى كسب رضاء السلطان ليتفرغ لمشروعاته ضد الفرنج .

أما سوار فقد تابع نهجه فى الاغارة على الفرنج فى هذه الفترة أيضا والتصدى لنشاطهم فى المنطقة وخاصة عندما هاجموا سرمين وجبل السماق وكفر طاب سنة ٥٣٦ هـ ، بل أنه اغار على امارة انطاكية ووصل إلى باب المدينة (٥) .

---

(١) Browne : Op. Cit. P-863

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص٧ (سنة ٥٣٨ هـ) والتاريخ الباهر ص٦٥

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ١٠٥

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ق١ ص ٩٢ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص٢٧٥ ،
ابن القلانسى : ذيل ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

هذا بالنسبة للجانب الاسلامى فى الفترة السابقة مباشرة لفتح الرها ، أما فيما يختص بالجانب الصليبي ، فلعل أهم مايميز هذه الفترة هو مرور الامارات اللاتينية والمملكة الصليبية لأول مرة منذ الاستقرار الاول بظروف حرجة لم تشهدها من قبل أنذرت بشر مستطير فى الوقت الذى بدأ فيه زنكى يستعد للقيام بعمل كبير .

ففى الشمال تطور التنافس بين ريموند دى بواتيه أمير انطاكيه وجوسلين الثانى أمير الرها إلى نزاع وصل حد القطيعة بينهما ، ولم يعد أى منهما يهتم بما يتعرض له الآخر من خطر . حقيقة لم يكن هذا النزاع والخلاف بدعا على الامارتين بل أنه قديم حدث من قبل على عهد بلدوين دى بورج فى الرها وتنكرد فى انطاكية إبان نشاط مودود ، غير أن خطورة ذلك النزاع الاول تلاشت بفضل ما تهيأ للصليبيين حينئذ من رجال كبلدوين الأول بما عرف عنه من دأب على لم الشمل وجمع الكلمة فى مواجهة المسلمين . لكن بلدوين الثانى وفولك الأنجوى ورجالات الجيل الأول من الصليبيين لم يعد لهم وجود فى الوقت الراهن ، ومن هنا تبدو خطورة هذه الانقسامات بالنسبة للامارات اللاتينية فى الشمال أمام تحفز المسلمين . وليس من شك فى أن وجود نوع من التبعية بين الامارات اللاتينيه والمملكة الصليبية وحرص ملوك بيت المقدس على بقاء الرباط قويا بين تلك الامارات بعضها البعض وبينها وبين المملكة والتزام المملكة بنوع من الحماية للك الامارات ، كفل لها من قبل الصمود فى وجه الاخطار المحدقة بها إلا أن هذه الظروف تغيرت بوفاة الملك فولك فى عام ١١٤٤م وتولى بلدوين الثالث وكان حدثا فوقع تحت وصاية والدته ميزاند التى افتقرت إلى الحرص الكافى على استمرار العمل بالنظم والقواعد التى سارت عليها المملكة من قبل بل انها انصرفت إلى محاولة الاستئثار بالسلطة وفرض نفسها

ومصالحها الشخصية على المملكة متخذة فى ذلك مختلف الأساليب، كل هذا كان فى غير صالح الصليبيين ، وجد فيه زنكى فرصة مواتية . (١)

أما جوسلين الثانى فتشير الدلائل الى أنه لم يكن من طراز امـــراء الرها السابقين ولم يفعل مايحول بين الرها وبين الوقوع فى مصيرها المحتـــوم ، فقد انصرف الى مباذلة وانهماكه فى الملذات، وخلد إلى حياة الدعة والرفاهية، بل أنه فضل ترك الرها ذاتها وانتقل ا تل باشر على الناحية الأخرى من الفرات (٢) دون أن يهتم بتوفير المؤن والعدد والسلاح بها حتى تستطيع المقاومة وتصمد الحصار الطويل ، ولكنه عول على طوائف السكان من المسيحيين الشرقيـــين وحامية صليبية صغيرة فى الدفاع عنها(٣).

لعل فى هذا هذا العرض ايضاحا لمدى ملائمة الظروف للعملية التى أزمع القيام بها زنكى ضد الرها ، فجانب اسلامى تزداد قوته ، وتقوى جبهته وينشط الى هدفه ، وجانب صليبى غدا يعانى من الفرقة والانقسام وفقدان النظم التى كفلت له من قبل حوافز البقاء وسط الحشد المعادى له ، وتداعت المملكة فى بيت المقدس، وفقدت جانبا ليس تافها من ولاء الأمراء الآخرين ، بالاضافة الى ما شهدته من تحكم الوصية وحداثة الملك ، وهى ظروف لم تعهدها المملكة من قبل .

فى خريف عام ١١٤٤م عزم زنكى على مهاجمة الرها ، ولكنه تظاهر بالانصراف الى مهاجمة الأراتقه ، فى ديار بكر وليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى

---

(١) Small : Op. Cit P. 32

( ) Encyc. Isl. « Tell Pashir » of Honigmann
Grousset : Op. Cit II. P. 177

(٣) Camb. Med. Hist. vol. V. P. 317

قصد بلادهم ، ولهذا سارت الأمور بالرها سيرا طبيعيا ، وما لبث جوسلين أن غادرها قاصدا تل باشر فى الوقت الذى بث فيه زنكى العيون ليوافوه بأخبار المدينة وتحركات جوسلين « فجاءت عيون أتابك اليه فأخبروه الخبر فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه » [1]، كما كاتب طوائف التركمان ليوافوه عندها ، لاداء فريضة الجهاد فوصل اليه منهم الخلق الكثير » [2] .

وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤ م وفى تحركات سريعة ودقة أحاطت قوات زنكى بالرها من كل جانب ، وشددوا الحصار عليها « وحالوا بينها وبين من يدخل اليها بميرة أو غيرها » [3] ، وطوال ثمانية وعشرين يوما لم تنقطع الاشتباكات مع حامية المدينة ورجالها، ولم تكف المجانيق عن قذفها بالاحجار .

ووقع عبء الدفاع عن الرها اذن على طوائف المسيحيين الشرقيين والحامية الصليبية وبرز الاسقف اللاتينى هيو الثانى اضطلع بالدور القيادى فى هذه الاحداث . أما جوسلين الثانى نفسه ، فرغم علمه بما تعرضت له المدينة من الحصار الا أنه لم يحرك ساكنا ، ولم يبادر بمحاولة انقاذها مما جعله هدفا لانتقاد المؤرخ الصليبى وليم الصورى الذى وصفه بالجبن والتواكل . غير أن بعض المؤرخين المحدثين حاول التماس عذر لهذا الحاكم فقيل أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يمكنه من الدخول فى معركة مع قوات زنكى ، كأنه كان واثقا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص٨ (٥٣٩هـ) .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤ .
(٢) ابن القلانسى: ذيل ص ٢٧٩ .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧٩

من قوة استحكامات المدينة واستطاعتها الصمود فترة اطول ريثما يتمكن من استقبال نجدات من الامارات الاخرى والمملكة ، كما أن وجوده بتل باشر يمكنه من قطع النجدات التى قد يلتمسها زنكى من حلب [١] . ومهما كان الامر فجوسلين الثانى لم يكن فعلا على مستوى المسؤلية ذاتها ولم يقدر خطورة الوضع عند الرها ولم يبد اهتماما كبيرا بالدفاع عنها .

وفى مملكة بيت المقدس جمعت الوصية مجلس الحكم لمناقشة موضوع نجدة الرها ففوض اليها المجلس سرعة حشد جيش لهذا الغرض ، ولكن الامر فى انطاكية اختلف اذ أصم ريموند أذنيه عن صرخات جوسلين ولم يحاول أن يفعل شيئا فى الوقت الذى تعرضت فيه الرها للحصار الشديد ، وانتظر جوسلين بقاق تلك النجدات ، ولكن لسوء حظه أن وصلت نجدة المملكة بعد فوات الاوان أى بعد سقوط المدينة فى يد زنكى [٢] .

اما زنكى فقد نشط كثيرا فى محاولةالاستيلاء على المدينة ، وتعجل سقوطها قبل أن ينهض الفرنج لانقاذها ، فأخذ يشرف بنفسه على كل شىء ، وجد النقابون فى أحداث بعض الفجوات فى أسوار المدينة ، الى أن وصلوا تحت أساس أبراج السور ، ووضعوا الاخشاب فى ثقب كبير أحدثوه ، واستأذنوا اتابك فى اطلاق النار فيه ، فدخل إلى الثقب نفسه وشاهده ثم أذن لهم فألقوا النار فيه ، فوقع السور فى الحال ، [٢] ، فاقتحمت القوات الاسلامية المدينة فى

---

(1) Guillaume de Tyr, P. 709
Grousset : op. cit. II. p. 177-8
Runciman : op. Cit. II. P. 235

(2) Runciman : Op. Çit. II. P. 236

(٢) أبن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٩ .

يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١١٤٤م (جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ) وضيقوا الحصار على القلعة حتى استسلمت بعد ذلك بيومين ، ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلو الرجال ، وحصلوا على غنائم وافرة وأسرى كثيرين ، ما سرت به النفوس وابتهجت بكثرته القلوب ، (١) .

وليس من شك فى أن الفرنج فى المدينة هم الذين تعرضوا لتنكيل زنكى وحماسة قواته خاصة من التركمان الذين رأوا أن انزال الضرر بهؤلاء ليس الا انتقاما منهم لما أحدثوه من آلام وقتل للمسلمين من قبل (٢) ، بخلاف ماحدث مع الطوائف الاخرى من المسيحيين الشرقيين (٣) ، التى يظن أن زنكى اراد من احسانه اليها عملية فكسب لقلوبهم لتعمير المدينة والدفاع عنها فى ظل دولته وهى سياسة تنطوى على كثير من الدهاء والمكر ، كما لم يتعرض بالهدم والتخريب إلا لكنائس اللاتين (٤) .

غير أن زنكى ارتأى الحفاظ على هذه المدينه وأن تخريبها ليس من السياسة فى شىء فضلا عما أظهره رجال الدين اليعاقبة من روح طيبة تجلت فى قيام أحد مبرزيهم بتسليم المدينة رسميا إلى زنكى لذا ، نودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والاطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شىء الا الشاذ النادر ، ، وعادت المدينة إلى

---

(١) أبن القلانسى : ذيل ص ٢٨٠.

(2) Lane—Poole Saladin. p. 58

(3) Smail : op. Cit. p. 51

(4) Runciman op. cit II, p. 236-7

حالها الاول دون تأثر كبير بما حدث وشرع زنكى فى إصلاح ما تهدم منها وما أصابه التخريب وجعل فيها عسكرا يحفظها[١] .

وهكذا كانت الرها أول إمارة لاتينية تقام فى هذه المنطقة ، وأول إمارة لاتينية ايضا تسقط فى أيدى المسلمين ، لذا ليس عجيبا أن يسر المسلمون بسقوطها كل السرور ، وغدا لزنكى من الشهرة ما طبق الآفاق وحظى برضى القاصى والدانى [٢] ، مالم يحظ به مجاهد قبله لما اثلج به الصدور وبلسم الجراح ، وحق له أن يزهو بهذا الفتح .

استتبع سقوط الرها الاستيلاء على المدن والحصون التابعة لها خاصة فى شرقى الفرات ، فقد سارع زنكى فى يناير سنة ١١٤٥ م بالاستيلاء على سروج «وسائر الاماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ماعدا البيرة» فنظرا لحصانة البيرة الواقعة على شاطىء الفرات ووفرة المؤن بها وكثرة رجال حاميتها ، صمدت المدينة لحصار زنكى الذى جد فى قتالها ، حتى اشرفت فى النهاية على التسليم لولا انه انصرف عنها بسبب ما حدث فى الموصل حينئذ من فتنة اثارها الب ارسلان بن السلطان محمود أدت إلى مقتل نصير الدين جقر نائب زنكى بالموصل رغبة منه فى الاستئثار بالسلطة فى الولاية ، بتحريض من طغمة من حاشيته ، غير ان هذه الفتنة انتهت بالقبض على ألب ارسلان وسجنه بقلعة المدينة وأناب زنكى بالمدينة الامير زين الدين على كوجك [٣] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٨ - ٩ ( سنة ٥٣٩هـ ) .

(2) Lane-poole : Saladin. p. 47

ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٨١ .

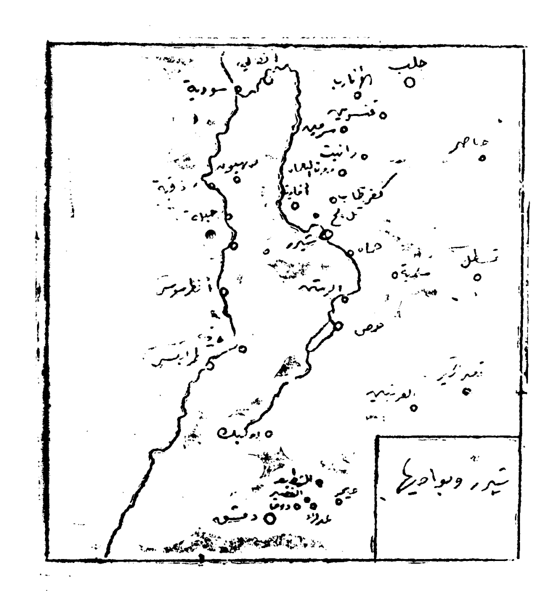
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٥ - ٩٦ .

ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٧٢ .

أما البيرة فقد خشى الصليبيين بها عودة زنكى وقتالهم ، لذا آثروا التسليم لاقرب حاكم مسلم لهم ، وهو تمرتاش الارتقى صاحب ماردين حتى يكفيهم ذلك مئونة التعرض مرة أخرى لهجوم زنكى ، باعتبار تمرتاش تابعا من اتباع زنـــكى [١] . وهكذا حرم جوسلين الثانى من الرها ذاتها والمعاقل التابعة لها فى الجزيرة وقنع بتل باشر وبعض المـــدن والحصون فى الناحية الاخرى من الفرات أهمها سميساط ومرعش ودلوك وعينتاب وعزار . والراوندان [٢] .

---

(1) Cahen : *Artukids* Encyc. Isl.
(2) Runciman : op. cit. II. p. 238



حلب
السويدية
قنسرين
سرمين
صهيون
أفامية
كفرطاب
جبلة
شيزر
حماة
سلمية
الرستن
أنطرطوس
حمص
طرابلس
بعلبك
دمشق
شيزر ونواحيها

## (هـ) اثر سقوط الرها بالنسبة لتداعى الكيان الصليبى فى الشرق

لم يخف أثر سقوط الرها على الفرنج فى الشرق ، فأبدوا أنزعاجا كبيرا لهذا الحدث الذى يحمل فى ثناياه الانذار بقرب النهاية ' ويعطى إرهاصاً ببدء تداعى الكيان الصليبى فى المنطقة ، فطالما حرص الفرنج من قبل على تأمين هذه المدينة والحفاظ عليها من هجمات المسلمين ، وبذل رجالاتهم الأوائل فى المملكة الصليبية والإمارات الأخرى كل عون لبقاء هذه الإمارة كدرع حام لهم فى بلاد الشام ، تتلقف ضربات المسلمين ، وتكسر موجات هجماتهم وتحيلها إلى حوافز قوية للبقاء والثقة فى إمكان التصدى لحركات المقاومة الإسلامية .

وليس من شك فى أن وضع الرها وموقعها وكبر مساحتها وعظم تحصينات المدينة ذاتها كان بمثابة خط دفاعى عن الإمارات الأخرى [1]، وعقبة كبيرة تجاه المسلمين تهدد خطوطهم بين حلب والموصل ، وتقطع تسلسل وحدتهم فى المنطقة بالإضافة إلى أن خطرها كان ماثلا فى كل آن بالنسبة للجهات الإسلامية المجاورة « إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الإسلامية حصنها ' وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلها وطأتهم »[2].

لذلك كله كان سقوطها فى حد ذاته فضلا عن كونه تقويضا لركن أساسى فى

---

(١) Conder The Latin kingdom. P. 38,

(٢) ابن الأثير : التاريخ لباهر ص ٦٧ .

دفاع الفرنج ففيه أيضا اشعار لهم بفقدان الثقة فى إمكان التصدى لهجمات المسلمين وكسر موجات هجومهم .

ولم يكن وقع سقوط الرها قاسيا على فرنج الشام فحسب، بل أحس به العالم المسيحى فى أوروبا والغرب أيضا، وأعتبر ذلك تحد لمشاعره وصدمة كبيرة لآماله، وتأكدوا أن الامور لاتجرى طبيعية فى الشرق ، فظهرت حركة تهدف إلى القيام بحمله صليبية جديدة (١) .

غير أن ذلك لم يحجب الحقيقة فى شىء وهى أن الكيان الصليبى نفسه قد أخذ يتهالك ويضمحل ، وهذه أول النهاية (٢) ، ولم يمض على سقوط الرها أكثر من أربعين عاما حتى كانت المملكة الصليبية نفسها فى بيت المقدس قد تهاوت تحت ضربات الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وبدا أن النفوذ الصليبى فى المنطقة المغتصبة قد أخذ ينحسر تدريجيا ، ويلقى تضييقا شديد فى هذه الجهات .

وقد راجت أحاديث وقصص كثيرة فى الوسط الاسلامى على أثر سقوط الرها ، أشار ابيها ابن الاثير ، رغم مافيها من بساطة تصل حد السذاجة إلا أنها عبرت تعبيرا دقيقا عن فرح المسلمين فى العالم الاسلامى كله فى المشرق والمغرب بسقوط إمارة الرها الصليبيه وترجمت بصدق أحاسيس المسلمين وإنطباعاتهم بالنسبة لهذا الحدث الفريد .

فيذكر أن صاحب صقلية المسيحى ، كان عنده عالم مسلم ، من أهل الصلاح ، يجله ويقدمه ويحترمه ، وتصادف أن أرسل هذا الأمير بعض سفنه فى البحر إلى الشاطىء الافريقى فأغارت على جهات طرابلس الغرب فسبت ونهبت وقتلت وعادت ، وعندئذ استدعى العالم المسلم وقال له شىء من التهكم ، أين كان محمد

(١) Runciman: op. Cit. 11 P.238

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. V. P. 207

عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له : كان غاب عنهم وشهد فتح الرها، وقد فتحها المسلمون الان ... فضحك من كان معه من الفرنج ، فقال الملك لا تضحكوا فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها » [١] .

ويذكر ابن الأثير أيضا أن « إنسانا صالحا رأى الشهيد ( زنكى ) فى النوم فقال له : مافعل الله بك ؟ قال : غفر لى بفتح الرها »[٢] .

وقد حملت هذه الأحاديث والقصص فى الحقيقة معنى الفرح والبشر الذى ساد أوساط المسلمين فى كافة البقاع ، فسقوط الرها كان حدثا ضخما فى ذلك الوقت لأنها معقل من معاقل الكاثوليكية ، ولأنها كانت بقعة من الغرب المسيحى وسط الشرق الإسلامى ، هددت طرق القوافل التى تمر عبرها إلى شتى بقاع البلاد الاسلامية [٣] .

وكان سقوطها أول ثغرة نفذ منها المسلمون إلى غيرها من البلدان الصليبية وأول لغم وضع فى أساس البناء اللاتينى فى الشرق [٤] ، فـلا عجب أن يظهر المسلمون فرحهم لذلك كله .

ولم يغال أولئك الذين جعلوا من وقوع دمشق فى يد نور الدين محمود بعد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٩ ( سنة ٥٣٩ هـ ) .
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .
(٣) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٣٧ .
(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ذلك يقابل نتيجة حتمية من نتائج سقوط الرها [1] ، فقد قلب هذا الحدث الميزان فى صالح المسلمين دون شك وغير من استراتيجية الحرب بين الجانبين الاسلامى والصليبى فدانت ربوع الشام لامير واحد يتصف بالقوة والطموح ، استتبعه ظهور قوة أخرى على مسرح الاحداث هى قوة الايوبيين بزعامة صلاح الدين بما يحمله هذا الاسم إلى الذهن من معنى فى قصة الجهاد الاكبر .

ورغم هذه النتائج الكبيرة المترتبة على سقوط الرها ، والتى لا نشك أبداً أن زنكى كان يعى أكثرها ويعرف فائدتها بالنسبة لدولته وللمسلمين قاطبه ، ولمن يخالفه خاصة ولوضع الفرنج بالشام بعدها ، فلا زلنا نجد من يذهب إلى القول بأن إسقاط الرها لم يكن موضوعا فى سياسة زنكى أو يمثل ركنا فى اتجاهاته حينئذ أو هدفا رئيسيا فى مشروعاته [2] ، أى أن هذه الضربة جاءت خبط عشواء لم يقصد منها زنكى كل تلك النتائج .

وأبلغ رد على ذلك ما سبقت الاشارة اليه من أن زنكى وضع هذا المشروع فى مخططة وفى سياسته ربما منذ سنة ١١٤٠ م حينما قرر الانصراف إلى البلاد الجزرية وديار بكر فى محاولة لتطويق هذه الإمارة اللاتينية وتقليم أظفارها ، بل أنه تظاهر بالانصراف عنها إلى فتوحاته فى المنطقة حتى كانت الفرصة مواتية فالتهمها دفعة واحدة قبل أن ينهض الفرنج لانقاذها ، وقد عبر ابن الاثير عن ذلك بقوله : « فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم » [3] .

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. V. 307

(٢) Camb, Med, Hist. Vol V 307

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٦٧ .

ومهما كان الأمر فالذى يعنينا من ذلك كله أن سقوط الرها سواء قصده المسلمون أم جاء تمشيا مع الاحداث ونتيجة طبيعيـــه لازدياد قوة زنكى واتساع نفوذه فانه كان بمثابة ضربة قاصمة للصليبيين وفى الشرق على حد سواء ، حدد بداية النهاية للاستقرار اللاتينى كله فى المنطقة وبداية التداعى للبناء الصليبى كله فى بلاد الشام .

## (و) نهاية زنكى

شغلت إضطرابات الموصل زنكى عن المضى فى قتال الصليبيين لكنه مع ذلك أرسل فى مارس سنة ١١٤٥ م ( رمضان سنة ٥٣٩ هـ ) جيشا « وافر العدد من طوائف التركمان والاجناد ، لمحاربة الجيوش الصليبية التى كانت قد قدمت لانجاد الرها ولم تتفرق بل عسكرت قرب أنطاكية فهاجم المسلمون المعسكر الصليبى « وأوقعوا بمن وجدوه فى أطرافه ونواحيه وفتكوا به فرحل فى الحال »[1] .

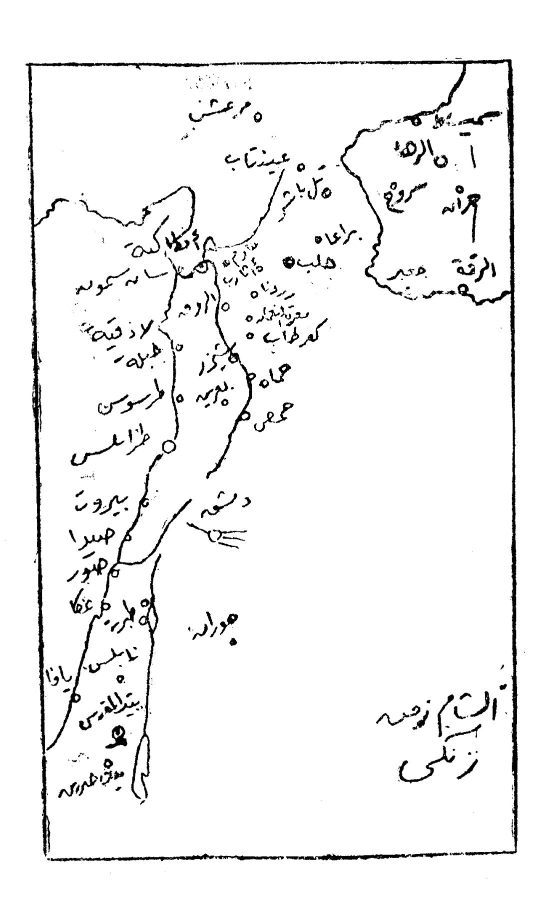
وفى العام التالى تهيأت الفرصة لزنكى للعودة إلى الشام لاستئناف مشروعاته هناك ، فقصد حلب فى مايو سنة ١١٤٦ م ( أواخر سنة ٥٤٠ هـ ) ولكنه لم يعلن عن غرضه هذه المرة وعن مشروعه المقبل ، لذا شاع أنه عزم على استئناف الجهاد ، وراجت أنباء من ناحية أخرى أنه « ربما قصد الاعمال الدمشقية والنزول عليها » ، غير أنه لم يمض فى هذا أو ذاك نظرا لما حدث بالرها ، إذ تناهى اليه نبأ مؤامرة دبرها الارمن لإعادة الرها إلى جوسلين فاهتم بانهاء هذه الفتنة وتتبعها ، وقام نائبه بالرها بالقضاء على المتآمرين والتخلص منهم واستتبع ذلك بطبيعة الحال إنزال بعض العقاب بالارمن « وقوبلوا على ذلك بما يقابل به من يسعى فى الارض بالفساد من القتل والصلب والتشريد فى البلاد »[2] .

ويبدو أن زنكى كان يهدف قبل اندلاع هذه الفتنة إلى القيام بالجهاد ضد

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٨٠ .

(٢) نفسه ص ٢٨٢ .



مرعش
عينتاب
تل باشر
الرها
سروج
حران
الرقة
حلب
انطاكية
لاذقية
جبلة
طرسوس
طرابلس
حماه
حمص
بيروت
صيدا
صور
عكا
طبرية
نابلس
يافا
بيت المقدس
دمشق
حوران
الشام زمنده زنكى

الفرنج فى بيت المقدس ذاتها، أو لعمل حربى كبير ضد دمشق، بدليل أنه اهتم كثيراً بالاستعدادات العسكرية فى بعلبك جنوبى حمص «من عمل المناجيق وآلة الحرب وما يحتاج اليه لتذليل كل ممتنع صعب ، فلما تغيرت الخطط وأعيدت المناجيق إلى ناحية حمص من بعلبك » [١] ، وارتأى التحول إلى من ساوره الشك فى تحالفهم مع الفرنج ضده ، فبينما نزل على قلعة جعبر واشتد فى الهجوم عليها، سير جيشا آخر إلى قلعة فنك قرب جزيرة بن عمر وصاحبها حسام الدين الكردى البشنوى ، وفى تعليل الهجوم على هذا الامير يرى ابن الأثير أن زنكى رغب فى «الا يكون فى وسط بلاده ماهو ملك غيره حزما واحتياطا » [٢] .

أما قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات والتى كانت بيد سالم ابن مالك العقيلى فقد شك زنكى فى علاقة بين هذا الامير وبين الفرنج، لذا اهتم بانتزاعها من يده وسار بنفسه وبجيشه وفرض عليها الحصار فى أغسطس - سبتمبر سنة ١١٤٦ م ( ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ ) [٣]، ونشط فى الهجوم عليها لكنها صمدت. وطال الحصار لهذه القلعة ، مما دفع زنكى إلى أن يرسل حسان صاحب منبج إلى أميرها لمودة كانت بينهما - وقال له زنكى قبل أن يسير إلى القلعة «تضمن عنى الاقطاع الكثير والمال الجزيل فان أجاب إلى التسليم وإلا فقل له والله لاقيمن عليك إلى أن أملكها عنوة ثم لا أبقى عليك ، ومن الذى يمنعك منى ؟ » [٤] . نقل

---

(١) نفسه ونفس الصفحة
(٢) إبن الأثير الكامل ج ٩ ص ١٢ ( سنة ٥٤١ هـ ) .
(٣) إبن القلانسى : ذيل ص ٢٨٤ .
(٤) إبن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٢ ( سنة ٥٤١ هـ ) .

حسان هذه الرسالة فكان رد ابن مالك « يعنى منه الذى منعك من الأمير بلك » إشارة إلى أغتيال بلك بن بهرام وهو محاصر قلعة منبج سنة ١١٢٤م ، وفعلا لم تمض أيام حتى اغتيل أتابك زنكى على يد أحد غلمانه يدعى برنقش ذكرت بعض الروايات أنه كان أفرنجيا قربه زنكى ووثق به ، فاشترك مع بعض الغلمان وأغتاله على فراشه وهو نائم فى ربيع الآخر سنة ٥٤١ ﻫ ( سبتمبر ١١٤٦ م ) وتركوه وهربوا إلى قلعة جعبر ، يقول ابن الأثير « حدثنى والدى عن بعض خواصه قال: دخلت اليه فى الحال وهو حى فحين رآنى ظن أنى أريد قتله فأشار إلى باصبعه السبابة يستعطفنى ، فوقفت من هيبته فقلت : يامولانا من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه » [1] .

وعلى هذه الصورة إنتهت حياة هذا المجاهد الكبير ، ووضعت هذه المؤامرة حدا لنشاطه ، وحرمت قضية الجهاد منه بعدما وهبها سنوات طويلة من كفاحه ، وكان على وشك أن يستأنف المقاومة من جديد بعد أن عرف كيف يضع نفسه على الطريق ويعطى للجهاد نصيبه من الأهمية ، ولكن شاء القدر أن يلقى نهايته على هذه الصورة التى ربما كانت أقل منها فداحة لو أنه مات وهو منازل حصنا للفرنج وليس حصنا بيد المسلمين المنحرفين ولكنه مع ذلك لم يمت إلا بعد أن حقق مالم يستطع المجاهدون قبله تحقيقه ، ومالم يستطيع الصليبيون فى الشرق أو فى الغرب أن ينالوا منه .

ويرجع الفضل فى إستقامة الامور بالموصل لسيف الدين غازى أكبر أبناء

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٣، التاريخ الباهر ص ٨٥ - ٨٦ .

زنكى الرجال الأوفياء فى دولته ، وخاصة الأمير على كوجك الذى أسرع باستدعاء غازى وإقامته أميرا على الموصل، بينما سار الأمير سوار والأمير صلاح الدين الياغسيانى ومعهما الأخ الآخر نور الدين محمود فنصباه أميراً على حلب[1].
وهكذا لم تذهب جهود زنكى وكفاحه الطويل هباء ، بل آلت دولته إلى أبنائه، بينما انتهت محاولة الملك الب أرسلان بن محمود السلجوقى للاستيلاء على السلطة فى الموصل عقب مقتل زنكى بالفشل [2] ، وخلصت الدولة التى خلفها زنكى لابنائه غازى ومحمود .

وفى النهاية يحق لنا أن نتساءل ماهى الأسس التى استمد منها زنكى دعامة حكمه وحوافز نجاحه ، خاصة ضد الفرنج الواقع أن ثمة أشياء تتعلق به هو شخصيا وبسياسته وحسن استفادته من الظروف المحيطة كان لها فضل فيما أحرزه هذا الحاكم من نجاح وما حققه من نصر .

ففيما يختص به شخصيا ، فقد أجمعت المراجع على ذكر تحليه بمجموعة من الصفات قلما تتوفر فى حاكم واحد منها الشجاعة الفائقة والهيبة والذكاء وحسن الرأى ، وقوة العزم وقلة التلون وعلو الهمة والطموح ، وكلها صفات ساعدته على تسيير دفة الأمور بنجاح فى دولته الممتدة المتسعة مع بصيرة باختيار الرجال ومدى الثقة بهم « كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم فلا يرفع أحداً فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه » [3] وقد أفاض المؤرخون

---

(١) إبن القلانسى : ذيل ص ٢٨٥ .
(٢) إبن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٥ - ٨٦ .
(٣) إبن الأثير : التاريخ الباهر ص ٧٩ .

وكتاب التراجم في شرح هذه الصفات وعرض دلائلها مما يؤكد أن لها جانبا من الفضل فيما حققه زنكي من نجاح وما أحرزه من تقدم .

أما فيما يختص بسياسته ، فقد سار على نهج كفل له إستمرار سير الأمور بدولته بشيء من الدقة والنظام والضبط وأعطاه في نفس الوقت فرصة الالتفات لمشروعاته ضد الفرنج . فقد اهتم ببث العيون في كل مكان ليقف على أحوال الإمارة قريبها وبعيدها ، وكانت له عيون في البلاط السلجوقي ذاته يوافونه بالاخبار أولا بأول ولذا كان يعرف نوايا السلطنة وإتجاهاتها ويكيف نفسه طبقا لذلك كما اهتم بتعمير إمارته وحسن إدارتها فكانت البلاد قبله خرابا « فعمرها فامتلأت أهلا وسكانا » [1] ، وليس من شك في أن ذلك منحه إمكانيات بشرية ومادية ساعدته على تنفيذ مشروعاته ، كما أنه حرص على منح قواده ومقدمي جيشه إقطاعات ثابتة تشجيعاً لهم على الاستمرار في جيشه ، ونقل طائفة من التركمان وأسكنهم بولاية حلب « وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيرا من السواد ... ولم يزل جميع ما فتحوه في إيديهم إلى نحو سنة ستمائة » [2] كما أنه نفذ سياسة اللامركزية في الشئون المالية والاقتصادية فقد أودع الأموال بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب وقال : « إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه أستعين على سد هذا الخرق بالمال الذي في غيره » ، ولا شك أن في هذا بعد نظر وحصافة رأى وضح اثرها في اكثر من مناسبة خلال الفتن التي تعرضت لها دولته في الموصل [3] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٣ ( سنة ٥٤١ هـ ) ؛

(٢،٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٠ .

أما عن حسن استفادته من الظروف المحيطة ، فليس من شك فى أن زنكى كان أكثر حساسية لما يجرى حوله خاصة فى المشرق هناك فى فارس أو فى بغداد، وكان دائم التطلع إلى الاستفادة من الاوضاع التى تنجم عن الخلاف الناشب بين أقطاب تلك المنطقة ومحاولة التحرر من ربقة الدولة السلجوقية والخلافة العباسية، كما أنه كان سريع التأثر بما يحدث فى دمشق ودائم الرغبـــة فى تملكها محاولا الاستفادة من كافة الظروف التى تمر بها والخلافات التى تنشأ بين حكامها، وأيضا متحفزاً لانتهاز أية بادرة توحى بنصر ونجاح وغلبة على الجانب الصليبى ، وهو ما منحه فرصة الإستيلاء على الرها لدأبه التحفز والترقب وحسن أختيـــار الوقت المناسب .

كل هذا جعل زنكى حاكما ممتازا يقظا نهازا للفرص حريصا على مصالحه ومصالح المسلمين فى المنطقة وأوجد فقده فراغا كبيرا ، وافتقدته قضية الجهاد الدينى بصفة خاصة ولكن مع هذا كان أبناؤه وخلفاؤه عوضا عن الخسارة التى منيت بها القضية ،فقد أعطوها ماهى فى حاجة اليه للاستمرار والانطلاق مترسمين خطى هذا المجاهد الكبير .



# خاتمة

تلك هى حركة الجهاد الدينى فى النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى وجهود المسلمين فى مقاومة غزو الصليبيين لمنطقة الشرق الادنى واستقرارهم ببعض جهاتها والمحاولات الاسلامية لطرد هؤلاء المغتصبين وتطهير المنطقة من شرهم ، وذلك على مدى نصف قرن من الزمان ، قبل أن يظهر نور الدين محمود ليقوم بدوره فى الجهاد ومن بعده الناصر صلاح الدين الأيوبى .

ولعل دراسة هذا الموضوع دراسة مدققة قد أوقفت الباحث على كثير من خبايا هذه الفترة الزمنية ، وكشفت له عن التيارات التى ماج بها الشرق فى ذلك الوقت ، والنزعات التى سادت بين أمرائه وغالبية شعبه ، وكلها أوضحت بما لايدع مجالا للشك أن هذه الحقبة بالذات كانت من أقسى الحقب التى مرت بالمسلمين على مدى تاريخهم الطويل ، ومن أكثر العهود آلاما بالنسبة لسكان هذه البلاد ربما لايفوقها فى القسوة الا محنة الغزو التترى التى تعرض لها المسلمون فى هذه المنطقة بعد ذلك بنحو قرن ونصف من الزمان ، ولذلك لم يكن بوسع الباحث أن يطوى الحديث عنها قبل أن يفيض فى تناول استيلاء المسلمين على الرها وبداية النهاية للصليبيين وبداية تداعى بنيانهم فى الشرق ليكون ذلك بمثابة عملية تعويض معنوى ومتنفس لجميع الاحاسيس والمشاعر التى أرهقت طوال الانكباب على تدارس تفاصيل تلك الحقبة المريرة من التاريخ .

ومن النتائج العديدة التى يخرج بها دارس هذا الموضوع والتى نوهت أحيانا بما كان يطفو منها الى السطح خلال الكتابة ، أسجل مالم يتسع المقام لتسجيله من قبل أو الذى يفرض نفسه كانطباع ثابت غير متأثر بالتفاصيل .

ربما من المعاد أن أقول أن المسلمين شهدوا فى تلك المرحلة بالذات موجة من الانقسام والتفتت والكراهية والبغضاء لونت علاقاتهم فيما بينهم ، ما فاق أى عصر آخر ، ولهذا جاءت مماناتهم على أيدى الصليبيين نتيجة حتمية لكل ذلك ، ليس هذا فى الواقع بجديد ، فالنزعة الانفصالية والانقسام السياسى والاتجاه الانعزالى لم يكن وليد تلك الساعة وانما كانت نذره قد بدت قبل ذلك بزمن طويل ، منذ أن ضعفت الخلافة العباسية وعجزت عن الاحتفاظ بوحدة أراضيها وبسلطتها على الاقاليم التابعة لها ، فانسلخت معظم أملاكها عن سلطانها وشهدت ظهور دويلات صغيرة فرضت بواقع وجودها وضعا غريبا فى كيان الدولة الاسلامية الكبيرة ، وهذا الاتجاه معروف لمتصفح تاريخ المسلمين فى هذه المنطقة أى أن الانقسام السياسى لم يكن هو الامر الجديد وانما الأخطر منه ماعرفه المسلمون حينئذ من انقسام مذهبى بين السنة والشيعة ، وما أستتبعه من محن بين أنصار هذين المذهبين وقيام الخلافتين السنية فى بغداد والشيعية فى القاهرة بالتنافس على زعامة العالم الإسلامى الامر الذى عانى منه المسلمون كثيرا ، ثم عرفوا نوعا من الانقسام العرقى بين العرب والترك ( تركمان ) والاكراد وغيرهم ممن هجت بهم المنطقة فى ذلك الوقت ، وكل ذلك كانت نتائجه سيئة بالنسبة للمسلمين جميعا .

وكان المتوقع أن يبادر المسلمون أمام الزحف الصليبى ثم أمام الاستقرار الصليبى ذاته الى التجمع ونبذ التشاحن والفتن وتغليب الصالح العام على المصالح الذاتية ولكن للاسف لم يحدث شىء من ذلك بل إن قضية الجهاد الدينى التى غدت الشغل الشاغل لبعض رجالات السلاجقة المتحمسين فى هذه الفترة لقيت كثيرا من العداء والتنكر من جانب بعض الامراء المسلمين أفقدها فى بعض أدوارها حوافز الانطلاق ومقومات النجاح .

ويبدو أن تجربة التعرض للخطر لم تستطع أن تمحو فى سنوات قليلة رواسب الانقسام الذى عرفه المسلمون منذ سنوات طويله ، فاستفاد الصليبيون لاشك من ذلك وفرضوا استقرارهم وجعلوه أمرا واقعا وازدادوا بمرور الايام ايمانا بشرعية ما اغتصبوه وضرورة الحفاظ عليه ، وحينما بدت بادرة الاتحاد بين المسلمين فى شمال العراق وشمال الشام على عهد زنكى ، سرعان ما تهاوت أمامه أول امارة لاتينية وأكثرها خطرا على المسلمين وأقواها اثرا فى تداعى البنيان الصليبى كله . ومن هنا وضح أهمية الاتحاد ووضع المصالح الاسلامية العليا فوق المصالح الفردية الذاتية وفوق الميول الانعزالية والانفصالية التى آمن بها حفنة من أمراء المسلمين فى ذلك الوقت لازال التاريخ يكشفهم ويندد بهم .

ومن أهم ما استرعى انتباه الباحث فى احداث المقاومة الإسلامية للصليبيين فى هذه الفترة أن الجيوش الإسلامية التى قدمت للجهاد من المشرق حينما أعيتها الحيل أمام حصانة الرها ، ولم تستطع النيل من الصليبيين عن طريق اسقاط هذه الإمارة فى الشمال تحولت بقضها وقضيضها الى الجنوب الى مملكة بيت المقدس ذاتها وذلك فى حملة مودود الثالثة سنة ١١١٣م ، وكأنهم أرادوا الإجهاز على رأس الحية فى بيت المقدس بعد فشلهم فى النيل من ذيلها فى الرها ، وهم بذلك كانوا يخطون خطوة كبيرة فى فكرة الجهاد الدينى ضد الصليبيين ويحدثون تطورا هاما فى اتجاه الحرب المقدسة ضد هذا الخطر أوضحت أنهم قامـــوا فى بعض أدوار المقاومة بتجربة كافة الوسائل للنيل من هذا العدو ومحاولة انقاصه من أطرافه أن لم يكن ذلك فى الشمال فلا بأس من محاولة اسقاطـــه من مركزه فى الجنوب ، ورغم كل ذلك لم يصبهم النجاح المرتقب ، لما صادفهم من عقبات ومعوقات فى هذه الحلقة المتقدمة فى قصة الجهاد الدينى قبل سقوط الرها .

على أن الشيء الذي يحز في النفس حقا ويدعو الى الاسف هو أن الدراسة الدقيقة لأحداث هذه الحقبة أظهرت أن المصاعب التي مرت بها الامارات اللاتينية أحيانا والظروف الدقيقة التي عانتها من آن لآن والتي كان يمكن أن تسفر عن اقتلاع جذورها نهائيا، قابلتها انتكاسات في الجانب الاسلامي أعاقت المجاهدين عن الإستفادة من تلك الظروف وتوجيه ضربات قاضية الى ذلك الكيان الذي بدأ في بعض الاوقات وكأنه يترنح ويوشك أن يتداعى .

والأدلة على ذلك كثيرة لعل أهمها على سبيل المثال ما حدث بعد انتصار مودود على قوات بلدوين الاول عند جسر الصنبرة سنة ١١١٣ ، وقضائه على معظم جيش بلدوين وزهرة شباب المملكة الصليبية ، فلو أتيح لمودود أن يردف هذه الضربة بغيرها ويتابع نشاطه ضد المملكة ، فلربما استطاع اسقاطها أو على الاقل النيل منها وإصابتها باضرار جسيمة ، ولكن الذي حدث أن الظروف سرعان ما تبدلت واغتيل مودود بعد ذلك بقليل ، وعلى يد من ؟ على يد المسلمين أنفسهم وبتحريض من أحد أمرائهم ، وحينما خلفه في قيادة الحرب الدينية البرسقي ثم برسق فانهما لقيا من عداء المسلمين أكثر مما لقيا من عداء الفرنج .

وحينما استطاع ايلغازي التركماني في سنة ١١١٩ أن يعصف بامارة انطاكية ويقتل أميرها روجر ويقضي على جيشها قضاء مبرما في موقعة البلاط ( ساحة الدم ) نجده سرعان ما ينصرف عن متابعة أعماله الى ما استجد من أحداث في جبهة المسلمين في شمال العراق ، الأمر الذي مكن انطاكية من أن تقف على أقدامها من جديد وإعطاءها فرصة النجاة مرة أخرى.

وحينما تخلو الامارات اللاتينية في انطاكية والرها ومملكة بيت المقدس من أمرائها وحكامها بمقتل روجر ووقوع جوسلين وبلدوين الثاني في أسر بلك

الارتقى سنة ١١٢٢ ، سنة ١١٢٣ ، ويصبح وضع الصليبيين بالغ الخطورة أمام استمرار بلك متابعة جهوده ، إذا ببلك يدفع حياته ثمنا لسهم طائش ومن يد من ؟ من يد مسلم مثله ، جعله يثور حتى وهو يسلم الروح قائلا : « هذا السهم قتل المسلمين كلهم » .

وحينما يتمكن زنكى من اسقاط الرها ويستعد لإستئناف العمل من جديد إذا به يقتل أيضا بتآمر من صاحب قلعة صغيرة من قلاع المسلمين لا من قلاع الفرنج .

وهكذا أعطت هذه الإنتكاسات للصليبيين فرصة موالية للبقاء ومنحتهم أكثر من مرة النجاة ما قد يعصف بهم ، وفى هذا تصوير لمدى ذروة الفشل والإضمحلال والضعف الذى شهده الجانب الإسلامى وقتذاك .

إذن لم يكن نجاح الصليبيين فى غزو هذه المنطقة والإستقرار ببعض جهاتها ونجاحهم أيضا فى مدافعة المسلمين فى هذا الدور — قبل سقوط الرها — والحفاظ على ما اغتصبوه لم يكن مرده إلى قوتهم بقدر ما كان نتيجة طبيعية لضعف المسلمين حينئذ وما أصاب جهودهم من معوقات وانتكاسات حالت دون اصابة النجاح والتفوق .

ولكن مع هذا فقد تهيأ للصليبيين وخاصة فى بيت المقدس رجال من أمثال بلدوين الأول وبلدوين الثانى وفولك استطاعوا أن يسيروا دفة الأمور فى المملكة بنجاح وأن يتصدوا للمحاولات الإسلامية فى شىء من العناد والمثابرة أفقد حركة المقاومة جانبا كبيرا من فاعليتها وكثيرا من مقومات انطلاقها ، كما استطاعوا أيضا أن يدعموا أسس المملكة فى بيت المقدس ويمنحونها القوة ويعطونها الصدارة بالنسبة للامارات الاخرى ، وطالما تمتعت المملكة بهذا المركز

طالما نجحت فى تأكيد سيادتها وقيامها بدورها وواجباتها تجاه الصليبيين جميعا ، فلما تداعت المملكية فى بيت المقدس اهتز الكيان الصليبى كله وسقطت الرها ذاتها والخط الدفاعى الأول عن الامارات الاخرى فى بلاد الشام .

على أن الصليبيين لم يعدموا وسيلة فى هذه الفترة وقبل سقوط الرها فى الدفاع عن أنفسهم وحماية مكاسبهم بشتى الوسائل ، بالتجمع عند الإحساس بالخطر ، وكذلك بالإستفادة الدائمة من أخطاء المسلمين فى هذه المرحلة ، كما حرصوا على بقاء طريق البحر مفتوحا ليكونوا على صلة دائمة بالغرب الأوربى ، وجاهدوا للاستيلاء على أغلب الموانى والمدن الساحلية من أجل ذلك ، كما أستقبلوا الجماعات الآتية من الغرب للحج ودأبوا على إغرائها بالإستقرار الدائم والاستفادة من انخراطها فى الجندية كامكانيات بشرية تفيدهم فى تلك الظروف ، كما استفادوا كثيرا من وجود المسيحيين الشرقيين من السريان والأرمن ووجدوا فيهم عونا كبيرا فى بعض مشروعاتهم وخاصة فى الشمال ، كما حرص الصليبيون دوما على أن يكونوا على الجانب الأسلم ، وذلك بالاستيلاء على القلاع والحصون التى تشرف على الإمارات الإسلامية الكبرى كحلب ودمشق والموصل لمراقبـــة اتجاهات المسلمين ونواياهم ، وقد عانت حلب ودمشق كثيرا من وجود الصليبيين بقلاع وحصون قريبة كانت بمثابة نقط ارتكاز وانطلاق للعدوان الصليبى ، وفى نفس الوقت كانت أداة تحذير للصليبيين تنقل لهم كل جديد فى جبهة المسلمين ، ولهذا دارت معظم المعارك الكبيرة بين الجانبين فى تلك المرحلة بسبب تلك القلاع والحصون والمدن الصغيرة .

وبعد تلك هى أهم الانطباعات التى تأثر بها الباحث بعيدا عن التفاصيل وبعيدا عن زحمة الاحداث ، بمثابتها أهم نتائج هذا الموضوع ، ولو أن أهم

من ذلك كله الاقتناع الكامل بأن قضية الجهاد الدينى فى هـذه المرحلة المتقدمة ، كانت فعلا بحاجة إلى فهم أعمق مما أبدته بعض القوى الإسلامية فى المنطقة ، لأن افتقادها ذلك الفهم الصادق جعلها تتأرجح أحيانا بين حوافز النجاح ومعوقات الفشل وأعطى دارسها شعور الاثارة والتلهف وأحيانا الإشفاق، وكلها أحاسيس الباحث الذى أقدم على تتبع هـذه القضية وفى تصوره رصيـدا أكبر من الفهم الواقعى لحدود وأبعـاد هذه القضية يدفع به شبهة السطحية والسلبيـة الكامـلة عن المسلمين تجاه الغـزو والإستقـرار الصليبى فى منطقـة الشرق الأدنى فى ذلك الوقت .



# اولا - المراجع العربية

## المطبوعات :


ابن الاثير ( عز الدين أبو الحسن على الجزرى ) :

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل ( تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ )

ـ الكامل فى التاريخ ( طبعة مصر سنة ١٣٤٨ هـ )

ابن الجوزى ( أبو الفرج عبد الرحمن بن على ) :

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ( حيدر أباد سنة ١٣٥٩ )

ابن خلدون ( عبد الرحمن بن محمد ) :

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ( بولاق سنة ١٢٨٤ هـ )

ابن خلكان ( شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد بن أبى بكر ) :

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ( تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة سنة ١٩٤٨ )

ابن العبرى ( غريغوريوس الملطى ) :

ـ تاريخ مختصر الدول ( طبع الآب أنطون صالحانى اليسوعى - بيروت سنة ١٨٩٠ )

ابن العديم ( كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى ) :

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ( تحقيق سامى الدهان - بيروت سنة ١٩٥٤ )

ـ منتخبات من بغية الطلب فى تاريخ حلب ( مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج ٣ )

ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن) :

- التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق ( طبع روضة الشام ١٣٣١ هـ )

ابن العماد ( عبد الحى بن أحمد ) :

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ( القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ )

ابن الشحنة( أبو الفضل محمد) :

— الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ( تحقيق يوسف بن إليان سركيس - بيروت سنة ١٩٠٩ )

ابن القلانسى ( أبى يعلى حمزه ) :

— ذيل تاريخ دمشق ( تحقيق آمدروز - بيروت سنة ١٩٠٨ )

ابن ميسر( أبو عبد الله محمد بن على ) :

— أخبار مصر ( تحقيق وتصحيح هنرى ماسيه - القاهرة سنة ١٩١٩ ) .

ابن ناصر ( صدر الدين ابو الحسن على ) :

— أخبار الدولة السلجوقية ( تحقيق محمد إقبال - لاهور سنة ١٩٣٣ )

ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم ) :

— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ( تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٥٣ ) .

ابن الوردى (أبو حفص زين الدين ) :

— تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى (القاهرة سنة ١٨٦٨)

أبو شامه ( شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسى ) :

— الروضتين فى أخبار الدولتين ( تحقيق الدكتور محمد حلمى احمد - القاهرة ١٩٥٦ )

أبو صالح الارمنى ( النصرانى ) :

— تاريخه ( طبع اكسفورد ١٨٩٥ نشر - B.T.A. Evelts )

أبو الفدا ( الملك المؤيد اسماعيل ) :

— منتخبات من المختصر فى اخبار البشر ( المجموعة - المؤرخون المسلمون ج١ )

أبو المحاسن ( ابن تغرى بردى ) :

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ( طبع دار الكتب - القاهرة ١٣٥٢ - ١٩٣٣ )

أسامة بن منقذ :

— كتاب الاعتبار ( تحقيق فيليب حتى - برنستون - الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ )

الاصفهانى ( عماد الدين محمد ) :

— تاريخ دولة آل سلجوق ( مصر سنة ١٩٠٠ - ١٣١٨ هـ )

الانصارى ( أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الإنصارى الدمشقى ) :

— نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ( نشره مهرن A.Mahren بطرسبورغ سنة ١٨٦٥ )

البندارى ( الفتح بن على بن محمد البندارى الاصفهانى ) :

— مختصر تواريخ آل سلجوق ( تحقيق هوتسما ليدن سنة ١٨٨٩ )
الخطيب البغدادى ( أبو بكر أحمد بن على )

— تاريخ بغداد ( طبع مصر سنه ١٣٤٩ - ١٩٣١ )
الذهبى ( الحافظ شمس الدين أبو عبدالله ) :

— العبر فى خبر من غبر ( تحقيق فؤاد سيد - القاهرة سنة ١٩٦١ )
الراوندى ( محمد بن على بن سليمان الراوندى ) :

— راحة الصدور وآية السرور - نشر اقبال ( نقله إلى العربية الدكتور الشوارب وآخرون القاهرة ١٩٦٠ )
الفارق ( ابن الأزرق ) :

— تاريخ الفارق ( تحقيق بدوى عبد اللطيف - القاهرة سنة ١٩٥٩ ) .
المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

— سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاه ( تحقيق محمد كامل حسين — القاهرة سنه ١٩٤٩ )

المقريزى ( تقى الدين أحمد بن على ) :

— اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا ( نشر الدكتور الشيال - القاهرة سنة ١٩٤٨ ) .

— اغاثة الامـــة بكشف الغمة ( نشر الدكتور زيادة والدكتور الشيال القاهره ٥٧ )

مجموعة الوثائق الفاطمية ( نشرها الدكتور الشيال ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ )

مختصر تواريـــخ الارمن ( نقله من الارمنية إلى العربية القس انطون خانجى أورشليم سنة ١٨٦٨ )

اليافعى ( أبو محمد عبدالله بن أسعد ) :

— مرآة الجنان وعبرة اليقظان ( حيدر أباد سنة ١٣٣٨ هـ )

ياقوت ( شهاب الدين أبو عبدالله الحموى ) :

— معجم البلدان ( طهران سنة ١٩٦٥ ) .

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس لمؤرخ المجهول ( نقله إلى العربية الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ )

أحمد ابراهيم الصابونى :

تاريخ حماه ( حماه سنة ١٣٣٢ هـ )

باكر ( آرنست ) :

— الحروب الصليبية ( ترجمه الدكتور العرينى ـ سنة ١٩٦٠ )

الدكتور حسن الحبشى :

— الحرب الصليبية الاولى ( القاهرة سنة ١٩٥٨ )

— نور الدين والصليبيون ( القاهرة سنة ١٩٤٨ )

الحلبى ( محمد بن راغب ) :

— كتاب أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ( حلب سنة ١٣٤٣ ـ ١٩٢٥ )

زامباور ( أدوارد فون ) :

— معجم الانساب والاسرات الحاكمة ( أخرجه الدكتور زكى محمد حسن وآخرون القاهرة سنة ١٩٥١ )

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

— الحركة الصليبية جزءان ( القاهرة ١٩٦٣ )

— قبرس والحروب الصليبية ( القاهرة ١٩٥٧ )

— أوربا العصور الوسطى - جزءان ( القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٣ )

الدكتور السيد الباز العرينى :

— الشرق الاوسط والحروب الصليبية ( القاهرة ١٩٦٣ )

الدكتور عمر كمال توفيق :

— مملكة بيت المقدس الصليبية ( الاسكندرية ١٩٥٨ )

الدكتور محمد جمال الدين سرور :

— النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ( القاهرة ١٩٦٤ )

دائرة المعارف الاسلامية ( الاجزاء المترجمة ) .

## المخطوطات :

ابن أيبك ( أبو بكر بن عبد الله ) :

— درر التيجان وغرر تواريخ الازمان ( تصوير شمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ )

ابن الجوزى ( أبو الفرج عبد الرحمن بن على ) :

— شذور العقود فى تاريخ العهود ( تصوير شمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩٤ تاريخ )

جمال الدين الوزير ( أبو الحسن على بن كمال الدين ) :

— أخبار الدول المنقطعة ( تصوير شمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٩٠ تاريخ )

الدبيثى ( أبو عبدالله محمد بن سعيد بن يحيى ) :

— ذيل على ذيل تاريخ بغداد ( مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٣٤٨ ج )

سبط بن الجوزى ( شمس الدين أبو المظفر يوسف ) :

— مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ( مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٢٧٦ ح )

السلامى ( شهاب الدين احمد ) :

- مختصر التواريخ ( مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٠٥١ تاريخ)

-- --

# ثانيا : المراجع الاوروبية


Arnold : (Thomas. W.)

The Caliphate. Oxford, 1924.

Browne: (Edward. G.)

Account of a rare, if not unique, manuscript hist. of the Seljuqs.

J. R. A. S. July 1902.

Cahen : (Cl.)

La Syrie du Nurd à l'epoque des Croisades. Paris, 1940.

Cambridge Medieval History. Cambridge, 1957.

Chalandon: (Ferdinand)

Histoire de la premiere Croisade, Paris 1925.

Conder (C. R.)

The Latin Kingdom of Jerusolem. London, 1897.

Encyc. of Islam (English Vols.)

Gesta Francorum

Translated into English by Somerset de Chair. England, 1945.

Grousset: (René)

— Historire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem. Paris, 193 .

— Histoire de l'Armenie. Paris 1947.

— L'empire du levant. Paris, 1946.

Lane—poole: (S.)

— A history of Egypt in the middle ages. London. 1924.

— Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. London 1898.

Le Strange: (Guy)

The lands of the Eastern Caliphate Cambridge, 1930.

**Recueil des Historiens des Croisades. (Paris, 1841—1906).**

— **Decuments, Armenis 2 Vols.**

— Historiens Grecs, **2 Vols.**

— Historiens Occidentaux, 5 Vols.

— Historiens Orientaux, 5 Vols.

Runciman: (S.)

A history of the Crusades, Cambridge, 1957.

Setton. (K.M.)

A History of the Crusades, Pennsylvania, 1958.

Stevenson: (W. B.)

The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.



# كشاف

(ا)

( ث )

(خ)

(د)

(غ)



(ف)



(ق)

( ك )

# المحتوى



## الفصل الأول

### أوضاع العالم الاسلامي في المشرق قبيل وصول الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٧ الى الشام

صفحة

صفحة

## الفصل الثاني

### البذور الاولى لحركة الجهاد الديني



## الفصل الثالث

### السلطان محمد السلجوقي والجهاد

صفحة

صفحة

## الفصل الرابع

### عماد الدين زنكي والجهاد الديني
### ١١٢٧ - ١١٤٤ م

صفحة

**دار الهدى للمطبوعات**

شارع ١٠٠٨ خلف ش جمال عبد الناصر

ميامى ـ ارض المعلمين

امام مؤسسة عبد الرازق